



صفحة قلب

الكتاب:صفحة قلب

المؤلف: محمد سهيل حسان

الطبعة الأولى 2020

ISBN 978-91-89273-05-4

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية:2020-12-20-58

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، فاستراء جوتالند

هاتف: 0046790185518

digitizethearabicbook.com البريد الإلكتروني:

جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو
تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل
من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا
تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن
المحتوى



صفحة قلب

"يا مُحَمَّد، عِش ما شئت فَإِنَّكَ مَيِّت، وأحبب من شئت فَإِنَّكَ
مُفارقة"

هذه كلماتُ قالها جبريل عليه السَّلَام لِنَبِيِّنا محمد صلى الله عليه
وسلَّم قبل أكثر من ألف و أربعمئة عام،
أراه قد لَخَّص الحياة بمجملها بهاتين العبارتين !!

محمد سهيل حسان

إهداء،

إلى من لولاه بعد الله، لما ابتلت أوراقى بحبر الكلمات، ولما كتبت
الشعر ونظمت الأبيات.

إلى من علمني كل شيء، وأعطاني كل شيء.
إليك أبي..

وإلى من ألفتها مرّة باكيةً في مُصلاها، ولمّا سألتها عن سر
دمعاتها، نظرت إلى السماء طويلاً ثمّ قالت: " يارب، لمن سأترك
هذا الصّغير عندما أفارق الدّنيا؟"

هاهو ذاك الصّغير يهديك اليوم هذا الكتاب،
إلى أمي رحمها الله..

الفصل الأول

أواخر شهر آذار وفي فترة ما يُسمى الاعتدال الربيعي
يتهافتُ الناسُ إلى الشواطئِ والمنتزَحاتِ دومًا، عدانا هنا في رام
الله، التي كانت بحدِّ ذاتها أحدَ أجملِ الأماكنِ التي يقصدها النَّاسُ،
فكانوا يقصِدونَ الحدائقَ في النهارِ، وعندَ الليلِ كانوا يرتدونَ
معاطِفَ رقيقةَ لتحميهم من نسيمِ هوائها العليلِ الذي كان لا يخلو
من البرودة، لكِ اللهُ يا رامَ اللهُ، فلولا شباكِ طوقكِ به الاحتلالُ
لنافستِ باريسَ التي يسحرُ الزُورَ جمالها، لتفوّقتِ على روما
وعراقِتها، لكنَّ هذهِ المدنَ لنَ تَبْلُغَ يوماً ما بُلغتهِ، بأنفتكِ،
بشموخكِ و أصالتكِ، حُقَّ لي أن أفخرَ أني أحدُ أبنائك، كم كنتُ
أشعرُ بالاعتزازِ عندما كنتُ أقرأ لافتهً مُعلّقةً على بلديتِك تُشيرُ
إلى أنَّ القدسَ تبعدُ عن المكانِ الذي أقفُ فيه أربعةَ عشرَ
كيلومترًا، قشعريرةٌ كانت تغزو أطرافِي حينَ أقرأ هذهِ اللَّافتهِ،
كنتُ أستشعرُ قُربَ هذهِ المدينةِ التي لم تكن بعيدةً يوماً عني أو
عن أيِّ مسلمٍ أو نصرانيٍّ، فقلوبنا معلّقةٌ بمسجدنا الأقصى وكذلك
قلوبهم، وتتعلّقُ قلوبهم بكنيسةِ القيامةِ وكذلك قلوبنا، إنَّ وقفتُ
يوماً على سطحِ بنايةٍ مرتفعةٍ، ستقعُ عينك على تلكِ الشمسِ التي
تسطعُ في جوفِ الليلِ، لم تطلعِ الشَّمسُ من مغربها مؤذنةً بوقتِ
النهايةِ بعد، لكنّها قبةُ الصخرةِ هي تلكِ الشمسِ الساطعةِ في تلكِ
العملةِ المُطبقةِ.

كانت تلتفتني حينها تلكِ التجمّعاتِ الثقافيةِ التي كانت تُقيمها بعضُ
النخبِ المثقفةِ برعايةِ وزارةِ الثقافةِ وكنتُ دائمَ المشاركةِ فيها،

فبُحِمْ مِهْنَتِي وَهِيَ الصَّحَافَةُ، وَبِحُكْمِ عِشْقِي وَنَهْمِي وَهُوَ الشِّعْرُ
كُنْتُ دَائِمَ التَّوَاجُدِ فِي تِلْكَ المَلْتَقِيَاتِ، وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ دَعَانِي
صَدِيقٌ لِلْمِشَارِكَةِ بِأَمْسِيَةِ شَعْرِيَّةٍ وَبِخَاصَّةٍ أَنَّ فِرْقَةَ شَمْسِ الحَرِيَّةِ
لِلدَّبَكَةِ سَوْفَ تَكُونُ مُشَارِكَةً فِيهَا، شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ التَّوَامَةِ
مَوْجُودَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذِهِ الفِرْقَةِ، زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الفِرْقَةَ بِهَا
مَنْ بِهَا مَمَّنْ يَعْنُونَ لِي الكَثِيرِ، فَلَبَّيْتُ دَعْوَةَ صَدِيقِي وَجَمَعْتُ مَا
فِي جُعبَتِي مِنْ قِصَائِدٍ اخْتَرْتُهَا حَتَّى أَلْقِيهَا عَلَى الحُضُورِ،
فَتَوَجَّهْتُ مَبْكَرًا إِلَى القَصْرِ الثَّقَافِيِّ حَيْثُ سَتَقَامُ الأَمْسِيَّةُ، وَبَدَأَ
المِشَارِكُونَ بِالتَّوَافِدِ سِوَاءَ كَانُوا شُعْرَاءَ أَوْ حُضُورًا أَوْ أَفْرَادًا مِنْ
قَتَوَاتِ البَيْتِ المَحَلِّيَّةِ.

بَدَأَ الحَفْلُ وَكَانَ صَدِيقِي يوسُفُ هُوَ مَنْ يُقَدِّمُهُ بِصَوْتِهِ الجَهْوَرِيِّ
الإِذَاعِيِّ الَّذِي تُنْصِطُ لَهُ الأَذَانُ مُرْغَمَةً، فَشَكَرَ الحُضُورَ وَمَنْ لَبَّى
الدَّعْوَةَ مِنْ مَنْسُوبِي وَزَارَةِ الثَّقَافَةِ وَبَدَأَ يَشْرُحُ كَيْفَ سَنُقْضِي
سَهْرَتَنَا، حَيْثُ سَيَتَنَاوَبُ الشُّعْرَاءُ وَكُنْتُ أَحَدَهُمْ عَلَى إِقَاءِ القِصَائِدِ
لِيَتَخَلَّلَ الأَمْسِيَّةَ بَعْضُ رَقِصَاتِ الدَّبَكَةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ عَلَى أَنْعَامِ
الشَّبَابَةِ وَالبِيرغُولِ، تُوَدِّيَهَا فِرْقَةُ "شَمْسِ الحَرِيَّةِ"، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا
الحَفْلُ الكَرِيمُ سَنَسْتَقْبِلُ شَاعِرَنَا الأَوَّلَ الَّذِي لَطَّالَمَا أَبْهَرْنَا بِشِعْرِهِ
فِي كُلِّ المُنَاسِبَاتِ، لِيَتَفَضَّلَ الشَّاعِرُ "هَشَامُ المَاضِي" لِيُطْرَبَ آذَانَنَا
بِأَبْيَاتِهِ الشِّعْرِيَّةِ، عِنْدَمَا ذَكَرَ يوسُفُ اسْمِي دَقَّ قَلْبِي فَلَمْ أَتَوَقَّعْ أَنْ
أَكُونَ أَوَّلَ الشُّعْرَاءِ إِقَاءً، فَعَلَى الرِّغْمِ مِنْ مِشَارِكَتِي فِي العَدِيدِ مِنْ
النَّدَوَاتِ وَالأَمْسِيَّاتِ الشِّعْرِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الأَمْسِيَّةَ كَانَتْ لَهَا رَهْبَةٌ

في قلبي وكأني أترقب مفاجأة سوف تحدث، فتقدمت إلى المنصة
وقلت: أيها الحفل الكريم كم يسرني المشاركة مع جمعكم وكم
سرني أن أكون أول الشعراء إلقاءً، ستكون مشاركتي عبارة عن
فكرة بأن أخلق سجلاً شعرياً مع بعض من الشعراء والذين
بينهم حي وميت، فقد يموت الشاعر وتبقى أبياته حية إلى الأبد،
فلقد مات أبو الطيب المتنبي، لكن بيته الذي قال فيه :

الليل والخيل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
لم يمُت ولن يُنسى أظنه أو يندثر يوماً.

أثناء تصفحي لأحد الصحف قرأت مقالاً كان عنوانه "غنت
فيروز"، جذبني العنوان فأكملت قراءة المقال والذي كان مطلعهُ
"الآن الآن وليس غداً أجراسُ العودة فلنقرع"، كان هذا شدو
فيروز في أغنية لها عن القدس، فردّ عليها الشاعر نزار قبّاني
قائلاً :

من أين العودة فيروز	والعودة تحتاج لمُدفع
عفواً فيروز ومعدرة	أجراسُ العودة لن تُقرع
خازوق دُقّ بأسفلنا	من شرم الشيخ إلى سعسع

فأجابهم الشاعر تميم البرغوثي :

عفوا فيروز ونزار	فالحال الآن هو الأفظع
إن كان زمانكمما بشع	فزمان زعامتنا أبشع
أوغاد تلهو بأمّتنا	وبلحم الأطفال الرضع

والموقع يحتاج لشعبٍ
والشعب الأعرل مسكينٌ
والشعبُ يحتاجُ المدفَع
مِن أينَ سيأتيكَ بمدفَع

كان هذا المقالُ الصَّحفي الذي قرأته والذي بثَّ داخلي الحماسة
أن أشاركهم سجالهم هذا،
فأجبتهم :

عَفَوا بَلْ عُنْرا كُلكُم
رَقَصْ هَمَجِيَّ وَغِناءَ
يا صخرُ الأرضِ ألا تبكي
تَنهَشُ مِن لَحْمِ عُرُوبَتِنَا
عُنْرا فَيُرُوزُ وَنِزارُ
فالقَوْمُ اليومِ إذا خافوا
في مَخدَعِ ذَلَّتِهِم نَامُوا
يا أُمَّةَ مِليارِ قُومِي
قَدْ جَاءَ اليومُ وَها أَنِتي
يا أُمَّةَ مِليارِ قُومِي
أَلقَدُسُ عروسُ عُرُوبَتُكي ؟
ذَا نَهْرُ النِيلِ وَذا بَرْدِي
يا نَهْرَ الأردنِ هلْ تبكي ؟
يا يَمَنًا قَدْ كُنْتَ سَعِيدًا
لِتَعُودَ شَمالًا وَجَنُوبًا
فالحالُ اليومَ هُوَ الأَفْطَعُ
وَكَلامُ اللهِ فلا يُسْمَعُ
مِنَ حَالِ وَحُوشِ لا تَشْبَعُ
والعَظْمُ يَهشِمُهُ مَدْفَعُ
لا أدري عُنْري هلْ يَنْفَعُ
ذَهَبُوا لِلنَّومِ بِذا المَخدَعُ
في وَقْتِ أذانِ لا يُرْفَعُ
يَوْمًا قَدْ كُنْتَ في المَطْلَعُ
في خانِ مِثْلِ المُسْتَوْدَعُ
ما حُقَّ لِمِثْلكِ أنْ تَرَكَعُ
أَمْ باتتِ وَقْتًا مُسْتَقْطَعُ ؟
قَدْ صارتِ مِثْلَ المُسْتَقْعُ
أَمْ هذا المَلْحُ مِنَ المَنْبِعُ
جَاوُوكِ بِحَرْبِ لِنُقْطَعُ
وَتَينَ طَويلاً كَئِ تَرْجَعُ

أَنْتُنَّ الشَّمْسُ إِذَا تَسَطَّعَ
أَيْنَ الأَجْرَاسِ لَنَا تُقْرَعُ!
أَمْ فِي صِنْعَاءِ وَفِي يَنْبَعِ !
يَا قَدَسَ الأَقْدَاسِ سَنَرِجُ
لِرِجَالِ مَسِيرَتِنَا الأَرْوَغُ
قَدْ ضَاعَ الأَفْصَى بَلْ أَفْطَعُ
قَدْ ضَاعَتْ حَظِينُ أَتَسْمَعُ ؟
إِنْ نَبْغِي شُهَدَاءَ نُرْفَعُ
هَلْ جُرْسُ العُودَةِ تَسْتَطَّعُ؟
أَغْفَلْتُمْ أَنَّا لَا نَرْكَعُ
فَالْقُدْسُ سَنَبْقَى مَنْ تَجْمَعُ
فَالرَّحْمُ سَيَعْدُو كَالْمَصْنَعُ
يَوْمَ التَّحْرِيرِ وَلَا تَهْجَعُ
وَتَظَلُّ بِنَادِقُنَا تُرْفَعُ
تَبْقَى فِي الحَرْبِ وَلَا تَرْجَعُ

بَغْدَادَ عُدْرًا وَجَنِينَ
عُدْرًا فَيَرُوزُ سَأْسَأَلِكِي
هَلْ فِي بَغْدَادِ وَدِمَشقِ
يَا شَامَ تَعَالِي وَانْتَفِضِي
وَالآنَ سَأَخْتِمِ فِي عُدْرِ
عُدْرًا فَارُوقُ مَحَبَّتِنَا
عُدْرًا يَا يوسُفُ أَيُّوبُ
يَا قَدَسُ سَتَبْقَى قَبْلَتِنَا
أَصْوَاتُ طَنِينٍ فِي أذُنِي
أَعْدَائِي مَهْلًا إِنْكُمْ
إِنْ كُنَّا يَوْمًا نَخْتَصِمُ
فِنِسَاءِ القَدْسِ إِذَا حَمَلْتُ
كَيْ يَصْنَعُ أَبْطَالَ تَبْغِي
سَنَظَلُّ نَثُورَ لِيَنْدَجِرُوا
فَالعُودَةُ تَحْتَاجُ رِجَالًا

أنهيتُ قصيدي، فوقفَ الحُضورُ جميعًا في موقفٍ مهيبٍ و تسابقَ
للتصفيقِ كلُّ من في اللقاء، فنزلتُ عن المنصةِ مُنثشيًا من جمالِ
اللحظةِ التي عشتها، وعندما شارَفَ الحفلُ على نهايتهِ وعندَ
صعودِ فرقةِ الدبكةِ للمسرحِ كي يُودعُوا الحُضورَ، أوقفني رجلٌ

كنت أرى بعينه نظرة إعجاب عند إلقاءي للشعر، فاقترَب مني مُصافِحًا،

- أنا زاهي فتحي، أعملُ مُستشارًا ثقافيًا لدى مُلحقية فلسطين الثقافية في الجزائر.

- تشرّفتُ بمعرفتك، لابدَّ أنَّ الجالية الفلسطينية في الجزائر تعجُّ بالمواهِب، أليس كذلك؟

- نعم لدينا الكثيرُ من المواهبِ هناك وفي شتى المجالات، فالأمُّ الفلسطينية قادرةٌ على إنبابِ العُظماءِ من مُثَقِّفين ومُناضلين، قادةٍ وأدباء.

- بالطبع هي قادرةٌ

هل أنت في إجازة أم أنك في مهمّةٍ وظيفيّة؟

- دعنا نشاهدُ رقصة الدبكة هذه ثمَّ سأخبرك بسببِ زيارتي.

لم يكن يدرِ السيّد زاهي أنّي أنا من تهّمهُ مشاهدة الرّقصة، فعصفورتِي إسرائُ هي بطلنّها، فقدموا رقصتَهُم بنجاحٍ فصقّق لهم السيّد زاهي ثمَّ قال: الآن سأخبرك بسببِ مجيبي لفلسطين ولم رأيتني هنا بالذات، بدايةً لقد جنّتُ إلى فلسطين لأني مُشتاقٌ لها، وثانيًا: لقد جنّتُ في مهمّةٍ وظيفيّةٍ كما وصفتّها،

- أهلاً بك في بلادك سيدي، لكن ما هي هذه المهمّة؟

- هذا بيتُ القصيد، فكما تعرفُ فإنّ ذكرى يوم الأرض سوف تحلُّ في الأيام القليلة القادمة ونرغبُ أن تُشاركنا الحفلَ الذي سنُقيمُه في سفارتنا بالجزائر مواهبُ تعيشُ

في فلسطين، فأنت لا تعلم كم يكون لهذا الأمر من رمزية عند الجالية الفلسطينية هناك بل وعند الحضور من أهل الجزائر، وقد شاركت في هذا الحفل باحتراف عن هذه المؤهبة، وسرعان ما وجدت ضالتي لديك، فقد كنتم خمسة شعراء أقيمت قصائدكم الليلة، لكن قصيدتك وأسلوبك في الإلقاء جعلاني لا ألتفت إلى بقية الشعراء، وكان طارقاً ما قرع باب قلبي فوق اختياري عليك لتشاركنا في احتفالنا، كذلك أفتت نظري تلك الفرقة التي قدمت الدبكة، فقد شاهدت كثيراً من الفرق سواء في فلسطين أو في المهجر، إلا أن هذه الفرقة ميّزها إحساس أعضائها فكنتم أشعرهم تدمع أعينهم على أهزيج الربابة وكان واضحاً عليهم مدى تأثرهم بما يقدمونه، هو لم يكن مجرد رقص وحركات استعراضية فحسب بل كانت أشبه برسالة حب لم تكن بالكلام، بل كانت بأيديهم وهي تحمل علم فلسطين، لا أخفيك كنت سعيداً جداً لمشاركتي بهذه الأهمية الرائعة.

- يخونني إحساسي وتعجز حروفي عن شكرك على إحساسك الراقى وأتمنى أن تكون عند حسن ظنك بنا.
- بلى سوف تكونون يا هشام، إجمع لنا أجمل قصائدك لمناسبة كهذه، وسأقوم بالاتصال بأعضاء فرقة الدبكة لدعوتهم للمشاركة.

- اترك هذه المهمة عليّ فكلّهم أصدقائي.

قمت بعدها بإيصاله للفندق بسيّارتي ودعوته للغداء في منزلي في اليوم التالي، ليتذوّق طعام والدتي منقطع النظير. وصلنا الفندق فدعاني إلى غرفته كي نتناول القهوة فقبلت دعوته وصعدنا إلى الجناح الذي يقيم فيه.

- يا هشام، أنا لم ألتقيك قبل هذا اليوم ومعرفتي بك عمرها لم يتجاوز الساعتين، أنت شاب رائع وشاعر مبدع، لن أتحدّث عن ذلك الحزن الذي أراه في عينيك، فهذا الحزن يستوطن أعيننا جميعاً كما يستوطن هؤلاء الأعراب بلادنا، ولن أتحدّث عن اندفاعك وتسرعك الذين لحظتهما أثناء قيادتك للسيارة، فديّ ابن في مثل سنك ليس شاعراً لكنه يملك ذات اندفاعك، ما أودّ الحديث عنه هي تلك النظرة التي تتفحص ملامح وجهي كلّما زُغت بنظري عنك، وكأني بك تريد أن تقول كلاماً أو تسأل سؤالاً ولا يُطيعك لسانك.

- أنت على حقّ، فأنا كنت أطيّل النظر إليك ولم أكن أرغب أن أثير ريبتك، أيعاب على الإنسان أن يُعجب بشخصية إنسانٍ ما ويحاول تقليده!، هو شيء قد يُطلق عليه اسم قدوة، وأنا في غاية الأسف إن كانت نظراتي إليك قد أزعجتك.

- على الرغم من عدم اقتناعي بما قلته، لكن تفضل وأكمل قهوتك،

- صدقت سيدي، فلم ألتقيك سوى مرة واحدة، فمن أين لي أن أقع في غرام شخصيتك!، وكيف أعتبر شخصاً عرفته منذ ساعتين قدوة لي!، إما أن أكون دجاجاً أو أهوجاً مُتسرِّعاً، لعل الوصف الثاني أهون على نفسي أن تتقبله، فالطيشُ والتسرُّع أخف وطأة على النفس من الدجل والنفاق، لكن في الحقيقة هو لم يكن هذا أو ذلك، لم أقل الحقيقة حين أخبرتك أنني اعتبرتك قدوتي وأصبحت أنت، لكن سبب نظراتي التي أثارت الريبة في نفسك هو هاجسٌ يلزمني منذ الصغر، هو منادٍ يطلُّ عليّ يأتي ليخبرني أن هناك شخصاً سيتسلل إلى حياتي فيقلبها رأساً على عقب، شخصٌ سوف يغيّر مسار حياتي، أراها خرافةً أحياناً وكذبةً في بعض المرات، لكنني يروفي تصديق تلك الكذبة والإيمان بتلك الخرافة، ربّما لأنّ هذه الخرافة التي اصطنعها عقلي الباطن على الأغلب هي باعثٌ للأمل في رُوحِي، فمن الجميل أن تترقّب أملاً ومفاجأةً من غريبٍ في كلِّ وقتٍ، لو تأملتُها لوجدتها أفضل من حقائق كثيرة نعيشها، سيأتي مُتشدِّقٌ ليقول: أن تكون تعيساً في الواقع خيرٌ من أن تعيش سعيداً بسبب كذبة، وسأردُّ أنا : لا يا سيدي فقد يصحُّ كلامك إن كانت كذبةً من صديقٍ، قريبٍ

أو حبيبٍ على سبيلِ المُجاملَةِ ربّما، لكنّ هذه الكذبة أنا
أخْتَلَقْتُهَا لِنَفْسِي ولم أتلَقَّها من أحد، وأنا سعيدٌ بها وأرى
أنّها لن تُضُرَّنِي إن لم تُنْفَعَنِي، فَمِنَ الأَجْدَرِ بِي أَنْ أُخْتَلِقَ
لِنَفْسِي سَعَادَةً افتِراضِيَّةً على أن أعيشَ تَعِيسًا بانتظارِ ذاكِ
الواقعِ المُبهِمِ الذي يَحْمِلُ في طَيَّاتِهِ عدَّةَ سيناريُوهَات، إن
فكَّرْنَا بِمُعْظَمِهَا سَنَقَعُ فِي فَخِّ الحُزْنِ وشَرَكِ اليأسِ.

هكذا هي النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ تَنْتَظِرُ الحُزْنَ وتَتَوَقَّعُ الأَلَمَ مِنْ كُلِّ مَا هُوَ
مُغِيبٌ، لذلكِ دَعَانَا اللهُ أَنْ نُحْسِنَ الظَّنَّ دَوْمًا وَأَنْ نَبْتَدِعَ عن
التشاؤمِ، قالَ ذلكِ في كتابِهِ وأكَّدَ عليه رسوْلُهُ الكَرِيمُ في سُنَّتِهِ،
لنْ أَدَّعِي أَنَّ اللهُ ورسوْلُهُ دعونا لأنْ نَكْذِبَ على أنفُسنا، حاشى
لله، لكنَّها طَريقَةٌ مِنِّي لِتَسْمِيئِهَا حَمَقَاءَ إن شئتَ لِأَدْخِلَ إلى نَفْسِي
سَعَادَةً مع جِرعَةٍ مغذِيَّةٍ مِنَ الأملِ، يُرِيحُنِي أَنْ أُنْتَظِرَ هَذَا الإنسانَ
لِيُغَيِّرَ حَيَاتِي لِالأفضلِ!، يُسَعِدُنِي أَنْ أَعِيشَ هذه السعادةَ المأمُولَةَ،
التي أُنْتَظِرُها مِنْ شَخْصٍ رَبِّمًا لن يَأْتِي، وَرَبِّمًا تَكُونُ هذه الفكرةُ
مُجَرَّدَ أَصْغَاتِ أَحلامٍ أو كَمَا يُسَمُّونَهَا أَحلامِ اليَقْظَةِ، كنتُ أُنْتَظِرُ لكِ
سَيِّدِي لَعَلِّي أَرَى في مَلامِحِكَ رسالةً أو خَبْرًا مُفْرِحًا على أَقلِّ
تَقْدِيرِ، وَلسْتُ وَحْدَكَ مِنْ أُنْتَقَدَ نَظْرَتِي هذه، فَكثيرونَ مَمَّنِ
التقيثهم في حَيَاتِي رِجالًا ونِساءً سألوني عن هذه النِّظرةِ،
فالرِّجالُ يَظُنُّونَ أَنَّنِي بِحَاجَةٍ لِمُساعدَةٍ وَأَسْتَحِي أَنْ أَطْلُبَها، وبعضُ
النِساءِ تَظُنُّ أَنَّها نَظرةٌ غيرُ بَرِينَةٍ، نَظرةٌ شابِّ مُراهِقِ لِفَتاةٍ
جَمِيلَةٍ، عُدْرًا سَيِّدِي وَعُدْرًا سَيِّدَتِي، فلا أَرجو مِنْكُمْ إِسْداءَ خِدمةٍ

وَلَا أَنَا مِمَّنْ يَتَحَرَّشُونَ بِالنِّسَاءِ فِي الطَّرِيقَاتِ، "أنا أسبحُ في وادٍ غيرِ واديكم"، لكن هل سيأتي ذاك الغائب المنتظر!!، هل سيصدقُ ذاك المُنادي؟ أم أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا أَصْلًا لِنَتَحَرَّى صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ، لكن لا بأس سواءً صادقًا كانَ أم كاذبًا هذا الحلمُ فوجوده في خيالي ومُغازلته لبناتِ أفكاري يروِّقني كثيرًا، وبشأن الاحتفال فسأخبرُ والدتي بأمره وأقنعها أن توافقَ على سفري، مؤلمٌ أن تكونَ شابًّا في الثلاثين من عمرك وتُعاملك أمك على أنك في السادسة!، ليست هذه حالةٌ شاذةٌ عندَ الأمهاتِ، القاعدةُ الشاذةُ هي أن لا تهتمَّ لأمرِكَ حتى لو بلغتِ الستين.

لم تكن أمي عقبه في طريقي هذه المرة بالتحديد، فلعلها قالت في نفسها "لأدعه يسافرُ فيحققُ حلمه في زيارةِ الجزائرِ ويرفقه قليلًا عن نفسه"، وهي لن تكونَ موجودةً معي في الأيامِ المقبلة لأنها ستذهبُ لتبقى بجانبِ أختي التي تسكنُ في الخليل، وقد اقتربَ موعدُ ولادتها، فهاتفتُ زملائي ودعوتهم أن يأتوا إلى منزلي لتناولِ طعامِ الغداءِ في الغدِ، وطلبتُ منهم أن يجلبوا جوازاتِ سفرهم معهم، فسألوني عن سببِ طلبِي وقالوا: وهل تلزمُ الجنسيةَ لدعوةِ الغداءِ يا هشام!، فلم أشأ أن أخوضَ معهم في جدالٍ وقلتُ لهم: أحضروها فحسب.

فحضروا جميعاً في اليومِ التالي فرحبتُ بهم وقلتُ: المنزلُ منزلِكُم، يجبُ أن أذهبَ أنا لإحضارِ السيدِ زاهي المُستشارِ في الخارجيةِ فكلُّكم مدعوون على شرفه، فذهبتُ وأحضرتُه وعدتُ

للمنزل لأجد أمي تجلس مع أصدقائي، وكعادتها أيضاً تجلس
إسراء بجوارها وتُعدِّقُ عليها الحنان والاهتمام.

لازلت تذكّرِينَ يا أمي يومَ ولادةِ إسراء، كنتُ طفلاً يومَها أبلغُ من
العُمرِ خمسَ سنواتٍ، يومَها قلتُ لكِ ببراءةِ طفلٍ: "أريدُ أنْ أطلبَها
للزواجِ، فأنا أُحبُّها"، فَضَحِكْتَ يومَها أمي وقالت: إِنَّهُ الحبُّ مِنَ
النظرةِ الأولى إِذَا!، ذَهَبَتْ تِلْكَ الأيَّامُ وكَبِرْنَا و صِرْتُ أرى إسراءَ
أمامي تكبرُ يوماً بعدَ يومٍ، وها نحنُ الآنَ على بُعدِ خمسِ
وعشرينَ سنةٍ منَ يومِ ميلادِها، مرَّت بنا الأيَّامُ بضحكاتٍ
ودمعاتٍ، أفراحٍ وأحزانٍ، ضحكنا في عيدِ ميلادِها العشرينِ
وبعدها بأيَّامٍ بكينا لوفاةِ والدها، وفرحنا في يومِ تخرُّجِها منَ
الجامعةِ، وتمكَّنَ الحزنُ منَّا عندَ وفاةِ أخيها ساجدٍ، كنتُ دوماً
بجانِبِها في أفراحِها وأتراجِها، كنتُ أحمي ضحكتها كمن يحمي
كنزاً ثميناً من الألباسِ، وكنتُ أمسحُ دمعَها عن وجنتِها بمناديلِ
الحريرِ خوفاً من أنْ يُخدشَ هذا الخد، فأنا تكفيني مُصيبةُ سَمَاحي
لدمعَها بالنزولِ أصلاً، فضلاً عن أنْ أَسبَبَ بِجريمةِ خدشِ خدِّها.
أحدٌ في الدنيا لمْ يَعْلَمْ بِذاكِ اليومِ الذي رَفَعْتُ فِيهِ الحِجابَ عن
شفتي ولساني، يومَ قُلْتُ لَهَا: أنا أُحبُّكِ يا إسراءَ، أذكرُ أَنَّها
صَفَعَتني يومَها، وكانت أجملَ صَفْعَةٍ أَتَلَقَّها في حياتي، فلمْ
تَصْفَعني لَأَنَّها انزَعَجَتْ مِمَّا قُلْتُه كَمَا ظَنَنْتُ أَنَا في بدايةِ الأمرِ،
فَتَأَسَّفْتُ عَمَّا بَدَرَ مِنِّي ورجوتُها أنْ تعذرني على جُرأتي ووقاحتي
وتقبَّلَ أسْفِي، فَقالَتْ لي: يبدو أَنَّكَ تُريدُ صَفْعَةً أُخرى؟

- لا يا إسراء، تكفيني الصَّفعةُ الأولى، ولكنِّ لِمَ تُريدينَ أنْ
تصْفَعيني هذهِ المرَّة!!

- لأنَّكَ لا تفهَم يا هشام، نَعَم لا تفهَم، كانَ يُفترضُ بِكَ أنْ
تبوحَ بهذا الاعترافِ من سنّواتٍ، وأخيراً نطقتَ بهذهِ
الكلمةِ التي كُنْتُ دائماً أقرأها في عينيكَ، لِمَ كنتَ مصِراً
على كتمانها طوالَ الوقتِ؟، كم سنةً أُخرى كانتَ تُلزِمُكَ
لتنطقَ بها!؟

- كنتُ أخشى أنْ لا تتقبَّلِي حَيِّ بطريقةٍ أو بأخرى فأخسركِ
أو أنسببَ في إبتعادكِ عني، وهذا شيءٌ أنا لا أُطيعُه.

الكلُّ من حولنا كانوا يجهلونَ هذهِ اللحظةِ التي أخبرتُكِ فيها
بمشاعري، الكلُّ حتّى أقربهم إلينا، فكَم مرَّةً لمحتُ لي أمي بفكرةِ
الارتباطِ بِكِ، لكنني كنتُ أرفضُ وأتفنَّنُ في الإنكارِ، ولستُ أدري
مَذا كانَ سببُ إنكارِي، فلو أنني أقررتُ لأمي مرَّةً واحدةً بهذا
الحبِّ لكانَ أزواجاً منذُ زمن.

الكثيرُ من الغموضِ يكتنفُ شخصيَّتي، فأنا أحبُّ هذهِ الفتاةَ ولا
أبالغُ إن قلتُ أكثرَ من نفسي، وفي الوقتِ ذاتهِ فأنا أنكرُ على كلِّ
مَن يُواجهني أو يقومُ بمجرّدِ التلميحِ لهذا الموضوعِ، والأغربُ
من ذلكِ أنكَ كانتَ تُعجبكِ الفكرةُ ولم تُلحني عليَّ يوماً بالزواجِ،
ربّما أثرتُ علينا القصصُ والرواياتُ الغراميةُ التي نُدمنُ
قراءتها، وقد يكونُ لأفلامِ السّينما ومُسلسلاتِ التلفزيونِ دورٌ في
جعلنا نبحثُ عن ذلكِ الحبِّ الخفيِّ الذي ينبذهُ الأهلُ بشكلٍ كبيرٍ

إلى أن نصل إلى أن نجمع في نهاية الرواية، لكن إن كان حبنا روايةً فما سيكون عنوانها؟، هل نسميها " تهمّة الحب "، كلاً ليست تهمّة، وإن كانت كذلك فنحن نعرّف بهذه التهمّة ونطالب بسرعة القصاص، أم هل نطلق عليها " حبّ بلا أمل "؟، أيضاً لا يليق بحبنا إسم كهذا، فيوماً بعد يوم يزداد الأمل في قلبك كما في قلبي، سأترك هذه الرواية التي يكتنفها غموض الكون بلا عنوان، لنترك للزمن فرصة كتابة عنوانها، فأنا لست أهلاً لكتابته، فما كان يُعجبني من الروايات سوى تلك التي تنتهي نهايةً مأساويةً مؤلمةً، لا أتمنى مثلها لقصتي و إياك.

أذكرُ ذات يومٍ أنّ أمي ألحّت عليّ بمسألة الزواج وذكرت لي إسراء على وجه الخصوص، فقلت لها حينها أنا لا أفكر الآن في الزواج،

- هل تعرّض على الزواج أم تعرّض على العروس؟

- أعرّض على كليهما يا أمي، أرجوك كُفّي عن إلحاحك هذا،

فقلتُ لي يومها: كما تُريدُ يا ولدي، لكن سيأتي يومٌ وسترجوني أن أخطبها لك و لن أوافق وقتها، تذكّر كلماتي هذه.

- لا تقلقي، لن يأتي هذا اليوم.

فضحكت وقالت سنرى، كانت تقولُ هذا الكلام وهي تعلم جيداً أيّ منزلةٍ لإسراء في قلبي.

فوصلت ومعى ضيفى؁ اقدم لكم السيد زاهى فتحي اءء كبار
الدبلوماسيين فى الخارجفة الفلسطينية.
اهلاً بك يا سيد زاهى؁ هكذا قالت أمى؁ فقام المجانين كما يحلو
لى دائماً تسميتهم وصافحوه؁ ويدرره ذهب هو وألق السلام على
والدتى؁

- تفضلوا بالجلوس إذا سمحتم؁

بدافة؁ لا أعلم إن كان هشام قد أخبركم بأننى اخترته وإياكم
للمشاركة فى الاحتفال بذكرى يوم الأرض فى السفارة الفلسطينية
فى الجزائر؟؁

- كلاً لم يخبرنا؁ طلب منا أن نحضر جوازات سفرنا فقط؁

الآن فقط علمنا سبب طلبه.

- إذا؁ ما رأيكم بالفكرة وهل تستطيعون السفر جميعاً؟

فأجبت أنا: بالنسبة للشباب فانا أضمنهم لك؁ لكن لا أدري إن
كانت الصبايا لديهن أى مشكلة فى موضوع السفر؁
فتملمن قليلاً وأجمعن فى نهاية الأمر بأنهن لابد أن يأخذن الإذن
من أهلهن؁

- نعم؁ بالتأكد عليكن فعل ذلك؁ وسناخذ جوازات سفركن

لإصدار بعض الأوراق و حجز التذاكر لتكون جاهزة عندما

تقرررون السفر.

بإمكانكم أن تكملوا حديثكم بعد تناول الطعام؁ هذا ما كان يهم
أمى؁

- يا أمي دعينا نُنهي حوارنا ثم سنأتي.
- لا، الطعام أولاً ثم ناقشوا ما شئتم، والسيد زاهي و
أصدقائك أيضاً من رأيي، أنا متأكدة، أليس كذلك؟، أم أنكم
من رأي هشام؟،

- لا يا خالة، أنا متشوقة لطعامك، وأصدقائي كذلك أيضاً،
قلماً كانت إسرائ ووالدتي تختلفان في الرأي، هما تحملان محبةً
عظيمةً لبعضهما، أنا أعلم سرَّ حبكِ لها يا أمي، فأنت تتمنينها
زوجةً لي، فضلاً عن أنها وُلدت وكبرت وشبَّت على عينك.
أنهينا غداءنا وسرَّ الجميع بطعام أمي وباستقبالها ثم جلسنا
برفقة السيد زاهي وناقشنا موضوعَ الحفل، ثم ذهب أصدقائي إلى
منزلهم كي يُخبروا ويستشيروا أهلهم، وقمتُ أنا بإيصال أمي
إلى منزل أختي حنان، وانهاأت عليّ بالدعواتِ والأمنياتِ أن
أسافرَ وأعودَ بالسلامة، كما أعرقتني بالتوصياتِ بأن أنتبه
لنفسي، فقلتُ لها مازحاً: انتبهى لهذه البطيخة التي بجانبك،
فقامت حنان من سريرها واحتضنتني وقالت: لا تخف ستكونُ
البطيخة بخير، انتبه أنت لنفسك يا حبيبي، فعدتُ للمنزل بعدها
وجلستُ بعُرفتي تتنازعُ الأفكار، سأسافرُ للجزائرِ وستكونُ
إسرائُ برفقتي، لستُ معتاداً أن تكونَ مُكْتَظَّةً هكذا أفرحي ولكن
الحمدُ لله على هذه النعمة.

تتابع زُملائي في الاتصالِ لإبلاغي أنهم أخذوا إذنَ أهلهم جميعاً
وكانت آخرهم إسرائ التي حدتني وكنْتُ أتخيلها تقفزُ من

سعادتيها فقلتُ لها: هل أخذتِ إذنَ أهلكِ؟، لتجيبني إجابةً كنتُ أتوقُّ لسماعِها من فَمِها، قالت: أنتِ كلُّ أهلي يا هشام، فهل توافقُ على سفري؟، لو كانتِ أممي لاحتضنتُها، ليسَ كما يحتضنُ حبيبٌ حبيبتهُ فقط، لكنني سأحتضنها كما لو كانتِ طفلةً أنا والدُها، فأغلقتُ المُكالمةَ مع إسرائ وهاتفْتُ السيّد زاهي فأخبرني بأنهُ سيقومُ بحجزِ التذاكرِ في أقربِ رحلةٍ مُمكنةٍ، وكانتِ هذهِ الرّحلةُ بعدَ يومين، ذهبْتُ خلالهما للعملِ في الصّحيفةِ كعادتي، فكتبْتُ المقالاتِ ولا أظنُّ فرحتي كانتِ قادرةً على الاختباءِ خلفَ أسطرٍ ما أكتبه.

جاءَ اليومُ الموعودُ أخيراً وكنْتُ مُوكلاً بجلبِ حبيبتي من منزلها، فصعدتُ إلى بيتها فلقيتني والدُها وقالت لي: أنتِ تعلمُ أيّ ما كنتُ لأرسلها لو لم تكنِ أنتِ معها، لتنتبهَ لها يا ولدي، فطمأنتها أنّي سأنتبهُ لابنتها أكثرَ من نفسي ثم حملتُ حقيبةَ إسرائ الصغيرةَ وأمسكتُ يدها و خرجنا وذهبنا إلى موقفِ الحافلاتِ لنتلقِيَ بزملائنا جميعاً هناك، وكانتِ لا تزالُ أمامنا رحلةً إلى حيث طائرُتنا.

مُضحكٌ أن تحتاجِ لأنّ تُسافرَ لبلدٍ آخرَ كي تركبَ الطائرةَ، لم تكنِ غرابةُ الأمرِ بقدرِ إيلامه، فأرضنا التي ممنوعٌ علينا ثرابها ممنوعٌ أيضاً علينا هواؤها، ليسَ هذا فحسبَ فالماء الذي يُحيطُ بلادنا من شرقها وغربها له قصةٌ أخرى ليستِ أقلَّ وجعاً من

قصة التربة والهواء، فالفردُ الفلسطيني يستهلك حوالي اثنين
وثمانين لترًا من المياه يوميًا، فيما يستهلك مواطنوا دولة
اللُصُوص ما يُعادلُ ثلاثمئة وأربعين لترًا، ما يفوق دولَ أوروبا
بأكثر من مائة لتر، هم يتفوقون على دول العالم بمعدل استهلاك
المياه، بينما يعاني أصحاب الحق الجفاف والعطش، يتفوقون
أيضًا على أهل المجرّة بمعدل دخل الفرد، ونعاني نحن في وطننا
الفاقة والفقرا!.

اجتمعنا ببقية زملائنا في موقف الحافلات وركبنا الحافلة قاصدين
الممر الحدودي لننقل من ضفة نهر الأردن الغربية إلى شقيقتها
الشرقية، فدخلنا المملكة الأردنية وركبنا حافلة قاصدين مطار
الملكة علياء الدولي، وكان قد تبقى ساعتين على موعد رحلتنا،
فلم أدر بنفسي إلا حين سمعت الإعلان في مكبر الصوت أنّ
موعد صعود الطائرة قد حان، أحسّ بقلبي يخفق بشدة، فهذه
الطائرة سوف تُقلع من هذا المدرج لتهبّط بعد ما يُقارب الخمس
ساعات في مطار هوارى بومدين الدولي في الجزائر العاصمة.
بو مدين، ذلك الأسطورة الجزائري الذي ما فتى والذي يذكرني
بعبارة الخالدة "نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة"، ليرحم
الله روحك سيادة الرئيس، والجزائر ذاك البلد الذي قام أبي بتسمية
حبه في قلبي مذ كنت طفلًا، لم أزره من قبل ولم أعش فيه، هو
الذي كان يعيش في عقلي وروحي، كان يستوطن دقات قلبي التي
كانت تتسارع عند ذكر اسم فلسطين على قنوات التلفاز الإخبارية

وكانت تفعل الشيء ذاته عند سماع اسم الجزائر، يبدو أنّ
زرّاعتك لهذا الحبّ يا أبي في قلبي قد أثمرت، وها أنا الآن ذاهبٌ
كيّ أجنبيّ تلك الثّمار.

أفّلت الطائرة فحقّق بشدّة قلبي، ما بال قلبي يدقّ هكذا؟، هل هو
فرح لسفري للجزائر!، أم أنّه حزنٌ على فراق فلسطين؟، أهو
شوقٌ لأمي الحبيبة، أم خوفٌ على أختي التي تُوشِكُ على
الولادة، لا أدري فقد تكونُ كلّها معاً.

نحنُ على ارتفاعٍ سبعةٍ وعشرين ألفِ قدّم، هكذا قال الكابتن، كنّا
نُحلّقُ على هذا الارتفاعِ وأحلامي كانت تحلّقُ على ارتفاعٍ أعلى
منه، كنّا نحلّقُ بينَ الغيومِ وأحلامي كانت تُداعبُ النجوم. ساعاتٌ
خمسٌ هي مُدّة الرحلة قال الكابتن عبرَ سماعَةِ الطائرة، ترفض
الساعاتُ أنْ تمرَّ بسلاسةٍ ويرفض النّومُ أنْ يزورَ عيني، وبعدَ
طولِ عناءٍ غفوتُ لوهلةٍ، وإذا بالمُضيفَةِ توقّظني لأتناولَ وجبةَ
الطّعامِ، فكِدتُ أضربها فقد كان صعباً عليّ النّوم، وما أن نلّته
حتى حرّمتني منه بسببِ الطّعامِ، لتذهبوا إلى الجحيمِ أنتم
وطعامكم، فبدأتُ بتناولِ الطّعامِ وكانت تجلسُ جوارِي إسراء،

- لم تأخذي وجبةَ الغداءِ منهم؟
- أنتَ تعلمُ يا هشام أنّي أعاني من تهيجات القولونِ ولا
تناسبيني إلا أصنافٌ محدّدة، لا أظنُّ طعامَ الطائرة أحدها.
- حسناً يا حبيبتي، إقرئي هذه المجلّاتِ وأضيعي وقتك حتّى
نصلِ وسأدعوكِ لتندوّقِ معاً الطّعامَ الجزائري.

- لِمَ لَمْ تَتَنَاوَلِ أَنْتَ وَجِبْتِكَ؟

- أَشْعُرُ بِالْأَلْمِ فِي مَعْدَتِي، وَأَنَا لَسْتُ جَائِعاً أَيَّتْهَا الْحَسَنَاءُ،

لَقَدْ كُنْتُ أَتَصَوَّرُ جُوعاً، لَكِنَّ شَهِيَّتِي انْقَطَعَتْ عِنْدَمَا رَأَيْتُهَا مُتَمَتِّعَةً
عَنِ الْأَكْلِ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ دَقَائِقَ وَكَانَ قَدْ غَلَبَهَا النَّوْمُ، بَرِيئَةً
هِيَ مَا أَجْمَلُهَا وَمَا أَجْمَلَ هَذِهِ الْإِبْتِسَامَةَ الْمَرْسُومَةَ عَلَى مَحْيَاهَا،
تَبْدُو أَتْنَاءَ نَوْمِهَا كَطِفْلِ يَنَامُ فِي لَيْلَةٍ عِيدٍ، لِيَصْحُو وَيَلْعَبَ بِالْعَابِهِ
وَيُبَاهِي بِهَا أَقْرَانَهُ.

سَأَغْمُضُ أَنَا عَيْنِي عَلَيَّ أَحْظَى بِغَفْوَةٍ فَأَخْتَصِرَ سَاعَاتِ السَّفَرِ
الطَّوِيلَةِ، وَبَعْدَ نَوْمَةٍ لَمْ أَعْلَمْ مِقْدَارَهَا أَوْقَظَنِي صَوْتٌ فِي مَكْبَرِ
صَوْتِ الطَّائِرَةِ، "نَحْنُ نُحَلِّقُ الْآنَ فَوْقَ مِيَاهِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ
الْمَتَوَسِّطِ، نَصْفُ سَاعَةٍ وَنَدْخُلُ الْمِيَاهَ الْإِقْلِيمِيَّةَ لِدَوْلَةِ الْجَزَائِرِ".
فَرَحٌّ شَدِيدٌ اجْتَاكَ قَلْبِي، عَلَى مَا يَبْدُو أَنَّ ذِكْرَ اسْمِ الْجَزَائِرِ لَهُ
تَأْثِيرٌ خَاصٌّ عَلَى قَلْبِي وَدَقَّاتِهِ، فَمَرَّتِ الدَّقَائِقُ، نَحْنُ الْآنَ فِي
الْمِيَاهِ الْإِقْلِيمِيَّةِ الْجَزَائِرِيَّةِ وَنُحَلِّقُ عَلَى ارْتِفَاعِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ قَدَمٍ،
السَّاعَةُ الْآنَ الْخَامِسَةُ وَخَمْسٌ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً بِتَوَقُّيتِ الْعَاصِمَةِ
الْجَزَائِرِيَّةِ، الْزَمُوا أَمَاكِنَكُمْ وَارْبِطُوا الْأَحْزِمَةَ اسْتِعْدَادًا لِلْهَبُوطِ قَالَ
الْكَابِتَنُ، فَبَدَأَتْ أَضْوَاءُ الْمَدِينَةِ بِالظُّهُورِ، وَالْمُضِيْفَةُ تَتَأَكَّدُ أَنَّ كَلًّا
فِي مَكَانِهِ وَالْكَلُّ يَرْبِطُ حَزَامَ أَمَانِهِ، وَمَا هِيَ إِلَّا دَقَائِقُ وَتَلْقَى قَائِدُ
الطَّائِرَةِ الْإِذْنَ بِالْهَبُوطِ، فَسَّرَعَ بِالْهَبُوطِ التَّدْرِيْجِيِّ عَلَى أَرْضِ
الْمَطَارِ،

- حمدًا لله على سلامتكم، الساعة الآن الخامسة وخمس
وخمسون دقيقة بتوقيت العاصمة الجزائرية ودرجة
الحرارة الخارجية خمس وعشرون درجة مئوية، بإمكانكم
خلع الأحزمة الآن وحمدًا لله على سلامتكم.

كم شعرت بالفرح حين استقرت الطائرة على أرض المطار،
ولست وحدي من يستشعر هذه اللحظات المؤثرة، فهاهي إسرائ
تدرف الدموع أيضًا، فلم أتمالك نفسي حين نظرت إليها من كثرة
الضحك، وحين سألتني عن السبب بنبرة كان ينهشها الغضب،
استمررت أنا ضاحكًا وقلت: انظري إلى وجهك في المرآة قبل أن
تخرجي، فنظرت إلى المرأة التي تحملها في حقيبتها حالها كحال
كل الفتيات، بيد أنها لطخت وجهها بالدموع ولم يفعلن،

- ما هذا!!!! !

- هذا الماكياج الذي تسكبينه على وجهك حبيبي،

- ماذا أفعل الآن وكيف أخرج؟

- اسأل المضيفة عن دورة المياه واذهبي واغسلي وجهك،

- لا تخرج أنت، انتظرنى

فخرج الركاب جميعهم، أنا أحسدهم فقد سبقوني لاستنشاق هواء
الجزائر، وأنا لازلت هنا انتظر حبيبي الحمقاء، فدخل عمال
التنظيف ليقوموا بعملهم كما اعتادوا بعد كل رحلة، فاستأذنت
المشرف عليهم وقلت: زميلتي في دورة المياه، وإذا بإسراء
تخرج وقد غسلت وجهها وذهب الماكياج وكل ألوان الطيف التي

اعتادت وضعها، فقلتُ لها مازِحًا: لِمَ تأخَّرتِ يا علاء، لقد اشتقتُ
إليكِ كثيرًا.

- ما بكِ يا هشام!! هل جُننت؟ أنا إسرائ

- لالالا يستحيل، اللهم اسرُّ اسرُّ مُخترعَ الماكياجِ كم ستر من
الكوارث،

فصارتُ تضربُني على كَتفي إسرائ وتقول: هيا هيا يا سَخيف، ثمَّ
ذهبتُ إلى بابِ الطائرة،

- هل تصدِّقي يا إسرائ أنكِ أجملُ بكثيرٍ بدونِ تلكِ الألوانِ
الغريبة؟

- أنا علاء ولستُ إسرائ، سأريكِ يا هشام،

- لا تدعي جُنونك يُفقدنا جمالَ هذه اللحظة،

سنصلُ بابَ الطائرة ونستنشقُ هواءَ الجزائر، ذرأتُ الأكسجينَ
في كلِّ العالمِ يرمزُ لها بـ " O₂ "، لا أظنُّها كذلكِ هنا، أعتقدُ
بأنها هنا "حب₂"، لا تسعفني الكلمات لوصفِ هذا الشعورِ الذي
أحسُّه الآن، وأخيرًا تحقَّق الحلمُ يا هشام، وما أدراكُ فقد تجدُّ
الشخصَ المزعومَ الذي سيغيِّرُ حياتك هنا أيضًا!!.

ليس يفصلني عن أن ألمسَ أرضَ الجزائرِ سوى هذا السُّلمِ
المكوَّن من ألفي درجةٍ، هكذا أحسستُه رغمَ أنه لا يتجاوزُ
عشرين درجةً.

أنهيتُ ذلكَ الدرجِ المقيتِ وإسرائُ بجواري، فخررتُ ساجدًا على
الأرضِ كي أقبلها، فوقفتُ بجانبِ إسرائ وقالت: جعلتني أحسُّ

أَنَّكَ عَائِدٌ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، فَاحْتَضَنْتَهَا وَقَبَّلْتَ رَأْسَهَا وَقُلْتَ لَهَا:
سَعَادَةٌ كَبِيرَةٌ أَشْعُرُ بِهَا، فَأَنَا فِي الْجَزَائِرِ وَلَا مَسَتْ عِظَامُ جَبْهَتِي
ثَرَاهَا الطَّاهِرِ، وَنَسَمَاتُ هَوَائِهَا النَّقِيَّةِ تُدَاعِبُ وَجْتِي وَتُرَاقِصُ
شَعْرَكَ الذَّهَبِيِّ، كَانَتْ فَرَحَتِي لِتَكُونَ مَنْقُوصَةً لَوْ أَنَّني جِئْتُ وَحْدِي
دُونَكَ يَا حُلُوتِي، لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ لِي بِبَالٍ أَنْ آتِي إِلَى هُنَا بِرَفْقَتِكَ،
دَعَوْتُ اللَّهَ كَثِيرًا أَنْ يَكْتُبَ لِي هَذِهِ الزِّيَارَةَ، فَاسْتَجَابَ دُعَائِي
وَأَكْرَمَنِي بِمَجِينِكَ مَعِي.

دَخَلْنَا صَالَةَ الْمَطَارِ لِنَسْتَكْمِلَ إِجْرَاءَاتِ الدُّخُولِ، فَلَمْ أَدْرِ إِلَّا
وَالضَّابِطُ يَسْلَمُنِي وَإِسْرَاءَ جَوَازَاتِ سَفَرِنَا الَّتِي كَانَتْ قَدْ اسْتَلَمَهَا
عِنْدَ بَابِ الطَّائِرَةِ فَاسْتَعْرَبْتُ وَسَأَلْتُهُ عَنْ سِرِّ سُرْعَتِهِمْ فِي أَنْهَاءِ
الْإِجْرَاءَاتِ وَقُلْتُ لَهُ: أَتُعَامِلُونَ الْمُسَافِرِينَ كُلَّهُمْ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَمْ
لَأَنَّا بَعَثْنَا دِبْلُومَاسِيَّةً؟ أَمْ لِأَنَّا مِنْ فِلَسْطِينِ؟، فَابْتَسَمَ الضَّابِطُ وَلَمْ
يُجِبْنِي وَقَالَ لِي: شَرَفْتُمْ الْجَزَائِرَ، أَهْلًا بِكُمْ وَسَهْلًا.

ذَهَبْنَا بَعْدَهَا إِلَى الْحَافِلَةِ الَّتِي كَانَتْ بَانْتِظَارِنَا كَيْ تَنْقَلِنَا إِلَى
الْفَنْدُقِ، فَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِ وَكَانَ اسْمُهُ "Hilton Algiers"، وَكَانَ
يَلْتَفْتُ إِلَيْنَا سَائِقُ الْحَافِلَةِ كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُ فِرْصَةً، لَنْ أَسْأَلَكَ سَيِّدِي
عَنْ سِرِّ هَذِهِ النَّظَرَاتِ، فَأَنَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْسَنَ كَمْ تَحْمَلُ لَنَا مِنَ
الْحُبِّ، فَرَبَّتْ عَلَى كَتْفِهِ أَثْنَاءَ قِيَادَتِهِ وَقُلْتُ: اللَّهُ يَعْطِيكَ الْعَافِيَةَ.

- أَنَا أَشْكُرُكَ.

- لَا أَصْدِقُ، هَلْ تَخَلَّيْتَ أَحْيَرًا عَنْ صَمْتِكَ!!

- رَأَيْتُمْ نَائِمِينَ، فَلَمْ أَشَأْ إِزْ عَاجِكُمْ.

- حتى لو أوقفنا فلن نزرع منك أبدًا.

وبينما كنت أتحدث للرجل وإذا بصوت عذب يأتي من الخلف يقول: لن تكون مزرعًا مثل هشام يا أخي!
لا تكف حبيبي عن مناكفي، كأي بها تقول: يا هشام انتبه لي، أنا هنا.

أنت بقلبي يا حلوتي، أعلم أنك تخلقين الفرص للحديث معي، لا تعلمين كم أنا سعيد بتصرفاتك هذه.
وصلنا الفندق وكان في استقبالنا وفد مبعوث من السفارة، وكان يبدو على وجوهنا الإعياء.

- حمدًا لله على سلامتكم، سنترككم لتسريحوا اليوم، وغداً سنجتمع عند العاشرة صباحًا في ردهة الفندق كي نعدّ لترتيبات الحفل.

- حسنًا سيدي، لا عليك سنكون حاضرين في الموعد بإذن الله.

أوصلنا موظف الفندق إلى غرفنا، فدخلت غرفتي وأخذت حبات المنوم ونمت، لا أظنني سوف أستيقظ قبل بزوغ الشمس، فميت ولم أربط منبها ليوقظني ولم استيقظ إلا حين أتى يوسف واستمر بقرع باب غرفتي ثم وقف أمامي وصار يرقص ويلوح بمسبحته، لا بد أنهم يختارون المجانين كي يكونوا أعضاء لفرق الدبكة، فسألته عن الساعة ليخبرني أنها تشير إلى التاسعة ففمت

بالاغْتَسَالِ سَرِيعًا، فَسَمِعْتُ جَرَسَ هَاتِفِي، مَنْ تَرَاهُ هَذَا؟!، لَيْسَ
رَقْمًا مِنْ فِلَسْطِينَ وَلَا مِنْ الْجَزَائِرِ حَتَّى

- نَعَمْ مَنْ مَعِي؟

- أَنَا وَالذُّكَّ يَا هَشَامَ، كَيْفَ حَالُكَ؟

- أَنَا فِي الْجَزَائِرِ، دَعَنْتِي السَّفَارَةُ الْفِلَسْطِينِيَّةُ هُنَا لِلْمَشَارِكَةِ
فِي حَفْلِ تَقِيمَةٍ لِإِحْيَاءِ ذِكْرِ يَوْمِ الْأَرْضِ، وَكَيْفَ هِيَ
رِحْلَتُكَ أَنْتَ إِلَى الصِّينِ؟، وَهَلْ أَتَمَمْتَ صَفْقَتَكَ؟

- نَعَمْ، وَاللَّهِ الْحَمْدُ، كَيْفَ هِيَ حَنَانُ وَكَيْفَ وَالذُّكَّ؟ هَلْ هُمَا
عَلَى مَايْرَامَ؟

- حَنَانُ تُوَشِكُ عَلَى الْوِلَادَةِ وَأُمِّي ذَهَبَتْ لِمَلَازِمَتِهَا حَتَّى
تَضَعَ مَوْلُودَهَا.

طَفِقَ يُوصِنِي بِنَفْسِي أَبِي، وَمِثْلُهُ فَعَلْتُ أَنَا ثُمَّ أَغْلَقَ الْخَطَّ فَظَنَرْتُ
إِلَى سَاعَتِي فَوَجَدْتُهَا التَّاسِعَةَ وَخَمْسِ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً، فَخَرَجْتُ
مُسْرَعًا مِنَ الْعُرْفَةِ لِأَجْدِ فَرِيقِ الدَّبَكَةِ كَامِلًا أَمَامَ وَجْهِي يَقْفُونَ
بِانْتِظَارِي، فَأَطْلَقْتُ إِسْرَاءَ زُلْغُوطَةً تُطَلِّقُهَا النِّسَاءُ فِي الْأَعْرَاسِ
عَادَةً، هِيَ لَمْ تَكُنْ تَعْبِيرًا عَنْ فَرِحِهَا بِقَدْرِ مَا كَانَتْ تَعْبِيرًا عَنْ
تَهَكُّمِهَا، ثُمَّ قَالَتْ: انْتَظِرُونِي لِحِظَةٍ فَقَطْ، فَدَخَلَتْ عُرْفَتَهَا وَخَرَجَتْ
تَحْمِلُ مِشْطًا وَصَارَتْ تَمْشُطُ شَعْرِي فَلَمْ أَمْشِطْهُ بَعْدَ اغْتِسَالِي فَقَدْ
كُنْتُ مُسْتَعْجَلًا كَيْ لَا أَتَأَخَّرَ، فَقَالَتْ: بِذَلِكَ تَفْضَحْنَا مَعَ النَّاسِ يَا
أَهْلِي؟، فَقُلْتُ لَهَا مُبْتَسِمًا أَكْبَرَ فَضِيحَةَ إِنَّكَ جَايَةٌ مَعَنَا يَا حَوْلَةَ،
خَدِي مِشْطَكَ وَاخْرُسِي، هَكَذَا اعْتَدْتُ وَإِسْرَاءُ أَنْ تُنَاكِفَ بَعْضَنَا

خاصَّةً عندما يكونُ جوارنا أمامَ أصدقائنا، أيضًا عندما نكونُ أمامَ
أهلنا نفعلُ ذلك، بينما عندما نكونُ وحدنا تبدأُ كلماتُ العشقِ
والغزلِ بالانهمارِ، فروحِي إِسراءُ هِيَ شغْلُها الشَّاغِلُ، وأذني
ليستُ تطربُ حتَّى لأحلى السِّنْفُونِيَّاتِ وأبدعِ الأَغْنِيَّاتِ، هِيَ فقط
ترقبُ هَمْسَها، وعيني لا ترى أجملَ منها على الإطلاقِ أنثى، ولا
ينطقُ لساني عذبَ الكلامِ إلَّا في حضرةِ جمالِها.

اجتمعنا مع مندوبِ السِّفارةِ و بدأنا نناقشُ البرنامجِ الذي
يقترحوهُ وما إذا كانتِ لدينا أيَّةُ تعديلاتٍ نرغبُ أن نُجريها عليه،
فبدأوا بسردِ برنامجِ الحفلِ،

السَّلامُ الوطَنِيّ الفِلسطِينِي

القرآنُ الكَرِيم

كلمةُ سعادةِ السِّفيرِ

فيلمٌ وثائقيٌّ مدتهُ خمسَ عشرةَ دقيقةً عن يومِ الأرضِ

مشاركةُ شعريَّة

الدبكةُ الشَّعبية

فقرةُ غنائيَّةٍ مُسجَّلة

وثائقي عن تاريخِ الثورةِ الفِلسطِينية

رقصةُ دبكةٍ وداعيَّة

السَّلامُ الوطَنِي

وانتهى

- هل لديكم أيُّ تعديلاتٍ أو مُقترحاتٍ؟

- أنا سَأَتَكَلِّمُ سَيِّدِي،
أَوَّلًا: أنا أرى كَمَا بَقِيَّةِ زُمَلَانِي أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ يعلو ولا يُعَلَا
عليه، يَجِبُ أَنْ نَبْدَأَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ثُمَّ يَتْلُوهُ النَّشِيدُ
الوطني،
- ثانيًا: نحنُ لسنا بِحَاجَةٍ إِلَى فِقْرَةٍ غَنَائِيَّةٍ مَسْجَلَةٌ، فَمَعْنَا
إِسْرَاءُ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْحَرَ الْجُمْهُورَ بِصَوْتِهَا وَأُغْنِيَاتِهَا
الوَطَنِيَّةِ.
- ثالثًا وأخيرًا أودُّ أَنْ أَرْتَجَلَ كَلِمَةً أَشْكُرُ فِيهَا وَأودِّعُ الشَّعْبَ
الجزائريَّ الحبيبِ.
- لك ما طلبت، لَكِنْ بِخُصُوصِ الْفِقْرَةِ الْغَنَائِيَّةِ الَّتِي رَشَّحْتَ
لَهَا زَمِيلَتَكَ، فَلابدَّ مِنْ أَخْذِ رَأْيِهَا أَوَّلًا، أليسَ كَذَلِكَ؟
- لا لالا، هِيَ مِنْ سَيِّغِي، لَا عَلَيْكَ.
- فِي الْبِدَايَةِ كَانَ وَجْهُ إِسْرَاءَ يُزْهَرُ خَجَلًا حِينَ اقْتَرَحْتُ اسْمَهَا،
وَهَا هُوَ الْآنَ يَحْمَرُّ غَضَبًا.
- "مَنْ أَذِنَ لَكَ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ أَنْ تُقَرِّرَ عَنِّي؟"
- هَذَا مَا كُنْتُ أَقْرَأُهُ خَلْفَ عَيْنَيْهَا الزَّرْقَاوِينَ وَلَمْ تَكُنْ لَتَنْطِقَ بِهِ
حِينَهَا فِي حُضُورِ مَنْدُوبِ السَّفَارَةِ.
- أَتَمَنَّى أَنْ تَقْدِمُوا شَيْئًا يَلِيقُ بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ وَيَلِيقُ بِالْجَالِيَّةِ
الْفِلَسْطِينِيَّةِ وَيَلِيقُ أَيْضًا بِشَعْبِ عَظِيمِ كِشَعْبِ الْجَزَائِرِ.
- نَتَمَنَّى أَنْ نَكُونَ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّكَ سَيِّدِي،
خَرَجَ مَنْدُوبُ السَّفَارَةِ وَانْطَلَقَتْ صَرَخَاتُ إِسْرَاءَ بِأَذْنِي،

- مَنْ أَنْتَ لِتَقَرَّرَ عَنِّي أَيُّهَا الْأَحْمَقُ!، أَنَا لَمْ أُحْرِجْكَ أَمَامَ مندوبِ السفارةِ اليومَ، أَتَدْرِي لِمَ؟
- لِأَنَّ شَخْصِيَّتِي قَوِيَّةٌ وَلَا تَجْرُنِينَ أَنْ تَرْدِي كَلَامِي بِالطَّبَعِ.
- لَا لَيْسَ هَذَا، بَلْ لِأَنَّي سَوْفَ أَعْتَذِرُ عَنْ تَقْدِيمِ هَذِهِ الْفَقْرَةِ وَأُحْرِجْكَ أَمَامَ الْجُمْهُورِ كُلِّهِ، سَتَرَى.
- مَجْنُونَةٌ وَبِتَعْمَلِيهَا، جَهْزِي أَغْنِيَّتَيْنِ ثَلَاثَ مَنَاحٍ وَبِلا هَيْبِكَ.
- طيب أنا بورجيك.

فَوَقَّفَ زَمِيلُنَا يَوْسُفَ قَائِلًا: كُفُّوا عَن هَذَا الْجَدَلِ، فَتَحَنُّ لَمْ نُحَدِّدْ أَيُّ الرِّقَاصَاتِ سَوْفَ نُقَدِّمُ وَمَا هِيَ الْأَغْنِيَّاتُ الَّتِي سَتَكُونُ فِي الْخَلْفِيَّةِ وَلَا حَتَّى الْمَلَائِسِ الَّتِي سَنَرْتَدِيهَا، وَأَنْتَ حَتَّى لَمْ تُسْمِعْنَا قِصَائِكَ الَّتِي سَنُلْقِيهَا، وَعَلَيَّ لَمْ يَقُلْ مَا هِيَ سُورَةُ الْقُرْآنِ الَّتِي سَوْفَ يَتْلُوها، نَحْنُ غَيْرُ جَاهِزِينَ إِطْلَاقًا، هَلْ تَعُونَ ذَلِكَ؟، هِيَ لَنْ تَكُونَ ذِكْرِي يَوْمَ الْأَرْضِ فَقَطُّ، هِيَ سَتُصْبِحُ ذِكْرِي فَضِيحَتَنَا، فَأُخْرِجْتُ أَنَا سِيَّجَارَةً وَمَدَدْتَهَا لَهَا، هَدَى مِنْ رَوْعِكَ، كُلُّ شَيْءٍ سَيَكُونُ عَلَيَّ مَا يُرَامُ، أَنَا سَأَصْعَدُ كَيْ أَنَامَ الْآنَ وَغَدًا سَوْفَ نُرْتَبُ كُلُّ شَيْءٍ، فَانْفَجَرَتْ إِسْرَاءُ ضَاحِكَةً، يَبْدُو أَنَّهَا الْوَحِيدَةُ الَّتِي أَدْرَكْتُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرَحُ.

كُنْتُ أَتَفَهَّمُ غَضَبَ يَوْسُفَ، فَأَنَا أَرَاهُمْ يَتَمَرَّنُونَ لِأَسَابِيحٍ حَتَّى يُقَدِّمُوا عَرَضًا وَاحِدًا.

- اعطني يا إسراء برنامج الحفل، أظنك لديك نسخة منه،
- نعم هاهي،

سيبدأ الحفل بقراءة القرآن، وأنت يا علي من سيقراً كالعادة،
أسمعنا ماذا سوف تقرأ،

- سوف أقرأ الفاتحة وبعدها سأقرأ آيات من سورة الإسراء.
أحسنت، بعد ذلك سيتم عزف السلام الوطني، وهذا سيكون
مسجلاً بالتأكيد، فطلبت منهم بعدها أن نقوم بعمل بروفة للحفل
كاملاً.

- هيا يا مديعنا المبدع، اصعد على المنصة وابدأ بالتقديم،
فبدأ يوسف مقدمته، وكانت أول الفقرات هي القرآن الكريم،
فصعد علي وبدأ بالقراءة ثم صعد يوسف وتابع التقديم،
- الآن سنفترض أنه تم عزف السلام الوطني، ما هي الفقرة
القادمة؟

- ستكون كلمة سيادة السفير ثم سيعرض فيلم وثائقي
- نعم نعم، هذا سنقوم السفارة بعرضه، ثم ماذا بعد؟
- الآن مشاركتك الشعرية يا هشام، فلتقم بإلقائها حتى
نعطيك رأينا.
- حسناً، سألقها،

فألقيتها عليهم فصفقوا جميعاً، فشكرتهم، وقلت: ما التالي يا
إسراء؟

- إنها فقرة الدبكة، نريد الموسيقى.
- سأصعد حيث الموظف وأخبره أن يقوم بتشغيلها، لكن لا
أظن أن لديه الأغاني التي تحتاجونها،

- لا عليك، ما يُهم هو وجودُ جهازِ حاسبِ آلي، فكلُّ الأغاني التي سنحتاجها مخزَّنةٌ لدينا على هواتفنا.

فأخذتُ هاتفَ سارة وصعدتُ للموظَّفِ المسؤولِ عنِ المسرحِ و أعطيتُهُ الهاتفِ ليقومَ بتشغيلِ الأغنياتِ التي سيستخدمونها في رقصتهم ثمَّ نزلتُ، وإذا بصوتِ الأغنياتِ يجلجلُ في المكانِ، فبدأَ المجانينُ بالرقصِ، ما أجملهم وما أجملَ اجتماعهم وما أحلى صُحبتهم، هم يرقصون بفرحٍ شديدٍ لا أعلمُ سببَهُ ولنُ أسألهم عن سرِّه لأنني أشعرُ بنوبةٍ من الفرحِ مثلهم ولو سألتني عن سرِّها لما استطعتُ إجابتكِ.

لم أعتد أن أفتش عن سببِ فرحي، أكتفي فقط أن أتجنَّب ما يكدره، هكذا أمضيتُ حياتي.

أنهوا رقصتهم بنجاح،
تبقَّى في برنامجنا أغنيةُ إسراءَ ورقصةُ الدبَّكةِ الثانيةِ و كلمتي الوداعيةِ،

- ماذا ستغنين ؟
- لن أغني شيئاً، فأنتم لم تأخذوا رأيي،
- إسراءِ إسراءِ مش وقت دلعك هسة خلصينا.
- اترجوني أول،
- يا ربيبي، أحكيك خلص رخ الغيها هالفقرة.
- خلص رخ غني بس مشان الجزائر مش أكثر.
- ما رأيك أن نسمعينا؟.

صعدت إسرائاً إلى خشبة المسرح وبدأت بالغناء، وكان ما غنت أغنيةً وطنيةً كان مطلعها "ما نسيك يا دار أهلي، ما نسيك يا دار"، صوتك يشبه صفير البلبل لكن لا بد من مُمازحتك فقلت: إنني أسمع نعيق غراب، هل تسمعون مثلي؟، فتوقفت إسرائ عن الغناء وقالت ببراءة: أين؟ أين؟، لم تكن تعرف أنني أقصدها،

- لا لا لاعليك، وما هي أغنيك الثانية يا مطربتنا؟

- سأغني أغنية وين ع رام الله،

- هذا جيد،

لم يتبق إلا رقصتكم الثانية والكلمة التي سأوجهها لشعب الجزائر، وأقترح في نهايتها أن نُنشد نشيد الجزائر الوطني تعبيراً عن حُبنا للجزائر وشعبها، قأنشدنا النشيد، والغريب أن جميع أعضاء الفريق كانوا يحفظونه عن ظهر غيب، أي عشق هذا بربكم!، فأنهينا البروفة وشكرنا الموظف الذي قام بمساعدتنا، ثم صعدنا و كانت الساعة تقترب من الثانية ظهراً، فتناولنا طعام الغداء على وجه السرعة ثم قلت لهم:

- سنلتقي عند التاسعة، إصعدوا لغرفكم،

ذهبنا جميعاً كل إلى غرفته، فتمت، ومن كثرة التعب والإرهاق لم أدر بالوقت، ففوجئت بالماء المتلج يسكب فوق رأسي، ففمت من نومي فزعاً،

- من هذا السخيف؟،

أجابتي عن سؤالي ضحكةً إسرائ، لو فعلها غيرك يا حبيبتي
لأوسعته ضرباً،

- قم قم أيها الكسول، سوف ننتظرك في قاعة الطعام.

فقلت بتبديل ملابسي ونزلت،

- أهلاً بالمجانيين،

ألا تشبعون !!!

إجلس وتناول طعامك وكف عن الفلسفة الآن قالت إسرائ.
وخرجنا بعدها وجلسنا في ردهة الفندق فاقترحت ريم أن نخرج
إلى الشارع، فقلت لها: ولكننا لا نعرف مكاناً نذهب إليه، فقالت:
دعنا نضيع قليلاً في شوارع الجزائر، فدرنا دورة سريعة حول
الفندق ثم عدنا، فصعدنا للنوم جميعاً.

اجتمعنا في صباح اليوم التالي

- سنتوجه للسفارة بعد قليل، تأكدوا من كل شيء، الملابس
والأدوات، ولا تنسي يا إسرائ أنت بالأخص أن تحضري
الماكياج وأدوات التجميل الخاصة بك، حتى لا يروك على
حقيقتك.

- لن أضع مكياجاً أيها السخيف.

رغم أنها تشتعل غضباً الآن وأنا أحس بذلك، ورغم أنها نعتني
بالسخيف، لكن قلبي كان يرقص فرحاً، فإسراء استجابت لكلامي
ونصحتني لها في الطائرة واقتنعت أنها أجمل حين لا تضع تلك
الألوان.

يموتُ أناسٌ ويولدُ آخرونَ والمجانينَ لم ينهوا تبديلاً ملابسهم،
أينَ أنتم لا باركَ اللهُ فيكم.

مُخْطِئٌ مَنْ يَرْتَبِطُ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الحَمَقِي، أَحَدُهُم يَغْمُضُ عَيْنِي،
إِنْ أَخْطَأْتُ بِمَلْمَسِ هَاتِيْنِ اليَدِيْنِ النَاعِمَتِيْنِ فَلَنْ أَخْطِئَ بِرَائِحَةِ
اليَاسَمِيْنِ الَّتِي تَتَبَعُ مِنْهُمَا.

أَتَتْ حَلُوتِي، أَتَتْ إِسْرَاءَ، يَبْدُو أَنَّهُمْ عَرَفُوا مَنْ يَرْسِلُوا لِيْمْتَصَّ
غَضَبِي،

- لَمْ تَأْخِرْتُمْ؟

- يَا هِشَامَ، صَحِيحٌ أَنَّنِي لَمْ أَضَعُ مَكْيَاجًا، لَكِنَّ الأَخْرِيَاتِ
يَرِغِبْنَ بِوَضْعِهِ،

الشَّبَابُ جَاهِزُونَ مِنْذُ مَا يَقْرَبُ النِّصْفَ سَاعَةٍ وَهُمْ
بِانتِظَارِنَا حَتَّى نَأْتِيَ سَوِيًّا.

وَمَا هِيَ إِلا دَقَاقِقٌ وَوَصَلَتْ كِتَابَةُ المَجَانِيْنِ يَلْبَسُونَ الزِّيَّ
الفِلَسْطِينِيَّ، كَمَا أَنَا فَخُورٌ بِكُمْ وَكَمَا يَعْجِبُنِي هَذَا الزِّيَّ، هَذِهِ المَرَّةُ
الأُولَى الَّتِي أَرَى فِيهَا هَذَا الكَمِّ مِنَ الحَمَاسِ فِي أَعْيُنِ المَجَانِيْنِ،
لَكَمْ أَنْتِ غَالِيَةٌ يَا فِلَسْطِينِ وَكَمَا غَالِيَةٌ أَنْتِ جَزَائِرِ!

- اسْمَعُوا، تُقْعَدُوشِ تَتَهَبَّلُوا فِي السَّفَارَةِ وَتَفْضَحُونَا قَدَّامَ
النَّاسِ،

فَضَحِكُوا وَقَالُوا لَا عَلَيْكَ يَا هِشَامَ سَنَحَاوُلُ التَّقْلِيلَ مِنْ فِضَائِحِنَا،
اطْمَئِنِّ، فَقَمْتُ بِمَهَاتِفَةِ السَّائِقِ كِي يَأْتِيَ لِأَخْذِنَا لِمَقَرِّ السَّفَارَةِ.

- مَتَى سِيَأْتِي؟

- قال إنه سيكونُ بعدَ نصفِ ساعةٍ عندَ مدخلِ الفندقِ

- دعونا نشربُ القهوةَ ريثما يصلُ ،

فناديت الموظفَ:

نريدُ قهوةً لنا جميعاً وكوباً من الحليبِ الدافئِ لتلكِ الأنسةِ،

يروقني دائماً استفزازُ إسرائ، تُعجبني ردّةُ فعلها، مزيجٌ من

البراءةِ والشقاوةِ هكذا تكونُ إسرائ.

فأحضرتُ لنا الموظفُ القهوةَ وأحضرتُ الحليبَ، فأمسكتُ إسرائُ

كأسَ الحليبِ وتوجّهتُ نحوي، يا للهولِ، ماذا ستفعلُ هذهِ

المجنونة!، هل ستسكبُ الكأسَ فوقَ رأسي؟، لا أستبعدُ ذلكِ،

- أنتِ طلبتِ هذا الحليبَ وسوفَ تستخدمه، فإمّا أن تشربهِ

أمامي الآن وإمّا أن أسكبه فوقَ رأسِكِ ولكِ حريةٌ

الاختيارِ،

- يا إسرائ أنتِ لا تشربين القهوةَ، ماذا أطلبُ لكِ؟

فاقتربتُ من أذني وقالت: ألا تعرفُ أن تطلبِ العصيرَ؟، لمَ

أخرجتني أمامهم؟

كم أعشقها وكم أحسستُ بدفيّ وحبِّ وعتبِ حبيبِ حينِ همستُ

بتلكِ الكلماتِ في أذني، كم كانت تحملُ من الرقةِ، كم كان عتبُها

يحملُ من الحبِّ الذي انسابَ في عروقي ليلاصقَ جدرانَ قلبي،

هذا القلبِ الذي لم يتعلّم أن يدقَّ في الأصلِ لغيرها.

تلقيتُ مكالمتهُ، يبدو أنّ الرجلَ قد وصل، هيّا يا محترمين كي

نخرج، فأجبتُ وإذا بالاتصالِ قادمٍ من فلسطين،

- هشام، حنان ولدت وجابت صبي،
- مبروك مبروك، المهم كيف صحتها،
- الحمد لله كثير منيحة.
- رذاذ من الفرحة يخرج من فمك يا أمي، هل لأنك أصبحت جدّة، أم
لاطمئنانك على حنان، ما يهمني هو أنك سعيدة، فأطمأنت من
والدي عن صحّة أختي وطفلها وأنهيتُ المكالمة،
وصل أكرم، فخرجنا سريعاً إلى حافلته،
- دعنا نتوجّه إلى موقع السفارة، حتّى نتعرّف إلى كوادرها
ونرى مكان الاحتفال.
- فانطلقنا مسرعين، ولسوء الحظّ أوقفنا ضابط سير، فطلب من
السائق الترخيص الخاص بحافلته، فأعطاه الترخيص، ليجده
الضابط منته منذ سنتين.
- إنزلوا من الحافلة لو سمحتم،
أظنه لم يطلب منّا النزول منها إلّا ليتحقّق عليها،
يا للهول، لا يهمني الآن أن أتأخّر أو حتّى أن ألغى الموعد
بأكمله، كلّ ما يهمني ما سيحلّ بهذا المسكين الذي أرى دمعته
على خده تتهادى، فوضعت يدي على كتفه،
- ما الذي يمنعك من إصدار ترخيصٍ يا صاحبي؟
- ليس عندي مالٌ لإصداره.
- قالها والدمع في عينه وأظنّ قلبه يتألّم وعقله لم يعد قادراً على
التّفكير، هو لا يملك المال ليصدر ترخيصاً، وما يزيد الطين بلّةً

أن عمله الذي يُمكن أن يعوّل عليه مُهدّد الآن، حُقّ لك يا صاحبي
أن تبكي، فما أسوءَ الفقر وما أصعب الحاجة حين تجبران رجلاً
على البكاء، فهمّ الشباب والصبايا بالنزول من الحافلة.
- ماذا تفعلون؟ هل جُننتم؟، إجلسوا في أماكنكم، أنا سأدبّر
الأمر.

فأشارت لي الحساء من مؤخرة الحافلة بإصبعها أن أحسنت،
فنزلت إلى الضابط

- مرحباً سيادة الضابط ،
- مرحباً بك، لِمَ لم تنزلوا حتّى الآن؟
- يا سيادة الضابط نحن ضيوفكم من فلسطين، استُدعينا
 للمشاركة في الاحتفال بذكرى يوم الأرض في سفارتنا
 عندكم، وإذا قمتم بمصادرة الحافلة، سوف نتأخّر عن
 موعدنا، ناهيك عن مزاجنا الذي سوف يتعكّر لأننا تسببنا
 في إيذاء هذا المسكين،
- قف قف قف، أحقاً أنتم من فلسطين؟
- نعم وقد وصلنا بالأمس، انتظر حتى أمر زملائي أن ينزلوا
 من الحافلة.

حقيقةً لم أكن أنوي ذلك، لكنني كنت أعب على وتر الحب الخالد
 بين فلسطين والجزائر، وكنت متأكداً أنه سيشفع لنا ولأكرم عند
 الضابط.

وبالفعل، قال الضابط: لا تنادِ أحدًا، إصعد أنتِ إلى الحافلة، فتوجَّه
نحو السائق ووبَّخه قليلاً وطلبَ منه الإسراع بإصدار الترخيص
ثمَّ رحل، فشكرني أكرم و فرح زملائي وأكملنا طريقنا حتى
وصلنا السَّفارة،

- أدخلوا أيُّها المجانين.

سألنا أحدَ الموظَّفين عن مكتبِ السيِّد زاهي فأرشدنا إليه، ثمَّ
توجَّهنا نحوه لنجدَ مديرَ مكتبه، فأخبرناه بأننا الوفدُ القادم من
فلسطين للمشاركةِ في الحفل وطلبنا منه أن يبعثَ معنا أحدًا
ليوصلنا إلى المسرح الذي سنقيمُه عليه، فقال انتظروا ريثما
يأتي الساعي لأرسله معكم.

- اعذرني أنتم تفتقدون للتنسيق، تُريدون منا أن نُقيمَ حفلًا
كاملاً دون أيِّ تحضيراتٍ أو تمارين، وفوق ذلك كلِّه
فالحفل خارج فلسطين، هل تعلم أيَّ مجهودٍ جبَّارٍ يستلزم
كلُّ هذا؟

- يا أخي، نحن نعلم ذلك كلِّه ولكننا متأكدين أن أبناء

فلسطينَ وبناتِها على قدر المسؤوليةِ دائماً، أليسَ كذلك؟

أعلمُ أنَّها مجاملة، لكن ليس لي أن أنطق بكلمةٍ، فقد راقنتي هذه
المجاملة، وأظنُّها راقَّت زملائي أيضاً وأكبر دليلٍ هي تلك
الابتسامة التي ارتسمت على وجوههم "

فقلت أنا: بلى بلى ياسيدي، فجاء الساعي فطلب منه إيصالنا للمسرح، كان شيئاً رائعاً فلقد نصبوا مسرحاً وأعدوا المنصة والمقاعد وكلُّ شيءٍ حاضرٌ على أكمل وجه،

- أعطوني الجهاز الذي يحتوي أغانكم التي ستستخدمونها في رقصاتكم كي أعطيها لمهندس الصوت ،
الآن سنعمل بروفة أخرى كاملة للحفل مع الموسيقى وكلِّ شيءٍ هذه المرّة،

فصعد بعدها يوسف وبدأ شاكرًا للجزائر على استضافتها لنا ومُشدِّداً على العلاقة الوطيدة التي تجمع شعبي فلسطين والجزائر ثم قدّم عليّ ليقوم بتلاوة القرآن الكريم، فبدأ عليّ التلاوة وكان من رأيي أن تصعد إسرائ بفقرتها الغنائية قبل أن يصعدوا للدبكة وأقوم أنا من ثمّ بإلقاء الشعر حتى تستريح قليلاً، فلن يكون لها القدرة على الغناء بعد المجهود الذي ستبذله في الدبكة، فناديتها وأخبرتها باقتراحي فقالت: كنت سأقترح عليكم ذلك.

أنهى عليّ قراءة آيات القرآن، فصعد يوسف قائلاً: السّلام الوطنيّ الفلسطينيّ، فبدأ العزف، فوقفنا جميعاً ووضعنا أيدينا على صدورنا ووقف كل من في السّاحة معنا سواءً كانوا فلسطينيين أو جزائريين.

من المقرّر الآن أن تكون كلمة سيادة السّفير، لكن بطبيعة الحال لن يشاركنا البروفة، فأكملنا ما تبقى من فقرات وتمّ كلُّ شيءٍ على أكمل وجه.

الآن نحن جاهزون يا أصدقائي ولا ينقصنا أي شيء سوى أن نكون حاضرين في الموعد، سنعود الآن للفندق ونستريح قليلاً ثم نعاود الخروج كي أَدعوكم لتذوق الطعام الجزائريّ سوياً، فعُدنا إلى الفندق، وصعدتُ لغرفتي ودعوتُ أكرمَ لمرافقتي لتتحدثَ قليلاً،

- تفضّل يا أكرم، ماذا تحبُّ أن تشرب؟، هل تحبُّ أن تشرب الشاي؟ أم أنّك مدمن قهوةٍ مثلي،
- سأشرب القهوة معك.

فجاؤوا لنا بالقهوة،

- أتعلّم يا صاحبي، على كثرةِ سفريّاتي إلّا أنّي أكرهُ الخروجَ من فلسطين وأحبُّ العودةَ بسرعةٍ إليها.
- من أجل زوجتك وأبنائك بالتأكيد، أليس كذلك؟
- لا لالا يا صاحبي، أنا لست متزوّجاً،

ما يدفعني لكره السفر ليست زوجةً وليسوا أبناءً، سبب كرهِي له هو أنّني أكره فراق فلسطين، المرّة الوحيدة التي شعرت بها أنّني لست مغترباً عند سفري هي هذه المرّة عندما أتيتُ للجزائر رغم بعد المسافة، لا أخفيك أنّي أحسُّ أنّ قلبي قُسمٍ لقسمين، فقسّمَ يشتاقي العودة إلى فلسطين ويُحجّ عليّ أن أُسرِعَ بذلك، وقسّمَ يُشعرني بثقلٍ في أقدامِي ويريد البقاء في الجزائر أطول فترةٍ ممكنة وأنا وسط هذا الصِّراع أجلسُ هنا لأشرب قهوةً معك.

- لِمَ لا تجلسون أسبوعًا إضافيًا في الجزائر؟
- يا صاحبي، كما ترى فنحن اثنا عشر فردًا، إن كان يمكنني البقاء فلن يكون ممكناً لزملائي وزميلاتي، سنرى إن كان باستطاعتنا البقاء ليومين آخرين،
- حبذا لو أخذتنا لمطعم الآن.

فاتصلت بإسراء لتجهّز نفسها وتُخبر الصبايا أيضاً، ثمّ اتّصلت بيوسف ليقوم بذات المهمة مع الشباب. دقائق ونزلتُ ومعِي السائق، فلم يتأخّر الشّبَاب كثيرًا في النّزول، لكنّ بناتِ آدم لا يمكن أن يتخلّين عن عاداتهنّ، فاتصلتُ بإسراء مرّةً أخرى فلم تُجب، فتوجّهت إلى المصعدِ فإذا بهنّ يخرجن أمامي جميعهنّ عدا إسراء،

- أين هي إسراء يا سارة؟
- لقد كانت تتقيًا، هي تقوم بالاعتسال الآن، فانفطر قلبي خوفًا عليها،
- تعاليّ معي كي نصعد إليها.
- إنّها تغتسل يا هشام، ماذا ستستفيدُ إن صعدت؟
- كيف تركتمنها وحدها أنتن؟
- ألا ترّ يا هشام؟، نحن ست فتيات، لم تنزل سوى أربعة فقط، رويده ظلّت في الغرفة عندها، لا عليك سينزلن بعد قليل.

مرّت الدّقائق كأنهن ساعات على قلبي؟

- لا أستطيع أن أصبر أكثر يا سارة، يجب أن أصعد.
 - انظر وراءك هاهي حبيبتك التي كنت ملهوفاً عليها.
 - أنا كنت خائفاً عليها كزميلةٍ يا سارة
- فأجابتنى سارة إجابةً هزّت كياني، فقالت: استمرّ في إخفاء حبّك حتى يأتي غيرك ويأخذها منك، فأجبتها بنبرة الخائف: لا لا، لن يأتي أحد، ماذا تقولين أنتي؟
- بلى يا هشام، فهي الآن في سنّ الزواج والارتباط، وعندها كل مواصفات الزوجة التي يحلم بها أيّ شاب، فهي جميلة وابنة عائلةٍ وتحمل شهادةً جامعيّة، وفوق كلّ هذا فلديها صديقةٌ جميلةٌ تدعى سارة عواد.
- جاءتنى حبيبتي فأمسكتُ يديها وقبّلتهما،
- كيف أصبحتِ؟ هل أنت بخير؟
 - نعم يا هشام، لقد كانت نوبةً من تهيج القولون.
 - حمداً لله على سلامتكَ،
- هل تستطيعين المشاركة في الحفل يا نور عيني أم أنّ ذلك سيتعبك؟
- إذا كنت لا تستطيعين المشاركة، اجلسي وتابعينا مع الجمهور أيّتها الحسناء.
- ولماذا جئت أنا إذا؟، كان بإمكانني البقاء والاستراحة في فلسطين.

- يا إسرائ، هذا تقدير ربك، لا تقلقي سيكون هناك عدة احتفالات لتشاركي فيها.

- لا، أنا أريد أن أشارك في هذا الحفل بالذات، لا تخف يا هشام، صدقتي أنا أستطيع ذلك ولن أشعر بالتعب.

أرى نبرة التحدي قد اختفت من صوتها، فهل كان غيابها بسبب الألم!، ويل قلبي، أما من صفقة يمكن عقدها مع أمها هذا لينتقل من جسمها إلى جسми؟.

ما رأيكم لو خرجنا وتوجهنا إلى المطعم؟، لأنني أتصور جوعاً وأنا أيضاً متشوق كي أتذوق الطعم الجزائري،

- اللي بسمعك بصدقك، ما بعرفوا إنك أنحف من الورقة، بس البركة في إسرائ بكرة بتنصحك،

كانت لا تكف عن تلميحاتها سارة، لكن لا بأس بهذه التلميحات بين حين وآخر، كي يعرف الجميع أن قلب إسرائ وحدي من يملكه، فابتسمت إسرائ ابتسامة خجولة، كم أعشقها هذه الإبتسامة، فخرجنا من الفندق جميعاً

- نحن رهن يديك يا أكرم، خذنا إلى المطعم الذي تختاره فانطلق بنا أكرم يجول في طرقات الجزائر، لقد سافرت إلى كثير من المدن والعواصم في حياتي سواء في وطننا العربي أو في أوروبا التي يتغنى الناس بجمالها، لكنني لم أجد مثل هذه الراحة النفسية التي وجدتها هنا،

قال أكرم: لقد وصلنا، تفضلوا بالنزول

- ما بالك يا رجل، لم ننطلق بعد، أقرب لهذه الدرجة إلى
الفندق هو المطعم؟!!

- ما بالك أنت يا هشام، لقد انطلقنا منذ ما يقارب الربع
ساعة،

شعورٌ غريبٌ يُراودني منذ طرأت علينا فكرة زيارة الجزائر، فلم
أعد أشعر بمرور الوقت، أراها الساعة كما لو كانت دقيقة، يبدو
أنني بحاجة إلى طبيبٍ ليشخص حالي و يدرس دقائق قلبي
المتسارعة مذ وطئت قدماي تراب هذه الأرض، التي هي مثل
فلسطين، عليها أيضاً ما يستحق الحياة، فدخلنا إلى المطعم وكان
مطعماً شعبياً، الناس فيه على طبيعتهم، ليس مطعماً ارسنقراطياً
مثل مطعم الفندق.

- أنا متأسف، المطعم ليس على قدر مقامكم.

- ماذا تقول أنت يا أكرم؟!!

أنا وهؤلاء المجانين نفترشُ الرصيف في فلسطين ونأكل
الفلافل، وإقامتنا هذه في الفندق هي حالة استثنائية لسنا
معتادين عليها.

ففرح أكرم ودعانا للدخول وبدأ يطلب مجموعة من الأطباق التي
كنت أجهل بعضها، لا بد أن لدينا في فلسطين مأكولاتٍ مشابهة
لكن بمسمياتٍ مختلفة، فأحضر النادل لنا الطلبات، كانت رائحتها
شهيةً لا تُوصف، فبدأتُ أسأل أكرم عن أسماء الأكلات التي

أمامنا فقال لي: هذا هو الكُسُسُ وهذه تدعى الشَّخْشُوخَةَ وهذه
تدعى البُوراك.

- هيا يا مجانين، تناولوا طعامكم ودعوني استمتع بهذا
الطَّعام اللَّذِيذ.

فتناولنا الطَّعام ثم عدنا للفندق مرَّةً أُخرى.

- هل أنت متعبة يا إِسراء؟، أرى شحوبًا في وجهك، يبدو
عليك الإعياء،

يا إِسراء إن كنت لا تستطيعين المشاركة فلا بأس،
استريحي أنت وسنتدبِّر الأمر، لا تُتعبِي صحتك لأيِّ سببٍ
يا حُلوتي.

- أنا على ما يُرام و الشحوبُ الذي تراه على وجهي، فلأنني
لم أضع الماكياج، كما طلبت مني،

"تدعِين أنَّكَ بخير وأنت لست كذلك أبدًا "

سأقفُ خارجاً كي أحاول الإِتِّصَالَ بأهلي و فور ما أنهى مكالمتي
سأناديك كي تتصلي بوالدتك.

- شكرًا يا هشام.

- كفي عن شكري أيتها الحمقاء، ستدفعين تكلفة المكالمة.

فضحكت إِسراءُ وبانت لآلئها المكنونة تحت ستارِ شفتيها
الورديتين،

- لا لن أدفع شيئاً، وسأتكلَّم كما أريد وقتما أريد، ما رأيك!،

أم أن لديك اعتراض يا سيّد هشام!

- لالا، ليس هناك أي اعتراض، نحن من يأخذ الإذن منك يا خلوتي.

فَقُمتَ بالإتصالِ بهاتفِ والدتي، فأجابتنِي

- كيف أنتم، وما هي أخباركم، وكيف هي حنان، وكيف مولودها، هل وصل أبي؟، هل حضر نبيل؟، هل أسميت المولود؟،

كلُّها أسئلةٌ طرحتها دفعةً واحدةً،

- يا هشام هذه مكالمة هاتفيّة وليست رسالة صوتيّة مُسجّلة
- اعذريني يا أمي، كان ذلك من لهفتي وقّلي عليكم،
أجيبيني عمّا تيسر لك وما تذكّرتِه من أسئلتي،

فكانتِ المفاجأةُ أن أجنبي نبيلُ قائلًا: ألن تكفّ عن مُعاكساتك هذه!، ثمّ ضحك

- نبيل كيف أنت، مبارك لك، لقد أصبحت أبا كما تتمنى
وهنيئًا لك سلامة حنان .

- أتعلم ماذا أسمت أختك الطّفل؟!

- لطالما أخبرتنا بأنّها ستميه "فريد" كاسم والدك.

- لم تُسمّه فريدًا وحتّى لم تُسميه زيدًا على اسم والدها هذه العاقبة وسمعه يضحك

- ماذا أسمته إذا؟

- لقد أسميته هشام يا حبيبي، كان قد أعطاه الهاتف نبيل
لثجيبني عن سوالي.

ما أجمل أن يكون لك أخت، وما أجمل أن تكونَ حنانُ هي هذه
الأخت، حبيبتي أنتِ يا حنان، أنتِ أصغرُ منِّي بسنواتٍ خمس،
ولكنَّ في صدركِ حنانَ الدنيا بأكملها، في قلبك حبٌّ لي بوسعِ
الكون، ليحميكِ ربِّي ويحمي لكِ طفلكِ.
فأنهينا المكالمَةَ، وكانَ قلبي قد أخذَ جُرعةً من الرّاحةِ بعدها.

تعالِي يا إسراءِ سأقومُ الآنَ بمهاتفَةِ والدتك، فطلبتُ الرقمَ وأجابت
والدتها فتحدّثتُ معها ودمعاتٌ تهطل على خدِّي حبيبتي الجميلين،
هل هي دموع الشوق؟، لا بدَّ أنّها كذلك، فابتعدتِ حبيبتي بحيث لا
أسمعُها ولكن باستطاعتِي رؤيتها، فأبصرتها تبكي، وكان بكاءُها
بحرقةٍ لم أرها تبكي بمثلها من قبل.

فجاءت إسراءِ ،

- ما بك يا حمقاء !!

- لا شيء، لدي حساسيةٌ في عيني فقط، أمسِك هاتفكِ.

- أين هو حساب المكالمَة التي أجريتها يا أنسة؟

- أمي لازالت على الخط أيُّها الأحمق تريد أن تُحدِّثك، تريد

أن تُوصيكِ على الطفلة الصغيرة التي برفقتك، قالتها

بعصبيةٍ إسراءِ، فأجبت والدتها بسرعة،

- نعم يا خالة، لا تخافي، الكلُّ هنا يحبُّونها ويخافون عليها

فلا تقلقي.

- اسمعني يا هشام، ما بالها إسراء تبكي؟ هل هي مريضة؟
هل هي متعبة؟
- لالا يا خالة، هي بخيرٍ والحمد لله.
- وما سبب بكائها؟ وما الذي يدفعها أن تقول لي أنها سوف تموت؟ لقد قَطَّعت قلبي، اصدقني القول يا ولدي، هل هي بخير؟
- والله يا خالة أنها بخير، هي مشتاقَةٌ لك ليس أكثر، لا تخافِ عليها.

أنا كنت أطمئنُ والدتها وقلبي يغلي خوفاً عليها، فحاولت أن أنهي المكالمة بسرعة بحجة أننا سوف نتجهز للحفل، وما كان إنهنائي لها إلا لأنني أريد أن أقترب من إسراء وأعرف سبب بكائها، فأنا أراها منذ الصَّبَاح ليست على ما يُرام.

سألني قلبي :

- ألهذا الحد تخاف عليها يا هشام ؟
- أنت من يسأل هذا السؤال؟
- أليست هذه إسراء رفيقة الطفولة والصبأ !
- أليست رفيقتك في المدرسة والجامعة !
- أليست أمك هي من أطلق عليها اسم إسراء !
- أتنسى يوم حملتها بين ذراعيك وهي طفلةٌ صغيرة ؟

ألا تذكر ذاك القصر الذي أهديته لها عندما كانت طفلة!
أليس احتفاظها به طوال هذه السنين في غرفتها يحمل
لك أي رمزية!

أتنسى يوم تلقت خبر وفاة والدها، كنتم مجتمعين مع
أصدقائكم جميعاً، وحال تلقيها للخبر ألقى نفسها في
حضانك أنت وبكت وصرخت، صارت تضرب صدرك
بقبضتي يديها، وتقول : لماذا، لماذا!

أتذكر حفل تخرجها؟، أتذكر كم كانت فرحةً عندما أخذت
شهادتها من رئيس الجامعة، أتذكر كيف خالفت بروتوكول
الحفل وقفرت إليك في المدرج لتحضنك بدل أن تتبع بقية
زملائها للجلوس في مقاعد الخريجين.

جاءتني إسراء، مهما حاولت فلن تستطيع إخفاء تلك الدموع
التي تبعثر نقاء عينيك،

- أخبريني ما سبب بكائك؟ هل أنت متعبة؟ هل أزعجك أحد؟
- لا يا هشام ليس شيئاً من هذا، كل ما في الأمر أنني
اشتقت لأمي، وهذا ما أبكاني،

"قبل قليل قلت أن دموعك كان سببها الحساسية، وتقولين الآن
أن سببها اشتياقك لأمك وأظنها ليست حساسيةً ولا اشتياقاً،
أستطيع أنا أن أقرأ عينيك، فدمعائك عندي مثل حبر، ولن يجد
هذا الحبر صفحةً يخطُ ألمه عليها مثل قلبي.

تركها وتوجَّهت نحو زميلتنا، فتوجَّهت بحديثي لرويدة بالذات بحكم أنها شريكها في الغرفة فأوصيتها بها، فطمأنتني وقالت: لا تخف، ستكون في عيني يا هشام.

ذهبت رويدة وعيني لا تفارقُ إسرائ، أرقبُ نظراتها الممتزجة بدموعٍ لست أعرف سببها، وأتحين سماع صوتها، فلم تعد إسرائ تتهم كما كانت، وحتى كلماتها الرقيقة العذبة التي اعتادت أن تجامل بها الجميع باتت تخرج من فمها الرقيق من صدرٍ مختنق، ثرى ما الذي حدث بين عشيةٍ وضحاها!!!، ألم تكونِ تضحكين وتمزحين بالأمس!، ألم تسكبي على رأسي الماء المثلج؟، هل تخبئين شيئاً؟، أم أنّ خوفي عليك هو الذي يصور لي هذا!، هل من شيءٍ يولمك أو يُثعبك؟، أم أن حساسيتي الزائدة وقلقي عليك من يهينان لي ذلك!، لا أعرف، لكنّ ما أعرفه أنها ليست على ما يرام حبيبتي، فتوجَّهت نحوها وكانت تجلس على أريكةٍ بنيةٍ داكنة اللون وأمامها طاولةٌ دائرية، كانت إسرائ مغمضةً أعينها وتكثفُ أيديها وتضعها على تلك الطاولة وتضع رأسها فوقها، هل نظنين أنّ أذاك التي تخفينها ليست تفرع أبواب قلبي!، بلى يا إسرائ، أنا أشعر بك وأفهم سبب إخفائك لهذا التعب وذلك المرض، لكن إن كانت تهون عليك نفسك فلن تهون عليّ أنا، لن أسمح لك بالمشاركة في الحفل وأنا أعلم أنّك متعبة.

فوضعتُ يدي فوق رأسها، فتنبَّهت لي، فأخبرتها بأنّي لن أسمح لها أن تشارك في الاحتفال وهي على هذا الحال وأنّي سأخذها

للمشفى على الفور، وقلت لها: كيف أخون ثقة والدتك مع تأكدي
أن أمك ما كانت لتسمح لك بالسفر لو لم أكن أنا برفقتك، أعدك
سوف ننتزّه ونزور كل الأماكن التي ترغبينها بعد أن أطمئن
عليك.

- لا يا هشام، أنا لست موافقة ولست مُتعبة بالأصل
وسأشارك بالحفل رغماً عنك.

- سأموت من قلقي عليك، أقسم لك.

- أعرف ذلك يا هشام لكن لا داعي لأن تقلق، أنت أكثر من
يعرف أن لديّ مشكلة مُزمنة في القولون وأنا مُعتادة على
ذلك.

ليت المشاعر في قلوبنا لها عضلات إرادية كي أوقف قلبي
عن هذا الخوف.

يا إخوتي، ناديتهم هكذا على غير عادتي، عادةً أنعتهم بالمجائين
لكن يبدو أن خوفي على حبيبتي لم يُبق لي ذرة مزاج لممازحة
أحد، ماذا تريدون أن نفعل الآن؟

فأجمعوا على أن نخرج للنتزّه، فخرجنا وسألنا أكرم أين نرغب
بالذهاب، ألى أحد الشواطئ أم المتنزهات؟

فأجبتُه أنا وقلت: ليس هذا ولا ذاك، نريد أن نتجول في هذا
الشارع و نختلط بأهل الجزائر الأطياب و نستنشق هواءها، أريد
أيضاً أن أزرع نبتة في أرضها، علّها تكبر يوماً وتزهر فتندكرني
أرض الجزائر، وعلّ حبيباً يقطف هذه الزهرة ويضعها في شعر

حبيبته فيزرع الفرحة في قلبها فتكون فرحتها هذه صدقةً جاريةً
لي تنفعني يوم لقائي لربي.

هيا يا رفاق أين تريدون أن نتجه، أشرقاً أم غرباً؟

فقال يوسف: يا هشام، ألسنا في أرض الجزائر؟!!

- بلى

- فأينما اتجهنا إذا فسوف نشعر بالسعادة.

- إذا فلنترك للصبايا حرية الاختيار.

- ما رأيكن يا صبايا أين ترغبن بالمشي؟

فهمست إسراء بأذن رويدة ولا أدري ماذا كانت تريد منها، لكن رويدة أبدت عدم رغبتها بهذه النزهة معللةً ذلك بأنها تشعر بالنعاس، ومع أنك شكوت لرويدة يا إسراء ولم تشك لي، إلا أنني أنا أولى الناس بمساعدتك والوقوف إلى جانبك، فالألم الذي تُحسّينه في عضوٍ من أعضاء جسمك وهو القولون على الأغلب، أنا أحسنّ به في وريدي يا حلوتي، أستطيع أنا منعك من المشاركة في هذا الحفل حتى عن طريق الأمر، لكن قلبي لا يطيعني أن احرمك منها وقد كنت أرى في عينيك تلك الفرحة.

فعدنا أدرجنا إلى الفندق، اصعدوا لغرفكم الآن و سادعوكم

لمشاهدة فيلم في قاعة السينما في الفندق

- ماذا عنك يا إسراء؟ هل تودين مرافقتنا؟

- بل أنتم من سيرافقتي، فأنا إسراء عاشقة الفن السابع.

فصعدوا إلى غرفهم كي يستريحوا، وصعدت أنا وأكرم برفقتي، أراه يحرك شفتيه، لكنني لا أسمع له صوتاً، ربّما هو صوت دقات قلبي من يمنة أذني من سماع صوتك يا أكرم، فنتبّه أنّه يتحدّث مع نفسه، يبدو أنّه طرح عدّة أسئلة لكن لا حياة لمن تنادي ، اعذرنى فليتك تدري بهذا البركان المتقد في صدري، قلبي أحسّه استحال إلى قطعة من الجمر، فبدل أن يضحّ الدم في أعضاء جسمي أحسُّ أنّه بات يقذف لهيباً وحمماً.

أنذر هاتف الغرفة بالطنين، فارتعد قلبي، لا بدّ أن شيئاً ما حلّ بإسراء، فأجبت بسرعة ما بك يا رويده؟، هل لديكم مشكلة؟، هل إسراء بخير؟، فإذا به موظّف الاستقبال في الفندق يُبلغني أنّ حافلة أكرم تغلق مدخل المواقف، فأخبرته بذلك ليقوم بتغيير مكانها فأخبرني برغبته في العودة لمنزله وأوصاني أن أتصل به إن احتجنا للذهاب إلى أيّ مكان، فخرج أكرم وبقيت وحدي، لن أتصل بالصبايا عبر الهاتف كي أسأل عن إسراء، سأذهب إلى غرفتهنّ مباشرة، كم تمنيت لو أنّ إسراء كانت من يفتح لي الباب وأمطرتني بوابلٍ من الشتائم والاتّهامات بقلة الدّوق، لكنّها وكما توقّعت ظلّت أمّنية، فرويدة هي من فتح الباب

- أين هي إسراء؟

- هي نائمة بالداخل

- اصدقيني القول، هل هي بخير؟

- نعم يا هشام هي بخير ونائمة لاتقلق.

- ابتعدي، أريد الدُّخول والنَّظر إليها.
- نعم، بالتَّأكيد سأسمح لك بأن تدخل وتتنظر إلى الفتاة وهي تلبس ملابس النَّوم، هذا ما كان ينقصنا، اذهب إلى غرفتك أيُّها الأحمق اذهب.
- لن أنظر إلا إلى وجهها أعدك.
- فضحكت رويده وقالت: هذا كوعد الذئب بأنَّه سيحرس قطيع الغزلان، اذهب إلى غرفتك يا هشام وستكون إسراء بخير، اطمئن
- أنا متأكِّد أنك تكذِّبين
- يا أحمق، أقسم لك أنَّها نائمة وصدِّقتي لا يليق أن تدخل عليها الغرفة وهي بهذه الملابس.
- ذهبتُ أنا إلى غرفتي كي أستريح فأغلقت أعيني وبركةً عميقةً من الدَّمع راكدةً خلف أجفاني تمنعني أن أفتح عيني، لا تخافِ أيتها العينان، فلست أشتهي أن أنظر إلى شيءٍ الآن، وما أغمضتك رغبةً في النَّوم، أغمضتك هروباً من هطول دمعاتي على خدي كما تعلَّمت من أبي بأنَّه من العيب أن يبكي الرِّجال، وعلى الرِّغم من اختلافي مع هذه المقولة إلا أنَّني لم أرغب بالبكاء لأنَّني أخشى الفأل السيِّء كما تقول أمي دائماً: لا تكن متشائماً أبداً، ما بالي أهذي هكذا وأسترجع آداباً وسلوكياتٍ تعلَّمتها في طفولتي، أنا لا أملك إجابةً محدَّدةً عن هذا التساؤل، لكن لعلَّ غفوةً عابرةً تخطفني فأرتاح من هذا القلق على حبيبتي، فغفلت عيني و أحسبُها كانت تنشد حلماتاً تكون إسراء بطلته،

فطالت سنين الانتظار، حقيقةً هي لم تكن سنواتٍ وحتى لم تكن أياماً، بالكاد وصلت إلى ساعةٍ واحدةٍ وقليلٍ من الدقائق، لكنّها كانت جدُّ طويلةٍ فترة انتظارٍ كي يقوم هاتفي بالطّنين ولو كانت مكالمةً عن طريق الخطأ، كنت قد أوعزت لزملائي بأن لا يقوموا بإيقاظي لموعد العشاء، وكنت أولهم خروجاً من غرفتي، ولم يكن الجوع ما أخرجني، لكن قد يتسرّب خبرٌ سارٌّ من غرفة إسراء ورويدة ليضطرب آذاني ويخمد ذاك البركان الثائر في قلبي ويطمئني أنّ إسراء أصبحت بخير، فبدأ المجانين بالتوافد إلى صالة الطّعام وبدؤوا بملئ أطباقهم،

- ما بالك يا هشام؟، هل تودُّ أن أسكب لك شيئاً؟
- لا يا سارة، أنا أريد منك شيئاً آخر،
- تفضّل ماذا تريد؟
- أريدك بعد أن تنهي طعامك أن تتوجّهي إلى غرفة إسراء ورويدة وأن تطمئنيني إذا ما كانت إسراء بخير، فكما ترين لم تنزلا كلتاهما لتناول العشاء، أتمنّى أن يكون النّوم ما منعهما من النّزول.
- كم مرّة قلت لك أنّها حبيبتك وكنت تتنصّل من الإعراف، هيا اعترف الآن.
- سأعترف، نعم هي حبيبتي وأسأل الله أن تكون زوجتي.
- فبدؤوا يتناولون طعامهم وتوجّهت سارة سريعاً نحو المصعد لترى إسراء ماذا حلّ بها، ولم أكن مخطئاً حين اخترتك يا سارة

كي تذهبي لتطمئنيني عليها، فمن يرى لهفتك في الصُّعودِ إلى
غرفتها، ناهيك عن السُّرعةِ التي أنهيتِ بها طعامك، بل ومن
يرى طبقك الذي يفترض أنه عشاؤك الذي أنهيته كيف هو
ممتلئ، سيعلم حتماً أيُّ محبةٍ في قلبك لصديقتك، ليت عندي
صديقاً يُكنّ لي مثل هذه المحبةِ.

الدقائق تمر وقلبي يدق وأيادٍ ناعمةٌ حنونةٌ يصدر منها ريحٌ
أطيب من ريح المسك جاءت وأغمضت لي عيني، إنها إسراء
وهي تعلم أنني سوف أعرفها على الفور من نعومة يديها ومن
طيب رائحة الياسمين التي لا تفارق جسدها ولأنّها هي من يفعل
هذه الحركة دوماً، فأمسكتُ تلك الأكفِ الحنونة ورفعتها عن
عيني وقبّلتها والتفت خلفي، يا لروعة تلك اللحظة،

- كيف أنتِ يا حبيبتي؟، كيف هي صحتك؟
- حمدًا لله أنا بخير، لكنني عاتبةٌ عليكم.
- لماذا يا حبيبتي؟ ماذا فعلنا؟
- تنزلون لتأكلوا وتتركوني نائمة، لن أسامحك.
- لا، انا أعرف أنك طيبة القلب، استريح في مكانك وأنا
سأحضر لك الطعام الذي تحبينه.
- فذهبتُ إلى بوفيه الطعام وملأتُ طبقها بالمأكولات التي تفضلها
حبيبتي وعدت إلى الطاولة، أكاد اظير من سعادتي،
- تفضلي يا سمو الأميرة.

نعم، لقد فرحتُ لرؤياك يا حلوتي، لكنَّ الشَّحوبَ الذي في وجهك
وابتسامتك المصطنعة وعينيك اللتين تخفيان الكثير من الألم
تنعَّصان تلك الفرحة.

عندما تنهينَ طعامك سنتوجّه إلى المشفى كي نطمئنَّ
عليك.

- لا يا هشام، أنا لست بحاجةٍ إلى مستشفى، فأنا معتادة
على نوبات القولون هذه، ألا تذكر؟

- أتمنى أن تكوني بخير، اصعدي الآن واستريحي قليلاً
وسأذهب لأحجز تذاكر السينما وآتي إليك.

فصعدت اسراء واشتريتُ أنا التذاكر ثم صعدتُ إلى غرفتي وكان
قد تبقى على عرض الفيلم ساعةً كاملة.

الشيء الطبيعي الذي يفترض بي فعله هو أن أقوم بتبديل
ملابسي والاستعداد، لكنني آثرت التَّفكير في حبيبتي الجميلة،
فأُخرجتُ مغلف الذكريات المخزَّن في ذاكرتي، فجاءت بخاطري
هذه الذكرى، عندما وُلدتِ كانت أمي ذاهبةً كي تفحص أختي
الصَّغيرة حنان التي تكبرك بأشهرٍ ثلاثة، كانت تجلس في غرفة
الانتظار، وكنت مرافقاً لها، كان هذا لحسن حظي يومها فقد
راففقتها ولم يفعل أخي هاشم، فجلَّست أمك في المقعد المجاور لنا
وكان برفقتها أخوك ساجد رحمه الله، لو بقي على قيد الحياة
لكان الآن في مثل عمري، فبدأت آلام الطَّلُق تبدو على وجه أمك
فاستدعت أمي لها الطبيبة، أذكر أنَّ أخاك ظلَّ برفقتنا يومها إلى

أن جاء والدك رحمه الله، وبعد ساعةٍ من الزمن تنقص قليلاً أو تزيد خرجت الممرضة تزفُّ إلى أبيك بأنَّ أمَّك قد أنجبت بنتاً كوجه القمر وجهها، فهنأنا أباك بقدمك وبسلامة والدتك وكان الفرح والسُرور مُرتسمين على وجه أبيك يومذاك، فاخذ والدك رأي أمِّي في اسمٍ لمولودته، ولم تكن له بنا معرفةً مُسبقة، لكنَّ فرحته قد طمست على خجله من أن يكلم امرأةٍ غريبة كان يراها لأوَّل مرة، ناهيك عن أخذ رأيها في اسم لابنته، لا بأس، لم تكن أمِّي يومها تتخيَّل أنها تختار اسماً لحبيبة ابنها التي ستكون زوجته!، فاخترت أمِّي لك اسم إسرائ، تيمناً بذكرى الإسرائ والمعراج التي صادفت يوم ولادتك يا حُلوتي، فدخلت أمِّي إلى عيادة الطَّبيبة في الموعد الذي حجَزته مسبقاً وأنهت إجراء الفحوصات اللأزمة لحنان ثمَّ خرجت بلهفةٍ عجيبة لن أنساها، كانت مسرعةً و تحملُ حنان بيدٍ وباليد الأخرى كانت تسحبني ثم ذهبنا لغرفة والدتك كي تطمئنَّ عليها، كانت نائمةً أمَّك، فمسحت أمِّي بكفِّها على جبينها وطلبت من الممرضة المرافقة لوالدتك أن ترافقها لغرفة الأطفال الخدج كي تُلقِي نظرةً عليك يا بدر البدور، أذكر أنّي سألت أمِّي يومها: أمِّي أمِّي متى سألعب معها؟، فضحكت أمِّي وقالت مازحةً ستلعب معها وسأخطبها لك أيضاً،

- هل أنت موافقٌ يا حبيبي ؟

- دعيني أفكّر.

فضحكتُ أمِّي وقبَّلتُ رأسي، أذكر أيضاً عند خروجكما من المستشفى، اصطحبتني أمِّي إلى المتجر كي نبتاع هديَّةً لأمِّك ونهنِّئها بالسلامة، وأذكر جيِّداً ذاك القصر الذي تشبَّثتُ به في قسم الألعاب وعندما سألتني أمِّي إن كنت أريده قلتُ لها: هذا منزلنا أنا وإسراء، فضحكتُ أمِّي وقالت: هنيئاً لها ستسكن في هذا القصر مع فارس الفرسان، فاشترينا القصر، فسألتني أمِّي: هل ستحتفظ به في غرفتك؟

- لا يا أمِّي، هذا هديَّةٌ لإسراء.

- تريد أن تسكن زوجتك قصرأ، وتترك أمِّك وحدها في منزلها الصغير؟

- لا يا أمِّي، أنت ستسكنين معنا في قصرنا.

- ليحفظك ربِّي يا ولدي، أنا لا أريد شيئاً سوى سعادتك.

لم أحسَّ بمرور الوقت، فنظرتُ إلى الساعة وكانت التاسعة والنصف، فبدَّلتُ ملابسِي سريعا وطلبتُ الصبايا والشباب بالهاتف ونبَّهتهم أن يقوموا بتجهيز أنفسهم فعرضُ الفيلم سيبدأ عند العاشرة، ثم تقابلنا جميعا في ردهة الفندق في الأسفل وحبيبتي كانت أوَّل الحاضرين، حمداً لله، لا يعلم أحد كم كنت خائفاً أن تكون لازالت متعبة، فسألني المجانين عن الفيلم الذي اخترته وما إذا كان عربياً أم أجنبياً، فأخبرتهم أنه فيلمٌ أجنبي، اسمه "Serendipity"

- وماذا تعني هذه الكلمة؟، أنت تعلم أنني لا أفهم بالأغة الانجليزية سوى كلمتي "Yes" و "No"
- فقلت لها: هي تعني "صدفة"، فقالت إسراء: وهل هو فيلم كوميدي أم رومانسي أم درامي؟
- هو يجمع بين الكوميديا والرومانسية، سأترك الكوميديا للمجانين وأستمع بالرومانسية معك يا حلوتي، فهل أنت موافقة؟
- نعم نعم يا هشام.

- أمسكوا ، هاهي تذاكركم.
- وهل اخترتَ فيلمًا جيّدًا؟، أم سنخرج من منتصف الفيلم نتيجة اختياراتك المملّة المعتادة؟
- لا تقلقي يا سيّدة ريم، ستخرجين من بدايته فأنا أعرفك لا يعجبك شيء.

كانت تستمر تناكفني ريم، تريد تقليد حبيبي، وشتان بين مناكفة هذه وتلك!، فأنتِ يا حبيبي لا يُشبهك أحد.

فوزّعت عليهم تذاكرهم وكنت حريصًا أن تكون إسراء هي من يجلس في المقعد المجاور لي،

الساعة الآن العاشرة إلا خمس دقائق، فدخلنا القاعة وجلسنا في مقاعدنا، دقائق وسيبدأ عرض الفيلم، فقاموا بإطفاء الأضواء وأضيئت شاشة السينما، أعذروني فأنا لست بحاجة لإضاءتكم،

ولا حتّى أنا بحاجةٍ إلى رومانسيّتك الموعودة في فيلمكم، فأنا يكفيني وجهُ هذه الحسناء التي بجانبِي، فنوره كافٍ لِإضاءة مدينةً بأكملها، وأمّا بشأن الرّومانسية فإمساكها بذراعي ورأسها المستند على كتفي يكفيني عن هذه الرّومانسيّة، يبدو أنّي وإسراء قد ملّنا ذلك الحبّ الخفي المختبئ في قلوبنا فأصبحنا نُظهره للملئ شيئاً فشيئاً.

بدأ الفيلم وتسارعت أحداثه، البطل يهّم بتقبيل البطلة، فهَمست إسراء بأنّي وأخبرتني برغبتها في الذهاب إلى دورة المياه، يبدو أنّها خجلت من مشهد القبلة، الأمر يبدو طبيعياً، وبدأ يفقد طبيعيتَه المُفترضة حين هَمست بأذن رويده التي كانت تجلس في المقعد الذي أمامنا لتتنفّض رويده من مكانها وتقوم على الفور، شيءٌ غريبٌ يحدث، ولن أصبر طويلاً فقامت من مكاني ولحقت بهن ، كانت إسراء ورويده تمشيان أمامي، أراهن ولا ترينني، كانت إسراء تضع يدها على بطنها من الألم، وما أن شاهدت أنا هذا المنظر حتّى صرخت وناديتهنّ من بعيد، فالتفتت لي رويده، فذهبت إليهنّ مُسرّعا.

- ماذا جرى يا إسراء؟، ماذا جرى يا حبيبتي؟، ما الذي

يؤلمك؟

فأجابتنني بصوتٍ بالكاد يُمكنك سماعه: إنّهُ القولون يا هشام، بالكاد أكملت هذه الكلمة حتّى وصلنا إلى دورة المياه الخاصّة

بالسيدات، فدخلت إسرائ ومعهما رويدة وأخبرتهن بأنني انتظرهن في الخارج.

يدٌ وُضعت على كتفي فنظرتُ خلفي فإذا بها ريم، فسألنتني عن سبب خروجنا من قاعة العرض، لأخبرها أن إسرائ مُتعبة، يبدو أنها نوبةٌ من تهيج القولون،

- ادخلي إليهن وأخبري رويدة أن تصعد لتحضر دواء إسرائ فهي تعرف مكانه، فدخلت إليهن ريم وغابت لدقائق ثم خرجت، فقالت: لا تقلق ستخرج حبيبتيك الآن، لقد كان مغصاً بسيطاً، وبالفعل خرجت إسرائ تتكى على رويدة، فأمسكتُ رأسها بكفيّ وسألتها: هل أنت بخير يا حبيبتي؟، هل زال الألم؟، هل هو الألم المعتاد أم ماذا؟

- نعم يا هشام، لا تقلق، أنا بحاجةٍ إلى النوم فقط.

- ألن تكلمي مشاهدة الفيلم؟

- أكملوه أنتم وسأشاهده أنا في وقتٍ لاحق.

فقبلتُ رأسها وقلت: وأنا أيضاً بحاجةٍ للنوم، فلتعدن يا صبايا لمشاهدة الفيلم، وأنا سأوصل إسرائ إلى غرفتها فقلن بصوتٍ واحد: لا يا هشام

- نحن سنرافقها ونبقى معها حتى تنام، اصعد أنت إلى غرفتك واسترح،

فصعدنا في المصعد سوياً، فأوصلتهن إلى غرفتهن وتوجّهت أنا لغرفتي، كنت قد تحجّجت بآني أريد النوم، وأيُّ نومٍ هذا

الذي سيزور عيني وأنا أرى حبيبتي تتألم أمامي!، فهاتفت
غرفة إسراء ورويدة فأجابتنى رويدة: من معي؟

- أنا هشام، كيف هي إسراء؟

- لقد دخلت إلى الغرفة وألقت نفسها على السرير ونامت
دون حتى أن تُبدل ملابسها، تبدو مُتعبَةً يا هشام.

فقلت أنا والدمعة في عيني: سأتيكم إلى الغرفة فورًا ولم
أنتظر أن أسمع ردَّ رويدة، فأقفلتُ الخطَّ وتوجَّهتُ إلى غرفتهنَّ
في الحال فقرعتُ الباب لتفتحته رويدة، لهفتي على إسراء لم
تجعلنِ أنتظرِ إننا من رويدة بالدُّخول، فأبعدتها عن المدخل
ودخلت كي أرى إسراء، لأجدها نائمة، ويل قلبي، فهو يريد
إبقائها كي يطمئن، وعقلي ورويدة وريم اجتمعوا أن لا أقوم
بذلك و أن أتركها لتستريح، يبدو أن حبيبتي سمعت نداء قلبي
الذي يكاد يخرج من بين أضلعي، ففتحت أعينها وابتسمت
ابتسامتها الرائعة وقالت: ما هذا!، يبدو أن عندنا ضيوف،
أهلاً أهلاً، فقبلت جبينها،

- هل أنت بخير يا حبيبتي؟

وقفت رويدة ورائي وصارت تُشير بأيديها كمن يعزف على
الكمان، وأمسكت ريم الشموع فوق رؤوسنا، فنظرتُ إليهما،

- شو بتمسخروا؟

- لا والله، فرحانين فيكم

- ان شاء الله بنفرحكم صبايا.

ماذا عنك يا إسراء؟، كيف هي صحتك؟

فقلت: لا تكن لحوحاً مثل أمي، أنا بخير، كفاك أسئلةً واذهب إلى غرفتك، نريد أن ننام، فقلت لها: نامي أنتِ يا حلوتي و سأسهر مع ريم ورويدة، فقاطعتني رويدة قائلة: أين تريد أن تسهر؟، أنا أريد أن أنام أيضاً، هيّا اذهب أنت وريم إلى غرفتيكما، حقيقةً لم يكن هدفي أن أسهر مع هذه ولا تلك، كنتُ أريد مقعداً مقابلاً لوجه حبيبتي ليصطدم زفيرُ أنفاسِها بوجنتي تارةً، وبجبیني تارةً أخرى ، فقَبَلْتُ جبينها وأوصيتُ رويدة أن تعتنيَ بها وأن يُهاتفوني إذا احتاجوا إليّ، ثم خرجتُ وريم من الغرفة.

- ريم أنا لن أستطيع النوم الآن، ماذا عنك؟

- أنا أيضاً، لن أنام

- حسناً، تعالي كي نشرب القهوةَ سوياً في الأسفل، فنزلنا

للمقهى وطلبنا القهوة، وبعد طول تأملٍ في فنجانِي وفِيضِ

من الأفكار التي دارت بعقلي قلت لريم:

- ما رأيك لو دخلنا لغرفنا كي ننام!

- هل تريد النوم؟

- لا، بس الدنيا ليل، واحنا لجانا وثالثنا الشيطان ومعِي

صبية حلوة،

فضحكت ريم وقالت: مستحيل أصدق إن عينك بتشوف أحلى من

إسراء.

- والله معك حق يا ريم بس خلينا نطلع نرتاح.

فعدت لغرفتي وعدت لإخراج المذكرة المحشوة بالذكريات التي تخصني وتجمعني بحبيبي، لأتذكر هذه المرة عندما رأيتها تبكي عند انصرافها من مدرستها وكانت في الصف الثاني المتوسط وكنت أنا في الثانوية العامة، أذكر الجنون الذي أصابني يومها، فاكثفتُ بمسح دمعها فقط وأخبرتني هي دون سؤال أن فتاةً لطمتها، فلم أسأل يومها عن السبب وسألتها عن مكانها فقط!

- على خدي يا هشام،

- أنا بسأل عن البنت، مش عن مكان الضربة!

فأشارت لي أنها تقف هناك عند مدخل المدرسة، فأمسكت يدها وتوجهنا نحو الفتاة فوقفتُ أمامها وسألتها عن سبب ضربها لإسراء، فضحكت ونأت بوجهها باستغناءً مستفزٍ وقالت: هل تريد أن أضربك أنت أيضاً؟، فاستفزني تهكمها وزاد غيظي منها، فشددتها من شعرها عندما أدارت ظهرها لي، وجعلت وجهها قريباً مني ثم صفعتها على خديها الأيمن وقلت لها: هذه من أجل إسراء، ثم صفعتها على خديها الأيسر وقلت: وهذه من أجل وقاحتك، فأحسست بيدٍ تلمس كتفي فالتفت خلفي وإذا به ضابط أمن المدرسة يصرخ في وجهي أن كيف فعلت ذلك؟، فلم أنطق أنا بكلمة واحدة، وإذا بالفتاة تُحضر والدها وهي تبكي، فلم يُعطِ الرجل أحداً فرصةً للحديث وقال بوجهٍ يقذف قصوراً من الشر: أين هو "الكلب" الذي ضرب ابنتي؟.

وبرغم أنه وصفني بالكلب إلا أنني لم أتفوه بكلمة واحدة وكنت أدعو في سرِّي أن لا يُخبره ضابط الأمن أنني مُرتكب الجريمة، كنتُ أدعو أيضًا أن تظلَّ دموع ابنته تُغيم على أعينها فلا تراني، فاستجاب الله دعائي، فوقف حارس الأمن جواري وهمس بأذني وطلب منِّي الخروج معه من الغرفة، فخرجنا و قال لي ابق هنا يجب أن يعرفَ والد الفتاة من ضرب ابنته، لكنِّي لم أشأ إخباره وأنت أمامه لأنَّه كان سيقْتلك حتمًا، فشكرته ودخل بدوره إلى غرفة الحراسة وبقيت بانتظاره في الساحة الخارجيَّة، وإذا بصوت صراخٍ يخرج من الغرفة، يبدو أنَّه أخبر والدها أنني من اعتدى على ابنته، الرَّجل يحاول الخروج من الغرفة والحارس يمنعه، لأنَّه لو خرج فإنَّ جريمة قتلٍ سوف تُرتكب وبالطبع سأكون أنا الضحيَّة، فسمعتهم يتفقون على طلب الشرطة، فتظاهر الحارس أنَّه طلب مركز الشرطة ومن المفترض أنَّهم قادمون في طريقهم إلينا، ثم خرج إليَّ وطلب منِّي مهاتفة والدي ليحضر ويحاول أن يجد حلًّا مع والد الفتاة، فهاتفتُ والدي وطلبتُ منه الحضور لمدرسة أختي حنان فهي مع إسرائ في المدرسة ذاتها، و لم أجد سبيلًا لطلب حضوره سوى القول أنَّ المدرسة ذاتها، و لم أجد سبيلًا لطلب حضوره سوى القول أنَّ أختي حنان لديها مشكلةٌ في المدرسة ويجب أن يحضر شخصيًّا، كنتُ أراهنُ على أنه في عمله ولن يعلم أنَّ حنان استقلَّت حافلة المدرسة وأصبحت في المنزل منذ ما يقارب الساعة، فحضر أبي سريعًا و رآني في الباحة قرب مكتب الحارس،

- أين هي حنان؟، ما هي مشكلتها؟
- يا أبي، المشكلة لا تخص حنان، المشكلة تخصني أنا.
- مشكلةً تخصك!، وعند مدرسة البنات!، هل تحرّشت بأحدهنّ يا ولد؟
- لا يا أبي، لقد ضربت فتاةً من أجل إسراء.

فقاطع والد الفتاة كلامي عندما خرج من غرفة الحارس ليهجم عليّ ويحاول ضربي، قبل أن يحجزه والدي ويُبعده عني، فدخلوا يومها جميعاً إلى غرفة الحارس وبقيتُ أنا في الخارج أتلذذ ببطولتي أمام إسراء.

كلُّ شابٍ في هذه الدنيا يُحلم أن تكون له حبيبة، فيفتنّ في إظهار بطولاته أمامها، والغريب أنّ أفعاله تلك لا ترقى حتّى لأن تُوصف بالشجاعة، فتفرح حبيبته بتلك الفعال وترسم على محياها ابتسامة لا تُقدّر عنده بمال، الجميل في الأمر أنّها تعلم أنّ أفعاله تلك مصطنعة، لكنّه اصطنعها لتعجب هي به، الشعور الذي يغشاها حينها أعظم من شعورها لو أنّه هزم جيشاً عرمرم وحده، فعُله الأحمق الذي قد يضحك منه طفلاً في السابعة هو عندها أهمّ من هزيمته لذلك الجيش، فحماقته هذه فعّلتها من أجلها وحدها، أمّا هزيمته للجيش فمن أجل وطنٍ وشعبٍ بأكمله، وفيهم أعرف عن بنات آدم، أنّ مبدأ الشراكة في قلب من يُحبّبه مرفوضٌ على الإطلاق، ويصل الرّفص في بعض الأوقات، أن ترفّض حبّ والده له ووالدته!، وهذا ما يكون سبباً في كثيرٍ من الخلافات الزوجية

ويكون سببًا في أن يُطلق لقب "رجلٍ" على أحدهم و يُوصف الآخر بأنه "محكوم"، كان هذا موضوع أحد مقالاتي وكان بعنوان "بين الحكيم والمحكوم"، ناقشتُ في مقالي نظرة المجتمع للرجل الذي يكون حكيماً في التَّعامل مع أنثاه، فيوازن بين طاعة والديه ورضا زوجته، أسمع كثيراً في حكاياتنا العائليَّة أن فلاناً رجل والآخر محكومٌ لزوجته، فبحثت في أسباب منحهما هذا الوصف وهذه الدَّرَجَة، فبحثت كثيراً في العلاقات الرَّوْجِيَّة بين أقاربي وأصدقائي وفي المجتمع، حتَّى استقرَّ فؤادي على إجابة كانت شافية نوعاً ما، فقد كانت التَّفَرُّقَة بين "الرجل الحق" و "الرجل المحكوم" تعتمد على القوَّة بشكلٍ رئيسيٍّ، فإنَّ هو ضَرَب زوجته وعَنَّفها أو نَهَرَ حبيبته وأهانها سيكون رجلاً حقاً لا تشوب رجولته شائبة، وإن هو وازى بين رضا أهله ورضا زوجته، فسيكون رجلاً محكوماً بنظرهم، غريبٌ هو مجتمعنا، فعلى المرأة أن تفرح إن هي نالت حقاً من حقوقها، و تُعَدُّ دموعها التي تنهمر على خديها نتيجة منعها هذا الحق هي بُرْهانٌ للرَّجولة، فقلت في نهاية مقالي: بنس الرَّجولة تلك التي تُبنى على دَمعة أنثى، وبنس المجتمع ذاك الذي يُطلق على الرَّجل أنه محكوم، فقط لأنه يحترم زوجته.

خرج أبي من غرفة الحارس والرجل يتبعه فصفعني على وجهي وصار يصرُخُ بصوتٍ مرتفع ويقول: قَبِلْ رأس عمِّك واعتذر منه

يا وَاَد، فلم التفت له ولم أجبه حتّى، فهذه كانت المرّة الأولى التي تمتد بها يد والدي لضربي، لكن لا بأس، فلو كنت في موقفه لكنت فعلت ما هو أكثر بولدي.

ما دعاني لتذكّر هذه القصة الآن هو أنّ الفتاة التي صفعها كانت ريم زميلتنا في فريق الدبكة والتي أصبحت صديقةً مميزةً لإسراء فيما بعد، كما أنّ الرجل الذي كان يتفكّلت لضربي أصبح شريكاً لوالدي في تجارته، لا أعلم أيُّ سحرٍ لدى أبي جعل الرجل ينقلب من ذاك الغضب الشديد الذي كاد يقتلني بسببه إلى أن يصبح أعزّ صديقٍ له ويصبح شريكاً له في كلّ أعماله، أجابني عن تساؤلي هذا والدي في طريقنا للمنزل حين قال لي: لم تمتد يدي يوماً لضربك يا ولدي، أتعلم لم ضربتك اليوم؟، فأجبتّه بأنني أظنّ أنّك ضربتني لأنني ضربت الفتاة.

- لا ، ليس لهذا ضربتك يا هشام.

- لماذا ضربتني إذا؟

- ضربتك حتّى أطفئ ذلك البركان المشتعل في صدر الرّجل، سيأتي يومٌ قد أكون فيه غير موجود وستأخذ درساً من هذه الصّفعة وستترحم عليّ، ولقد أخذت هذا الدرس يا والدي بعد عشرة أعوام وأنت على قيد الحياة أسأل الله لك العمر المديد.

لقد تعلّمت أنّ الإنسان يمكن أن ينقلب من الكره الشديد إلى الحبّ الشديد بكلمة وبالكمة في التصرف كما فعلت .

صوت المؤذن يجلجل في الفضاء، إنَّه وقت صلاة الفجر، هذا ما كنت أحتاجه، أن ألقى همومي على سجّادتي وأرسلها بدعائي إلى ما فوق السّماء السابعة بأن يحمي الله لي إسرائاً، فصلّيت لربي ودعوته، ولمّا فرغت من صلاتي كانت شمس الصباح تصارع ظلام الليل كي تشرق مُعلنةً بداية يومٍ جديد، وكان النّعاس أيضاً يصارع عيني كي أنام، فانتصرت الشمس على ظلمة الليل فأشرقت رُغماً عنه، لكنّ النّعاس لم يستطع أن ينتصر على أهدايي ويجبر عيني على النوم، فقامت بغسل وجهي وتبديل ملابسي وخرجت من غرّفتي ثم جلست في الرّدهة الخارجيّة فطلبت كوباً من القهوة عليّ أتخلّص من شعوري بالنّعاس الذي يأبى أن يتحوّل إلى غفوةٍ أستريح بها من عناء القلق والتوتر اللذين يؤرقاني، فخلوتُ مع قهوتي وأشواقي وذكرياتِي، كم وفيّةً هي القهوة، ترافقتي حين لا يرافقتي أحد، تظلّ معي في أصعب الظروف، أحسب أنّها كانت بيضاء، وما كان اسودادها إلّا من همومنا التي نشكوها إليها، هي حلوة المذاق أحسبها، وما كانت مرارتها إلّا تعبيراً عن حزنها ومواساتها لنا، فكما أنّ العين تبوح بحزنها عن طريق الدّمع، تبوح القهوة بحزنها عن طريق مرّ المذاق .

تُوشك الساعة أن تصير الثّامنة وعيني لا تفارق المصعد فقد ينزل أحدهم بين لحظةٍ وأخرى وقد يُفتح باب المصعد فتنبعث

رائحة الياسمين التي يُطلقها جلد حبيبتى محمولةً على نسمةٍ باردةٍ حنونة تلامس أنفي لتتسلَّل إلى رثتي، لكن رغم أن الساعة حادت عن الثامنة وبدأت تُهرول نحو التاسعة إلا أن أحدًا من المجانين لم ينزل والأغرب أن أحدًا من نُزلاء الفندق لم ينزل أيضًا، ثرا هل اتفقوا على ذلك جميعًا، فصادفتُ أحد العمَّال الذين قاموا بمساعدتنا عند وصولنا فسألته: مالي أرى أن أحدًا لم ينزل لتناول الإفطار!، فقال لي: يبدو أنك جائعٌ، أليس كذلك؟، لا، ليس هذا، أنا فقط مستغربٌ أن زملائي لم ينزل منهم أحد، فأجابني: يا سيدي موعد الإفطار عند الساعة التاسعة، إذا كنت جائعًا سأحضر لك الإفطار حالاً.

- لا لا يا صديقي، سأنظر أن أفطر مع زملائي.

لستُ جائعًا ولا أظنُّ معدتي قادرةً على تقبُّل الطَّعام أصلًا، أظنُّ أنَّ عصبًا مُتَّصلًا بدماعي يبتزني فيحجب شهيتي لأيِّ طعام حتَّى يرى إسراء ويطمئنَّ عليها، قرأت كثيرًا من قصص الحب وسمعت كثيرًا من رواياته، وكنت أرقب الأحبة يتبادلون القُبْل، الأحضان والورود في عيد العشاق، ولم تكن تروقتي سوى نظرة إسراء لي في كلِّ عيدٍ عندما كنت أغرس لها وردةً حمراء في شعرها الذهبي، فتسألني عن مناسبة هذه الوردة، ولم أجبها مرَّةً عن سؤالها، كنت أقبِّلها فقط وأحتضنها وأحملها وأدور بها حول نفسي حتَّى يصيبنا الدُّوار ونسقط أرضًا وتنتلق ضحكاتنا المجنونة.

رائحة الياسمين التي أحبُّها تُلامس أنفي، فتهمسُ حبيبتي لي بأذني قائلَةً اعترف الآن فيمن تفكّر؟، فيمن غيرك سوف أفكّر يا حلوتي!، كيف أنت؟، هل أصبحت بخير؟، أستطيع أن أرى الألم في عينيها الجميلتين، هي تعلم أنّي أحسُّ بها وتعلم أيضًا أنّها هي بالذات لا تستطيع أن تكذب علي، ربّما كانت أختي حنان تستطيع ذلك، لكنّ إسراء لن تتمكنَ مهما حاولت، دروسٌ آخذها من معترك الحياة يومًا بعد يوم فلقد تعلّمت أنّ قرابة وصلة الدّم تفوقها فقط صلة الحب، والدليل الأكبر أنّ لديّ مقدرة أن أحسّ بوخزة الإبرة في طرف اصبع إسراء ولو كنت أبعد أميالاً عنها، ولا تربطني بها صلة دمٍ أو قرابة، بالمقابل كانت حنانٌ أختي قد ولّدت وقد عانت الألم بالتأكيد حالها كحال بقيّة النساء وكنت أنا أسترجع ذكرياتي مع إسراء، ما كان ينقصني حينها سوى بعض الشموع وأنغامٍ من الموسيقى الكلاسيكيّة الهادئة، لايعني كلامي هذا أنّي لا أحبُّ حنان ولا أخاف عليها، لكن يبدو أنّ في القلب منازل، فليس مكان الأب كمكان الأم وليست منزلة الأخ مثل منزلة الابن فلكلّ منزله ومكانه في القلب.

تناولنا إفطارنا جميعًا ودعوتهم للصعود لغرفهم وأن يستعدوا لنحاول الخروج مبكرين إلى السفّارة، فصعدوا وبقيت إسراء

- ما بك يا حلوتي؟، لمّ لمّ تصعدي!؟

- أريد أن أبقى وأشرب قهوةً معك، أم أنّك لا تحبّ أن

تشربها إلا برفقة ريم؟

- لا يروفتي شيءٌ إلا برفقتك أنت يا عصفورتي، لكنك لا تحبّين شرب القهوة.

- سأتعلم حبّها كي لا تشربها مع غيري.

- حتّى لو لم تتعلّمي شربها وأردت أن أقلع عنها نهائياً فسأفعل يا نور عيني.

- لا يا هشام فأنا أعلم كم أنت تحب القهوة، ويكفيني فقط أن لا تشربها مع سواي أو لنقل أن لا تشربها مع أنثى غيري أياً كانت.

- كما تريد يا أميرتي، لن أشربها مع فتاةٍ غيرك.

لأول مرّة ألمس هذه الغيرة من إسرائ، شعورٌ لا أستطيع وصفه حين ترى من تحب يريد أن يتملّكك، ويريد أن يصفّي أنفاسك لتخلو من رائحة غيره ويريد أن يراقب كلماتك ويعمل كمقصّ الرقيب، فيعتبر كلّ كلمةٍ تخرج منك بالإطراء لغيره كلمةً غير لائقة وخارجةٍ عن النص فيبترها دون رحمة، فطلبت القهوة لكلينا وأشعلت سيجارتي، ولم أشعلها لأنّي كان يُربكني أو يزعجني أمرٌ بل أشعلتها لإحساسي بشيءٍ غريب يدغدغ مشاعري، فسحبت إسرائ السيجارة من فمي وقالت: متى ستوقّف عن هذه العادة يا حبيبي؟

سأوقّف عنها عندما نتزوّج يا أميرتي، أعدك، فابتسمت إسرائ ابتسامةً خجولةً لا يتقنها غيرها في هذا العالم وأعدت السيجارة بين شفّتي، ثم أنهينا قهوتنا فقالت إسرائ: ألا نصعد؟

- هل علينا الصعود يا حلوتي!
 - ألا تريد أن تتجهّز للحفل؟
 - دعيني أغرق قليلاً،
 - تغرق!، وأين تريد أن تغرق سيدي القبطان؟
 - وهل يغرق القبطان يا حلوتي؟
 - يغرق فقط حين يريد هو أن يغرق،
 - نعم أنا أريد الغرق، أريد أن أغرق في سحر عينيك الزرقاوين، ولست كأبي غريق في أي بحر، فالغريق يريد نجاةً وينشُد مساعدةً من أحدهم، أمّا أنا فنجاتي في أن أغرق أكثر يا أميرتي.
 - لهذا الحد أنت تحبّني يا هشام؟؟
 - أنا لا أحبُّ غيرك، أمّا من سواك من أهلٍ، معارف وأصدقاء، فقد أنزلتُهم بمنزلة المعزّة، أمّا الحب فهو لك ولك وحدك فقط.
- هيا نصعد لنجهّز أنفسنا يا هشام أم تُريدُهم أن يقولوا أنّ حبيبتك أقلّ اناقةً من ريم؟، فتمنّيت أنّي لم أشرب فنجان القهوة اللّعين مع ريم بالأمس، أنتِ تعلمين أنّي جلست وتناولت القهوة معها، لكنك لا تعلمين ما دار بيننا من حديث ولا تعلمين أنّها أقرّت بنفسها أنّ عيني لا ترى أجمل منك يا حبيبتي. فصعدنا إلى عُرفنا، فأردتُ أن أجلس قليلاً مع نفسي لأفكر كم تقربنا من بعضنا أنا وإسراء في هذه الرّحلة، فقد قربنا في يومين أكثر من

قربنا لبعضنا في سنوات، فها أنا أراها تتحاملُ على أَلَمِها الذي أراه في عينيها، ليس من أجل الحفل هذه المرّة، لكن كي تجلس برفقتي وتشرب قهوةً معي.

لبستُ الملابس التي سأشارك فيها بالحفل وأمسكتُ الكوفيّة فقبّلتها وشممت رائحتها كما هي عادتي، ليس لأن عليها ريح عطر أو دهن عود!، بل لأن هذه الكوفيّة فيها من ريح حيفا وفيها من نسيم شوارع القدس، فيها أيضًا من ريح شاطئ يافا وغزة، وتحمل عبقًا من هواء رام الله ونسيمه، فلَفَفْتُ الكوفيّة حول رقبتِي، وكأني وَضَعْتُ على عاتقي فلسطين بمدنها وقراها، وضعت تاريخ أمةٍ بأكملها من زمنِ الكنعانيين، مرورًا بسيدنا إبراهيم عليه السّلام، وامتداداً بالمسيح عيسى ابن مريم كلمة الله ورسوله ثمّ بنبي الله عبده ورسوله محمد بن عبدالله بن عبد المطّلب بن هاشم خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، لطالما كانت هذه الكوفيّة رفيقتي، ظلّت على عنقي وكتفي في كلّ المناسبات، هذه الكوفيّة بالذات ظلّت رفيقةً لي في سفري وإقامتي وفي وطني وغربتي، اصطحبتها معي عندما قمت بالعمرة إلى بيت الله الحرام، ومسحت بها دمعتي عندما زُرْتُ مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وقبره، دمعةً أخرى سقطت على هذه الكوفيّة، حين وقفت على أعتاب المسجد الأقصى مُستشعرًا عظمةً من أسريّ به إليه قبل أكثر من ألفٍ وأربعمئة عام، هذه الكوفيّة غاليةٌ عندي لأنّها تشير إلى انتمائي، فعندما

يراني الناس أرتديها سيعرفون حتماً أنني أنتمي لذاك الوطن الجريج، ذاك الوطن السليب، ذاك الوطن الذي يُذكّرني بقصة يوسف عليه السّلام حين تسابق إخوته لإضاعته، زدنا عنهم أنّ الجميع تسابق نحن لإضاعتنا، وكما باع السيّارة الذين التقطوا سيّدنا يوسف حرّيته بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة، فقد باعنا تلك المنظّمة السيّارة التي التقطت قضيتنا دون مقابل بصكّ أسموه قرار التّقسيم، عُدراً أيتّها الأمم المتحدة، فالملكات لا تباع في سوق النّخاسة ولا تُشترى، تدّعون أنكم تسعون من أجل حرّية الشّعوب وحقوقهم، وها أنا أراكم تُسلمون شعباً بأكمله للرّق بعد أن سلبتم أرضه وبدّدتم تاريخ حضارته، فاختلفتم وثنق ملكية لأرضٍ امتلكها هذا الشعب من آلاف السنين، فقط لتمنحوها لمجموعةٍ من الكلاب الفارّة ليستوطنوا فيها، ولا أدري بأيّ حقّ تفعلون ذلك، هي غالية أيضاً هذه الكوفية لأنّها بالذات كانت هديّة والدي لي في يوم تخرّجي من كلية الصحافة والإعلام، لأصبح صحفياً لامعاً في عددٍ من الصّحف، فلم أكن مُلتحقاً بصحيفةٍ بعينها أو مجلة، كانت لا تعجّبي فكرة التّبعية لأحدٍ، فيفرض عليّ فكره وطرحه، صداقاته، مجاملاته، مُناكفاتِه، نفاقه و أسلوبه، كنت أحبُّ أن أكون أنا فقط أنا، فأنشُر أفكارِي، قد لا أكافأ إنّ أحسنت، لكنني على استعدادٍ أن أحاسب عندما أخطئ.

فأكملت ارتداء ملابسِي، وهاتفُت والدتي قبل أن أخرج، فأجابتي وقالت وقبل حتّى أن أُلقي السّلام عليها: هشام حبيبي هل أنت

بخير؟، كنت ألوم والدة إسراء على استعجالها ولهفتها وكنت أقول: ربّما لأنها فتاة هي تخاف عليها هكذا، لكن تبين لي عندما أجابتي أمي بهذه اللّهفة أنّ الأمّهات كلهن سواءً في الخوفِ والقلقِ على أبنائهن، فقلوب الأمّهات لا تستطيع أن تفرّق بين ابنٍ وابنة، كذلك لا يستطيع قلبها التّفريق بين ما إذا كان هذا الابن طفلاً صغيراً أو شاباً يافعاً أو حتّى إن كان كهلاً كبيراً، فأخبرت أمي بأنّي سأذهب الآن إلى موقع الاحتفال الذي سنقيمهُ مساءً اليوم وطلبتُ منها أن تدعو لي بالتوفيق، فصمتت أمي قليلاً، وأظنُّ أن طلبي هذا تسبّب في تقاطرِ دَمْعَاتٍ من عينيها، فلم تشأ أن تُسمعني صَوْتها باكيةً فاكثفت بالصمت، تعلمُ أمي أنّني على استعدادٍ لدفع عمري بأكمله كي لا تحزن حتّى أو تبكي.

- أسأل الله لك ولزُملائك التوفيق يا ولدي، وأبلغ الجزائر وأهلها مني السّلام.

- سيصلُ سلامك يا أمي.

- ابعتي أنت سلامي إلى فلسطين، وإلى أبي وإلى أختي حنان وزوجها،

- بأمرك يا حبيبي، انتبه أنت لنفسك جيّداً.

- إلى اللّقاء يا حبيبتني.

- في أمان الله وحفظه وتوفيقه.

خرجتُ بعدها من غرفتي، وكنتُ الوحيدَ بين أعضاء الفرقة الذي له غرفةٌ مستقلّة، ربّما لأنّي كنتُ أكبرهم سناً، فلم يعترض منهم

أحد رغم أنّ المجانين كثيري الاعتراض دومًا، لم أشأ إزعاجهم
فلا يزال الوقت مُبكرًا، سأشرب قهوتي وأُخرجُ حقيبة ذكرياتي
وأنتظرهم حتّى يجهزوا أنفسهم ويخرجوا، يدُ أحدهم جاءت
لتغمضَ لي عيني، ولست أشتُم رائحة الياسمين!، فنظرت مُسرِعًا
خلفي فاذا بي أرى ريم،

- ريم، لا زال الوقت مُبكرًا.

- هل يُزعجك إن تناولنا القهوة سويًا؟

ويلي ، ماذا أقول لها؟، وأين أذهب بوعدني لإسراء

- تفضّلي، لكن يجب أن تستريحي فيومنا سيكون طويلًا
وستبذلون مجهودًا كبيرًا.

- أنت ستكونُ معنا يا هشام، لتقلّ لنفسك هذا الكلام.

- وهل تظنّين إلقاء الشّعْر مُتعبٌ كما رقصِ الدّبّكة؟، أنا
سأحرّك لساني فقط، بينما أنتم سترقصون وتركضون،
وستبذلون مجهودًا هائلًا.

- لا عليك، فقد نمت بما فيه الكفاية، اطلب لي قهوةً فقط،

يا رب أنقذني من هذا الموقف، فطلبتُ القهوة وأشعلت سيجارتي،
وكان التوتّر بادٍ على ملامحي، ولم يكن خوفًا بقدر ما كان حِرصًا
ألا أُخلفَ وعدًا قطعه لإسراء، فأحضروا لنا القهوة، فلم تمتدّ
يدي على فنجاني، مع أنّي أخال نفسي أكثر الناس في هذا العالم
حبًا للقهوة، لكن اعدّريني يا قهوتي فلن تُثيريني رائحتك كما تفعل
دومًا واعدّريني أيّها الفنجان، فلن أسارع لتقبيلك كما اعتدت

عليّ، وأخيراً اعذريني أنتِ يا ريم فليس من السهل أن أخلف
وعدا قطعه لإسراء.

- مابك يا هشام؟، ألا تودُّ شرب القهوة؟،

- لا يا ريم، أحسُّ بألمٍ في معدتي،

فأومأت برأسها ريم، أظن بأنَّ الرسالة المختبئة بين السطور قد
وصلتها، فبقيتُ برفقتها حتى أنهت شرب قهوتها، ثم قلت لها: ما
رأيك لو سعدتِ وجَهَّزتِ نفسك وارتديتِ ملابسك، وحبَّذا لو نبَّهتِ
بقية زميلاتنا كي يكنَّ جاهزاتٍ، فقالت ريم: لا عليك، سوف نكون
كلنا في الموعد، ثمَّ تَرَكْنِي وصعدتِ إلى غرفتها.

فبقيتُ وحدي ثانيةً، لا بأس إن استرجعت بعض الذكريات كعادتي
فتذكَّرتُ هذه المرَّة يوم وفاة صديقي وأخي ساجد، لم تكن
الصداقة وحدها من جمعتني به، فهو أقربُ لي من ذلك بكثير،
فهو شقيق إسراء، وهو من قلَّة قليلة كانوا يعلمون بحبي لها.
الإخوة عادةً تأخذهم الحمية حين يعلمون بشيءٍ مثل هذا عن
أخواتهم، لكنَّ ساجد كان متفهمًا جدًّا ولم يكن حجر عثرةٍ في
طريق حبنا، فقد كان يعلمُ رحمه الله أننا متحابين، كما كان يعلم
بنيَّتي من هذا الحبِّ وقصدي، وكان أيضًا يحترِّمُ رغبتنا في إخفاء
حبنا عن بقية أهلنا.

كانت إسراء قد تخرَّجت من كلية الفنون الجميلة ففرحنا جميعًا
واحتفلنا بها وبنجاحها، وبعد حفل تخرُّجها بأيام كنتُ وساجد قد
خطَّطنا للذهاب في رحلةٍ إلى أحد جبال رام الله، وما زلت أذكر

صرخاتي وتببهي له بالابتعاد بدراجته عن الحافة، و كان ينعثنى
بالجبان رحمه الله، فقد كان بارعًا، بل كان أبرعنا في ركوب
الدراجة، وكان يفودها على الحافة بيدٍ وقدمٍ واحدة، ما كان يتوقَّع
رحمه الله أن تُباعته دوريةً صُهيونيةً، فلم يُدر لها ظُهره هاربًا
وليتهُ فعل، لكنَّه توجَّه نحوها كأنه سيقبض هو عليها، فتوجَّهت
نحوه بأقصى سرعتها لتضطرَّه إلى حافةِ الجبل فيتردَّى جسدهُ
ويسقط وتسمو روحهُ وتصعدُ إلى الفردوس الأعلى بإذن الله،
فهاز هو بالشَّهادة، وخسرت أنا أعزَّ صديقٍ على قلبي، فهاتفنا
الدِّفاع المدني لنقوم بانتشاله رحمه الله، فحضرُوا بعد عشر
دقائق للمكان، وقرَّروا أن ينزلوا على أقدامهم لإحضاره، فقال لي
قائدهم: لو أننا في دولةٍ أخرى ليست تقع في شباك الاحتلال،
لاستخدمنا مروحيةً لانتشاله، لكن كما تعلم فممنوعٌ علينا امتلاك
مروحيةٍ لنستخدمها حتَّى في غاية إنسانيةٍ كهذه، وبعد وقتٍ ليس
بالقليل استطاعوا أن يصعدوا به محمولًا على أكتافهم، فوضعه
أمامنا، فنظرتُ إليه وعيناى تنزف الدمع، فلم يبق في جسده عظمٌ
لم يتهشَّم، لكنَّه كان مبتسمًا رحمه الله، فلم يكُن من اللبابة أن أردَّ
له الابتسامَةَ بالدموع، فابتسمت له وقبَّلته على كلِّ جرحٍ تثعبُ
منه الدِّماء، ليختلط ريقى بدمه النقي الطاهر فأصيب شيئًا من
بركته، فلامستُ بكفِّي الأيمن خدَّه الأيسر، كما تلامس خدَّ طفلها
الرضيع خائفةً هي أن تخذشه، ففقدتُ صبري وثباتي وأمسكتُ
رأسه وضممتُه لصدري وصرتُ أصرخُ دون وعي، وكانت

دمعائي تُقَاطِعُ كلماتي، فصِرْتُ أشهُقُ باكياً لِمَ تركتني يا أخي؟، لِمَ تركتني يا حبيبي؟، أَلنْ تُكْمَلُ معي النُّزْهة؟، أَلنْ تَعَلِّمْنِي كيف أقوُدُ الدَّرَاجَةَ بيدٍ وقدمٍ واحدة؟، أَلنْ تَعَلِّمْنِي كيف أكونُ شجاعاً مثلك؟، ماذا سأقولُ لأَمِّكَ يا حبيبي؟، كيف أخبرُ إسرائاً؟، كيف أصنعُ أخبرني؟، ثم وضعناه في سيارَةِ الإسعافِ ونقلناه لمجمعِ فلسطينِ الطَّيِّبِ، فأمرُوا بوضعه في ثلاجَةِ الموتى ريثما يُبلِّغُوا أهله، فصرخت فيهم: لماذا تضعونه في الثلاجة؟، فأجابوني: كي لا يبدأ جسده بالتحلُّل، فأجبتهم بزفرةٍ غضبٍ وقلتُ: هذا شهيدٌ، وليس الشَّهيدُ كأيِّ ميِّتٍ وأمسكت الطَّبيبَ من ذراعه بغضبٍ شديدٍ قائلاً: أتفهم؟، أتفهم؟، فقابل مسكتي العنيفةً لذراعه الطَّبيبِ بلمسةٍ حنونةٍ على كتفي وقال: نعم ليس هو كأيِّ ميِّتٍ، فروحهُ تحلَّقُ عالياً في السَّماءِ، أمّا هنا على الأرض فواجبنا أن نُكرِمَ جُثمانَه، فأخفَضْتُ رأسي وأنا أنأى بوجهي يميناً وشمالاً بسرعةٍ كأنِّي أرفض التصديق،

- هل أنت أخوه؟

- هو أكثر من أخٍ يا دكتور.

أنا سأتكفَّلُ بإخبارِ والدته وأخته بهذه الفاجعة، قوموا له باللائم إذا سمحتم، وسأعودُ ومعِي أهله عندما أبلِّغهم.

فعدتُ للبيتِ يومها، فإذا بحنانٍ ووالدي تتسابقان لاحتضاني وتقبيلي، فأخفَضْتُ رأسها أمِّي لتقبِلَ قدمي فرفعنَّها ووقفتُ تِلْقَاءَ وجهها، وكانت تبكي بحرقةٍ والدي وتقبِّلني،

- لقد علمتم الخبرَ إذا؟
- نعم يا هشام، وما من خبرٍ عنك يا حبيبي.
- لا تخافِ يا أمي فلم أُصَبْ بمكروه، كان ساجدٌ فقط
ضحيتهم قبحهم الله.
- هل علمَ أحدُ أهله بما حدث؟
- أظنهم لم يعرفوا بعد.

فطلبتُ منهما أن تتجهّزا لمُرافقتي لنُخبرَ والدته وأخته، فلم تتأخرا في ذلك كعادتهما، فلسنا ذاهبين لحفلِ زفافٍ ولا حتى لسوق، فلم يكن لازماً وضع الماكياج والتزيين والتطيّب، فمهمّتنا العسيرة ما كانت بحاجة لهذا كلّه، كانت بحاجة فقط لقلبِ حنونٍ يستطيع أن يحنو على أمٍ تكلّى فُجعت بثمره فوادها، فذهبنا لمنزلهم، فقلتُ لوالدتي وحنان قبل أن ننزل من السيّارة: كيف سنفعلُ الآن؟، فأجابت أمي: إن كان قد بلغهما الخبر، فسنكون خير من يواسيهما، لا تقلق، وإن كانتا لم تعرفا بعد، فليُعنا الله فسنكون كما "غراب البين"، هذا الطائر الذي لم أره يوماً واقتصرت معرفتي به، أنّه لا يأتي ذكره في غير أوقات الحزن وبشاراتِ السوء، ثم سعدنا إلى منزلهم الذي كان في الطابق الرابع وتسمّر ثلاثتنا عند باب الشِقّة، هو الارتباك ما كان قد منعنا، فنحن الآن سوف ندخلُ إلى مكانٍ يُطبق عليه صمتٌ رهيب وسنخرجُ كما أظنُّ وهو غارقٌ بأصواتِ البكاءِ والنّحيب، فقمنا بقرعِ الجرس، فصَدَرَ صوته العذب الرقيق فاستذكرت من صوته

يوم ذهبْتُ وساجد لنبتاعه، فسمعنا عدَّة أصواتٍ، فوقع اختيارُ
ساجد على هذا الجرسِ بالذات، وما كنتُ أدري يومَها أنني سأقفُ
هنا وأستمع لهذا النِّغمِ في يوم وفاته، وما كنتُ أدري أنَّ موسيقى
البيانو الرِّقيقة العذبة هذه، ستغدو كما نايٍ بيدِ راعٍ حاصرتهُ
الذَّباب فنهشت ما تيسَّر لها من أغنامه ثمَّ تولَّت، فجلَسَ يعزفُ
على نايه وحيداً لحنَ حُزنه.

فَتَحَتِ البابَ لنا إسرائُ ولم نكنْ بحاجةٍ إلى كثيرِ عناءٍ كي نعرف
أنَّ نبأَ استشهادِ ساجدٍ قد وصلَهُم، فعيني إسرائِ المنتفختين
وأرنبةُ أنفها الحمراء ووقوفها اللامتزن كانت خيرَ دليلٍ على
معرفتها بالخبر، فاحتضنتِ والدتي وأخذت تجهشُ بالبكاءِ،

- هذا أمر الله يا حبيبتي.

- الحمد لله، لكنني أحبه.

- لا حول ولا قوَّة إلا بالله، وماذا فعلت أمك؟

- هي تُصلي الآن ولم تعلم بالخبر، أرجوكم أرجوكم
ساعدوني في إخبارها، هي تظنُّ دموعي وصرخاتي
سببها ألم القولون، هكذا أخبرتها.

كانت تقولُ كلمةً إسرائِ، وتقاطعها ألفُ دمعةٍ، وقلبها كان يدقُّ
دقَّةً فتتبعها ألفُ سكتةٍ، فقاطعَ الحدَثَ كلَّه ووقوفُ والدتها خلفها
وهي ترحبُ بقدمنا، لتبدأَ تصويبَ سهامها نحو قلوبنا دونَ قصدٍ
منها، فوجَّهتُ سهمها الأوَّلَ نحو قلبي أنا حينَ سألتني: أسبقتُ
ساجدَ في رُكوبِ الدراجةِ أم سبقك كالعادة؟، ونبَّهتني ألا أكذبَ

لأنها ستسأله عندما يأتي بعد قليل، ثم سألت من كنانتها سهماً
آخر، لتغرسه في صدرِ إسرائ حينَ طَلَبْتُ منها أنْ تُحْضِرَ لنا منَ
المثلَّجاتِ اللذيذةِ التي أحضَرها ساجدُ بالأمسِ، فطَلَبْتُ أُمِّي منها
أنْ تستريحَ بَحْجَةٍ أَنَّنَا مَرَرْنَا فقط لزيارتِها والسَّلَامِ عليها
وإسراء، فكانَ نصيبُها السَّهْمُ الثالثُ الذي قَدَفْتُهُ أُمُّ ساجدٍ ليستقرَّ
في صدرِها إذْ قالت: أَوَلا تريدِين السَّلَامَ على ساجدٍ أيضاً؟
وكأنَّها قد أفسحتِ الطَّرِيقَ لِأُمِّي كي تخبرها بالواقعةِ فقالتَ لها
أُمِّي: لقد سَلِّمَ عليه اليومَ من هو خيرٌ مِنِّي ومنكِ يا أُمَّ ساجدٍ.
لَمْ تتوقَّعْ أُمُّ ساجدٍ رَدًّا جادًّا كهذا على دُعابَتِها التي قالتها منذ
قليل، فقالت لي بوجهٍ تملؤه الدهشة والاستغراب: أَلَمْ تكونوا معاً؟
فعلى من سَلِّمْتُمْ؟، فبكت إسرائُ كمثلِ الأطفالِ ووضعتْ كَفَّيها على
وجهها، فقامت والدتي وحناناً لِأُمِّ ساجدٍ وجلستا عن يمينِها
وميسرتِها.

أُمُّ ساجدٍ التي ذهلت من تصرُّفاتنا جميعاً وصارت تقول: ماذا حلَّ
بكم؟، فاحتضنتُها أُمِّي وقالت: أحسنَ اللهُ عزاءَكَ أخاه فانتفضت
قائلةً: مَنْ الذي مات؟ من؟ من؟، فأجابتها أُمِّي: هنيئاً لولدك
الشَّهادة، فصعقت والدته وصعقتنا جميعاً، كأننا عرفنا بالخبر
لتونا، فصرنا بحاجةٍ لِمن يواسينا ونحنُ الذين جننا لمواسيتهم،
فهبت إليَّ والدته وأمسكتُ بِأكتافي اللَّائِي كُنَّ كراياتِ جيشٍ قد
نُكِّست بعدَ هزيمةٍ مُذَلَّةٍ لتسألني إنْ كانت أُمِّي صادقةً، كانت
ترجو أن أنفي الخبرَ أو أشكك فيه حتَّى، بيدَ أنني أكذتُه، فصرخت

بي وقالت: لا، لا، ولدي لم يمت، وسقطت فوق أقدامي كأيّ بها تتوسّلي وترجوني، لك أن تعذريني يا خالة فليس لي سلطانٌ على قضاء الله وقدره، فجاءت إسرائ ووضعت ذراعها كالحلقة حول ظهر أمها وقربت رأسها من رأسها، وكانت تريد أن تهمس بأذنها، فلا حروف من فم إسرائ خرجت ولا أذن أمها كانت سمعت، كانت تطمس أصوات شهقاتهما الصاخبة كل صوت، فنظرت لحنان وأمّي نظرةً أظنهما فهمتاها كان مفادها أن افعلوا شيئاً برّيكم، فأشارتا بيديهما كأنهما تقولان لي ماذا نستطيع أن نفعل؟.

- أنتِ مؤمنةٌ يا خالة، فقد ارتقى ولدك شهيداً وأيّ منزلة أعلى وأرفع للمرء من أن يلاقي الله شهيداً، لنحمد الله ولنصبر ونحتسب.

قد صار لدينا اليوم شافعين لندخل الجنة،

فانتفضت أختي عن الأرض كأنّ صاعقةً أصابتها فوقفت بجانبتي وهمست في أذني بصوتٍ غاضبٍ وقالت: اصمت يا هشام، أتريد أن تجعل المناحة اثنتين؟

يبدو أنّ أمّي لم تنتبه لما قُلته والحمد لله، فقد كان خوفُ حنان من أن تتذكّر أمّي ما حل بأخي التوأم هاشم رحمه الله، قد مضى على استشهاد ما يزيد عن خمسة عشر عاماً، كنّا أطفالاً ما نزال وكان قد أخذنا والدي إلى مدينة أريحا كما تعودنا في كلّ شتاء، كان شتاءً عام ألفين واثنين، نصحتنا يومها أمّي بعدم الذهاب،

لكِنِّي و هاشم أصررنا أن نذهب فقد تأخرنا عن الوقت الذي نذهب فيه كل عام، لم تكن دماء المجزرة التي ارتكبت في مخيم جنين قد جفّت بعد، وكانت أرواح الشهداء كمثل أسراب الطير تحلق في السماء منتظرة الإذن كي تصعد الى الجنة التي وعد الله ورسوله بها الشهداء.

كنت ألعب وأخي هاشم ببنادقنا الخشبيّة، فتقمّصت دور من يطلق الرصاص، فأطلقت رصاصة فأصابت أخي ليسقط أرضاً، وإذا بصوت والدي يدعونا لتناول الطعام بعد أن أنهى الشواء، فمشيت صوب هاشم يومها ومددت له كفي كي ينهض عن الأرض فقد انتهى المشهد، لكن هاشم كان مُندمجاً بشكلٍ يفوق العادة، فلم يقم حتى ولم يتحرّك، فركلته بقدمي وليتها شلت قبل أن تمسك يا أخي، فلم يتحرّك ولم يُشح بوجهه حتى، فقلت له: قم، عرفنا أنك ممثّل بارع، فجاء أبي ليؤنّبنا ويقول كفاكم لعباً فالطعام جاهز فأجبتُه أن قلّ لولدك فأنا حاضر يا أبي، فناداه قائلاً: انهض يا هاشم هيا يا ولدي، فاقترب منه أبي يومها ولامس جسده، فقلّب أبي ليس كقلب هشام، فقد عرف منذ اللحظة الأولى أن ابنه لم يكن يلعب أو يعبث، فتحسّس جسده ليجده غارقاً بدمائه، فهزّ أبي جسد هاشم رحمه الله حين سبحت يداه بدمه فلم يجبه، فوضع أذنه فوق صدره علّه يدرك نبضة، فلم يكن هناك صوت لنبض حينها ولا صدى، كان قنّاص صهيوني قد خاف بُدقيّة أخي الخشبيّة ففضّل أن يقتله بدل أن يواجهه.

أحد لم يأت لإفاقتي من هذه الذكرى الحزينة، فقلبي كان سيّد الموقف حين ألمني وساندته دموع عيني في ذلك، فخرج يوسف وخالد من غرفتهما فوجداني جالساً في الخارج، فغمز يوسف لخالد وقال: غريب أنك تجلس وحدك ولا تجلس معك حبيبتيك!

- مَنْ تقصد أيها الأبله قبحك الله؟، كنت أظنه يقصدُ إسرائ.

- أقصد القهوة يا هشام فهي رفيقتك الدائمة، أليس كذلك؟

- صدقت، كنت أنتظرُ خروج أحدكم حتى يُشاركني شربها.

- نعم سنشاركك أيها المدمن.

فطلبنا القهوة وجلسنا قرب الشرفة نرقب الحياة كيف تسير، فمدّ يوسف يده ليعطيني سيجارة فأخبرته أنني لا أربغ الآن بالتدخين فقال: لا لا لا، هناك شيء غريب يحدث لك اليوم، هشام الذي يُنهي ثلاث علب من السجائر يومياً لا يريد التدخين!!!، أنتم لا تدركون كم غالية هي وصية حبيبتي، أحاول أن أقلل شعفي بهذه العادة السيئة عليّ أفلع عنها تماماً، هيّا فلتنهوا قهوتكم واصعدوا لغرفكم، نريد أن نذهب للسفارة مبكرين، فصعد يوسف وخالد كي يجهّزوا أنفسهم، وبقيت أرقب المارة، فلم أشعر بمرور الوقت فقد أنساني نسيم هواء الجزائر العليل مروره، يشعر الانسان بمرور الزمن، بل ويحسّه ثقيلًا عندما يكون مهمومًا أو عندما يشعر بالملل، لكن الوقت هنا يسابقُ سرعة الريح في يوم شتاءٍ عاصف، فلا تعلم أيهما الأسرع أهو هبوب الريح أم عجلة الزمان الدائرة.

تكاثرت الأصوات في أذني، يبدو أنّ المجانين أنهموا تحضير أنفسهم، فلم ألتفت خلفي لأنظر إليهم، فرائحة الياسمين التي تهب لتبشّرني بقدوم إسرائ ما زالت غائبة، فما من داعٍ كي أتعجّل النظر، لكن لمّ لمّ تخرج إسرائ؟، لمّ لمّ تخرج حبيبي؟، هذا سبب كافٍ كي ألتفت خلفي، بل كي ألتفت بلهفة أيضاً، فسألت أول من وقع عليه بصري منهم وكانت رويده: أين هي صديقتك؟ فضحكت وقالت: لا عليك، ستخرج الآن، كانت تبحث عن بطاقة فتح الغرفة فقد كانت بحوزتها ولا تجدها الآن، فذهبت إلى الغرفة كي أراها،

- مابك يا حلوتي، عمّ تبحثين؟
- سأجنّ يا هشام، لا أجد البطاقة
- لا عليك، هل أنت جاهزة يا أميرتي؟
- نعم يا مليكي أنا جاهزة.
- لكن كيف أخرج ولم أجدها؟
- لا عليك، عندما نُنهي الحفل سأخذك لتنامي في غرفتي، ما رأيك؟
- ضحكت إسرائ وصارت تضربني على كتفي وتقول: أنت قليل الأدب.
- كنت أمازحك، سناخذ بطاقةً أخرى منهم عندما نعود.
- على مسؤوليتك، وإذا لم يعطونا واحدة، فسأخذ أنا ورويده غرفتك وستنام أنت في الاستقبال في الأسفل.

ثم ضحكت حبيبتي ضحكتها المعتادة، أضحك كثيرًا وأبتسم، لكن هذه الضحكات والابتسامات لا تعرف طريقًا إلى قلبي كتلك التي تكون إسراء سببها، أنا أسعدُ بكلِّ شيءٍ معها، أسعدُ بكلِّ لحظة، أسعدُ بابتسامتها، بعفويتها، بأسلوبها وبطريقتها في الكلام، أكون سعيدًا أيضًا وأنا أرقب كلَّ من يراها معجبًا بها وبأسلوبها، وبقدر السعادة التي كنت أحسُّها حين أراهم كذلك، كانت رياح الغيرة تهبُّ على قلبي، رياحٌ غيرتي هذه لو استحالت هواءً لاقتلعت كلَّ ما حولها، فأمسكتُ كفَّها، هيَّا نخرج إليهم يا حُلوتي

- هل ستخرج وأنت ممسكٌ بيدي هكذا!

- نعم وإن شئت سأحملك بين ذراعي أيضًا.

- لا لا، هذا يكفي أيها المجنون.

فخرجتُ مُمسكًا يدها، فتنبَّه المجانين لنا وبدؤوا بالتصفيق والتصفير وصار يوسف وخالد الحمقى يرقصون الدبكة، فخرجتُ حبيبتي وخرجتُ أنا، بيدِ أُمِّي مؤمنٌ أن الأتني عندما تُظهرُ خجلها فإنَّ ذلك يزيدُها جمالًا و أنوثَةً، الشيءُ الذي لا يليق بالشَّاب، فالشَّاب يجب أن يخجل و لكن ليس عليه إظهار ذلك. فجلستُ جوارَ إسراء وهمستُ بأذنها، وسألتها إن كانت ترغب بمهاتفة والدتها، ففرحت فرحتها الطفوليَّة وقالت: نعم نعم أريد ذلك، فطلبتُ رقمَ والدتها وأعطيتها الهاتف، فبدأت بالحديث وابتعدت عني، يبدو أنها تخشى أن تبكي فأنتبه لها وألحَّ عليها بالأسئلة، الإلاح تلك العادة التي تكرها حبيبتي.

فمرّت السنين، أقصدُ الدقائقُ التي غابَتْها إسرائ، فعادت وقد أنهت مكالمتها، لقد عادت ولكن بوجهٍ غير الوجه الذي ذهبت به قبلَ قليل، فلقد ذهبت ضاحكةً مُبتسمةً لأنّها ستُهاثف والدتها، وعندما عادت كان يبدو على خديها الأبيضين أثر الدموع، كانت قد مسحت دموعها قبل أن تأتي لثعطيني الهاتف، وبالرغم من أنّها توقّفت عن وضع مُستحضرات التجميل كما نصحتُها في الطائرة أمس الأوّل، لكنّ في قلبي ما يُشبه جهازَ استشعارٍ، يزيد من دقات قلبي ويجعلها تضطرب في حالتين لا ثالث لهما، أولاهما عندما تدّمع عينُ إسرائ، والأخرى عندما تفرح وتبتسم، فأعطتني الهاتف، فقبضتُ يدها،

- ما بالك يا هشام؟، هل تريد ثمنَ المكالمة؟
- كُفّي عن هُرائك، لا تحاولي التحايل عليّ، لقد كنتِ تبكين.
- لا، لم أكن أبكي، أنتِ واهمُ يا هشام.
- حسناً، أنا سأتصل بوالدتكِ الآن كي أسلمَ عليها وأطلب منها أن تدعو لنا، حقيقةً، لم أكن أنوي الاتّصال بها وكنت أختبر ردّة فعل إسرائ فقط..
- لا لا لا، هي ستدعو لنا، فقد طلبتُ ذلك منها لتويّ، لا تقلق.
- إسرائ، أنتِ تكذبين.

فأخفّضت رأسها حبيبتي وقالت: نعم يا هشام لقد كذبت، وحين سألتها عن السبب، دمعت عينها وقالت: أنا أتيت لأشارككم، وإن

كنتُ أخبرتك أنني تألمت كنت ستمنعي، ثم قالت: لا تخف يا هشام، لقد زال الألم والحمد لله.

ثم جاء أكرم ،

- هل أنتم جاهزون؟

- لم أنت مستعجل؟، لا يزال الوقت مبكراً، اجلس وتناول قهوتك.

- زوجتي معي في الحافلة، ولم أدعها للنزول، ظننت أننا سنتوجه للسفارة على الفور،

- اذهب وأحضرها حالاً، فلن نذهب قبل ساعة من الآن.

فذهب أكرم وأحضر زوجته، فاعتذرت منها على تركه لها في الحافلة، فأجابتنى بكل لطف: لا خويا متعذرش، احنا منزعلش منكم .

أعشق اللهجة الجزائرية، كان يحسبني المجانين أهز رأسي وأنا لا أفهمها، لطالما شاهدت قناة الجزائر التلفزيونية، وكنت أستمع ببرامجها، وكانت أول قناة في قائمة المفضلة لدي.

أكرم وهدى يشربان قهوتهما وينظران إلينا، وطيبة لا يمكن وصفها في عينيها، حتى طريقة مسكهما لفنجانيهما كانت مميزة، فنظرت إلى إسراء وكان يبدو عليها التعب، ويخالط الشحوب الذي في وجهها ابتسامات الفرح، فهي سعيدة أننا في الجزائر، فحبتي أنا لهذا الوطن الذي كان يزرعه والدي في فؤادي، كنت أقطف ثماره الحلو اليبانة وأضعها في ثغر

حبيبتي الحساء، كثيرًا كُنَّا نُمْنِي أنفسنا بزيارة هذا البلد العظيم، كُنَّا نَحْلُمُ أن نُقِيمَ شهرَ عَسَلِنَا عندما نَتَزَوَّجُ في ربوع الجزائر، لم نَكُنْ نَعْلَمُ ما هو مَخْبَأً في صَفَحَاتِ القَدَرِ لَنَا، وَأَنَّ أُمْسِيَةً كُنَّا نُقِيمُهَا كُلَّ شَهْرٍ تَقْرِيْبًا، سيأتي إليها المستشار الثقافي، وتجعله يختارني من بين خمسة شعراء كانوا مشاركين، وتنال أيضًا فرقة شمس الحرية التي تضم حبيبتي وأصدقائي إعجابه، كان يمكن أن يختار شاعرًا غيري، فكُلُّهم أبرعُ مِنِّي، وأنا أفتخر بأن أقول أنني تلميذٌ لبعضهم وأتعلم منهم أيضًا، لكن أحسبُ أن دَعَوَاتِ أُمِّي لِي التي ما فَتِنَتْ تفرعُ أبواب السَّمَاءِ بأن يُحَقِّقَ لِي اللهُ ما أَشْتَهِي وأتمنى قد أُجِيبَ وَحَصَلَ الذي حصل، وتمَّ اختياري وحبيبتي وأصدقائي لنكون سويًا في رحلة، في حلمٍ جميل لا نريد أن نستيقظ منه أبدًا.

شُير الساعَة للعاشرة، سنخرج الآن، هيا أحضر حافلتك يا أكرم،
- لا تنسوا شيئاً من أغراضكم فلن نعود إلى هنا قبل انتهاء
الحفل.

فأخبروني أنهم جاهزين جميعاً فأمسكت يدَ إسرائ. وضغطت بكفي على كفيها، كأنني أقولُ لها: لا تخافِ يا حلوتي فأنا معك، فصعدنا جميعاً إلى الحافلة وبسمةً تعلو وجوه الجميع، عدا صاحبة الوجه الباسم غابت ابتسامتها، تجلسُ إسرائ بجواري،

ولكّتي أراها تهيمُ في عالمٍ آخر، فأمسكتُ يَدَها فارتعدت مفزوعةً
وقالت: مابك يا هشام؟

- لا شيء يا حلوتي، لكنني شعرت بالغيرة قليلاً، فالمجانين
كلُّ يتحدّثُ إلى من بجواره عدايَ أنا، أجلس بجانب
حبيبتي وهي تُفكّر بفارس أحلامها.

فضمّنتي بكلتي يديها ووضعت رأسها على صدري، وقالت: أنت
يا هشام فارسُ أحلامي لن أنسى هذه الضمّة وهذه الكلمات التي
قلتها يا حبيبتي، ستبقى تطنُّ في أذني كأعذب سيمفونيةٍ يمكن أن
أسمعها في حياتي، فتنبّه يوسفُ لهذا المشهد الرومانسي الذي
نَعيشُه، وليته تنبّه وصمّت، فقد تنبّه وأطلق زلغوظةً أظنّها نبّهت
من في الشارع وليس من في الحافلة فقط، فالتفتوا جميعاً بفضل
ذلك المجنون، وصاروا يغنون أغاني الأعراس ويصفقون،
فرفعت رأسها ويديها عني حبيبتي ونظرت في عيني وخمرةً
الخبل على وجنتيها، كأني بها تقول: أخرجني من هذا الحرج يا
هشام، أنا لا أدري كيف أخرج نفسي، فكيف أخرجك يا حلوتي!،
فأخرجنا كلانا من حرجنا صوتُ أكرم وهو يقول: ها قد وصلنا،
فدخلنا مبنى السفارة، وكانوا قد زيّنوا الممرّات وعلقوا أعلام
فلسطين في كلّ مكان، والأغاني الوطنية مشعّلةً على مكبّرات
الصوت، نعم هي ذكرى مؤلمة، ونحن نشعر بغصّةٍ كلّما
تذكّرناها، لكننا في الوقت ذاته نستذكرُ أنّا قد ثرنا لطلب حقنا

والدِّفاع عن أرضنا، فكَلِّمنا مرَّت بنا هذه الذِّكرى يزيد تمسُّكنا بهذا الحقِّ، لذا حُقَّ لنا أن نحتفل.

دخلنا مكتب السيِّد زاهي، فرحَّب بنا وقال: سنذهب لقاعة الاجتماعات ونأخذُ القهوةَ جميعاً، فجاؤوا لي برفيقتي وصديقتي الوفيَّة التي أستطيع أن أستمَّ عبق رائحتها من بعد ميل، هكذا هم أحبَّابي، تُميِّزهم رائحتهم الزكيَّةُ دوماً، فهذه إسراء التي تميِّزها رائحةُ الياسمين التي تفوح من جسدها، وهذه هي القهوة التي يفيح عبقها من وقت تحضيرها وحتى أوان تقديمها، فدعانا السيِّد زاهي لتناول قهوتنا واستأذنَ بدوره في الدَّهاب إلى مكتبه ليستكْمَلَ بقيَّة تحضيراتِ الحفْلِ، فخرَّجَ هو، وبقيتُ والمجانين في قاعة الاجتماعات، فبدؤوا بمزاحهم وضحكهم المُعتاد فلم أُعْطِ لهم بالأ، ففكرتُ وبالي وعقلي عند إسراء، التي تُرافقتنا من مكانٍ لآخر بجسدها، ولا أدري إلى أين سافر عقلها.

أمضينا وقتاً طويلاً في غرفة الاجتماعاتِ حتى أصبحتِ الساعةُ الثانية عشرة ظهراً، سنخرجُ للصَّلَاة في مُصلَّى السفَّارة ثمَّ نرى ما يُمكننا فعله، فخرجتُ وزملائي للمصلَّى، وبقينا جلوساً هناك تغشانا السكينة مُنتظرين إقامة الصَّلَاة، فصلَّينا ثم عاودنا الصُّعود إلى قاعة الاجتماعاتِ، فلم نجد أحداً هناك، تُرا أين ذهبتِ الفتياتِ!، فدَخلتُ رويده ومعهما إسراء، وقاطعتنا تساؤلانا،

- أين ذهبتن أيتها الحسنات؟ وأين بقيتكن؟

- ذهبت كي أوصِلَ إِسْرَاءَ لِلْمَصَلَى، وانتظرتها حتى أنهت
صلاتها.

فاجتمعنا مرّةً أخرى فقلت لهم: ما رأيكم لو راجعنا سريعاً فقرات
الحفل؟، سنبدأ بِسَرْدِ الْفَقَرَاتِ، لِنُنَاقِشَهَا سَرِيعًا ونرى إن كانت
لدينا أيّة إضافات أو تعديلات، وسريعاً قمنا بتعداد فقراتنا، ولم
يكن هناك الكثير من التّغييرات، فدخل علينا أحد عمال السّفارة
وطلب منّا الخروج لأنّهم بحاجةٍ إلى صالة الاجتماعات لتكون
جاهزةً للغداء الذي ستقيمُه لنا السّفارة، فخرجنا وتوجّهنا لمكتب
السّيّد زاهي، فأخبرنا مديرُ مكتبه أنّ لديه عملاً برفقة نائب
السّفير، ولن يستغرق وقتاً طويلاً.

- هل بإمكاننا البقاء هنا لانتظاره ريثما يخرج؟

- نعم، على الرّحْب والسّعة.

فبدأنا نتعارف على بعضنا، وكان اسمه السّيّد ناصر، وكان ودوداً
إلى حدِّ بعيد.

مذ وطنت أقدامنا أرضَ هذه البلاد، لم نر سوى كلّ خير، و لم نر
غير كلّ جميل، فقلوبهم يملئها الحب، فسعادةُ أهلِ هذه البلاد في
أن يروا السّعادة على وجوه غيرهم، حتّى ضابط السّيّر الذي
أوقفنا لمخالفتنا لم يكن عابساً، لم تخيبي ظنّنا أبداً يا جزائر،
كانت زيارتك حلماً دعونا الله كثيراً أن يتحقّق، والآن وقد نلناه
فسنشكرُ الله ونحمده أكثر.

خرج السيد زاهي ومعه نائب السفير، فأرؤنا جلوسًا بالخارج، وكانت غرفة السكرتير لا تتسع إلى اثني عشر فردًا، فكان يتشارك كلُّ اثنين منَّا في الجلوس على كرسيٍّ واحد، وعندما رأنا نائبَ السفير على هذا الحال، ضحك وقال: هل جئتَ بهم من فلسطين لتعذبهم يا رجل!، فرحب بنا و دعانا إلى مكتبه ليتعرف بنا، فجلسنا وقدم لنا الحلوى، وبدأ السيد زاهي يُقدِّمنا له، وكانت تبدو على ملامحه علاماتُ الفخر، كان يُقدِّمنا للسيد نائبَ السفير رافعًا رأسه، مثل قائدٍ عادٍ مُنتصرًا من أرض المعركة، يقفُ حوله جنوده.

دقائقٌ وجاء أحد الموظفين ليدعونا لتناول طعام الغداء في غرفة الاجتماعات، فدعانا السيد نائب السفير للنزول، ثم دخلنا إلى القاعة، وكان الغداء على طريقة البوفيه المفتوح، فأخذ كلُّ منَّا طبقًا ليملئه عداها، عدا حبيبتني فاقتربتُ منها وهمستُ بأذنها، لماذا لم تأخذي طبقًا يا حلوتي؟، فأجابتنني والدمعة تسابق كلماتها، أنا أتألم يا هشام، لقد نسيتُ أن أحضر الدواء من الفندق،

- لا عليك، سأذهب وأحضره لك، هاتِ بطاقة غرفتك فقط.
- أيُّ بطاقةٍ يا هشام، هل نسيت أنني أضعتها؟
- سأطلب منهم بطاقةً أخرى، أخبريني فقط بمكان الدواء.
- سأرافقك لنحضره.

- لالالا، ابق هنا واستريحي، وسأذهبُ أنا لإحضاره، أعطني

إثباتَ شخصيتك فقط.

فأعطتني بطاقتها الشخصيّة وأخبرتني بمكانِ الدواء، فخرَجْتُ مُسرِعًا كأنني قَطُّ فارٌّ من نمر، ولم أطلبَ حتّى من أكرمَ أن يوصلني، فركبتُ سيّارةَ أجرة، فوصلتُ الفندقَ وصعدتُ لغرفتها سريعًا، خوفاً على حبيبتي أن تتألّم أنساني أنّي لا أملك بطاقةً للغرفة، فحين يتعلّق الأمرُ بمن نُحب، فسلاماً على الوعي، ووداعاً للذاكرة، وأحسن الله عزاءك في الإدراك، وهذا ما حصل لي حينها، بل هذا ما يحصل لي في كلّ وقتٍ حين يتعلّق الأمرُ بحبيبتي.

فزلتُ إلى الاستقبالِ في الفندقِ وأخبرتهم أنّي بحاجةٌ إلى بطاقةٍ بديلةٍ لغرفتي، لأنني أضعتها، فسألوني عن رقمِ الغرفة فأخبرتهم أنّها الغرفة رقم خمسمائةٍ وسبعة، فنظر الرجلُ إلى جهازِ الكمبيوتر الذي أمامه وقال: لكنّ هذه الغرفة لا تخصّك، هي تخصّ فتاةً وليس شابًا،

- الغرفةُ باسمِ إسراءِ هاني، أليس كذلك؟

- لا، الغرفةُ مسجّلةٌ باسمِ رويدةِ بلاطٍ وليس إسراءِ هاني.

يا لسوءِ الطالع، حتّى لو أخرجتُ له إثباتَ الشخصيّةِ الخاصّ بإسراءِ فلن يقنّع، قد أُسمي ما يفعله الموظّف روتيناً سخيّفاً وهذا أقلّ ما يمكنني قوله في هذه الحالة، لكن إن فكّرتُ جيّداً بتصرّفه، فسأدرك أنّه مُحقّ فيما فعل، ولا يهمني الآن إن كان

مُحَقًّا أو مُخْطِئًا، يُهْمَنِي فَقَطْ أَنْ أُحْضِرَ الدَّوَاءَ، وَ لَيْسَ لِي إِلَّا أَنْ
أَذْهَبَ لِلسَّيِّدِ مَدِيرِ الفَنْدَقِ وَأَتَوَسَّلَهُ أَنْ يَسَاعِدَنِي، فَذَهَبْتُ إِلَى
مَكْتَبِهِ لِأَجْدَهُ مَغْلَقًا، مَا الحَلَّ الآنَ؟، لَوْ كُنْتُ أَخَذْتُ إِسْمَ الدَّوَاءِ مِنْ
إِسْرَاءَ لَكُنْتُ ابْتَعْتَهُ مِنْ أَقْرَبِ صَيْدَلِيَّةٍ، لَكِنْ يَعْلَمُ اللهُ أَنِّي أُعَانِي
رُعَاشًا الآنَ لَمْ يُصِبنِي مِثْلُهُ فِي حَيَاتِي، فَطَلَبْتُ مِنْ مَوْظَّفِ
الاسْتِقْبَالِ بِالفَنْدَقِ أَنْ يَسْمَحَ لِي بِإِجْرَاءِ مَكَالِمَةٍ، فَهَاتَفْتُ اسْتِقْبَالَ
السَّفَارَةِ،

فَأَجَابَنِي مَوْظَّفُ الاسْتِقْبَالِ، فَطَلَبْتُ مِنْهُ أَحَدَ أَعْضَاءِ الوَفْدِ القَادِمِ
مِنْ فِلَسْطِينِ، فَكَانَ يَوْسُفَ قَرِيبًا مِنْهُ

- أَيْنَ أَنْتَ يَا هِشَامُ؟، إِلَى أَيْنَ ذَهَبْتَ؟
- لَقَدْ ذَهَبْتُ كَمَا أُحْضِرُ الدَّوَاءَ لِإِسْرَاءَ.
- لَقَدْ تَأَخَّرْتَ كَثِيرًا، ذَهَبَ أَكْرَمٌ وَأَحْضَرَهُ مِنَ الصَّيْدَلِيَّةِ.
- لِمَاذَا أَرْسَلْتُمْ أَكْرَمَ وَلَمْ تَنْتَظِرُونِي؟، هَلْ زَادَ أَلْمَهَا؟
- أَنْتَ لَمْ تُخْبِرْنَا أَنَّكَ ذَاهِبٌ لِإِحْضَارِهِ، وَإِسْرَاءُ كَانَتْ تَتَأَلَّمُ، وَ
لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَصْبِرَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَاتَّهَيْتُ المَكَالِمَةَ وَ
خَرَجْتُ مُسْرِعًا بِأَحْتَاءٍ عَنِ سَيَّارَةِ أُجْرَةٍ، فَلَمْ أَنْتَظِرْ طَوِيلًا
حَتَّى وَجَدْتُ وَاحِدَةً، فَطَلَبْتُ مِنَ السَّائِقِ أَنْ يُوصِلَنِي سَرِيعًا
إِلَى فَنْدَقِ Hilton، فَنَظَرَ إِلَيَّ السَّائِقُ نَظْرَةً غَرِيبَةً وَلَمْ
يَتَحَرَّكَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا بِكَ لَا تَتَحَرَّكَ؟، تَوَجَّهَ إِلَيْهِ الآنَ وَ
سَأدْفَعُ لَكَ مَا سَنَنْتُ، فَقَالَ السَّائِقُ: هَلْ أَنْتَ مَجْنُونٌ؟

فَنظَرْتُ إِلَيْهِ بِاسْتِغْرَابٍ وَ لَمْ أُحْتَجِ لِسُؤَالِهِ عَنْ سِرِّ نَعْتِهِ لِي
بِالْجَنُونِ، فَقَدْ فَهَمَ نَظْرَتِي وَمَا تَحْمَلُهُ هَذِهِ النَّظْرَةُ مِنْ غَضَبٍ
وَاسْتِفْهَامٍ، فَقَدْ تَكْفَى نَظْرَةً عَيْنٍ أَحَدُنَا أحيانًا لِإِيصَالِ رِسَالَةٍ، لَوْ
كُتِبَتْ لَكَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى عَشْرَاتِ الصَّفَحَاتِ لِتَبْيَانِهَا، فِي الْوَقْتِ
ذَاتِهِ فَأَنْتَ بِحَاجَةٍ إِلَى شَخْصٍ يَمْلِكُ الْقَدْرَ الْكَافِيَ مِنَ الْبِدَاهَةِ لِيْفْهَمَ
نَظْرَةً مِثْلَ هَذِهِ، فَقَالَ لِي الرَّجُلُ: أَنْتَ تَرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى فَنْدُقِ
Hilton، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

فَقُلْتُ لَهُ: نَعَمْ هُوَ كَذَلِكَ، مَا الْمَشْكَلَةُ؟، فَقَالَ لِي: حَسَنًا لَقَدْ
وَصَلْنَا.

وَيْلِي، أَعْذِرْنِي يَا صَاحِبِي، لَكُنْتِي أَمْرًا بِظَرْفٍ صَعِبٍ، فَانَا هُنَا
وَعَقْلِي فِي مَكَانٍ آخَرَ، فَلَا أُدْرِي مِنْ أَيْنَ خَرَجْتَ وَلَا إِلَى أَيْنَ
سَوْفَ أَذْهَبُ، خَذْنِي إِلَى السَّفَارَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ مِنْ فَضْلِكَ، فَتَوَسَّعَتْ
حَدَقَاتُ الرَّجُلِ وَقَالَ لِي: لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ جَزَائِرِي عِنْدَمَا سَمِعْتَ
لَهْجَتَكَ، لَكُنْتِي لَمْ أَعْلَمْ بِأَنَّكَ فِلَسْطِينِي.

- مَرْحَبًا فَيْكَ خُوِيَا، نَوَّرْتَ الْجَزَائِرِ.

- تَسْلَمُ يَا غَالِي، النُّورُ نَوَّرَكَ.

- دَقَائِقُ وَأَوْصَلُكَ لِلسَّفَارَةِ خُوِيَا.

وَبِالْفِعْلِ، خَلَالَ ثَلَاثِ أَوْ أَرْبَعِ دَقَائِقٍ أَوْصَلَنِي الرَّجُلُ، لَيْسَ لِقَرَبِ
الْمَسَافَةِ، لَكِنْ بِسَبَبِ السَّرْعَةِ الَّتِي انْطَلَقَ بِهَا، فَسَأَلْتُهُ عَنْ أَجْرَتِهِ
فَرَفَضَ أَخْذَهَا رَفْضًا قَاطِعًا، يَبْدُو أَنَّي لَنْ أَدْفَعَ الْمَالَ لِأَيِّ سَائِقٍ
أُجْرَةٌ هُنَا فِي الْجَزَائِرِ، فَبِمَجْرَدِ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّنا مِنْ فِلَسْطِينِ كَانُوا

يتسابقون لتقديم الخدمات لنا، فدخلتُ ملهوفًا إلى مبنى السفارة،
تُرا أين أتجّه؟، إلى مكتب السفير؟، أم إلى مكتب نائبه؟، أم إلى
مكتب السيد زاهي؟، لست أدري، بالكاد أدرك أنني موجودٌ في
مبنى السفارة، بل بالكاد أدرك أنني موجودٌ في الجزائر حتى، أيُّ
عبثٍ تعبثينه يا إسراء بمشاعري برّبك؟.

لم أستغرق كثيرًا في التّفكير، فقبيلةُ المجانين مرّت من أمامي،
أشبه ما يكونون قبيلةً من طيور البطريق، بنفس التّابع رأيتهم
يخرجون نحو ساحة الاحتفال، كان منظرهم جميلا ويبعث
السُّرور في أعين بل في قلب من يراهم، عيني فقط يا أصدقائي
من بين أعين من رأوكم لم تنل حصّةً من ذلك السُّرور، فإسراء
لم تكن ضمن تلك القافلة التي تقاطرت أمامي، فأوقفتُ رويده
وسألته أين هي إسراء؟، فأجابته أنها في الأعلى عند مديرة
مكتب نائب السفير.

- لماذا بقيت هناك؟ هل لازالت تتألّم؟

- لا يا هشام، فقد أحببتها الآنسة هناء ودعتها لتناول القهوة
معها.

اطمأنّ قليلاً قلبي، فتركتُ رويده دون أن أخبرها ماذا سأفعل،
ودون حتى أن أسألها ماذا سيفعلون هم، فما يشغلني أهمُّ من ذلك
كلّه، فحين يتعلّق الأمر بإسراء لا أر غيرها في سلّم أولويّاتي،
فصعدتُ مُسرّعًا إلى الأعلى، فرأيتُ إسراء تجلسُ مع الآنسة
هناء وتتحدثان، كما زهرة كانت حبيبتي قد ذُبلت في غفلة خريفٍ

من الألم، وهاهي تُزهر من جديد، حين طرأ فصل الربيع، فلمحتُ
إسراء تهمسُ لمديرةِ المكتبِ بصوتٍ لا يُسمع، ففهمتُ ما قالت
من حركةٍ شفاهها، قالت: هذا هو، هذا هو، ثرا هل كانت تغتابني
حلوتي!، لا بأس حتى لو كانت فعلت هذا وما أظنُّها تفعل، فأنا
أصفحُ عنها ولنُ أزعجها حتى بكلمة عتب، فاستأذنتُ في الدخول
لمكتب الأنسة هناء، فقامت من مكتبها ورحبت بي وقالت: تفضّل
يا هشام، يبدو أنّ حلوتي قد أخبرتها باسمي، ثرا بم أخبرتها
أيضاً يا أميرتي!، سأكتشفُ ذلك من سياق الحديث فأنا مُبدعٌ في
هذا، كان ذلك أحد الدُّروس التي تعلّمتها من دراستي للصحافة،
فدعنتي للجلوس وطلبت لي القهوة، وأكّدت عليهم أن تكون
سادة، ولم أحتج إلى كثير عناءٍ كي أعرف كيف عرفت نوع
قهوتي، لا بدّ أن عصفورتي الجميلة قد أخبرتها، لكن إن كانت قد
وصلت معها بالحديث إلى إخبارها بنوع قهوتي، فلا بدّ أنّها
سرّدت عليها قصة حياتي كاملة، أو قد تكون ابتدأت الحديث عني
لتوّها، وكان موضوع القهوة بسبب طلبهما لها، فأخذني الحديث
مع الأنسة هناء فقالت: لقد أخبرتني إسراء بأنك شاعر، أليس
كذلك؟

- يقولون ذلك.

- هلاً أسمعنا قليلاً من شعرك.

فنظرتُ إلى إسراء، وكعادتها أخفضت رأسها وطعّت حُمرَةَ الخجل
على بياضِ خديها،

- أيُّ القصائد تُفضِّلين سيِّدتي؟

أهي قصائد الغزل أم القصائد الوطنية.

- إن كانت لديك حبيبةٌ فأسمعني ما تقول في حبيبتك،

- حقيقةً، أنا ليس عندي حبيبة.

صوت زجاج ينكسر!، قد يكون رأسي هو الذي تمَّ طحنه من قبل
إسراء كعقوبةٍ على إجابتي، رأسي لازال بين أكتافي، وفنجاني
أيضاً لازال في راحة يدي، كان فنجان إسراء هو الذي سقط
أرضاً، ولا أدري أسقط صدفةً تزامناً مع إجابتي؟، أم تعمّدت هي
إلقاءه تعبيراً عن غضبها؟.

قد كان هذا الموقف رسالةً لي، ولا يُهمُّ نصُّها، ما يُهمُّ هو
الشعورُ الذي تملّكني حينها، فلقد أحسستُ أنّ قلبَ إسراء هو
الذي تهشّمَ وليسَ فنجانَ القهوة.

أستطيعُ أن أتخيّل فرحتها عندما كانت تحكي للآنسة هناء عن
حبيبها، أستطيع أيضاً أن أستشعرَ دقائق قلبها عندما سألتني هناء
إن كانت لديّ حبيبة، السؤالُ الذي كانت إسراء متأكّدةً من
إجابته، وكنت أرى هالةً من الفرح تعلو رأسها وهي تترقّب
إجابتي على هذا السؤال، إلى أن جئتُ أنا بسذاجةٍ وقلت: ليس
عندي حبيبة.

سأسمعُك بيتين ارتجلتُهما لتوي، وبعدها يجب أن نستأذنك في
النزول للحاق بزملائنا.

- نعم تفضّل، لكنك لم تخبرني عمّ ستكون!

- هي عن الوطن يا آنسة هناء،

أرى بعينيكي جمالاً لا يرى في غير حورٍ في الجنان تكونُ
وأرى بقلبي كلَّ حبِّ يا أنا إسراءُ يا قلباً هواه جنونُ

فجفت الدَّمعةُ التي كانت تَبْرُقُ بعيني حبيبتِي، وعلت البسْمَةُ
شفاهاها ورَفَعَت رَأْسَهَا عَالِياً ونظرتُ لهناء، كَأني بها تقول لها:
ألم أخبركِ أَنني حبيبتُه؟، فقالت لي الآنسة هناء: أبياتٌ جِدُّ جميلة
لكن ألم تخبرني بأنَّ أبياتك ستكون عن الوطن؟

- بلى قلت ذلك، وهل هناك وطنٌ أحلى وأوسع من قلبِ
إسراء؟

- لا، بالتَّأكيد لا يوجد، لكن لم قلت في البداية أنَّ ليس لديك
حبيبة؟.

- ولا زلت أقول ذلك، ليس عندي حبيبة،

- وماذا تكون إسراءُ إذًا؟

- إسراء لا يصحُّ أن أطلق عليها وصف حبيبة،

إسراء هي الحياة بكل تفاصيلها،

هي الحب الذي يدقُّ له القلب،

هي الهواء الذي يملئ صدري،

هي الدَّم الذي يجري في وريدي،

هي كلُّ شيء يبقيني على قيد الحياة،

باختصار هذه هي إسراء،

فابتسمتُ صغيرتي ابتسامَةً لم أر يوماً بجمالها، حتَّى منها عندما تكون في عزِّ فرحها، ابتسامَةً تَعْلُو وجهها ودقَّةً من قلبها أكاد أسمع حسيستها، بعد أن استحال صدرها لكتلةٍ من اللُّهبِ إثر دعابتي السَّخيفة، ورأيتُ دمعَةً في عيناها، هي دمعَةٌ فرحةٍ هذه المرَّة وليست دمعَةٌ حزن، فنظَّرتُ إليها وهي في قَمَّةِ نشوتِها واعتزازها وقلتُ لها: ألا ننزلُ أيتها الحسناء؟، فقاطعتني الأَنسةُ هُنا قائلةً: فلتجلسوا قليلاً، لازل الوقت مبكراً،

- يجب أن نستعدَّ للحفل يا آنستي، ستكونين أنت مع الحضور بالتَّأكيد،

- هذا أكيد، أتمنَّى لكم التَّوفيق بإذن الله.

فخرجتُ وإسراء، وكانت تُمسك ذراعي وتضع رأسها فوق كتفي كما لو كُنَّا عاشقين يمشيان على شاطئ البحر، وكعادتها فعلت تلك الحركة التي تُذيب قلبي عشْفاً، فصارت تضرب كتفي بيدها الصغيرة الرقيقة كما تفعل دائماً حين تُريد مُعاتبتي، فقالت لي يوماً: ليست لديك حبيبة، أليس كذلك؟

فأمسكت كفيها بيديّ وقبلتهما، وسألتهما: حتَّى لو قلتُ ذلك يا حلوتي، فهل تُصدِّقينه؟

- لا أصدِّقه بالطبع، لكنني كنت أحكي لها عن حبِّك لي وكنت أفتخر بذلك أمامها، ثمَّ جئت أنت، ففرحتُ في داخلي وقلت في نفسي ها قد جاء أميري، وستتأكَّد الأَنسة هُنا من

عُمُق حُبِّه لي، ثم دخلتَ علينا بعدها يا خفيف الظل، وقلت
أنّ ليس لديك حبيبة، كدتُ أقتلك حينها.

- ولمَ لمَ تفعلني يا حلوتي؟

- هل تريدني أن أسجن لأنني قتلت أحماً؟

- روي فداك يا صغيرتي.

كنت أريد مباحثتك، لكن يبدو أن دُعابتي جاءت في غير
وقتها.

- أعلم ذلك، لكن لا تعد لعلها لمصلحتك.

- بأمرك يا حلوتي.

فلففتُ ذراعي حول خصرها وضممتها حتى هدأت ثورتها، ثم
نظرتُ إليها وأزحت الستار المنسدل على جبينها، المتمثل
بشعرها الذهبي الناعم، وقبلتُ رأسها، أشعر بأني سكرتُ ولم
أشرب من الخمر جرعةً، كما قال الشاعر، وقد يكون لعبق
الياسمين الذي ينبعث من مسام جلدتها الأبيض الرقيق أثره في
ذلك، ثم مشيتُ وحلوتي برفقتي خطواتٍ فقط، لكنّها كانت أميالاً
من الفرح والعشق والحب، ففي كلّ خطوةٍ كنتُ أخطوها وكفّ
إسراء بكفي، كنتُ أستشعرُ أني وإياها نمشي فوق سجّادٍ أحمر،
تلبس هي ثوب الزفاف الأبيض، وأرتدي أنا بدلة عريسٍ سوداء،
وأضع كوفيتي حول رقبتني، وحوّلنا أهلونا، فهذه ترقص وتلك
تغني وذاك يصفق وهاهم أصدقاؤنا يُهننون ويباركون، فقررتُ
حينها أن أذهب لخطبة إسراء فور عودتنا من الجزائر بإذن الله،

فزلنا إلى السّاحة حيثُ أصدقاؤنا، ولم أكذب حينَ سمّيتهم المجانين، فهاهم الشبابُ يلعبون مع بعضهم لعبة "الغميضة"، وهاهن الصبايا يضعن في وسطهنّ أربعة كراسٍ ويدرن حولها تماماً مثل طالبات الصفوف الابتدائية في المدرسة، فجئنا إليهم أنا وإسراء فتركوا الغميضة والكراسي وتوجّهوا نحونا، جاؤوا ليظمنوا عن إسراء، فطمأناهم أنّ ألمها قد زال وهي بخير الآن.

- كونوا مستعدّين، فلم يتبقّ من الوقت الكثير، واتركوا

اللّعب كي لا تُجهدوا أنفسكم.

- لا عليك، سنكون مستعدّين.

فاقتربتُ من إسراء وهمستُ بأذنها قائلاً:

- هل لازلتِ مُصرّةً على المشاركة يا حبيبتي؟

- نعم يا هشام، أريد مشاركتكم، لن يمنعني شيء من ذلك،

سعيدٌ كنتُ بحماستها، لكنّي كنتُ قلقاً بقدرٍ يفوق حماستي هذه، أنا الذي ادّعي بأنّني شاعر، أنا من درّس الصّحافة، ومقالاتي تملئُ الصّحف، لا أجدُ الآن ما أقوله، فلا أستطيعُ أن أمنعها، وأخاف أن أقول كلاماً لأشجّعها، فتكونَ كلماتي هذه ما يمنعها من أن تبوحَ بألمها وتعتذر عن المشاركة، أنا في وسطٍ نيرانٍ ولستُ بين نارين فقط كما يقول الناس، فإذا منعها من مشاركتنا سأتسبّب لها بالحزن، وغالباً ستسقطُ دمعها الرقيقةً على خدّها الناصع، هذه الدّمعَةُ قد تكونُ رقيقةً على خدّها، لكنّها حادةٌ كحدِّ السيف على قلبي، وإن تركتها وما تريد، فقد تتأثرَ صحتّها ويزيد

ألمها، فتلومني نفسي وتلومني روعي، وعند عودتنا إلى أرض
الوطن، سيلومني نسيم بلادي العليل فيستحيل فيحاً من جهنم
يكوي مُقلتي وقلبي، سيلومني ماءً بلادي العذب الزلال فيغلي في
جوفي كغلي الحميم، فيا ربّ ألهمني الصّواب.

- سأدخل يا إسراء إلى المبنى كي أطلب فنجاناً من القهوة.

- اطلب لي فنجاناً.

- أصبحت مُدمنة مثلي!

- نعم، أنا أحبُّ كلَّ شيءٍ تُحبُّه يا هشام.

هي مسؤوليّةٌ عظيمةٌ حين تجعل قلب أحدهم معقلاً بقلبك ويبدأ
بالانصهار والتطُّع بطباعك فقط لأنّه يحبُّك، حينها يصبح لديك
شعورٌ بالخوف، فمن يصلُ لهذه الدّرجة من الحب يمكن أن
تخدش قلبه كلمة ويمكن أن تُبكيه همسة، بل وقد تقتله بتصرّفٍ
أرعن.

ذهبتُ كي أطلب القهوة، فدخلتُ إلى الدّاخِل، لأجدَ هناك ريم
لتصطدم عيني بعينها فور دخولي، فصرتُ كمن يمشي على حبلٍ
رفيع، أمامي كومةٌ من جمر، وخلفي مثلها، والهاوية عن يميني
وعن شمالي، فلا أنا أستطيع العودة بعد أن رأيتي، وأخشى
الدُّخولَ فتبقى معي لنخرج سوياً، أمّا الهاويةُ فهي أن أجلس في
ذاك البوفيه وتجلس ريم معي، وتأتي إسراء لأيّ سببٍ، فتمسكنا
بالجرّم المشهود، لم أكن أتوجّس أبداً من مُرافقتي لأيّ من

زميلاتنا أمام إسرائ، إلى أن جاءت واقعة القهوة تلك، فتبيّن لي يومها صفاتٍ كنتُ أظنّها غير موجودةٍ في حبيبتي .

ففضّلتُ أن أدخلَ وأقوم بالسّلام على ريم بشكلٍ طبيعي، وكنتُ أراهنُ على أن لا تبقى لتتظنّني، فهي كانت تستعدُّ للخروج حين دَخَلتُ، لكن سرعانَ ما خسرتُ رهاني، عندما وقفتُ بجانبِي ولمّا سألتُها عن السّببِ قالت: سأنتظرك لنُخرجَ سوياً، هي تظنُّ أنّها بذلك أسعدتني، ولا تعلمُ أيّ مازقٍ وضعني فيه وجودها، فاستأذنتُها في أن أذهب لإحضارِ هاتفِي الذي نسيتهُ في الخارج على الطّاولَة فأجابتني: سأرافقك إذا، أريدُ استنشاقِ الهواءِ الذي أراه معدوماً في هذا المكان، يبدو بأنّ قَدْرِي أن أواجه هذا الموقفَ مُزعَماً، أخرجني يا الله من هذا الفخ الذي أسقطتُ فيه، فاستجابَ اللهُ دعائي وخرجتُ من ورطتي حينَ دخلَ يوسف وسارة ورويدة ليشتروا العصير، فصرنا مجموعةً الآن وصار بقاؤنا أو خروجنا ليسَ بالأمرِ المُريبِ فسألتهم: لِمَ لم تأت إسرائ برفقتكم؟

- لقد طلبنا منها مرافقتنا، فأخبرتنا أنّها بانتظارك، وأنك ستحضر القهوة لكليكما، فاستأذنتُهم جميعاً ومعهم ريم في أن أسبقهم للخروج، فنزلتُ عن ذلك الحبل الرفيع، الذي كان يقود للهاوية، لأجد طريقاً مُعبداً يُفضي إلى الجنّة، فوجدتُ حوريتي بانتظاري.

- لِمَ تأخّرت يا هشام؟

- سأخبرك بالحقيقة يا حلوتي.

دخلتُ إلى البوفيه كي أجلب القهوة، فوجدت ريم أمامي،
فأردت الخروج و لكنّها رأنتني، فأجبرتُ على الدُخول
وإلقاء التحيّة، فأخبرتني أنّها ستبقى لنخرج سوياً، ما
رأيك في هذا المأزق؟

- كنتُ سأقتلك حينها فقط.

- حمدًا لله، لقد نجوتُ منك يا سفّاحتي الحسناء، دَعِينَا
نشربُ القهوة الآن.

أشعرُ بسعادةٍ عظيمة، فها أنا أجلسُ في أرض الجزائر، ومعِي
حبيبتي الشقراء والسمرء إسراء و القهوة، فجاء المجانين
سارة وريم ورويدة ومعهم يوسف يحملون أكوابَ العصير
وجلسوا بجوارنا، فقلتُ لهم: إنّها السّاعة الثالثة، لم يبقَ الكثير
من الوقت حتّى يبدأ الحفل، كانت ريم تُمسكُ زجاجةَ عطرٍ صغيرة
كانت في حقيبتها، فتعطّرت ثمّ أعطتِ الزجاجةَ لزميلاتنا كي
يتعطّرن، ولما جاء دور حبيبتي كي تحظى برشّةٍ كان العطر قد
نفدَ من الزّجاجة، فحزنتُ ولم تتفوّه بكلمة، وعادت فقط للجلوس
بقربي، فنظرتُ إليها ولمستُ وجنّتها،

- ما بالك يا حبيبتي؟

- ليس بي شيء.

- هل غضبتِ لأنك لم تضعي عِطراً؟، لا تغضبي، فرائحة الياسمين التي تتطلق من جسمك كافية لفتح مصنعِ عطورٍ وليس لملئ زجاجةٍ فحسب.
- كُفِّ عن تخاريفك يا هشام فلا يشتمُّ هذه الرائحة غيرك أنت، حتَّى أنا لا أشتمُّها ، من أين جننتي بهذه الخُرافة؟
- قد تكون خرافةً إذا فكَّرتي فيها حسبيًا، لكن عقلنا هو المسؤول عمَّا تشعر به حواسنا، عقلي هو الذي يرشُّ شذا ياسمينٍ عابقٍ حين تقتربين، ويغيبُ مرُغمًا حين تبتعدين يا قمري.
- وهل سيجعلُ عقلك وحواسك الحضور يشتمون رائحة الياسمين هذه؟
- أنتِ على حقّ، فالشخص حين يحب لا يرى في حبيبه عيبًا و تختفي من عقله كلُّ معايير الجمال المنصوص عليها، فصورة حبيبه هي الأحلى ورائحته هي الأزكى، لباسه، مظهره، وهندامه هي أجمل ما تكون في عين حبيبه، حتَّى لو لم تكُن كذلك.
- كان حديثي مع إسرائ حينها كمن يُقنع طفلًا صغيرًا بالأسباب المنطقية لتكوُن ثقب الأوزون!
- هل تأذنين لي يا أميرتي؟، أريد أن أصعد لأرى في أيِّ ساعةٍ سيبدأ الحفل بالتَّحديد حتَّى نستعد.
- ألم يقولوا بأنَّه سيبدأ عند السابعة؟

- بلى، لكني فقط أريد أن أتأكد،
- فَنظَرْتُ إِلَيَّ بِاسْتِعْرَابٍ إِسْرَاءَ وَعَيْنَاهَا تَقُولُ لِي: أَنَا لَا أَصْدِقُكَ يَا هِشَامَ، وَبِالْفِعْلِ لَمْ أَكُنْ صَادِقًا حِينَهَا، كُنْتُ أُرِيدُ الصَّعُودَ إِلَى مَكْتَبِ الْآنِسَةِ هُنَا، فَسَاجِدُ لَدَيْهَا زَجَاجَةً عِطْرٍ حَتْمًا فَأَحْضِرُهَا كِي أُسْعِدَ مَجْنُونَتِي، فَصَعِدْتُ لِلْأَعْلَى
- أهلاً بك يا هشام، هل نسيتم شيئاً في مكتبي، لم أنتبه لذلك.
- لا، ليس ذلك آنستي، أريد أن أطلب منك طلباً سخيلاً.
- فضحكت وقالت: تفضّل واطلب، لا عليك.
- أريد عِطْرًا.
- فارتسمت على مِحْيَاهَا علامة تعجب.
- لكنّه عِطْرٌ نِسَائِيّ.
- أنا لا أريده لي، أنا أريده من أجل حبيبتي المجنونة، ستموت إن لم تضع عِطْرًا كَبَقِيَّةَ زَمِيلَاتِهَا، لَنْ أَشْغَلَكَ بِالتَّفَاصِيلِ.
- تفضّل هذه زجاجة عِطْرِي.
- شكرًا لك، سأنزل الآن وأعيدها خلال عشرة دقائق.
- لا لا، لا تُعْدها، هي هديّة مِنِّي لِإِسْرَاءَ.
- فشكرتها ثمّ نزلت للأسفل، فوجدت الجميع من صبايا وشباب مجتمعين، ويببدو على وجوههم القلق ولم تكن حبيبتي تجلس معهم حينها، فالتفتوا بأنظارهم إليّ فور حضوري، كأنهم كانوا

بانتظاري فعلت حينها ودون أن يُخبرني أحد، أنّ خطبًا ما حلَّ
بإسراء، فهرولتُ لا بل ركضت بسرعةٍ نحوهم، فامتزجتِ اللفهة
والخوف مع دمعاتي ودقّاتِ قلبي حينها، فسألتهُم ما الذي
حصل؟، أين هي إسراء؟، هل أصابها شيء؟، فأجابتي سارة
بصوتٍ تخنقه الدموع، هي مُتعبةٌ يا هشام، لا أدري ما بها، لقد
خرجوا لتوهم، يمكنك اللّحاق بهم قبل حتّى أن يصلوا إلى
الموقف، فواصلتُ سارة حديثها بعد ذلك، ولم أسمع منها كلمةً
بعد أن أخبرتني أنّ بإمكانني اللّحاق بهم قبل أن ينطلقوا، فانطلق
قلبي قبل أن تنطلق أقدامي وسابقت دمعاتي زفير أنفاسي،
فوصلت الحافلة وكان أكرم يستعدُّ للانطلاق، وبطبيعة الحال كانت
أبواب الحافلة مُغلقة ولن تلتفت أعين أحدهم إليّ، فقد كانت
أعينهم مُنشغلةً بالنّظر إلى إسراء حينها، فبدأتُ أقرعُ جانب
الحافلة كالمجنون، فقام أكرم بفتح الباب الخلفي للحافلة،
فتسابقتُ وقلبي في الصّعود، وتسابق معنا أكرم في الانطلاق،
كانت إسراء مُمدّدة في المقعد الخلفي، وكانت تجثو على ركبتيهما
كلٌّ من رويده وهدى زوجة أكرم، إحداهما تمسح العنبر عن
جبين حبيبتي والأخرى تجمع اللآلئ التي تذرّفها عيناها، وقبل أن
يغلّمَ بقدمي، سمعتها تقول بصوتٍ ينهشه الألم: أين هشام؟،
أين هشام؟

هذا هو هشام يا حبيبتي رهن إشارتك وطوع يدك،

- ماذا حلَّ بك يا صغيرتي؟

- أنا أتألم وأشعر بضيقٍ في نَفْسي،

فَلَمَسْتُ وجنتها حين أَحَسَسْتُ بتلك الانكسارِ في فؤادها، فتلاقت
لَمَسْتِي لَحْدَهَا، بلؤلؤةٍ تشظَّت من عيناها الزرقاء، هذه الدمعةُ
أعلى عليّ من كنوزِ الدُّنيا يا حبيبتي، فأغمضتُ حبيبتي عيناها
وأمسكتُ يديّ ووضعتُهما فوقَ قلبها وضغطتُ عليها كأني بها
تقول: لا تبتعدِ عني يا حبيبي لأيِّ سبب.

هذه هي إسرائ، التي كبرت وتربت وشبت على عيني، التي دقَّ
لها قلبي يوم وُلدت، ولم تختلف يوماً دقاته عندما كنت أراها
وأشتمُّ رائحتها أو أسمع لحن صوتها، غير أنَّ دقاتِ قلبي هذه
ازدادت تسارعاً بحيث أنك لو خُدشت ذراعي لنزفتُ كلَّ دمائي من
أول رعدة.

وصلنا إلى المشفى، ففتحت أعينها إسرائ و نظرت إليّ نظرتها
القاتلة الممتزجة بالدموع.

- لا تتحركوا من فضلكم، سأنزل وحدي،

فنزلتُ إلى استقبال المستشفى وأخبرتهم أن لدينا مريضةً في
الخارج، فرافقني واحد من فريق التمريض ومعه كرسيّ متحرك،
فوصلنا الحافلة فرأيتهم عبر الزجاج يهْمُون بإخراج إسرائ،
فأشرتُ إليهم بيدي أن توقفوا، وصعدتُ مُسرِعاً إلى الحافلة،
فحظيتُ بشرفٍ أن أحمل أحدِ نجومِ الثُّريا بين ذراعي، حملتُ
نجمتي الغالية، فأسندتُ رأسها إلى قلبي، ثم نزلنا فرفعتُ إسرائ
أعينها باتجاهي وقالت: لا أريد ركوب الكرسي، احملني أنت إلى

الدَّاخل، وكان العامل المُكَلَّف بنقلها ينظر إلينا ومتأهِّبًا كي نضعها على الكرسي، فاعتذرتُ له بأنَّ مريضتنا تعاني ألمًا في ظهرها ولن تستطيع الجلوس فقال لي: سأحضرُ سريرًا مُنتقلًا إدا، فنظرتُ إلى عُصفورتي وقلتُ لها: ما رأيك؟، فقالت لي إجابةً ظاهرها الموافقة وفي باطنها الرِّفض، قالت: نعم فليحضروا لي سريرًا إن كُنْتَ تعبت من حملي.

- أنا مُستعدُّ لحملك العمر كلَّه يا أميرتي، ولن تحتاجي أن يحملك أحدٌ بعد الآن بإذن الله، ولست مستعدًّا لحملك بعد هذا اليوم في غير يوم زفافنا، هل فهمتي؟

فابتسمتُ حبيبتي، ووصلنا بعدها إلى عيادة الطَّواريء المقصودة، فدخلنا جميعًا إلى حُجرة الطَّبيب، وأشار لي أن أضع إسرائي على السرير المُخصَّص لتلك العُرفة، فوضعناها فجاءنا طالبًا منَّا أن نترك إسرائي عنده وحدها، فطلبتُ منه أن أبقى لمرافقتها فلم يُبد أي معارضة الطَّبيب كما هو معهودٌ عن بروتوكول الأطبَّاء لدي، فما كان يبدو على وجهها وأنا أحملها وهي متعلِّقة بي ومُلقيَّة رأسها على صدري كان كافٍ جدًّا لإعطاء صورةٍ للذي يراها أنَّها بحاجةٍ لبقائي بجانبها في هذه اللَّحظات، فقد يكون حولك الكون كلُّه عندما يحلُّ بك خطبٌ ما، لا يُغنون عنك من مصابك شيئًا حينها، بينما تكفي لكفِّ ألمك ودرء مُصابك لمسَّة كفِّ من شخصٍ واحدٍ فقط، همُّ الأطبَّاء من يستطيعون تقدير ذلك أكثرَ من غيرهم، والأمَّهات أيضًا يفعلنَ مثل ذلك، بيد أنَّهن لا يرينَ أحدًا أحقَّ منهن

بالبقاء مع فلذات قلوبهن، فبقيت وخرجوا جميعاً، فاقترب الطبيب من إسراء وقال لنا مُمازِحًا: أين هو مريضكم؟، فأجابته إسراء ببراعة: ها أنا أمامك يا دكتور، فأظهر الطبيب اندهاشه، هذه الدهشة كانت مُصطنعةً بلا شك،

- اصدقوني القول أرجوكم، أين هو المريض؟

فأصرت أميرتي الحسنة على إثبات أنها هي المريضة، كم جميلة هي براءة الطفولة التي تتحلين بها، والأجمل من ذلك أن هذه البراعة توازي أو إن شئت تتفوق على براءة الأطفال، فأنهى مُزاحه الطبيب بعد أن صنع جوًّا من الدُعاية والمرح في تلك العيادة،

- هل تسمحين لي أن أسمع دقائق قلبك آنستي، ثم أقوم

بعدها بقياس ضغط دمك؟

- تفضل يا دكتور.

فوضع سمّاعته فوق قلبها، ثم بادر بالسؤال بلهفة، هل تناولت دواءً مُعيّنًا قبل قدومك للعيادة؟

- نعم، لقد أخذت دواءً مُضادًا لتهيجات القولون.

ثم قام الطبيب بقياس ضغط دمها، فوجده مُرتفعًا بعض الشيء ولم يكن ارتفاعاً يستدعي قلقًا أو خوفًا، فلألم وقلة الراحة وغياب النوم تأثيرها على ضربات القلب وضغط الدم.

- سأقوم بإعطائك حقنة مُسكّن ليزول ألمك سريعًا.

فأعطاها الطبيب المسكن وبدأت ألمس الراحة في وجهها شيئاً
فشيئاً.

- لن أعطيك أدويةً أخرى، عليك أن تخلدي للنوم وتستريحي
فقط.

- هل يمكن أن نوجّل هذه الرّاحة قليلاً يا دكتور؟
- ولماذا؟

- لقد جننا من فلسطين كي نُحيي احتفالاً في سفارتنا بذكرى
يوم الأرض، وها قد بدأ يزول ألمي والحمد لله، وأتمنى أن
أشارك في هذا الاحتفال.

فشعرتُ أنا بالغضب، لكنني كتمت تلك الموجة من غضبي
لسببين: أولهما كي لا تتأثر إسرائيل، وثانيهما كي لا تكون ردةً
فعلي سبباً ليغيّر الطبيب نصيحته المفترضة.

- الأفضل عندي أن تبقي مُستريحةً، لكن وبما أن ألمك قد
زال، وأنتِ مصرّةٌ على المشاركة فلنك ذلك، شريطة ألا
تُجهدي نفسك يا آنسة.

وبرغم انزعاجي من موقف الطبيب هذا، إلا أنه ألقى على قلبي
رداذ الصبر والاطمئنان.

- سأعطيك بعض المقويّات و دواءً مهدّناً للأعصاب على
سبيل الاحتياط.

فأخبرته إسرائيل بأن ألمها قد زال وما من حاجةٍ الآن لأيّ دواء.
- هو فقط زيادةً في الاطمئنان، لا تقلقي.

فاستأذنتُ بعدها الطَّيِّبَ في الخروج، فقال: هل أنا مدعوٌّ لاحتفالكم، أم ماذا؟، فأجبتُه بأنَّه أوَّل المدعوين، هو ومن أحب، فشكرنا الطَّيِّبَ وخرجنا من العيادة، دخلتُ إسراءَ العيادةَ محمَّولةً بين ذراعِي، وها قد خرجنا وهي تمشي على قدميها، وكنتُ أضغُ يدي على كتفها، وفورَ رؤية هدى ورويدة لنا، احتضنتها وطفقن يُقبَلنها.

حسنًا، لقد اطمأننا على إسراءَ والحمد لله، لنذهبِ الآنَ إلى مقرِّ السَّفارة، فلم يتبقَّ الكثير من الوقت، فخرجنا من المشفى وركبنا حافلة أكرم،

- أين تريدون أن تذهبوا الآن؟، ألى السَّفارة؟

- لا، سنذهبُ كي نُحضرَ أبناءكما أوَّلاً، وبعدها نُنَّجه

للسَّفارة،

فنظرتُ إلى وجهي أكرم و هدى عندما رأوا حِرصي على حضور أبنائهما، جميلةٌ هي هذه الابتسامَةُ التي ترتسم على وجوه أولئك البسطاء عندما تسدي لهم معروفًا، قد لا تذكره أنت وقد لا تشعر أنَّك فعلت شيئًا ذا بال في الأصل، لكنهم يُقدِّرون معروفك ويَزِنونه بميزان الذهب.

في زماننا هذا ليس يقاس الغنى بما تملكه من أموالٍ و مدَّخرات، وأتحدَّث عن هذا الزمان تحديدًا لأنني أحد أبنائه، سواءً راقني ذلك أم لم يرقني، حقيقةً، كنت أتمنَّى لو عشتُ في زمانٍ آخر، لكن الآن وقد أجبرتُ أن أعيش في زماننا هذا، فليس لي إلا أن

أتعايش معه، أجملُ غنىً بالنسبة لي هو أن تكون غنياً بأخلاقك،
بعلمك وثقافتك، أمّا وفرّة المال فلها اسمٌ آخر عندي، قد يكون
الرّفاهية ربّما، فقصدنا منزلَ والدّة هدى كي نأخذُ عبد الله وعلاء
من هناك ليحضروا احتفالنا، ولازالت تبوحُ لنا الجزائر بحبّها،
ففور وصولنا إلى هناك ومعرفةِ والدّة هدى بهويّتنا، كان ذلك
كافٍ لأن تستقبلنا استقبال الفاتحين، ولستُ أدري أيُّ سحرٍ كان
يصيبهم فور سماع اسم فلسطين، قد يكون الكثير تخلّوا عنا
ونسوا قضيتنا أو تناسوها، لكنّ الله كفيلاً بتعويض ذلك كلّه، وما
أجمل هذا العوض، ما أجمل أن تجد أناساً يحبّونك إلى هذا الحد
ولم يلتقوك سوى لبضع دقائق أو لسويّعاتٍ على أبعد تقدير،
فشكراً لك حقاً يا جزائر.

تعرفنا بوالدّة هدى التي أغدقت علينا الدّعوات بالتوفيق والنّجاح
وقالت: كنتُ أتمنى أن أحضر احتفالكم، لولا هذا الكرسيّ المتنقّل
الذي كُبلت به، فأوجعني كلمائها، كم تمنّيت أن تأتيّ لتحضر
الاحتفال، ما بال قلبك يا هشام، فلم تلتقِ بهذه السيّدة إلّا من
دقائق معدودة، لِمَ أنت مهتمٌّ بحضورها لهذا الحد؟، يبدو أنّ طباع
أهل الجزائر الطيّبة بدأت تتسلّل إلى عقلي وقلبي، لا عليك يا
خالة، ستقفين على أقدامك بإذن الله، وستأتين لزيارتنا في
فلسطين، وستُصلّين في المسجد الأقصى بإذن الله، فاغرورقت
عيناها بالدموع حين ذكرتُ اسمَ الأقصى، فقلتُ لها: إن كانت

عينك تذرف الدُموع لأنك سمعتي اسمه فقط، فأعيننا في فلسطين
تنزفُ الدَّم حين نراه من بعيدٍ ونُحرم دخوله والصلاة فيه.
والآن دعونا نأخذ الأولادَ وننطلق، فجاء الصِّغار يلبسون
ملابسهم الصغيرة الجديدة، فخرجنا إلى حافلة أكرم، أنظرُ من
نافذة الحافلة، فأرى المارة وأرقب ابتسامتهم التي لا تفارقُ
وجوههم، وأنظرُ جوارِي فتصطدم أنفاسي بأنفاس حبيبي
الحسنة، ما أجملها من أوقاتٍ هذه التي نقضيها هنا في الجزائر،
فقد صارت لنا فيها ذكرياتٍ لا تُنسى، ستكون في يومٍ من الأيام
قصصاً أروِيها لأطفالي، كي ينعموا بنومةٍ هانئة، سأروي لهم
مشاعرَ جميلةٍ عشتها مع أمهم، مع إسرائ، وبنفس العادة التي
لازمتني مُذ لامستُ بقلبي هواءَ الجزائر، نسيبتُ التوقيت، غارقٌ
كنتُ في حُلْمٍ جميلٍ لا أحبُّ الاستيقاظ منه، حُلْمٍ بقصرٍ بديعٍ في
جَنَّةِ ظلالها وارفة تُدعى الجزائر، وحموريةً بيضاء حسنة الصوتِ
والرائحة اسمها إسرائ، يزيدُ جمالها أضعافاً كَمَا التفتُ إليها،
فأوقظني من حُلْمِي البديع كالعادة صوتُ أكرم حين قال: ها قد
وصلنا، فتلقنا زملاؤنا ولم يكونوا وحدهم بانتظارنا، فجميع
كوادر السفارة كانوا ينتظرون كذلك، كان هناك أيضاً السيد زاهي
الذي أطلقتُ عليه لقبَ وجهِ السَّعد، فهو من كان سبباً في تحقيقِ
حُلْمِي بزيارة الجزائر، كانت تقفُ هناك كذلك الأنسة هناء،
فلامستُ أنا الأرضَ بأقدامِي عندما نزلنا، لكنَّ إسرائ طارتُ في

الهواء، بعد ان احتضنتها الأنسة هناء وبقية المجانين، وانهلوا
يُقبلونها ويطمنون عليها،

- هل أنت بخير يا إسرائيل؟

- نعم، أنا بخير و الحمد لله.

- هل ستشاركينا في الاحتفال أم ماذا؟

فنظرت إليّ إسرائيل حين سألوها إن كانت ستشاركنا أم لا، كآتي
بها تقول لي: ما رأيك يا هشام؟

أنا أفهم النفس الذي تنفّسه إسرائيل، وأفهم نظرة عينها، وخطي
من يسمع دقات قلبها، حتى لو كانت وسط كظيظ من الزحام
فأجبتهم: بفرجها الله، ثم أمسكتها ووقفنا جانباً، وكان وجهي
أمام وجهها وأنفاسها تُداعب أنفاسي وعيونها الزرقاء تستجديني
بدمعاتها المختنقة وتبتزني كي أوافق وإلا انهمرت.

أحبُّ تحمّل المسؤولية عادةً و مع أيّ كان وفي كلّ وقت وعلى
استعدادٍ للمجازفة بأيّ شيءٍ مهما غلت قيمته، لكن الشخص
الوحيد الذي لا أحبُّ المجازفة معه حتى لو كانت مجازفةً بسيطةً
لا تُذكر، هي حبيبتي إسرائيل، فاقتربتُ منها ونظرتُ بعينها، فعدت
ألمسُ رغبته الجامحة كي تُشاركنا احتفالنا، وبعد أخذٍ ورد اتفقت
معها أن تغني أغنيةً واحدةً قصيرة، وأن تشاركهم في الرقصة
الخفيفة فقط، فدخلنا جميعاً إلى المبنى وصعدنا إلى قاعة
الاجتماعات وصعد معنا السيد زاهي، فقام بالاطمئنان على إسرائيل
وأعطانا الكثير من التوصيات بشأنها ثم تركنا وحدنا، فتوجّهتُ

لزملائي بالكلام بسرعةٍ وقُلت: ستكونُ جميعُ فقراتنا كما رتّبنا
سوى أنّ إسرائ ستشارككم في رقصتكم الأولى فقط لأنّها ستكونُ
الأقصر، وستقومُ الصّبايا بتعويضِ غيابها عن الرّقصةِ الثّانية،
فقالَت سارة: ولو أنّ غيابَ إسرائ يصعبُ تعويضه، لكنّا
سنحاول ذلك قدر الإمكان، فوقعتِ المصيبة، ودمعةٌ غافلتني
وسقطت من عينها حين سمعت كلامها، فتنبّهت سارة لتلك
الدمعة، فاحتضنتها ومسحت دمعها وقبّلت رأسها وقالت: لا
عليك يا حبيبتي، ستصبحين بخير.

نزلنا إلى السّاحةِ بعدها، وكان الحضورُ يملئونها بل ويملئون
مبنى السّفارة أيضاً، أستطيعُ أن أرى أكرم وهدى وأبناءهما
وتجلسُ الأنسةُ هناء مترقبةً بدايةَ الحفل، وذلك هو الطبيب الذي
كنا في عيادته منذُ قليل.

هالةٌ ضخمةٌ من السّعادةِ تُحيطُ بي، فأنا في الجزائرِ البلدِ الحبيب
وحولي الأحبةُ الذين عرفتهم فيها، ولا أظنُّ بأنّي سأنساهم يوماً
أينما حللت، يستحقُّ هذا الجَمعُ الغفيرُ أن نقدّم لهم ما يليقُ بهم،

- بعد قليل سيصلُ سيادة السّفير مع ضيوفه، وسنقومُ
بالسّلام عليهم ثم نبدأ مباشرةً بفقراتِ الحفل،

- حسناً يا هشام.

- ابن الحلال عند ذكره يبان، ها قد وصلَ مؤكبُ السّفير،

استعدّوا كي نذهبَ للسلامِ عليه ونشكرهُ على هذه الثقةِ
التي منحنا إيّاها، أنا لستُ أدري كيف نسلمُ عليه ونعرّفه
بأنفسنا،

فنظرتُ حوله لأرى السيّدَ زاهي جوارَه، حمداً لله، لعلّ المسألة
هانت عليّ، فتوجّهتُ نحوهُ وأبلغتُه رغبتنا بالسلامِ على سيادةِ
السّفير، فذهبَ ووقفَ بجانبه، أراه يهمسُ بأذنه، فالتفتَ إلينا
وابتسمَ، فتوجّهَ إلينا السيّدُ زاهي مُسرِعاً،

- تفضّلوا يا شباب، قوموا بالسلامِ على السيّدِ السّفير
وعرّفوه بأنفسكم، ثمّ توجّهوا سريعاً لنبدأ بالحفل.
- نحن بأمرِك سيّدي.

فتوجّهنا نحو السيّدِ السّفيرِ وبدأنا بالسلامِ عليه فردّا فرداً، فقال
فليعرّفني كلُّ باسمه، فقدّمنا له أنفسنا جميعاً،

- سنستأذِنك سيادةِ السّفيرِ أنْ نقومَ بالصُّعودِ إلى خشبةِ
المسرحِ والوقوفِ في الكواليسِ فالساعةُ تُوشِكُ أنْ تُصبحَ
السابعةُ.

- نعم تفضّلوا.

تبقّى خمسُ دقائقَ للبدايةِ، فصعدَ يوسفُ وبدأً بمقدّمتهِ،

"بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ والحمدُ لله رب العالمين وصلواتِ الله
وسلامه على نبيّنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين أمّا بعد،
يسرُّني كما يسرُّ كل زملائي في الجالية الفلسطينية أن نُحيي هذه
الذِّكري الخالدة هنا على أرض الجزائر وبين شعبنا الجزائري

الحبيب، وسأبدأ بذكر أصل هذه المناسبة التي تعود لعام ألف وتسعمائة وستة وسبعين بعد أن قامت السلطات الإسرائيلية العنصرية بسرقة آلاف الدونمات من الأراضي الفلسطينية في ظلّ مرسومٍ جديدٍ أصدره رسمياً باسم مشروع "تطوير الجليل" والذي كان لا يعدو كونه تهويداً لمنطقة الجليل، فقامت السلطات الصهيونية بمصادرة ما يزيد عن عشرين ألف دونم من أراضي قرى فلسطينية، كدير حنا وسخنين وعرابة وغيرها في منطقة الجليل، وهي ما بات يُطلق عليها فيما بعد اسم "مثلث الأرض"، كما صادرت سلطات الاحتلال الصهيونية خلال الأعوام ما بين عام ثمانية وأربعين و عام اثنين وسبعين أكثر من مليون دونم من الأراضي في الجليل والمثلث إضافةً إلى ملايين الدونمات الأخرى التي استولت عليها عام ثمانية و أربعين وخصّصتها للمستوطنات الصهيونية في سياق مخطط تهويد الجليل، وكانت السلطات الصهيونية قد صادرت خلال الأعوام ما بين ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين و عام ألف وتسعمائة واثنين وسبعين أكثر من مليون دونم من أراضي القرى العربية في الجليل والمثلث فقررت اللجنة العامة لرؤساء المجالس العربية عقد اجتماع في مدينة الناصرة، وقرروا فيه الإضراب العام في الثلاثين من شهر آذار تعبيراً عن رفض هذا التعسف، فكان الرد الإسرائيلي وكالعادة بقوة السلاح، فاجتاحوا القرى الفلسطينية وأخذوا يُطلقون النار عشوائياً فسقط أول الشهداء في ذلك اليوم

في قرية عرّابة، فانتشر الخبر في صباح اليوم التالي وانطلقت الجماهير في تظاهراتٍ عارمة فسقط خمسة شهداء آخرين وعشرات الجرحى.

شهداء الأرض:

الشهيد خير ياسين من بلدة عرّابة

الشهيد خضر خلائلة من بلدة سخنين

الشهيدة خديجة شواهنة من بلدة سخنين

الشهيد رجا أبو ربا من بلدة سخنين

الشهيد محسن طه من بلدة كفر كَنّا

واستشهد في الطيبة الشهيد رأفت الزهيري

إضافة إلى عشرات الجرحى والمصابين.

هذه كانت المناسبة التي سُمّي من أجلها هذا اليوم بهذا الاسم ،ليرحم الله شهداءنا، والان سنبدأ بفقرات حفلنا، وخير ما نبدأ به آياتٍ من القرآن الكريم يتلوها على مسامعكم الأخ علي السمهوري، "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم تُرحمون"، فصعد عليّ وقرأ ما تيسر له من القرآن، فأنتصت الجميع إلى آيات القرآن وإلى صوتِ عليّ العذب في القراءة، كُنّا جميعاً بحاجةٍ إلى هذه الرّاحة النفسية بعد أن سمعنا مُقدمة يوسف المؤلمة، ولن نجد لهذه الراحة من باعثٍ أفضل من كلام الحقّ سبحانه، فانتهى عليّ وحان وقتُ عزف السلام الوطني

الفلسطيني، فوقف الحضور جميعاً، وعلى قلوبهم وضعوا أيديهم،
كانت القلوب جزائريةً وكان النبض فلسطينياً.
والآن كلمة سيادة السّفير فليتنفّض مشكوراً، فحيى سيادة السّفير
الجمهور ثم بدأ بكلمته،
لطالما سألتُ نفسي سؤالاً، وكان سؤالِي أن متى يشعر الإنسان
بالغربة؟،

حقيقةً لم أحتج كثير عنايةٍ للحصول على إجابةٍ، فالجواب واضحٌ
بلا شك، يشعر الإنسان بالغربة عندما يبتعد عن أهله، فاستدركت
وسألت سؤالاً آخر: فلماذا إذاً لا أشعر بالغربة وأنا بعيدٌ عن أهلي
منذ ما يقارب العشر سنين، وإن ذهبت لزيارتهم فلا تتعدى
زيارتي يوماً أو يومين، فلم تكن الإجابة صعبةً أيضاً وتدفّق بها
قلبي قبل أن ينطقها لساني، كانت الإجابة: أنت لا تشعر بالغربة
لأنك تُدرك كم أنّ شعب الجزائر يحمل من الحبّ لفلسطين وأهلها،
فأنت لم تبتعد أبداً عن أهلك، أمّا السبب الثاني الذي قد يُشعرك
بالغربة، فهو بُعدك عن الوطن، ولا أظنُّ أنّك ستجد وطناً يحبُّك
ويخنو عليك بعدَ فلسطين كالجزائر الحبيبة، لذا فكلُّ الشكر لهذا
الشعب الحبيب و لهذه الأمة العظيمة، لهذه الأرض الطاهرة، ثم
أكمل سيادة السّفير كلمته، وكانت تحمل الكثير من المشاعر، دُكر
يوم الأرض وذكر شهداءه ، وذكر تضحيات الشعب الفلسطيني
وقارنها بتضحيات إخوتنا في الجزائر، كان ما يفتوّ سيادة السّفير

يربط بين الشعب الفلسطيني والشعب الجزائري ولم ينته من كلمته حتى جعل دموعنا تغرق وجوهنا.

ثم صعد يوسف المسرح وقال: نترككم الآن مع فيلم وثائقي قصير، ثم نعاود استكمال فقرات حفلنا، فتوجه الجميع بأعينهم نحو شاشة العرض وأظن قلوبهم أيضاً فعلت الشيء ذاته، مدة الفيلم لا تتجاوز خمس عشرة دقيقة، فجلس الجميع على مقاعدهم، إسرائ تجلس بجانبني، ليس فيلماً رومانسياً كي أشرب عصيراً وأضع في فمها الصغير حبات الفشار، لكنني اقتربت من أذنيها فهمسنت لها بأن فقرتها الغنائية ستكون التالية ويجب أن تجهز نفسها،

- ما رأيك لو رافقتني، فستكون فقرتك عقب فقرتي مباشرة،
- نعم سأرافقك، ولو أنني يروقتني أن أنظر إليك وأنت تغردين مثل بلبل فوق عُصنٍ أمامي، لكن لا بأس سأكتفي بمشاهدتك من خلف الكواليس، هيّا لنصعد ونستعد.

فصعدت وإسرائ إلى الكواليس، وها أنا أرى يوسف يصعد المسرح، يبدو أن فقرة إسرائ الغنائية قد جاء وقتها، فقال: والآن مع عصفورة الحرية إسرائ هاتي، لتقدم لكم أغانٍ من التراث الفلسطيني، فصعدت للمسرح إسرائ ووقفت أمام الجمهور وبدأت بموأل ثرائي يقول في مطلعهِ "شاهد راجع إلك يا ميمتي صلي، غفیان صدر الوطن فارس والو هلة"، ثم ابتدأت بأغنياتها وكان الجمهور مستمتعاً بصوتها وأدائها، أما

عَنِّي، فحُضُورُها والنَّظْرُ إليها تَكْفِينِي، فَأُنْهَتْ إِسْرَاءُ أُغْنِيَتْهَا،
فَحَيَّاهَا الْجُمْهُورُ وَصَفَّقُوا لَهَا بِحِرَارَةِ فَحْمِدَتِ رَبِّي، ثُمَّ رَجَعَتْ
إِسْرَاءُ إِلَى الْكُوَالَيْسِ، فَشَكَرْتُ لَهَا مَا قَدَّمَتْ.

لَحَظْتُ وَإِذَا بِيُوسُفَ يَقُولُ: وَالْآنَ مَعَ شَاعِرِ الْحَرِيَّةِ، الشَّاعِرِ
هَشَامِ الْمَاضِي لِيُطْرِبُنَا بِأَبْيَاتِهِ الشَّعْرِيَّةِ، فَلِيَتَفَضَّلْ، فَصَعِدْتُ إِلَى
الْمَسْرَحِ وَوَقَفْتُ أَمَامَ الْجُمْهُورِ، أَيُّ رَهْبَةٍ هَذِهِ؟، أَخْبِرْنِي كَيْفَ
وَقَفْتِ أَمَامَهُمْ يَا إِسْرَاءُ وَقَدَّمْتِ أُغْنِيَتِكَ، لَعَلَّ نِقَاءَ قَلْبِكَ يَعْطِيكَ
ثَبَاتًا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ، لَكِنْ مَاذَا عَنِّي أَنَا، أَلَيْسَ ثَمَّةَ بَقِيَّةٍ مِنْ
نِقَاءٍ دَاخِلِ قَلْبِي!.

بِدَايَةَ أَشْكُرُ لَكُمْ حُضُورَكُمْ وَمُشَارَكَتَكُمْ لَنَا احْتِفَالَنَا، كَانَ مِنْ حُسْنِ
حِظِّي أَنْ تَمَّ اخْتِيَارِي كِي أَحْظَى بِشَرَفِ الْوُقُوفِ أَمَامَكُمْ، قَصِيدَتِي
وَعَلَى غَيْرِ الْعَادَةِ لَنْ تَكُونَ مِنْ كَلِمَاتِي، هِيَ كَانَتْ كَلِمَاتٍ كُنْتُ
أَقْرَأُهَا فِي أَعْيُنِ الْجَمِيعِ عِنْدَمَا يُذَكَّرُ اسْمُ الْجَزَائِرِ عَلَى مَسَامِعِهِمْ،
هِيَ رِسَالَةٌ شُكْرٍ، تَقْدِيرٍ وَوَفَاءٍ يَبْعَثُ بِهَا إِلَيْكُمْ شَعْبُ فِلَسْطِينِ،
فَبَدَأْتُ إِلقاءَ قَصِيدَتِي

فِلَسْطِينُ تَنَادِي مِنْ بَعِيدٍ

وَهَذَا الصَّوْتُ يعلو فِي الْجَزَائِرِ

فِلَسْطِينُ هُوَ هَا فِيهِ عَشَقٌ

لِشَعْبٍ وَاسْمُهُ شَعْبُ الْجَزَائِرِ

فلسطينُ كما كانت ستبقى
تُنَاجِي وَدَّ أَهْلِي فِي الْجَزَائِرِ
فلسطينُ إِذَا يَوْمًا تُرِكْتِي
وَبَاعُوكِي فَهَيَّي لِلْجَزَائِرِ
فلسطين ستَبْقِ الْيَوْمَ أَخْتًا
وَتَبْقِي أَخْتَكِ الْكَبِيرِي الْجَزَائِرِ
فلسطين أرى جيشًا عَظِيمًا
إِلَى التَّحْرِيرِ يَرْبُو فِي الْجَزَائِرِ
فَشَكَرًا ثُمَّ شَكَرًا ثُمَّ شَكَرًا
وَهَذَا الشُّكْرُ يَبْقَى الْيَوْمَ حَائِرِ
وَلَنْ يَكْفِي كَلَامَ الشُّكْرِ مَنِّي
وَلَنْ يَكْفِي الْبِدَا فَوْقَ الْمَنَابِرِ
يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّ الْقَوْلَ هَذَا
سَيَبْقَى لَوْ تَعَدَّى قَوْلَ شَاعِرِ
يَظُنُّ النَّاسُ أَيْضًا أَنَّ قَوْلِي
سَيَبْلَى فِي الْفَلَا أَوْ فِي الْمَقَابِرِ
قَفُوا مَهَلًا فَهَذَا الْقَوْلُ وَعَدُّ
مِنَ الرَّحْمَنِ رَبِّ الْعَرْشِ صَائِرِ

فصَقَّ الْجُمْهُورُ وَذَهَبَتْ لِلْكَوَالِيسِ وَدَقَّاتِ قَلْبِي الْمَتَسَارِعَةِ
تَصْرُخُ أَنَّ حَمْدًا لِلَّهِ لَقَدْ نَجَوْتُ، وَلَكِنْ مِمَّ نَجَوْتُ؟، لَيْسَتْ هَذِهِ

المرة الأولى التي تقف فيها أمام جمهورٍ يا هشام، ولن تكون الأخيرة أظنّها، فلمَ كل هذا الخوف؟، لقد اعتدتُ الوقوف وإلقاء الشعر أمام الجمهور هذا صحيح، لكن ليست كل الجماهير كجمهور الجزائر.

- ماذا حلّ بك يا هشام؟، وجهك أصفر اللون.

- لا أدري يا إسرائ، فقد أصبحت ركبتيّ ترتعشان وتضرب إحداهما الأخرى، أنا سأخرج الآن وأترككم تستعدون لفقرتكم التالية، إنها رقصة الدبّكة، سأخرج وأشاهدكم مع الحضور،

فقام مهندس الصوت بتشغيل بعض الأغاني الوطنية الفلسطينية، هي استراحة متفق عليها حتى يتسنى لهم تجهيز أنفسهم وتبديل ملابسهم، فدخل الشباب وجّهزوا أنفسهم ثم دخلت الصبايا إلى غرفة تبديل الملابس وخرجنَ تباعاً،

- هشام أنت من سيتولّى تقديم هذه الفقرة.

- كونوا جاهزين أنتم فقط.

- جميعنا جاهزون.

فأشّرتُ إلى مهندس الصوت أن يوقف الموسيقى، فخرجتُ للمسرح وقلت: والآن تُطلُّ عليكم فرقة شمس الحرية لتُقدّم لكم رقصة الدبّكة الفلسطينية، ثم عدتُ لأجلس وسط الجمهور حتى أنظر إليهم.

فرقة شمس الحرية هذه، أنتِ يا حبيبتي شمسها، تبدو لي بدونك
شمساً بغير ضياء، تبدو كزهرة من غير رحيق.

بدووا رقصتهم على أغنية "يلا نشبك ايد بايد عالدبكة العربية"،
وكان الإعياء بدأ يأخذ من إسرائ مأخذه، وهاهي ترفع يدها
لزملائها على المسرح لتتسحب من رقصتهم، كانت حبيبتي تتألم
بصمتٍ، ولم يعد للصمت مكانٌ، بعد أن أعلنت عدم مقدرتها
مواصلة الرقصة مع زملائها، أنا الذي يعرفك يا إسرائ، فأنتِ لا
تتسحبين إلا لأن خطباً لا يُطاق قد أصابك.

انسحبت إسرائ من الرقصة، لتذهب إلى الغرفة في الكواليس،
أنتِ أقرب لتلك الغرفة مني وأنا أجلس بين الجماهير في الأسفل،
لا أدري كيف وصلت إليها قبلك، لأستقبلك وأكون من يفتح لك باب
تلك الغرفة، وحالما رأته بالداخل إسرائ، أغمضت عينيها وألقت
نفسها بين ذراعي، كأنني بها تُرسل إليّ برسالة تقول فيها: لقد
تركتُ الناس كلهم خلفي ولم أجد لأحد غيرك يا هشام، فلا
تتركني، وصلت رسالتك يا حبيبتي ولن أتخلى عنك ما حييت،

- بم تشعرين يا حلوتي؟

- أنا لست بخير، أنا أتألم.

عاد لي الألم الذي ذهب للطوارئ بسببه صباحاً.

أنا بحاجة إلى الراحة.

و إذا أنا بصوت يوسف يرنُّ بأذني وهو يقول: يُطلُّ عليكم من
جديد الشاعر هشام الماضي، فليفضل، كان من المفترض أن

أقول كلمةً مُرتجلةً، ويَلي لستُ الآن في وضعٍ يُساعدني حتّى على قراءة كلمةٍ مكتوبةٍ فما بالك بكلمةٍ مُرتجلةٍ، لِيُساعدني الله، فصعدتُ إلى المسرح، فأمسكتُ الميكروفون بيدي وليتني أستطيع أن أقبضَ قلبي كما فعلتُ بالميكروفون، بالكادِ أسمعُ دقاتِ قلبي في مكبراتِ الصوتِ، ولم يكنِ الخفقانِ وتَسارُعِ دقاتِ القلبِ بسببِ الرهبةِ من الوقوفِ أمامَ الجمهورِ هذه المرةَ، الخفقانُ سببه خَوْفي على الأنتى الوحيدة التي تملّكت قلبي، أحسُّ بأنّه ليس من الوفاءِ أن تكونَ حبيبتِي تشعرُ بالألمِ وأصعدُ أنا لألقيَ كلمةً أيّاماً كان نوعُها، وإذا أنا بصوتٍ عذبٍ رقيقٍ يهمسُ لي من خلفِ الكواليسِ: هيّا يا هشام تقدّم من أجلي.

كنتُ سأعتذر عن هذه الفقرة للجمهور، لولا كلمة "من أجلي" صدّقيني، فبدأتُ الكلمة قائلاً: لقد تعهدتُ لنفسي وزملائي أن أرتجلَ كلمةً أمامكم، ولا والله لم أفكر حتّى فيم سأقوله، وها أنا الآن أريد أن أبلغكم بألف سلام وألف قبلةٍ و ألف تحيةٍ من أهلكم في فلسطين، أنا قرّرت أن أحدثكم عن مدى حبِّ الشعبِ الفلسطينيِّ لكم، وأنكم تعنون لنا الكثير بل وأكثرَ بكثيرٍ مما تتخيّلون، فنحن رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، نكنُّ لكم من الحب والاحترام ما الله به عليم، وأنا أمامكم على المنصّة، احترتُ كيف أبرهنُ لكم هذه المحبّةَ بأسلوبيّ المتواضع، كلّ ما ذكرته للتوّ وما سأذكره بعد قليلٍ خطرَ لي في ما لا يتجاوزُ دقيقةً واحدةً، وهي كميّةٌ مهولةٌ من الأفكارِ إذا ما قُورنت بالزمنِ الذي استغرقتُه، هذا

ما يحدث عندما تظنُّ أنك تستطيع التغلُّب على مهابة جمهورٍ عظيمٍ كجمهور الجزائر، وكأنَّ السماءَ أمطرت عليَّ هذا الدليلَ إمطاراً، وأرى في أعينكم سؤالاً عنه، اطمئنوا فأنا ماكتشفته إلا لأخبركم به، بدايةً ليتكم تشعرون أو تسمعون دقائق قلبي المتسارعة مذ وطأتْ بقدمي أرض الجزائر، زادَ هذه الدقائقُ تسارعاً، أنَّ الفتاةَ الوحيدةَ التي دقَّ لها قلبي تتألَّم الآن، نعم هي تتألَّم وأنا أقفُ هنا لمخاطبتكم، هي تتألَّم ولا يفصلني عنها أكثر من خمسة أمتار، لقد استطاعت أن تُشاركَ زملاءها في رقصة الدبكة، و لكم أن تتخيَّلوا كم تحاملت على نفسها كي تقفَ أمامكم على هذا المسرح، فعرفَ الكلُّ دونَ عناء، أنَّ حبيبتي هي الفتاةُ التي انسحبت قبل أن تُكمل الرقصة قبل قليل، أنا أيضاً لن أخفيكم أنَّ قَدَمي بالكادِ تحملنني، ليسَ تعباً وليسَ إرهاقاً، لكنَّه الخوف، نعم إنَّه الخوف، و ليس خوفاً من عدوٍ يتربَّص أو عابرٍ قد يغدر، فنحنُ نواجهُ المدافعَ هناك في فلسطينِ يصدورنا دونَ أن يرفَّ لنا جفنٌ أو تغمُضَ عين، وفوق ذلك فنحن هنا في حُصن الجزائر، الأرضُ التي لا مكان للخوف فيها، و يشهدُ على ذلك أكثر من ألفِ ألفِ شهيدٍ ذُبحوا على مذبحِ الحرية هنا، لكنَّ خوفي سببه أنني تركتُ خلف تلك الكواليس فتاةً أمضيتُ سنواتٍ أخفي حبي لها عن الجميع، وما كنتُ أتخيَّل أن أعلن هذا الحب هنا على أرض الجزائر، بل ولم أكن أتوقَّع أن أُعلنه هنا على هذا المسرح وأمام هذا العدد الكبير من الجماهير المُحبَّة والعاشقة لفلسطين،

علّ كلامي هذا عن حبي وعن حبيبتي في مناسبة كهذه يحمل بين
سطوره رسالة لكم يا شعب الجزائر وللعالم كلّ من خلفكم، أن
الشعب الفلسطينيّ يحمل في قلبه من الحبّ القدر ذاته الذي
يحمّله من الألم والدموع، و يحمل من الشجاعة ذات القدر الذي
أساه من الظلم والقهر، من اليتم والجوع، وسأختم كلمتي هذه
بقصيدة شعريّة، أتمنى أن تنال إعجابكم

سنبك اليوم لن نخفي أنينا	ولن نخشى بكاءً أن يبينا
سنبكي ذلنا في دار هونٍ	سنبكي ضعفنا في العالميا
سنبكي علّ دمع العين يشفي	جراحاً قد مضاهها الظلم فينا
فعدراً يا بلادي ثمّ عدراً	فعدراً إن أسأت الظنّ فينا
فما فينا بلالاً أو صلاحٍ	فلو كانوا لما ضعتي سنينا
فصبراً لن يطول الحال دهرًا	وعهد الله قد أمضاه فينا
فعاد الدين في عهدي غريبًا	وما ندري أضعنا أم بقينا
وما ندري ألاسلام جُنْدٌ	كما الخطّاب أم أنا نسينا
نسينا مجد أرضٍ قد أضيئت	بنور الحقّ خير المرسلينا
فضعنا بعده بل ضاع منّا	سراج النور قانقدنا عمينا
ألا يا ليل هل ناديت شيخًا	على الكرسيّ حتّى لا يبينا
فكيّد من بني صهيون أمسى	على شيخي لبئس الكائدينا
وبئس العيش إن ضاعت بلادٌ	بها الأقصى وزلنا نائمينا
ألا يا عرب هبّوا واستفيقوا	فحرف الضاد قد أضحي مهينا
قطعنا عهدنا ذا اليوم أنا	سنبقى أهل حق ما حيننا

ولن ننسى ضحايانا بقانا ولن ننسى جنوباً جنينا
ولن ننسى اليتامى والثكالى ولن ننسى هوان الخائنين

أرى بعض الحضور تدمعُ أعينهم وبعضهم تبتسمُ شفاههم، يبدو
أنَّ كلماتي التلقائية العفوية لامست قلوبهم النقية، فلم ألتفت
حينها إلى هذا كله، فكلُّ ما كان يشغّلني أن أخرج عن خشبة
المسرح، وأتوجّه إلى الكواليس كي أرى حبيبتي، فتوجّهت إلى
هناك وأزلت الستار، فإذا بأحدهم أو ربّما أحدهن يغمرنني
بخصنه، فلم أملك فرصةً كي أفتح عيني لأنظر إليه، لكن هذا
الدفء والحنان لا يمكن أن أحسّ بهما من غير إسرائ، فوضعتُ
كفيّ على وجنتيها وجبيني على جبينها فصارت تهمسُ لي،

- أحقاً أنت تحبّني بهذا القدر يا هشام!
- لا يا إسرائ، أنا أحبُّك بقدرٍ أكبر مما ذكرت، أخفينا هذا
الحبّ عن الجميع طويلاً، وكنْتُ أنتظرُ فرصةً كي أعلنه
للعالم كله، فشاء الله أن أبوحَ به هنا، هل أزعجتكِ يا
خلوتي؟
- لا يا هشام لم تُزعجني، على العكس فأنا سعيدةٌ جداً.
- هل لازلتِ مُتعبةً ؟
- ما كنتُ لأخبرك أنني أتألم كثيراً لهذا الحد، حتّى لا تمنعني
من المشاركة معكم.

- إسرائ يا حبيبتى ما يهمنى هو أن تكونى بخيرٍ ولا أهتمُ
لشيءٍ آخر، كونى بخيرٍ من أجلى يا صغيرتى.
- أرى كتيبةَ المجانين يصعدونَ مرّةً أخرى إلى المسرح لأداء
رقصتهم الثانية، وعادةً تكونُ أميرتى هي أوّل من يصعدُ،
فحاولتُ التظاهرَ أنّى لم ألحظُ صُعودهم، كي لا تشعُرَ بالحُزنِ
إسرائ، فلم تبُحْ بحزنها حبيبتى بالكلام، لكنّ عينيها كانت كفيلاً
بهذا البوح، فأسقطت دمعاً على خدّها.
- لا تحزنى يا حلوتى، فقد شاركتهم جميعاً فى رقصتهم
الأولى، وانفردتِ بالغناء وحدكِ دون مشاركةٍ من أحد،
مُميّزةً أنتِ يا حبيبتى كعادتكِ.
- وحدكِ يا هشام لديكِ القدرة على تبيدِ حزنى.
- لا عليكِ يا صغيرتى.
- يبدو أن يوسف قد اختتمَ الحفل.
- سيصعدُ المجانين الآن كي يُحيّوا الجمهور وينشدوا سلامَ
الجزائرِ الوطنى.
- ألن نخرُجَ معهم ؟
- لا يا حلوتى، استريحى وسنراهم من هنا.
- لقد تحمّلتُ هذا الألم طُوال الرّحلة ولن أعجزَ عن تحمّله
للحظّاتِ يا هشام، لنخرُجَ ونُشاركهم.
- فخرجنا إلى المسرح جميعاً، ممسكين أيدي بعضنا البعض، فبدأ
عزفُ النّشيدِ، وبدأنا نحنُ بإلقائه، ووالله ما كانت ألسُننا هي من

يُرَدِّدُ ذَلِكَ النشيدَ فحسب، بل كانت أرواحنا مُشاركةً في الإنشادِ أيضاً، فانتبهنا من النشيدِ الجزائري، وكان ختام الحفل هو السَّلامِ الوطني الفلسطيني، فبدأ عزف النشيدِ وبدأ الجمهورُ الجزائريُّ يردِّده مَعنا، كانت احتفاليةً محبَّةً دافئةً، كُنْتَ تستطيعُ أن تلمَسَ المحبَّةَ في قلبِ الصَّغيرِ وقلبِ الكبيرِ، وحينَ كُنْتَ أنظرَ إلى الجمهورِ، والله لم أكن أستطيعُ التفريقَ بينَ الفلسطينيِّ وبينَ الجزائريِّ، فالفلسطيني كان يحملُ العلمَ الجزائريَّ، وابنُ وبنْتِ الجزائرِ كانوا يحملونَ عِلْمَ فلسطينِ ويلبسونَ الكوفيَّةَ، كيف نشكركم، أراكم اليومَ تحملونَ عِلْمَ بلادنا وأنتم الذين طالما حملتمُ في قلوبكم حبنا، بل وحملتمُ همَّنا وشعرتمُ بالألْمنا، فشكرا لك يا جزائر، شكراً لشعبك، شكراً لترايك، لهوائك، لبحرك وسمائك، شكراً لكل شيءٍ يدبُّ على أرضك ويحمل ريح الحياة، سأعيدها عليك يا أرضَ الجزائر، سأعيدها وسيعلو بها صوتي، أنتِ كما فلسطين، عليك أيضاً ما يستحقُّ الحياة، وأيّ حياةٍ أجملٌ من الحياة على أرضك!.

انتهت مراسم حفلنا، ولم يتبقَّ لنا سوى أن نوَدِّعَ كوادِرَ السفِّارةِ ونشكِّرَ لهمُ دعوتهم لنا واهتمامهم بنا طيلة فترة بقائنا، وإذا أنا بشيءٍ صغيرٍ يُداعِبُ ساقي، فنظرتُ إلى الأسفل، وإذا أنا بطفلةٍ صغيرةٍ تريدُ أن تُحادثني، فنزلتُ إليها برأسي وأصغيتُ،

- ماذا تُريدِينَ يا حبيبتي؟

- أريدُ أن أضَعَ هذا العلمَ على ظهرك، فنظرتُ إلى يديها فإذا هي تُمسكُ عَلمَ الجزائر، فاحتَضنْتُها وقلتُ لها: أنا سأرفَعُكِ فوقَ ظهري أنتِ والعلم.

فاقتربَ مِنِّي السيدُ زاهي وقال: هذه دارٌ للأيتام، جاؤوا كي يحضروا احتفالنا، فنظرتُ خلفي، فرأيتُ كلاً من زملائي يرفعُ طفلاً فوقَ ظهره ويبيده علمَ الجزائر، عندما أرى يتيمًا أو يتيمَةً، أعامِلُهُ على أَنَّهُ وُلدي، لو طَلَبَ جزءًا مِنِّي لوهبتهُ له دونَ أيِّ مقابل، كيف لا وقد قالَ اللهُ في كتابه: وأما اليتيم فلا تقهر.

كأني بالجزائر وأهلها يُريدونَ فرصةً ليُظهروا لنا كم يَحْمِلونَ في قلوبهم من حبِّ لفلسطين، لسئِمَ يحاجةً إلى ذلك، فهذا الحب الذي تريدون إثباته، بادِ في أعينكم ونستنشقهُ مع نسيم هوائكم، فأنتم منّا و نحن منكم يا أهل الجزائر.

اقتربتُ مِنِّي إسرائُ وقالت لي: أنا أتألم، لا أستطيع الاحتمال أكثرَ من ذلك، أيُّ سَكِينٍ غرسته في قلبي يا حبيبتي، فخرجتُ لأبحثَ عن أكرم فوجدتهُ يقفُ بالأسفل قُربَ المسرح،

- يا أكرم تُريدُ الذهابَ إلى أقربِ مُستشفى الآن،

فَعُدْتُ حيثُ إسرائُ لأجدَ رويدهُ تقفُ بجانبِها، فصَرَختُ بوجهي،

- هل ستنتظر إلى أن تموت؟،

أهذا هو الحب الذي كنت تتشددُ به في الحفل، أحسنتَ يا

هشام، أنت ممثِّلُ بارع.

- تظلميني يا رويده،

أكرم ينتظرنا في الخارج،

لقد كنتُ أبكي، نعم كنتُ أبكي، ولا أدري إن كان أحدٌ قد لاحظَ هذه
الدموع، لا يُهم فليلاحظ من يلاحظ، فخرجنا مُسرِعِينَ من موقعِ
الحفلِ ثم توجَّهنا إلى المستشفى، وكان اسمه مستشفى مصطفى
باشا فدخلنا إلى قسم الطوارئِ واستقبلنا أحدُ الأطباء، وطلبَ من
الممرضة أن تقيسَ حرارةَ إسرائِ وضغطها،

- الحرارةُ تقتربُ من الأربعين، والضغطُ العاليِ مئةٌ وستون
والمنخفض مئةٌ وعشرة.

- هذا ضغطٌ مرتفعٌ لشابَّةٍ في سنِّك.

هل تعانين من مرضٍ مُزمنٍ؟

- نعم يا حضرةَ الدكتور، هي تُعاني مشاكلَ مزمنةً في
القولون،

- من فضلكم هلاً خرجتم وتركتموني وحدي معها،

فخرجتُ و رويده من الغرفة وبقينا جُلوسًا بانتظارِ الطبيبِ أن
يخرج، وفورَ خروجه انهلنا عليه بالأسئلة،

- طمننا ما بها يا دكتور.

- لا تقلقوا، إنَّها نوبةٌ من تهيجِ القولون، سنُعطيها بعضَ

المهدئاتِ وستكونُ بخيرٍ بإذنِ الله، لا داعي للقلق،

- حمدًا لله.

فخرجوا ينقلون إسرائِ على سريرٍ لإيصالها للغرفة التي سنَبقى
فيها.

- حمداً لله على سلامتِكَ يا حُلُوتِي.

- أشكركَ يا هشام.

أنا أعتذرُ عن هذا الإزعاج الذي سببتهُ لكم.

صوتُ إسراءِ المُختنِقِ هذا الذي تُجيبني به سَيَقْضِي عَلَيَّ ذاتَ يومٍ، فَمَسَحْتُ على رأسِها وَقُلْتُ: الإزعاجُ الوحيدُ الذي تسببتني به يا حُلُوتِي كان رُؤيتُكَ تتألمينَ وليس شيئاً آخر.

وصلنا إلى الغرفةِ وَعَلَّفُوا لها المصلَ سَريعاً، فبدأتُ تَضِيعُ في غياهِبِ النومِ حبيبتي، وبدأتُ أنا أَضِيعُ في غياهِبِ عينيها، التي تسحرُ مغمضةً أيضاً.

خرجتُ من الغرفةِ والتقيتُ الطَّبيبَ، فَسألتهُ عن حالتِها فَأخبرني بأنَّه أعطاهما جُرعةً مخففةً من المنومِ وقامَ بإرسالِ عينيةِ من دمِها للمُخَبِّرِ، لأنَّ تهيجَ القولونِ مَهْمَا بلغتْ حدَّتهِ لا يتسبَّبُ في ارتفاعِ حرارةِ المريضِ، لأبداً إذاً من سببِ آخر.

وبعدَ ما يُقاربُ ساعةً، خَرَجَ الطَّبيبُ من عيادتهِ فَقُمْتُ مُسرِّعاً إليه.

- طمئنِّي يا دكتور، هل هي بخير؟

- منذُ متى شَعَرْتَ بهذهِ الوَعْكةِ؟

- بالأمسِ فقط.

- لا يُمكنُ أن تكونَ هذهِ الوَعْكةُ فقط منذُ الأمسِ، لديها

التهابٌ حادٌّ في الزائدةِ الدوديَّةِ، نُؤشِكُ الزائدةَ أن تنفجرَ،

ما يُحيرُني كيفَ استطاعتِ تحمُّلُ هذا الألمِ!

- سأشرحُ لك فيما بعد،
- كيف يمكنُ علاجُ هذا الالتهاب؟
- هذا الالتهاب لا يمكنُ علاجه، العلاجُ الوحيدُ هو الاستئصال، يجبُ أن نقومَ بعمليةِ استئصال.
- استئصال!، وهل ستعودُ طبيعياً بعدها؟، وهل هناكُ أيُّ خطورةٍ على حياتها؟
- عمليةُ استئصالِ الزائدةِ لن تؤثرَ على حياتها بأيِّ شكلٍ من الأشكال، هي عمليةٌ بسيطةٌ لا تأخذُ أكثرَ من ساعةٍ على أبعَدِ تقدير.
- ومتى سنجرونها؟
- يجبُ إجراؤها على الفور، سنقومُ الآنَ بإدخالها إلى عُرفةِ العمليات.

فذهبتُ بعدها إلى مُصلىِ المشفى كي أصليَ لربِّي وأدعوهُ وأرجوه أن تنتهيَ عمليةُ إسرائي على أحسنِ ما يُرام، فرفعتُ يديَّ مُكبِّراً "الله أكبر"، ودمعتي تسقطُ على خدي وقلبي يفرغُ كالطَّبلِ في صدري، ولا يُساورني الشكُّ أنَّ من يقفُ إلى جوارِي أيًّا كان، سيسمَعُ هذه الدقات، لستُ أبالي الآنَ بقلبي وبدقاته، كلُّ ما يشغُنِي هو قلبُ تلكِ الطِّفلةِ المسجاةِ على سريرِ أبيضٍ وحولها الأطباءُ ودعواتي تُرفرفُ فوقها كأسرابِ الحمام.

دخلتُ كي أصليَ ركعتينِ فقط وأظنُّ بأنِّي صلَّيتُ أكثرَ من عشرِ ركعات، فتنبَّهتُ إلى ساعتِي، ساعةٌ ونيّفَ مرّةٍ منذ دخولهم إلى

غرفة العمليات، لا بدَّ وأنها خرجت أو تُوشك على الخروج، فتوجَّهت مُسرَّعاً نحو العُرفة، فرأيتُ الجميعَ أمامي تغلو وجوههم الابتسامة، ولستُ بحاجةٍ أن أسأل عن حالة إسراء، تكفيني هذه الابتسامةُ التي تُزيِّن وجوههم كي تُجيبَ عن ألفِ ألفِ سؤالٍ كنتُ سأطرحها، فخررتُ ساجداً لأشكرَ ربِّي، فتوجَّه الكُلُّ نحوِي مُهنِّئاً، لا تعلمون يا أصدقائي أن فرحتي بهذه التهنئةِ صارت فرحتين، أولاهما لأنَّ حبيبتي صارت بخيرٍ والحمد لله، والأخرى لأنَّكم توجَّهتم بالتهنئةِ لي أنا، صارَ الجميعُ يعلمُ أن أكثرَ من تهمتهِ إسراء شخصٌ يُدعى "هشام الماضي".

طلبتُ من أكرم أن يُحضِرَ حافلته

- أين تريد الذهاب قال أكرم؟

- بدايةً أريد الذهاب إلى محلِّ لبيع الزُّهور ثم أريدُ أن أُحضِرَ عُلبَةً من الحلوى، وفي النِّهاية سنذهبُ إلى محلِّ للمُجوهرات كي نشترِيَ عِقداً من الذهب.
- حسناً سنذهب إلى محلِّ المجوهرات أولاً، أما الورد والحلوى فسُنحضرها من متجرِ المشفى.

يبدو أن ريم كانت تسمعُ جِواري مع أكرم، فأصرتُ على مُرافقتي فتوجَّه أكرم نحوَ سوقِ المجوهرات، فدَخَلنا أحدَ المحلات، كان قد جذبنا اسمه، كان اسمه "الأقصى للمجوهرات"، هكذا نحنُ أبناءُ فلسطين، ترانا مثلَ حمامٍ بيضاءٍ تحلِّقُ في السَّماء، هي تحلِّقُ

باحثة عن الحرّية، وهذه الحرّية لا قيمة لها إن لم تكن في سماء فلسطين وأرضها، كلُّ الأرض التي هي خارج جدارِ الفصلِ الغاشمِ وكلُّ الأرض التي في داخله، من نهر الأردن شرقاً وحتى البحر الأبيض المتوسطِ ناحية الغرب، كل هذه المساحة يتوسطها الأقصى المبارك، إسم الأقصى وحده كفيلٌ بضخِّ الدّم في عروقنا، كفيلٌ هو بملى صدورنا بالهواء، كم أنت عزيزٌ يا أقصى، لا يظنُّ ظانٌّ أننا قد نتخلّى عنك يوماً، أكادُ أسمعُ كلَّ أبناءِ فلسطين وبناتها تصدحُ حناجرهم بعهدٍ، نسخةٌ منه لأهل الأرض ممّن صار يُطلق عليهم لاجئين ونازحين أو ممّن ظلُّوا في ديارهم صامدين مُرابطين، وأخرى لأهل السّماء من شهدائنا الذين هم أحياءٌ عند ربّهم يرزقون، نقولُ في عهدنا هذا:

"عهدًا علينا نحن أبناء فلسطين أن لن نترك أقصانا، حتى لو استحالَت دماؤنا أنهارًا ولو أصبحت جماجمنا كمثَلِ حباتِ لؤلؤٍ كان قد انفرطَ عقدها فتناثرت على ترابِ قدسنا، وعهدًا علينا ألا ننسى وصيةَ أجدادنا حين قالوا: "فلسطين حُدودها من الماء إلى الماء"، كانوا يعنون أن حدود فلسطين هي من نهر الأردن شرقاً وحتى البحر الأبيض المتوسط غرباً، وعهدًا علينا يا أسرانا أن نعملَ مُخلصين لفقِّ قُيودكم حتى تكونوا في طليعة جيش التحرير ذات يوم، ونختِم بعهدٍ لكم شهداءنا الأبطال بأن لا نساوم على قطرةٍ من دمانكم.

طلبنا من البائع عَقْدًا من الذهب فأخرجَ لنا تشكيلةً اخترنا أجملها
و توجَّهنا لندفَعَ ثمنَ العقد، فوضعتُ يدي على جيبِي، يا للتعاسة،
نسيْتُ مِحْفَظَتِي في الفُندق، فمِلْتُ على ريم وهَمَسْتُ بأذنها: هل
تحمِلينَ المالَ يا ريم؟

- لا، لقد تركتُ حقيبتِي في عُرفةِ إِسراءِ في المشفى.

فسألتُ أكرم إن كان يَحْمِلُ هذا المبلغ، لكنني عدت لريم وأنا أجزُّ
أذيالَ الخيبة فقلت لها: ليسَ لنا إلا أن نعودَ إلى المشفى ونكتفي
بالحلوى والزهور،

- لا يا هشام، لن نكتفي بالحلوى والأزهار، أنا سأعطيهم
خاتمي هذا مُقابلَ العقد الذي اخترناه.

- لا، كنتِ قد أخبرتيني أن هذا الخاتمَ هديَّةً من والدتكِ رحمها
الله.

فأصرتُ ريم على بيعه وقالت: ما شأنك أنت؟!، فأخذتهُ منها
وسألتُ البائعَ عن ثمنه، فوضعه على الميزان وأخبرني أَنَّهُ
يساوي أربعين ألف ديناراً، فعرضتُ عليه المقيضة، وهذا ما تمَّ
بالفعل، فطلبتُ من أكرم و ريم أن يسبقاني للحافلة، وبقيتُ في
المحلِّ بحجة أنني أريدُ استخدامَ الهاتف، فخرجوا وطلبتُ أنا من
البائع أن لا يتصرَّفَ بالخاتم، كي آتي صباحاً وأستردهُ منه ولو
بضعف الثمن، فقالَ لي: خذهُ الآنَ إذا شئت، لا مشكلة، فلم
أستغرب من ردِّ البائع، فهذا دينُ أهلِ الجزائر، فهُم أهلُ الكرم
وقلوبُهُم تفيضُ بالطيبة والحب، إن كنتِ أحبُّ الجزائرَ من قبلُ

مكيالاً، فأنا اليوم أعشقها قنطاراً، كُنتم تُفاجئوني في كلِّ لحظةٍ يا
إخوتي، ولا أدري كيف لقلوبكم أن تتسع لكلِّ هذا الحب!

لحقتُ بأكرم وريم ثمَّ توجَّهنا للمشفى على وجهِ السرعة، كانا
يتحدَّثان وكنت ثالثهما بجسدي فقط، أمَّا روحي وعقلي فكانا
هانئين في عالمٍ آخر، فيطوفان مرَّةً حولِ إسرائ فيمطرانها
بالقُبَل التي كنت أرسلها لها، ويطوفان أخرى في سماء الوفاءِ
التي حلَّقت فيها لتوها ريم حين قايضت هديَّة أمِّها الغالية كي
تبتاع هديَّةً لصديقتها.

عدنا للمستشفى وقصدنا غرفةَ الطبيب، فطمأننا أنَّ إسرائ
أصبحت بخير، وطلب منا القدومَ لزيارتها في الغد، لأنها ستبقى
في غرفةِ العنايةِ الفائقة حتَّى الصباح، فخرجنا من الغرفة،

- أكادُ أنهارُ من التعب

- أنت متعبٌ وقد كان مجهودك مجردَ كلماتٍ ألقيتها،

ماذا نقولُ نحن وقد كُنَّا نرقص، نجري ونقفز، نحن نكادُ

نصابُ بالإغماء.

أنتم تعبتُم تعباً جسدياً وتئنُّون منه، لسَّتم تعرفون التعبَ الروحيَّ
ولا تعرفون كم يتعبُ الإنسانُ حينَ تنفصلُ عنه روحُه، لا لتصعد
للسَّماء، بل لتبقى هائمةً في الأرض فلا هي تعود لجسده، ولا هي
صاعدةٌ لرحمة ربِّها!، لكن على الرغم من هذا كلِّه لا بأس
فحبيبتي تستحقُّ ما هو أكثر.

ألقيت جسدي المُرْهَق أرضاً مُسْتَنْدِئاً إلى جِدَارِ عَرَفَةِ العِناية، وإذا بصوتِ صراخٍ يصدحُ بأذني، رافِقُهُ صوتُ ارتطامٍ بالأرض، تَرا هل قَصَفَتْ قُوَّاتُ الاحتِلالِ المشفَى؟، ما هذا الهَذيان!، نحنُ في الجزائرِ ولسنا في فلسطين، فَمَتُّ لَأرى ما الذي حصل، كان الارتِطامُ صوتَ جسدِ ريمِ التي سَقَطَتْ مَعْشِيًا عَلَيْهَا، والصُّراخُ كانَ من سارةَ عِنْدَمَا رَأَتْ هذا المشهَدَ، فَجاءَ طاقمُ التمريضِ وَقَامُوا بِاللَّازِمِ وَنَقَلُوهَا لِعَرَفَةِ في المُسْتَشفى، ثم جَاءَنَا أَحَدُ الأطِبَّاءِ بَعْدَ وَقْتٍ قَلِيلٍ وَقَالَ: هِيَ بِخَيْرٍ، ما لَدَيْهَا هُوَ هُبُوطٌ في مُسْتَوَى السُّكَّرِ في الدَّمِ، سَنُعْطِيهَا حُقْنَةَ مُغَذٍّ وَنَتْرَكُهَا تَسْتَرِيحَ وَتَنَامَ، وَسَتُصْبِحُ بِأَلْفِ خَيْرٍ، فَشَكَرْتُ الطَّبِيبَ وَدَخَلْتُ إلى ريمِ حَامِدًا اللهُ على سَلامَتِهَا، فقلتُ لها وَلِسارةَ مازِحاً: بِالأمسِ إِسراءُ واليومِ ريمُ، تَرا مِنَ التَّالِي؟، فَضَحِكْنَا ثُمَّ خَرَجْتُ وَذَهَبْتُ لِعَرَفَةِ العِنايةِ الفَائِقَةِ كي أَخْتَلِسَ النَّظَرَ لِإِسراءِ، فَبقيتُ جالِساً على أرضِ المَشْفَى طَوَالَ اللَّيْلِ، وَبقيتُ كَذَلِكَ حَتَّى بَرَعَ نُورُ الشَّمسِ في عيني.

وفي الصبّاحِ طلبتُ من أكرمِ أَنْ يُوصِلَنِي إلى الفُنْدُقِ لِأُخْضِرَ النُّقُودَ ثُمَّ طَلَبْتُ مِنْهُ أَخْذِي لِمَحَلِّ المَجُوهَرَاتِ فَاسْتَرَدَدتْ خاتَمِ ريمِ، ثم عدنا للمشفى فلقيتُ طبيبِ إِسراءِ فَسألته عن حالتها، فقال: ما تزال نائمة، لا تستغربوا، فقد استيقظت مساءً وكانت مصابةً بنوبةٍ فزعٍ هَسْتيرِي كما أَخْبَرَنِي طبيبُ الطَّواريِ المُناوبِ وقد اضْطَرُّوا لِإِعْطائها جَرَعَةً مَهْدِيٍّ في الوريدِ، يوشِكُ أَنْ يَنْتَهِيَ

مَفْعُولُهُ، فَذَهَبْتُ مَمَّا قَالَهُ الطَّبِيبُ، فَقَطَعَ صَوْتُ صُرَاخِ إِسْرَاءَ
شُجُونِي وَبِنَاتِ أَفْكَارِي، هِيَ تَبْكِي وَتَصْرُخُ بِعِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ
فَقَطَّ "أُرِيدُ أُمِّي، أُرِيدُ أُمِّي"، فَدَخَلَ إِلَيْهَا الطَّبِيبُ بِسُرْعَةٍ وَتَبِعْتُهُ
كَالْمَجْنُونِ، ثَرَا مَاذَا حَلَّ بِكَ يَا حَبِيبَتِي؟، فَصَارَتْ تَقُولُ الْكَلِمَاتِ
دُونَ أَنْ تُتْلِقَ لَهَا بِالَاءً، وَأَنَا أَقِفُ فِي حَالَةٍ ذُهُولٍ، وَأَصْدِقَاؤُنَا
يَقِفُونَ فِي الْخَارِجِ تَرَى دَمْعَةً كُلِّ مَنْهُمْ عَلَى خَدِّهِ، فَجَلَسْتُ عَلَى
الْأَرْضِ يَوْمَهَا قَسْرًا، فَقَلْبِي قَدْ اسْتَسَلَّمَ، وَهَاهُوَ عَقْلِي يَرْفَعُ رَايَتَهُ
الْبَيْضَاءَ مُسْتَسَلِّمًا أَيْضًا، وَالْأَوَّلَ مَرَّةً يَتَوَافَقُ عَقْلِي وَقَلْبِي عَلَى
شَيْءٍ، هِيَ حَالَةٌ نَادِرَةٌ جَدًّا، فَهُمَا عَادَةٌ كَقُطْبِي الْمَغْنَاطِيسِ، إِنْ
قَبِلَ عَقْلِي شَيْئًا كَرِهَهُ قَلْبِي، وَإِنْ مَالَ قَلْبِي لِشَيْءٍ فَسَيَجِدُ عَقْلِي
أَلْفَ سَبَبٍ وَأَلْفَ عُذْرٍ لِيَمْنَعَهُ مِنْهُ.

ظَلَّ الطَّبِيبُ عِنْدَ إِسْرَاءَ، وَطَلَبَ مِنَّا الْبَقَاءَ خَارِجًا فَلَبِينَا طَلَبَهُ
وَبَقِينَا فِي الْخَارِجِ، لَكِنَّ قُلُوبَنَا لَمْ تُفَارِقَ عُرْفَتَهَا، بَلْ لَمْ تُفَارِقَ
سَرِيرَهَا، لَا بَلْ لَمْ تُفَارِقَ صَدْرَهَا، فَقُلُوبُنَا كَانَتْ قِي صُدُورِنَا تَقْرَعُ
وَكَانَ صَدَاهَا فِي صَدْرِ إِسْرَاءَ يُسْمَعُ.

قُرَابَةٌ سَاعَةٍ كَامِلَةٍ بَقِيَ الطَّبِيبُ عِنْدَهَا، لِيُخْرِجَ إِلَيْنَا بَعْدَهَا وَيَطْلُبَ
مِنِّي الدُّخُولَ بِرَفْقَتِهِ، فَدَخَلْتُ وَبَدَأَ يَتَحَدَّثُ مَعَنَا الطَّبِيبُ، إِسْرَاءُ
تَبْدُو طَبِيعِيَّةً وَمُدْرَكَةً لِكُلِّ مَا حَوْلَهَا، فَفَرِحْتُ وَشَكَرْتُ رَبِّي أَنَّهَا
أَصْبَحَتْ بِخَيْرٍ، كَانَ مَا حَدَّثَ لَهَا مِنْ هُلُوسَةٍ وَهَذْيَانٍ مِنْ تَأْثِيرِ
الْمَخْذِرِ قَالَ الطَّبِيبُ، فَقَبَّلْتُ رَأْسَهَا ثُمَّ شَكَرْتُ الطَّبِيبَ، فَقَالَ لِي
أَنَّهُمْ سَيُخْرِجُونَهَا ظَهْرًا مِنَ الْعِنَايَةِ، فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهَا وَكَانَتْ

فرقة المجانين في الخارج بانتظاري، فأروني وقد خرجت بغير الوجه الذي دخلت به، فقد دخلت عابسًا ودُموعي تُمطرُ خدي، وخرجت ضاحكًا والفرحةً باديةً على ملامحي، فجاءتني رويده وقالت: هلاً طمأنتني، فقلتُ لها: اطمئني واطمئنوا جميعاً هي بخير وسيُخرجونها من العناية بعدَ قليل، فجلسنا ننظرُ حتى أخرجوها ونقلوها للغرفة، فدخلنا إلى إسراء جميعنا دفعةً واحدة فمازحتنا وتكررت للجميع وادّعت عدم معرفتنا، فذهلوا جميعاً وهمست رويده بأذني وقالت: ألم تُخبرني أنها أصبحت بخير؟، فاحمرَّ وجهي حينها، ولم يكن احمراره خجلًا أني لم أقل الحقيقة، بل كان خوفًا عليها أن تكون قد عادت لهذيانها وهلاوسها، فضحكت إسراء فجأةً وبصوتٍ مرتفعٍ وقالت: كنتُ أمزح، لا تخافوا، أنا بخير، فتوجهوا إليها جميعاً وهنئوها بالسلامة، فقدم لها يوسف باقةً الأزهار، وجاءت سارة تحملُ سلّة الحلوى، وكلُّهم ينظر إليّ، لقد كانوا بانتظاري أن أقدم هديتي، فألبسْتُها العقد الذي اشتريتهُ لها، فأمسكتهُ وقبّلتهُ، هل يا ثرا قبّلتهُ لأنّه هديتي!، أم لأنّ منقوشًا عليه صورة الأقصى يا حلوتي!، فجلسنا عند إسراء نُحدّثها، نُمزحها ونُمازحنا حتى بدأ النومُ يتمكّن منها فصمّنا رويديًا رويديًا.

مكثت وقتًا طويلًا لم أخرج فيه حقيبة ذكرياتي، فصار وقتُ اخراجها على ما يبدو، فتذكّرتُ يومًا اشتريتُ فيه حبيبتني فُستاتًا أحمر، لم انسَ يومًا ذلك الفُستان، فجاءت إلى بيتنا لثريه لحنان

كما قالت، لكنّها كانت تُريدني أنا أن أراه، فدخَلتُ غرفةَ حنان يوماً فأعجبتُ به حنان، ثمَّ خرجتُ وجاءتني إلى غرفة المكتب حيث كنتُ أجلس، وكنْتُ أكتبُ مقالاً صحفياً وأحتسي القهوةَ كعادتي، ففَرَعَتِ البابَ إِسراءَ ودخَلتُ ووقفتُ في منتصفِ الغرفة ودارتُ حولَ نفسها عدَّةَ دُوراتٍ كراقصاتِ الباليه وقالت: ما رأيك؟، فقلتُ لها: ماذا تقصدين؟، هل تُريدين رأبي بالفُستان؟، أم في جمالِ صاحبةِ الفُستان!، أم في هذه الرّقصة الجميلة؟، جميلٌ كلُّ ما يخصُّك يا حلوتي، فابتسمتُ ابتسامتها الأنيقة المزيّنة بحُمْرة الخجلِ يومها.

أذكر ذات يومٍ أيضاً أنّ والدتها أوصتني أن آخذها مع حنان عندَ العودةِ من المدرسة، لأنَّ أخاها ساجد كان مريضاً ومُتغيباً، فصادفتُنا في الطَّرِيقَ يومها امرأةٌ عجوز، فانكبَّت إِسراءُ على يديها وطَفِقَت تُقَبِّلُهُما، ولم أعْرِفَ أنا هذه المرأة، لكنني أحسستُ من لهفةِ إِسراءَ عليها أنّها قريبٌهم، وعندما رحلتِ المرأةُ سألتُ إِسراءَ عنها من تكون وعن صِلَتها بها، فأجابتنِي أن لا صِلَةَ قرابةٍ تجمُعُهُم، فقلتُ لها: فلمَ انكببتِ على يديها لتُقَبِّلِيهما، فأجابتنِي: هذه المرأة تُدعى الخالة زهرة، كانت تبيعُ الحلوى في خيمةٍ صغيرةٍ قُربَ منزلِ عمّتي أم أيمن وكنْتُ أحبُّ زيارةَ منزلِ عمّتي كي أشتري الحلوى من عندها، وبقيتُ كذلكُ إلى أن غيَّرتُ عمّتي موضعَ سَكْنِها، ومنذُ ذلك الحين لم ألتقِ الخالة زهرة، غَلَبَ على ظنِّي أنّها قد تكونُ توفّيت، لذلكُ فرحتُ عندما رأيتها تلكَ

الفرحة التي رأيت. لم تنسَ بعد أن أصبحت صبيّة امرأةً أحسنت
إليها قبلَ عشرين سنة، هذه هي إسرائ، بل هكذا يكون الأوفياء،
لا ينسونَ أبدًا من يُحسنُ إليهم.

دخلت الممرضةُ وطلبت منّا مغادرةَ الغرفةِ وقالت: حبّذا لو
تركتموها لتستريح، فاستأذنتها في البقاءِ لنهايتِ والدتها، فقامت
بتشغيلِ هاتفي، وفور تشغيله جاءني فُرابةٌ ألفِ إشعارٍ أنّ هناك
مكالماتٍ لم أقم بالردِّ عليها، فلم أحتج أن أنظرَ لأيِّ مكالمَةٍ
فاتتني، لأنّ مكالمةً قد وردت وكان المتصلُ والدةُ إسرائ كما هو
مُتوقَّع، فقامت بالردِّ عليها وصوتٌ بالكاد يُسمَع، كان مُمتزجًا
بالدموع، لكنني أحسسته بقلبي، فلم تصرخ بي كما توقّعت بل
قالت بصوتها الحزين الذي ما كان يخرجُ من جبالها الصوتيّة
حينها: أين ابنتي؟، لقد كانت دقائق قلبها هي التي تحدّثت ولم يكن
لسانها، فقلتُ لها: هل أحسستِ بمرضها يا خالة؟، فانقطع
الاتصالُ لسببٍ أجهله، فحاولتُ إعادةَ الاتّصالِ مراتٍ عديدة ولكن
دون جدوى، لعلّ سوالي الأحمق وطريقي الغبيّة في طرحه
سلّبت يديها القدرةَ على إمساكِ الهاتفِ، فسقطَ أظنُّه من يدها.

الأم هي أحدُ النعم التي أنعم الله بها علينا، ولن أبلّغ إن قلتُ أنّها
أجملها، فإن كنت تُريدُ أن تعرفَ شعورَ الأمّ تجاهَ فلذةِ كبدها لتكن
أمًا، وحينها سوف تعرف أيّ حبٍ زرع في قلب هذه المرأة، دعك
من حبّ العشاق فوحده قلبُ الأمّ من يحب إلى ما لا نهاية، وحده
من يُعطيك بلا مُقابل، وحده من يغضبُ لأجلِكَ ولا يغضبُ أبدًا

عليك، فإن كانت لك أم فالزم قدميها فثم الجنة، جنة الدنيا وجنة الآخرة، وإن كنت قد فقدتها فأحسن الله عزاءك في مصابك، فما من مصيبة تفوق فراقها، وما من طامة أكبر من فقدها.

لحقت بزملائي لغرفة ريم لنطمئن عليها وطلبت بعدها من أكرم أن يوصل زوجته وأبناءه لمنزلهم، فقد اتعبناهم معنا أكثر من اللازم، فقالت هدى: خذ الأولاد فقط و سآبقى أنا برفقة إسرائ. دموع من عيني وقشعريرة في جلدي وصهيل في قلبي، نعم لقد كان سهيلاً، كان هذا أنسب اسم لصوته حينها، فدقاته صارت تتسارع كما جواد في ساحة سباق، حين سمع هدى تقول بأنها ستبقى مع إسرائ، ما هذا الوفاء يا هدى؟، وعن أي وفاء أسأل؟ فبالكاد كانت تعرفنا هدى، الأجدر أن أقول ما هذا الكرم؟، فالإنسان يكون كريماً مع من يعرف ومن لا يعرف، أما الوفاء فيكون غالباً رداً لجميل أسداه أحدهم إليك، أي سحر تحمله حبيبتي دفع المرأة لتترك زوجها وأبناءها وبيتها لتبقى جوارها وهي بالكاد تعرفها!، فأيقنت حينها أنها وكذلك زوجها وكذلك أهل الجزائر كلهم لم يكن ما يحملونه من حب لنا سوى وفاء لكل ذكرى وكل كلمة زرعتها في عقولهم آباؤهم وأجدادهم فتلقفتها قلوبهم وروتها من أصل دماينهم، لثُرر بستاناً من الحب يقطفون من ثمره فيطعمون منه ويطعمون أبناءهم.

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ السَّيِّدَ زَاهِي كَانَ يُبَالِغُ حِينَ قَالَ لِي فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ
لَقَبْتَهُ أَنَّنِي سَاكَنْتُ دِيوَانًا مِنَ الشَّعْرِ حِينَ أَرَى الْجَزَائِرَ وَأَعَاشِرَ
أَهْلِهَا، لَا لَمْ تَكُنْ مُبَالِغَةً، أَرَاهُ لَمْ يُؤْفِكْهُمْ بَعْضًا مِنْ حَقِّهِمْ، فَلَقَدْ
لَمَسْتُ مَوَدَّةَ أَهْلِ الْجَزَائِرِ لَنَا مَعَ أَوَّلِ أَنْفَاسٍ وَوَجَّتْ رِئْتِي هُنَاكَ،
فَمَدَّةً بَقَائِي فِي الْجَزَائِرِ لَمْ تَكُنْ تُحَسَّبُ بِالنَّوَانِي وَالسَّاعَاتِ بَلْ
كَانَتْ تُحَسَّبُ بِالنَّفَاسِ وَالنَّبْضَاتِ.

خَرَجْنَا بَعْدَهَا مِنَ الْمَشْفَى وَتَوَجَّهْنَا إِلَى الْفَنْدُقِ، فَنِمْتُ أَنَا دُونَ أَنْ
أُبَدِّلَ مَلَاسِي حَتَّى، فَقَدْ كُنْتُ مُنْهَارًا مِنَ التَّعَبِ وَلَمْ أَضِطِّ الْمُنْبِيَّ،
لَيْسَ تَجَاهُلًا مِنِّي، لَكِنَّ النُّعَاسَ وَالْإِرْهَاقَ بِالكَادِ أَمْهَلَانِي شَيْئًا مِنْ
التَّرْكِيزِ لِأَسْتَدِلَّ إِلَى مَكَانِ غُرْفَتِي، غُرْفَتِي الَّتِي أَرَاهَا مِثْلَ الْأَطْلَالِ
الَّتِي يَبْكِي عَلَيْهَا الشُّعْرَاءُ، هُمْ يَبْكُونَ بِلَادَهُمْ وَأَوْطَانَهُمْ، وَأَنَا أَبْكِي
حَبِيبَتِي وَفَرَحَةَ عُمْرِي، أَمَّا فَلَسْطِينِ فَقَدْ سَمِيتُ بُكَائِي، وَصَارَ
الْوَقْتُ لِأَقْدِمَ لَهَا شَيْئًا أَغْلَى مِنَ الدُّمُوعِ وَالنُّوَاحِ، فَمَرَّتِ الدَّقَائِقُ
وَالسَّاعَاتُ، الْعَقْلُ نَائِمٌ وَالْقَلْبُ مُسْتَيْقِظٌ، كَانَ يُمَهِّلُنِي فُرْصَةً
لِأَغْمِضَ عَيْنِي، لَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَسِّنَ بِالْوَقْتِ، فَمَنْ يَمْلِكُ مِثْلَ
قَلْبِي فَلَنْ يُفُوتَهُ أَيُّ مَوْعِدٍ، إِلَّا إِنْ اتَّفَقَ مَعَ عَقْلِي عَلَى غَيْرِ
عَادَتِهِمَا أَنْ يَتْرُكَا هَذَا الْمَوْعِدَ لِيفُوتَنِي، وَحَدَهُ حُبُّ إِسْرَاءَ هُوَ
الْمُنْفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَهُمَا، حَتَّى هَذَا الْإِتْفَاقُ صَنَعَ لَهُمَا خِلَافًا خَاصًّا
بِشَأْنِهِ، فَهَذَا يُحِبُّهَا وَذَاكَ يَعشُقُهَا، هَذَا يَرَى كُلَّ جَمِيلٍ فِيهَا وَذَاكَ
يَرَى كُلَّ مَا فِيهَا جَمِيلٌ، هَذَا يُحِبُّ وَجْهَهَا الْبَهِيَّ وَذَاكَ يَعشُقُ
دَاخِلَهَا النَّقِيَّ.

حصَلَ جسدي المُرَهَق على غفوةٍ دونَ أدنى مجهود و لم تكن لي
حتى رفاهية أن أبدل مَلابِسي، كان التَّعبُ والإرهاقُ هُما من تسيدَ
الموقفَ آنذاك، وكما هو مُعتاد، تُنقِذني دَقَّاتِ قلبي حينَ أوشِكُ
على فَوَاتِ ميعاد، لكنَّ الميعادَ متعلِّقٌ بإسراء، فتدخَّلَ عقلي يريدُ
مُشاركةَ قلبي هذا الصَّنيع، هو لا يملك دَقَّاتِ تَضطربُ وتتسارعُ
كقلبي، فلم يجد أفضلَ من حِلْمِ مُفزعٍ اقتلَعني به من فراشي
بالكُلِّيَّة فتعوذتُ بالله من الشيطانِ الرَّجيم، لم يأت أيُّ من
المجانين، يبدو أن لا أحدَ سيُرافِقني في زيارتي المسائيَّة، فبدلتُ
ملابِسي وهَمَمْتُ بالخُروجِ والذَّهابِ وحدي ففتحتُ بابَ عُرْفَتي
لأجد المجانين يلعبونَ كعادَتِهِم ويضحَكون، فوضعتُ يدي على
كتفِ حُسام وضحكتُ وقلْتُ لَهُم: ماذا تفعلونَ أيُّها المجانين؟
فقالَت سارة: كما ترى نحنُ نلعب، هل هذا ممنوع؟، فأجبتُها: لا،
ليس ممنوعاً أيُّتها الحمقاء، لكن لا يجوز أن تلعبوا في طُرقةِ
الفندقِ بينَ العُرفِ فنزُجوا النُزلاء، ولا يجوز أيضاً أن تلعبوا
بدون الكابتنِ الدولي هُسام الماضي، فضحكوا ثم قلتُ لَهُم: هيا
ننزلُ لِننتظرَ أكرم وبعدها نذهبُ إلى إسراء وريم، فجاءَ أكرم
فتوجَّهنا للمشفى وصعدنا إلى عُرْفَةِ إسراء، لنجدَ هدى زوجةَ
أكرم تنتظرُ عندَ بابِ عُرْفَتِها، فأمنتُ حينها أن الحبَّ و المعزةَ،
نعم تتولَّد مع طول العِشرةِ أحياناً، لكنَّها أيضاً قد تولَّد من رَحِمِ
موقفٍ ما.

جَلَسْنَا فِي الْمَشْفَى مَا يُقَارِبُ سَاعَتَيْنِ كَمَا تُشِيرُ سَاعَتِي، أَمَا قَلْبِي فَيُشِيرُ إِلَى دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ قَدْ مَضَتْ، وَعَقْلِي يَفْقَدُ الدَّائِرَةَ عِنْدَمَا أَكُونُ بِرِفْقَةِ إِسْرَاءَ، فَلَا يَسْتَطِيعُ التَّمْيِيزَ أَفِي لَيْلٍ نَحْنُ أَمْ نَهَارٌ، يَفْقَدُ الْإِحْسَاسَ بِكُلِّ مَا حَوْلَهُ، فَلَيْسَتْ تُؤْذِيهِ حَرَارَةُ الشَّمْسِ فِي يَوْمٍ صَيْفٍ حَارٍّ، وَلَنْ يُوقِظَهُ رِيحٌ يَهْبُ عَلَيْهِ فِي يَوْمٍ شِتَاءٍ بَارِدٍ.

سَمَحُوا لَنَا بِالذُّخُولِ عِنْدَمَا بَدَأَ وَقْتُ الزِّيَارَةِ فَدَخَلْنَا جَمِيعًا إِلَى غُرْفَةِ إِسْرَاءَ فَاسْتَأْذَنَ الْمَجَانِينُ لِيَتْرَكُونِي عِنْدَ إِسْرَاءَ.

حِينَ أَكُونُ مَعَهَا فَلَيْسَ يُهْمُنِي وُجُودٌ غَيْرُهَا، وَحِينَ أَكُونُ وَحِيدًا فَلَيْسَ يُخْرِجُنِي مِنْ وَحْدَتِي غَيْرُ وُجُودِهَا بِقُرْبِي حَتَّى لَوْ اجْتَمَعَتْ حَوْلِي الْجَنَّةُ وَالْإِنْسَانُ.

حَاوَلْنَا الْإِتِّصَالَ بِوَالِدَيْهَا فَكَانَ خَطُّهَا مُغْلَقًا، وَلَمْ أُخْرَجْ مِنْ غُرْفَتِهَا إِلَّا حِينَ طَلَبَتِ الْمُرْضَاةُ مِنِّي ذَلِكَ لِتَقْوَمَ بِبَعْضِ الْفُحُوصِ لِإِسْرَاءَ، فَخَرَجْتُ مِنَ الْغُرْفَةِ فَلَقِيتُ يَوْسُفَ وَكَانَ يَبْدُو قَلْفًا مَرْتَابًا، كَانَ قَلْفًا عَلَى رِيمٍ وَلَمْ أَكُنْ عَلَى دَرَايَةٍ بِأَنَّ تِلْكَ الْمُتَلَازِمَةَ الْمُسَمَّاةَ حَبًّا قَدْ أَصَابَتْ قَلْبَ صَاحِبِي أَيْضًا فَسَأَلْتُهُ: هَلْ تَحِبُّهَا يَا فَتَى؟، فَأَجَابَنِي أَنَّهُ يَعْتَقُهَا،

- يَبْدُو أَنَّكَ مِثْلِي وَإِسْرَاءَ تَفْضِلَانِ كِتْمَانَ حَبِّمَا عَنِ النَّاسِ.

- لَا، لَسْنَا مِثْلَكُمَا، فَحُبُّنَا مِنْ طَرَفِي فَقَطْ وَلَمْ أُخْبِرْهَا بِهِ يَوْمًا.

فَقُلْتُ لَهُ: حِينَ تَكْتُمُ حَبِّكَ عَمَّنْ تَحِبُّ فَإِنَّكَ تَرْتَكِبُ بِذَلِكَ جِنَايَةَ، جِنَايَةَ فِي حَقِّ قَلْبِكَ الَّذِي يَدُقُّ فِي صَدْرِكَ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الدَّقَّاتُ كِي تَضَخَّ الدَّمُ فِي أَعْضَائِكَ فَقَطْ كَمَا تَظُنُّ، هِيَ أَشْبَهُ مَا تَكُونُ

صرخة استغاثة ممن يرجو الرحمة بصرخته هذه، فرققاً بقلبك يا أخي،

- أنت محق يا هشام، لكنني لا أجرو أن أبوح لها.
- حينما تبوح لها بحبك فستكسب في كلتا الحالتين، فإن صدتك سيكون ذلك مؤلماً بلا شك وستحس بأنها وجهت لقلبك صفة قاسية، لكن هذه الصفة ستكون خير مني لك كي تسلك بحياتك مساراً مختلفاً وقد يكون سعدك في ذاك المسار، وإن أجابت حبك هذا بالقبول يكون قد تحقق لك ما أردت وتحققت أمنيته التي منيت بها نفسك ليالٍ طويلة.

فاحتضنتي يوسف وقبّلتني، يبدو أن كلماتي كان لها أثر في نفسه، فقال لي: هل أخبرها الآن أم عندما نعود إلى فلسطين؟، فقلت له مازحاً: بل أخبرها في الطائرة، حتى إذا صدتك يسهّل عليك إلقاءها، فضحك يوسف وزال تأثيره كما أرى، لست طبيباً نفسياً ولا معالِجاً روحياً، لكنني أؤمن أن كلاً منا يملك طاقة لنصح وتخفيف ألم أحدهم، قد تخفف هذا الألم كلمة وقد تخففه بسمة ولن يعدم أحدنا الوسيلة إن كانت لديه رغبة صادقة بالمساعدة، لكن أنا أنصحك أن تتحدث إليها عند عودتنا إلى فلسطين، فأنهينا سجايرنا ثم ذهبنا لغرفة ريم فرحبت بنا ولم أطل أنا البقاء عندها فاستأذنت كي أذهب لإسراء، حقيقةً، لم يكن هذا وحده هدفي، فقط كنت أريد أن أترك يوسف وحده عندها،

لست صاحب أفقٍ واسعٍ وعقليةٍ مُتفتحةٍ بالقدرِ الذي يظنُّه من يراني أتصرفُ بهذه الطريقة، كلُّ ما في الأمرِ بأنني خضتُ مثل هذه التجربة في اليَومينِ الماضيين، كنتُ أتمنى أن أكونَ في غُرْفَةِ إِسْرَاءِ وحدي في كلِّ ثانيةٍ تمرُّ، كنتُ أودُّ أن أكونَ الطبيبَ والممرضةَ، الحبيبَ والصديقةَ، وكلُّ شخصٍ تقَعُ عليه عينُ إِسْرَاءِ.

خَرَجْتُ مِنَ العُرْفَةِ وَهَمَمْتُ بِالنُّزُولِ لِمَقْهَى المُسْتَشْفَى لِأَخِذَ قَهْوَةً وَأشْعَلَ مائَةَ سِجَارَةٍ، عَلَّهَا تَزِيلُ شَيْئًا مِنْ تَوَثُّرِي، أَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَفْعَلُ، لَكِنَّ الإِدْمَانَ عَلَى هَذِهِ العَادَةِ هُوَ نَتِيجَةٌ لِمُوروثِ مُجْتَمَعِي مُتَعَفِّنٍ، يَبْدَأُ بِتَقْلِيدِ الأَهْلِ والأَصْدِقَاءِ، مَرورًا بِمَحَاوِلَةِ إِثْبَاتِ الرَّجُولَةِ فِي فَتْرَةٍ مِنَ الفتراتِ، إِلَى أَنْ تَصِلَ لِمَرِحَلَةِ الإِدْمَانَ وَالتَّعَوُّدِ.

يَدٌ تَلَمَّسَتْ كَتْفِي، فَنَظَرْتُ خَلْفِي لِأَجِدُهُ يوسُفَ

- مَا بِأَلِكِ يَا رَجُلٌ؟، أَلَمْ أَتْرَكْ مَعَ حَبِيبَةِ القَلْبِ؟

فَابْتَسَمَ يوسُفَ وَكَانَتْ ابْتِسَامَتُهُ مُمْتَرِجَةً بِمَرَارَةٍ قَاتِلَةٍ، اسْتَطَعْتُ أَنْ أَحْسَّ بِهَا مِنْ نَظَرَةٍ عَيْنِهِ،

- هِيَ لَا تَحِبُّنِي يَا هِشَامَ، لَا تَحِبُّنِي،

- لِمَاذَا تَقُولُ هَذَا يَا أَحْمَقُ؟، هِيَ فِي الأَصْلِ لَا تَدْرِي

بِمِشَاعِرِكَ تِجَاهَهَا.

- بَلَى، لَقَدْ عَرَفْتُ، لَقَدْ قَمْتُ بِأَخْبَارِهَا.

قام يوسف بإخبارها لتوه، وكان ردها بأنها تعتبره أخا لها ليس أكثر، فقلت له: ألهذا أنت مُنزعج؟

فقال لي: بالطبع، ألا يحقُّ لي ذلك!، فضحكت، فاغتاظ مني وقال: أتضحك يا هشام؟، وأدار لي ظهره وولّى غاضباً، فوضعتُ أنا يدي على كتفه هذه المرّة وقلتُ له: تعالِ نَقِفْ في الخارجِ وسأخبرُكَ بسببِ ضحكي، فرأفتني على مَضِضٍ، وخرَجنا فأشعلتُ سيجارتي ومددتُ له أخرى، لا أدري أيّ رفيقٍ سوءٍ أنا!، فقلتُ له: سأخبرُكَ الآنِ لماذا ضحكتُ،

- أسمعُكَ.

- لقد ذكّرتني بالمرّة الأولى التي صارحتُ فيها بإسراء بحبي.

قلت لها يومها: أنا أحبك يا إسراء.

- احتضنتك، أليس كذلك؟

- لا، ليس كذلك يا أحمق.

لقد صَفَعْتَنِي على وجهي.

- لا لا لا، يستحيلُ أن تفعلِ إسراءُ بكِ أنتَ هذا.

- أقسمُ لكِ أنّ هذا ما فعلته.

ما أريدُ إيصالهُ لكِ، أنّك لن تجِدَ فتاةً تُصارحكِ بحبِّها قوَرٍ مُفَاتِحَتِكَ لها بهذا الموضوعِ، فليستِ الفتياتُ مثلنا معشرِ الشَّبَابِ، فمَشَاعِرِ الفتياتِ مُغلَفةٌ بِغِلافٍ أو إن شئتَ بِقِوَقَعَةٍ أو مَحَارَةٍ تُدعى الحَجَلِ، وعليكِ أن تكونَ رَقِيقًا في فَضِّ هذه المَحَارَةِ حتّى لا تكسِرَ لؤلؤتَكَ القابِعةَ داخلها، ألا ترَ

عِلَاقَتِي بِإِسْرَاءَ؟، لَوْ كُنْتُ اسْتَسَلَّمْتُ مِنَ الْمَرَّةِ الْأُولَى لَمَا
كَانَتْ عِلَاقَتُنَا بِهَذَا الشَّكْلِ الَّذِي تَرَى، فَمَتَّ لَتَوَكَّ بِضَرْبِ
مَحَارَتِكَ فِي الْحَائِطِ لِتَكْسِيرِهَا، فَارْتَدَّتْ مِنْ ذَلِكَ الْحَائِطِ
لِتَكْسِرِ رَأْسِكَ أَنْتِ.

- أَنْتِ لَسْتَ شَاعِرًا وَصَحْفِيًّا فَقَطْ يَا هِشَامَ،

أَنْتِ طَبِيبٌ نَفْسِيًّا أَيْضًا.

- لَا لَسْتُ طَبِيبًا يَا يَوْسُفَ، أَنَا عَاشِقٌ فَقَطْ، وَمَنْ يَكْتَوِي
بِحَمْرِ الْعِشْقِ يَمْلِكُ مِنَ النَّصَائِحِ مَا تَجْعَلُهُ يَظْهَرُ طَبِيبًا
وَفَيْلسُوفًا.

أَنْهَيْنَا قَهْوَتَنَا وَتَوَجَّهْنَا لِعُرْفَةِ الطَّبِيبِ الْمُشْرِفِ عَلَى عِلَاجِ إِسْرَاءَ،
- مَتَى نَسْتَطِيعُ إِخْرَاجَ مَرِيضَتِنَا يَا دُكْتُورَ؟، وَهَلْ نَسْتَطِيعُ
السَّفَرَ؟، فَمَوْعِدُ رِحْلَتِنَا غَدًا.

- قَبْلَ أَنْ أُجِيبَكَ عَنْ اسْئَلَتِكَ، أَوَدُّ أَنَا أَنْ أَسْأَلَكَ سُؤَالَ.

- تَفَضَّلْ

- أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بِالتَّأَكِيدِ أَنَّ زَمِيلَتَكُمْ تُعَانِي مُشْكَلَةً فِي قَلْبِهَا،
أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

- مَاذَا تَقُولُ يَا دُكْتُورَ؟!، لَآلَا، هِيَ لَا تُعَانِي مِنْ غَيْرِ مُشْكَلَةٍ
الْقَوْلُونَ.

- بَلَى، هَذَا مَا اكْتَشَفْتُهُ أَثْنَاءَ الْعَمَلِيَّةِ.

فَلَمْ أَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَعَيْنِي وَفَتَّ بِالْعَرَضِ، فَخَرَجْنَا مِنْ عُرْفَةِ
الطَّبِيبِ بَعْدَهَا وَلَمْ تَكُنْ قَدَمَايَ تَحْمِلُنِي فَجَثَوْتُ عَلَى رِكْبَتِي

ووضعتُ كَفِّيَ على وجهي وصرتُ أبكي، ولم آبه لمن يراني باكيًا
ماذا سيقول، فمصابي أكبر من هذه التفاهات، فقلبُ حبيبتي
ضعيف، ليت الضعف كان بقلبي وليس بقلبها، لم تختَر هذه
الظروفَ القاسيةَ أن تُباغتني إلا في المرة الأولى التي أخذتُ فيها
مسؤوليتك على عاتقي!، عذراً يا أمَّ إسرائِ فهذا الظرفُ أعظمُ
مني وعذراً يا والدتي فولدك ليس ذاك الرجل القوي الذي تتمنين
،عذراً ياريم، عذراً يا يوسف، سارة، رويدة، خالد، معذرةً منكم
جميعاً، معذرةً لقلبي الذي أراه يهوى مفارقةَ صدري، ليس
لخجله مني، فهو معتادٌ على هذا الخجل، لكنه يريدُ القفزَ لصدرها
علهُ يساعِدُ توأمه الضعيف، ولن أفعَل هذا، ليس لأتني غيرُ
مستعدٍ للموتِ لأجلها، لكنني أخشى إن زرعته في جسدها أن
ينشغلَ بعناقِ قلبها فيتوقفَ كلاهما.

يدٌ وضعتُ فوقَ رأسي ولم تكنُ لمسةً حنونةً هذه المرة، بل كانت
لمسةً قاسيةً، أحسستُ أن صراخاً وتوبيخاً يرافقانها رغم أنها
مجردُ لمسة، فرفعتُ رأسي كي أرى وجهَ من لامسني، وإذا به
السيدُ زاهي يقفُ عندَ رأسي، فقامتُ لأقفَ مُقابلاً له، ولم أكن
أتمنى أن يراني على هذا الحالِ باكيًا شاحبَ الوجه، فقال لي:
أخبرني بالذي حصلَ معكم بالتفصيل، وبعدها سيكونُ لنا حسابٌ
آخر، وكأني الآن في وضعٍ يسمحُ بالحسابِ أو التوبيخِ!، فقلتُ
له: تعبتُ إسرائِ فاضطررنا لأخذها للمشفى بعد أن أنهينا الحفلَ

- لماذا جنتم إلى الجزائرِ يا هشام؟

- جئنا بناءً على طلبك يا سيد زاهي، ألا تذكر؟

فَضْرَبَ الْجِدَارَ بِقَبْضَةِ يَدِهِ، فَسَمِعَتْ صَوْتَ شَيْءٍ يُكْسِرُ، وَ لَا أَدْرِي
أَكَانَ الْجِدَارُ هُوَ الَّذِي كُسِرَ أَمْ أَنَّهَا قَبْضَتُهُ هِيَ الَّتِي تَهَشَّمَتْ أَمْ
أَنَّهَا هَلَاوِسِي الَّتِي أَنَا مُعْتَادٌ عَلَيْهَا!، فَصَرَخَ بِي قَائِلًا: سَفَارَةٌ
دَوَّلْتِكُمْ اسْتَدْعَتْكُمْ لِمَهْمَةٍ مُحَدَّدَةٍ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْكُمْ حَتَّى تَنْتَهِيَ
هَذِهِ الْمَهْمَةُ، زِدْ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهَا مَسْؤُولَةٌ عَنْكُمْ طِيلَةَ فِتْرَةٍ بِقَائِكُمْ
خَارِجَ الْوَطْنِ سِوَاءَ كُنْتُمْ فِي مَهْمَةٍ أَوْ كُنْتُمْ قَادِمِينَ لِلسِّيَاحَةِ حَتَّى،
هل فهمت؟

- نعم ، لقد فهمت.

- دعني الآن أذهب للطبيب لأستعلم عن حالة زميلتكم،

فَذَهَبَ السَّيِّدُ زَاهِي لِيَرَّ الطَّبِيبَ، وَغَابَ مَا يُقَارِبُ نِصْفَ سَاعَةٍ ثُمَّ
عَادَ لِيُخْبِرَنِي أَنَّنَا لَنْ نَسْتَطِيعَ الْعُودَةَ لِفِلَسْطِينَ فِي الْعَدِّ كَمَا كَانَ
مُقَرَّرًا.

- ماذا أخبرك الطبيب؟

- قال لي، أنها تعاني ضعفًا في عضلة قلبها.

أَرَى عِلَامَاتِ الْحُزْنِ وَالْأَسَى تَعْرُو وَجْهَهُ عِنْدَمَا رَأَى وَجْهِي
وَالسَّوَادُ يَتَسَرَّبُ إِلَيْهِ، وَحَقَّ ذَلِكَ لَوَجْهِي، فَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْسَدِلُ
عَبْرَتَهُ وَيُطْلِقَ لَهَا الْعِنَانَ لِتَتَهَادَى عَلَى وَجْنَتِهِ أَمْ يَجْعَلُهَا مَكْتُومَةً
فِي دَاخِلِهِ مُخْتَنِقَةً بِسَبَبِ نَصِيحَةٍ أَطْلَقَهَا وَالِدِي مِنْذُ رَدْحٍ مِنْ
الزَّمَنِ بِأَنَّ الرَّجُلَ لَا يَصِحُّ أَنْ يُبْدِيَ دَمْعَتَهُ، أَلَا سَحَقًا لِهَذَا الرَّجُلِ،
فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْجُدْرِ مِنْهُ إِلَى بَنِي الْبَشَرِ، مَنْ يَظُنُّ أَنَّ قَطْرَةً تَنْزُلُ

مِنْ عَيْنِهِ، خَدِشًا لِرُجُولَتِهِ فَلْيُخْبِرْنِي أَيُّ مَدْرَسَةٍ تِلْكَ الَّتِي عَلَّمْتَهُ
هَذِهِ الْحَمَاقَةَ!، حِينَ نَزَلْتَ مِنْ رَحِمِ أُمِّكَ، أَلَمْ تَنْزِلْ بِأَكْبِيًّا؟، سَتَرَدُّ
لِنَقُولَ: كُنْتُ طِفْلًا حِينَهَا، أَنَا أَوْافِقُكَ فِي ذَلِكَ يَا مَنْ تَرَى الْبُكَاءَ
طَعْنَةً فِي الرُّجُولَةِ، فَالْأَطْفَالُ يَبْكُونَ، وَالنِّسَاءُ أَيْضًا تَبْكِينَ،
وَسَأَصْدُمُكَ إِنْ قُلْتُ بِأَنَّ الرِّجَالَ يَبْكُونَ أَيْضًا، يُوَسِّفُنِي إِخْبَارُكَ يَا
عَزِيزِي أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ تَبْكِي أحيانًا، فَإِذَا كَانَ الْبَشَرُ وَالْحَيَوَانَاتُ
تَبْكِي، فَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْجَمَادَاتِ وَيُوَسِّفُنِي أَنْ أَخْبِرَكَ أَنَّكَ وَاحِدٌ
مِنْهَا، فَكَيْفَ بِإِمْكَانِي التَّفْرِيقُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَيِّ حَجَرٍ أَوْ جِدَارٍ؟

- بِمَ أَخْبِرَكَ الطَّبِيبَ أَيْضًا؟

- أَخْبِرْنِي أَنَّهُ يُرِيدُ عَمَلَ تَخْطِيطٍ لِلْقَلْبِ، إِضَافَةً إِلَى بَعْضِ

الْفُحُوصَاتِ حَتَّى يَطْمَئِنَّ مَا إِذَا كَانَ سَيَسْمَحُ لَهَا أَنْ تُسَافِرَ،

فَجَاءَ الْمُمْرِضُونَ لِعُرْفَةِ إِسْرَاءَ وَأَحْضَرُوا كُرْسِيًّا مُتَحَرِّكًا كَيْ

يَنْقُلُوهَا لِعُرْفَةِ التَّخْطِيطِ، فَدَخَلُوا وَمَعَهُمُ الْكُرْسِيُّ وَخَرَجُوا وَمَعَهُمُ

حَبِيبَتِي، وَكَعَادَتِهَا إِسْرَاءَ طَوَالَ حَيَاتِهَا تَتَحَرَّجُ مِنَ الْمَرَضِ وَلَا

تُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا مَرِيضَةً أَحَدًا، أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْسَنَ لَهَيْبًا مِنْ

أَتُونَ صَدْرَهَا، هَذَا الْأَتُونُ بِهِ نَارٌ لَا تُحْرِقُ أَحَدًا سِوَايَ، تُحْرِقُ

قَلْبِي، تُحْرِقُ عَيْنِي، لَيْسَ يَهْمُنِي حَتَّى لَوْ احْتَرَقْتُ بِأَكْمَلِي، عَلَّ

هَذَا الْحَرِيقُ يُصْدِرُ دُخَانًا يَحْجُبُ عَنِّي رَوِيَةَ تِلْكَ اللَّمْعَةِ الَّتِي

أُبْصِرُهَا فِي عَيْنِهَا، هِيَ لَمْعَةٌ تُخْفِي خَلْفَهَا أَلْفَ دَمْعَةٍ، يَا حَبِيبَتِي،

لَيْسَ أَحَدٌ مَنَّا مَعْصُومٌ مِنَ الْمَرَضِ وَلَيْسَ فِي مَرَضِ الْإِنْسَانِ مَا

يُعِيبُهُ، فَصَعَدْتُ فِي الْمَصْعَدِ بِرَفْقَةٍ إِسْرَاءَ وَالْمَرْمِضِينَ، فَرَفَعْتُ

رَأْسَهَا وَنَظَرَتْ إِلَيَّ وَقَالَتْ لِي كَلِمَاتٍ لَا أُنْسَاهَا، قَالَتْ: لَا تَتْرُكْنِي يَا هِشَامَ فَإِنَّا ضَعِيفَةٌ جَدًّا بِدُونِكَ، فَقُلْتُ لَهَا: لَا تَقُولِي ذَلِكَ يَا حُلُوتِي وَ مَسَحْتُ عَلَى رَأْسِهَا وَوَجْهَهَا بِكَفِّي وَتَابَعْتُ قَائِلًا: وَأَنَا قَوِيٌّ مَعَكَ يَا حَبِيبَتِي،

- أَلَسْتُ مُؤْمِنَةً يَا حُلُوتِي؟

- بلى يا هشام.

- ثِقِي بِاللَّهِ إِذَا وَاعَلِمِي أَنَّ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

انْتَهَى حِوَارُنَا مَعَ وُصُولِ الْمَصْعَدِ إِلَى الطَّايِقِ الثَّلَاثِ حَيْثُ الْعُرْفَةُ الَّتِي بِهَا جِهَازُ التَّخْطِيطِ، فَدَخَلْتُ بِرِفْقَتِهَا، فَسَأَلُونِي مَا صِلْتِي بِهَا فَأَخْبَرْتُهُمْ أَنَّهَا خَطِيبَتِي، فَدَعُونِي لِلانْتِظَارِ خَارِجًا، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى كَتِفِهَا وَقَبَّلْتُ جَبِينَهَا وَقُلْتُ لَهَا: لَا تَخَافِي يَا حَبِيبَتِي، سَيَحْمِيكَ اللَّهُ، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنَ الْعُرْفَةِ، قَدْ أَكُونُ خَرَجْتُ بِجَسَدِي بِالْفِعْلِ، لَكِنَّ رُوحِي بَقِيَتْ مُعَلَّقَةً بِرِفْقَةِ إِسْرَاءَ.

عِنْدَمَا سَمِعْتُ مُصْطَلِحَ "تَخْطِيطِ الْقَلْبِ" ظَنَنْتُ الْأَمْرَ سَيَسْتَعْرِقُ ثَلَاثَ إِلَى أَرْبَعِ سَاعَاتٍ، فَفُوجِئْتُ عِنْدَمَا رَأَيْتُ الطَّيِّبَ يَخْرُجُ مِنَ الْعُرْفَةِ بَعْدَ مَا يُقَارِبُ عَشْرَ دَقَائِقَ، فَانْتَفَضْتُ مَلْهُوفًا إِلَيْهِ وَسَأَلْتُهُ: هَلْ ثَمَّةُ مُشْكَلَةٍ؟، هَلْ تَشْكُو مِنْ شَيْءٍ إِسْرَاءَ؟، فَضَحَكَ الطَّيِّبُ وَقَالَ لِي: لَا، هِيَ لَا تَشْكُو مِنْ شَيْءٍ، لَكِنَّا أَنهِنَا عَمَلْنَا فَقَطًّا، حَمْدًا لِلَّهِ، فَقَدْ خِيلَ إِلَيَّ أَنَّ الْمَوْضُوعَ أَعْقَدُ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، فَقَامُوا بِإِخْرَاجِهَا مِنْ تِلْكَ الْعُرْفَةِ عَلَى ذَاكَ الْكُرْسِيِّ الْمَقِيتِ الَّذِي تَمَفَّتُهُ هِيَ كَمَا أَمَفْتُ أَنَا جَلَسْتُهَا عَلَيْهِ.

أذكرُ يومَ كُسِرَت ساقِي في مباراةِ كرةِ قَدَمٍ كُنْتُ أَلْعَبُهَا مع
أَصْدِقَائِي الَّذِينَ كَانَ أَحَدُهُمْ سَاجِدٌ شَقِيقُ إِسْرَاءَ، جَلَسْتُ عَلَى ذَاكَ
الْكُرْسِيِّ، فَجَاءَتْ أُمِّي وَ أَبِي وَمَعَهُمْ جَاءَتْ حَنَانُ، وَكَانُوا جَمِيعُهُمْ
تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ وَكُنْتُ أَنَا مُبْتَسِمًا وَ أَشْعُرُ بِالسَّعْدَةِ وَأَنَا أَجْلِسُ عَلَى
ذَلِكَ الْكُرْسِيِّ!، اخْتَلَفَ الْأَمْرُ تَمَامًا عِنْدَمَا أَلْفَيْتُ حَبِيبَتِي تَجْلِسُ
عَلَى كُرْسِيِّ مِثْلِهِ، أَحْسَسْتُ بِنَعْصَةٍ كَادَتْ تَخْنُقُنِي، فَأَيَقَنْتُ حِينَهَا
أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ تَهَوَّنَ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، لَكِنَّهُ لَا يُطِيقُ أَنْ يَرَى شَخْصًا
عَزِيزًا عَلَيْهِ يَمُرُّ بِظُرُوفٍ قَدْ يَكُونُ مَرًّا بِمِثْلِهَا، هُوَ يُؤَلِّمُهُ أَكْثَرَ أَنْ
يَرَى ذَاكَ الْعَزِيزَ يَتَأَلَّمُ.

كَانَ جَمِيعُ رِفَاقِنَا حَوْلِي، لَكِنِّي فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ أَحَسَّ بِوُجُودِهِمْ
حَتَّى، هَذِهِ إِحْدَى أَحْكَامِ الْقَلْبِ، فَالْقَلْبُ حِينَ يُحِبُّ لَا يَرَى فِي
الْكُونِ غَيْرَ ذَاكَ الَّذِي يُحِبُّ وَيَهْوَى، هَذَا حُكْمُ الْقَلْبِ فِي الْأَحْوَالِ
الْعَادِيَّةِ، فَمَا بِاللَّكِّ حِينَ يُصَابُ ذَاكَ الْحَبِيبَ بِضُرٍّ أَوْ مَكْرُوهٍ، فَكَيْفَ
سَتَصْبِحُ أَحْكَامُ قَلْبِكَ حِينَهَا!، قَلْبِي كَفِيلٌ بِالْحَجَرِ عَلَى حَوَاسِي
الْخَمْسَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَا تَرَ عَيْنِي غَيْرَ حَبِيبَتِي وَلَوْ قَابَلْتُ آلاَفَ
البَشَرِ، وَأُذْنِي لَيْسَ يُطْرِبُهَا صَوْتُ كَصَوْتِهَا، وَعَبَقُ رَائِحَةِ
الْيَاسَمِينِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ جِلْدِهَا قَادِرَةٌ أَنْ تَطْعَى عَلَى حَاسَةِ الشِّمِّ
عِنْدِي، وَلَسَانِي لَا يَبُوحُ بِأَحْلَى كَلَامِ الْغَزَلِ وَأَعْدْبِهِ إِلَّا إِنْ رَأَاهَا،
وَلَمْسَةَ أَلْمَسُ بِهَا وَجَنَّتْهَا هِيَ فِي نَظْرِي أَجْمَلُ بَلٍ وَأَنْعَمُ لِمَسَةٍ قَدْ
أَحْظَى بِهَا فِي حَيَاتِي، فَإِنْ لَأَمَسْتُ حَدَّهَا فَعَشِقُ وَشَعْفُ، وَإِنْ
لَأَمَسْتُ شَعْرَهَا الْحَرِيرِيَّ الدَّهْبِيَّ أَعْرَفُ مَعْنَى النُّعُومَةِ وَالرِّقَّةِ،

وأخيراً، أحسُّ أنني مَلَكْتُ الدُّنْيَا بِأَكْمَلِهَا حِينَ أَضْمُّهَا إِلَى صَدْرِي،
أَيُّ حُورِيَّةٍ أَنْتِ يَا إِسْرَاءَ، هَلْ أَنْتِ وَقَعْتَ يَا حَبِيبَتِي أَمْ خَيَالٌ؟،
يَتَغَنَّى العُشَّاقُ بِجَمَالِ القَمَرِ، المَعْدِرَةُ مِنْكُمْ، جَمِيلٌ هُوَ القَمَرُ، لَكِنَّهُ
لَيْسَ بِجَمَالِ حَبِيبَتِي، فِيهِ ضَوْءٌ يَكْسُو الكَوْنَ لَيْلًا، لَكِنَّ وَجْهَ
حَبِيبَتِي يُضِيءُ رُوحِي لَيْلًا وَشَعْرُهَا الذَّهَبِيُّ يُغْنِينِي عَنِ ضَوْءِ
نَهَارِكُمْ، لَا حَاجَةَ لِي بِضَوْءِ شَمْسٍ وَلَا قَمَرٍ مَا دَامَتْ إِسْرَاءُ فِي
جَوَارِي، يَتَغَنُّونَ أَيْضًا بِرَائِحَةِ الأزْهَارِ، أَعْدَرُهُمْ فَلَمْ يَشْتَمُوا
رَائِحَةَ اليَاسْمِينِ الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْ مَسَامِ جُلْدِهَا، وَيَمْتَدِّحُونَ
وَيَعْتَشِقُونَ بَرَاءَةَ الأَطْفَالِ، سَأَمَنْحُهُم العُدْرَ أَيْضًا فَلَمْ يَرَوْهَا وَهِيَ
تَضْرِبُ كَتْفِي حِينَ أَمَارِحُهَا، تَتَصَرَّفُ حِينَهَا بِبَرَاءَةٍ لَا تَمْتَلِكُهَا
طِفْلَةٌ فِي الثَّالِثَةِ مِنْ عُمْرِهَا.

أَخَذُوا حَبِيبَتِي لِعُرْفَتِهَا كَيْ تَسْتَرِيحَ، سَيَسْتَرِيحُ جَسَدُهَا حِينَ تَنَامُ
فَوْقَ ذَاكَ السَّرِيرِ الأَبْيَضِ لَكِنَّ مَاذَا عَنِّي أَنَا؟، أَيُّ سَرِيرٍ يُمَكِّنُهُ
أَنْ يُرِيحَ رُوحِي!، وَكَيْفَ لِدَقَّاتِ قَلْبِي أَنْ تَهْدَأَ أَوْ تَرْتَاحَ!، أَعْرِفُ
أَنَّ مَا مِنْ شَيْءٍ فِي جِسْمِي يُمَكِّنُهُ أَنْ يَهْدَأَ مَا لَمْ تَخْرُجَ إِسْرَاءُ مِنْ
هَذَا البَلَاءِ، فَحِينَ يَمْرُضُ مِنْ تَحِبِّ، فَإِنَّ عِقَابَ السَّاعَةِ قَدْ
تُخَالَفُ فِطْرَتَهَا وَتَدُورُ لِلخَلْفِ بَدَلًا مِنَ الأَمَامِ، عَلَّ القَدْرَ يَتَخَلَّى عَنِ
هَذِهِ العُقُوبَةِ الَّتِي عَاقَبَ بِهَا أَحَدُنَا .

طَلَبَ مِنَّا الطَّيِّبُ أَنْ نَشْرُكَهَا لِتَسْتَرِيحَ، فَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ
لَا أَزِيدُ عَلَيْهَا، فَاقْتَرَبْتُ مِنْ إِسْرَاءَ وَأَمْسَكْتُ بِرَأْسِهَا وَجَعَلْتُه قُرْبَ
قَلْبِي، فَجَنَّ جُنُونُهُ قَلْبِي، فَدَقَّاتُهُ يَسْمَعُهَا الجَارُ الأَرْبَعُونَ حِينَ

يَسْمَعُ إِسْمَهَا فَقَطَّ، فَمَا بِأَلْكَ حِينَ يُصْبِحَ رَأْسُهَا أَقْرَبَ لِقَلْبِي مِنْ
رَأْسِي!، فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا وَنَظَرَتْ إِلَيَّ وَقَالَتْ:

- لماذا أَجْرُوا لي تلك الصُّورَةَ؟

- زيادَةٌ في الاطمِنانِ يا أَمِيرَتِي،

لا تخافِي، سوفَ تَخْرُجِينَ غَدًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَنَسْتَعِدُّ لِلْعُودَةِ إِلَى
فِلَسْطِينَ، عَلَيَّ أَنْ أُخْرَجَ الْآنَ يا حُلُوتِي فَوْقَتْ الزِّيَارَةَ
مَحْدُودًا.

- أريدُ أَنْ أَتَصَلَ بِأُمِّي يا هِشَامَ.

فَطَلَبْتُ رَقْمَهَا وَلَا زَالَ الْهَاتِفُ مُغْلَقًا.

- اسْتَرِحِي وَنَامِي قَلِيلًا يا حَبِيبَتِي .

خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهَا وَتَوَجَّهْتُ لِغُرْفَةِ الطَّبِيبِ فَلَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا، كَانَ
يُجْرِي عَمَلِيَّةً لِأَحَدِ المَرَضَى وَبِحَاجَةٍ إِلَى مَا يُقَارِبُ سَاعَتَيْنِ حَتَّى
يَنْتَهِي، فَخَرَجْتُ إِلَى فِنَاءِ المَشْفَى الخَارِجِي فَوَجَدْتُ زُمَلَانِي
يَجْلِسُونَ جَمِيعًا فِي غُرْفَةِ الْإِنْتِظَارِ وَمَعَهُمْ أَكْرَمٌ أَيْضًا وَهُدَى
فَتَوَجَّهُوا بِسُرْعَةٍ نَحْوِي وَكَانَ يَبْدُو عَلَيْهِمُ القَلْقُ، فَأَعْطَيْتَهُمْ
مُنِيَّتَهُمْ وَطَمَأَنَّنْتُهُمْ أَنَّ صَدِيقَتَهُمْ بِخَيْرٍ .

صَدَاعٌ فِي رَأْسِي يَكَادُ يَفْتِكُ بِي، أَنَا بِحَاجَةٍ إِلَى كُوبِ قَهْوَةٍ
وَسِجَارَةٍ حَتَّى يَهْدَأَ مَا بِرَأْسِي مِنْ أَلَمٍ، فَأَمْسَكْتُ بِبُيُوسُفَ وَطَلَبْتُ
مِنْهُ مُرَافَقَتِي خَارِجَ المَشْفَى كَيْ نَشْرَبَ القَهْوَةَ سِوِيًا فَخَرَجَ مَعِي
وَجَلَسْنَا فِي المَقْهَى المُجَاوِرِ لِلْمَشْفَى وَطَلَبْنَا القَهْوَةَ، وَبِكُلِّ تَلَقُّائِيَّةٍ

امْتَدَّت يَدَيَّ إِلَى جَيْبِي كَيْ أُخْرِجَ عُلبَةَ سَجَائِرِي، فَكَانَتْ فَارِغَةً ۖ لِسُوءِ الْحَظِّ، لَا أَدْرِي مَتَى سَأَتَخَلِّي عَنْ عَادَتِي الْقَبِيحَةِ هَذِهِ بِأَنْ أُعِيدَ عُلبَةَ السَّجَائِرِ لِجَيْبِي عِنْدَمَا تَكُونُ فَارِغَةً!، فَطَلَبْتُ مِنْ يَوْسُفَ أَنْ يُعْطِيَنِي وَاحِدَةً مِنْ عُلبَتِهِ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَامَ بِتَدْخِينِ السِّجَارَةِ الْأَخِيرَةِ مِّنْذُ قَلِيلٍ وَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ فِي الْمَشْفَى مَكَانًا لِيَبْتَاعَ مِنْهُ عُلبَةً أُخْرَى، فَضَرَبْتُ بِقَبْضَةِ يَدِي الطَّائِلَةَ الَّتِي أَمَامِي بِكَلِّ قُوَّةٍ، ثُمَّ طَلَبْتُ مِنْ يَوْسُفَ أَنْ يَدْخُلَ لِلدَّخْلِ وَيَطْلُبَ مِنْ حُسَامِ عُلبَةَ سَجَائِرِهِ، فَغَابَ دَقِيقَتَيْنِ ثُمَّ جَاءَ وَمَعَهُ حُسَامٌ، فَقَالَ حُسَامٌ: أَتَيْتُ كَيْ أُدْخِنَ وَأُشَارِكَكُمْ قَهْوَتَكُمْ

- لم تخبرني، أنت سعيدٌ بهذه الرحلة؟
- نعم أنا سعيدٌ جدًّا، لكنني مشتاقٌ لفلسطين.
- حقًّا!، ألسنتَ تتمنى دائمًا أن تُهاجرَ لبلدٍ آخر؟
- نعم، كنتُ أقولُ هذا، ولكنَّ ما أنْ ابتعدتُ عنها حتى اشتقتُ إليها وقطعتُ عهدًا على نفسي أن لا أفارقها ثانيةً.

أُنْهِينَا قَهْوَتَنَا وَسَجَائِرَنَا، فَاقْتَرَحْتُ عَلَيْهِمَا أَنْ نَخْرُجَ مِنَ الْمَشْفَى وَنَمْشِيَ عَلَى أَقْدَامِنَا وَنَتَوَهَّ فِي الشُّوَارِعِ وَنَخْتَلِطَ بِالنَّاسِ بَيْنَ الرَّحَامِ، وَعِنْدَمَا نُرِيدُ الْعُودَةَ لَا نَعْرِفُ الطَّرِيقَ، فَنَسْأَلُ الْمَارَّةَ عَنِ طَرِيقِ الْمَشْفَى حَتَّى يَحِلَّ عَلَيْنَا الْمَسَاءُ فَنَهْتَدِي إِلَيْهِ، فَقَالَ حُسَامٌ: أَلَسْتَ تَنْعِنُنَا بِالْمَجَانِينِ دَائِمًا؟، هَا قَدْ صِرْتَ مَجْنُونًا أَكْثَرَ مِنَّا، كَثِيرًا مَاسْتَوْفَقْتَنِي عِبَارَةً أَنَّ الْإِنْسَانَ يَظَلُّ عَاقِلًا إِلَى أَنْ يَقَعَ فِي

الحب، فَنَدَّتْهَا لِأَكْتَشِفَ أَنَّ الْحُبَّ هُوَ أَجْمَلُ وَأَعْقَلُ قَرَارٍ مَجْنُونٍ قَدْ تَتَّخِذُهُ فِي حَيَاتِكَ، وَلَيْسَ الْجُنُونُ الَّذِي يَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ هُوَ ذَاكَ الْجُنُونُ الْمَنبُودُ، لَا عَلَى الْعَكْسِ فَهُوَ مِنْ فَرَطٍ لَدَّتِهِ وَوُلُوعٍ وَشَغَفٍ الَّذِينَ يَعِيشُونَهُ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَعْبِيرٌ يَصِفُ حَالَهُمْ أَبْلَغَ مِنْ كَلِمَةِ جُنُونٍ،

- أَلَا تَوَدُّونَ مَرَأَفَتِي؟

- سُرُّرَافِكَ بِالتَّأَكِيدِ.

أَهْلًا بِكَ فِي نَادِي الْمَجَانِينَ يَا هِشَامَ.

ضَحِكْنَا فَطَلَبْتُ مِنْ حُسَامٍ أَنْ يَصْعَدَ لِإِخْبَارِ بَقِيَّةِ الْمَجَانِينَ أَنَّنَا سَنَذْهَبُ لِقَضَاءِ أَمْرِ مُهِمٍ.

- لَا يَتَصَرَّفُ هَكَذَا الْمَجَانِينَ، لَا يُخْبِرُونَ أَحَدًا بِمَكَانٍ أَوْ وَقْتٍ ذَهَابِهِمْ وَعَوْدَتِهِمْ.

أَرَدْتُ الْخُرُوجَ مِنَ الْمَشْفَى وَجَوِّهِ الَّذِي لَا يَخْلُو مِنَ الْأَلَمِ وَالْدُمُوعِ، فَهَذَا فَقَدْ حَبِيبَتِهِ، وَتِلْكَ تَنْتَظِرُ نَجَاحَ عَمَلِيَّةٍ وَلِدَهَا، وَهُنَاكَ وَلَدٌ خَائِفٌ أَنْ لَا يَكُونَ وَالِدُهُ بِرَفَقَتِهِ عِنْدَمَا يَعُودُ لِلْمَنْزَلِ، تَعَدَّدَتْ أَسْبَابُ تَوَاجُدِهِمْ لَكِنَّا مَوْلِمَةٌ فِي أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ.

مَشِينًا فِي أَحَدِ الطَّرِيقِ وَكُنَّا نَلْتَفِتُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً فَلَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ شَيْئًا وَلَا شَخْصًا فِي الْجَزَائِرِ غَيْرَ أَكْرَمٍ وَهَدَى، يَخْتَلِفُ الْأَمْرُ حِينَ تُضَيِّعُ الدَّرَبَ فِي بَلَدِكَ، فَهُنَاكَ لَنْ تَعْدَمَ وَسِيلَةً لِتَعْرِفَ الطَّرِيقَ، لَدَيْنَا مَثَلٌ نَقُولُهُ فِي فِلَسْطِينَ، يَقُولُ الْمَثَلُ " الْغَرِيبُ أَعْمَى، وَلَوْ كَانَ بَصِيرًا".

شَاءَ الْقَدْرُ أَنْ يَضَعَ حُسَامٌ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ لِيُخْرِجَ مِحْفَظَتَهُ، مُصَادِفَةً جَمِيلَةً كَانَتْ حِينَ أَسْقَطَ جَوَازَ سَفَرِهِ، وَكَأَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِنَا خَيْرًا حِينَ تَدَخَّرَتْ كُرَّةٌ نَحُونَا، وَكَانَ يَلْحَقُهَا طِفْلٌ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، فَنَزَلَ حُسَامٌ أَرْضًا لِيَأْخُذَ أَوْرَاقَهُ وَجَاءَ مُسْرِعًا الطِّفْلُ لِيَأْخُذَ كُرَّتَهُ، فَلَاحَ الطِّفْلُ وَهُوَ يَنْزِلُ لِأَخْذِ الْكُرَّةِ جَوَازَ السَّفَرِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ "دولة فلسطين" فَتَرَكَ كُرَّتَهُ وَاخْتَضَنَ حُسَامٌ، كَأَنَّهُ رَأَى صَدِيقًا لَهُ لَمْ يَرَهُ مُنْذُ سِنَوَاتٍ، فَقَالَ لَهُ حُسَامٌ: لَا تَخَفْ يَا صَغِيرِي، الْكُرَّةُ لَكَ، فَأَجَابَهُ الطِّفْلُ: أَنَا لَا أُرِيدُ الْكُرَّةَ، أَنَا أَحَبُّكُمْ، يَبْدُو أَنَّ أَهْلَ الْجَزَائِرِ لَا يَكْتَفُونَ بِحَبِّ فِلَسْطِينَ الَّذِي وَرَثُوهُ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ، بَلْ يُورَثُونَهُ أَيْضًا لِأَبْنَائِهِمْ وَأَحْفَادِهِمْ، فَحَمَلَ حُسَامٌ الطِّفْلَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ وَوَضَعَ جَيْبِنَهُ عَلَى جَيْبِنِهِ وَقَالَ لَهُ: أَلَا تُعْرِفُنَا بِوَالِدِكَ يَا صَغِيرِي؟، فَأَخْبَرَنَا أَنَّ وَالِدَهُ مَتَوَفَى، فَاحْتَضَنَهُ حُسَامٌ بِقُوَّةٍ، وَدَلَّوْا أَنَّهُ يُدْخِلُهُ إِلَى جَوْفِ قَلْبِهِ، مَا أَعْلَمُهُ عَنْ صَدِيقِي أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنَ الْمَشَاعِرِ وَالْحَنَانِ مَا يَجْعَلُهُ يَحْمِلُ طِفْلًا وَيَضَعُ جَيْبِنَهُ عَلَى جَيْبِنِهِ وَيَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ هَكَذَا،

- أَيْنَ أُمَّكَ يَا صَغِيرِي؟
- هِيَ فِي الْمَنْزِلِ، تَطْهُو لَنَا الطَّعَامَ.
- أَلَا تَدْعُونَا لِنَتَعَرَّفَ عَلَيْهَا؟
- بَلَى بَلَى، أَهْلًا بِكُمْ.
- لَمْ تُخْبِرْنَا بِاسْمِكَ أَيُّهَا اللَّاعِبُ الْمُحْتَرَفُ
- إِسْمِي حَمْرَةَ، الْكَابِتِينَ حَمْرَةَ.

فَأَخَذْنَا إِلَى مَنْزِلِهِ الْكَابِتِينَ حَمْزَةَ، فَطَرَقَ الْبَابَ وَانْتَظَرْنَا قَلِيلًا، ثُمَّ
فَتَحَتِ الْبَابَ وَالِدَتُهُ، لَتَجِدِ وَلَدَهَا أَمَامَهَا وَخَلْفَهُ ثَلَاثَةُ شُبَّانٍ، فَظَنَّتْ
أَنَّهُ فَعَلَ فِعْلًا شَانِيًا كَانَ سَبَبَ حُضُورِنَا لِمَنْزِلِهِ فَبَدَأَتْ بِتَأْيِيبِهِ،

- ماذا فعلت أيها الشقي؟!!

- لم أفعل شيئًا يا أمي، أقسم لك.

- لماذا جاء هؤلاء الرجال إذا؟

فَخَطَفْتُ حَمْزَةَ مِنْ أَمَامِهَا وَحَمَلْتُهُ بَيْنَ ذِرَاعِي وَقُلْتُ: لَمْ يَفْعَلِ
الصَّبِيُّ شَيْئًا يَا أُخْتِ! اعْذِرِينِي، لَمْ أَتَشْرَفْ بِاسْمِكَ،

- أنا أخُتُكُمْ حُورِيَّةَ، أمُ حَمْزَةَ

- ونحنُ اخوتك هشام ويوسف وحسام من فلسطين.

فَبَدَتْ عَلَى وَجْهِهَا ذَاتَ الْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ الَّتِي تَرْتَسِمُ عَلَى مُحْيَا
كَلِّ مَنْ يَرَانَا حِينَ يَعْرِفُ هُوَيْتَنَا فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، فَرَحَّبَتْ بِنَا
وَاسْتَأْذَنَّا فِي أَنْ يُرَافِقَنَا فِي نُزْهَةِ حَمْزَةَ فَلَمْ تُمَانِعْ وَأَوْصَتْنَا بِهِ،
فَخَرَجْنَا مِنْ مَنْزِلِ الْكَابِتِينَ حَمْزَةَ فَأَخَذْنَا إِلَى مَحَلِّ الْحَلْوَيَاتِ، فَسَأَلْنَا
الرَّجُلَ عَنْ طَلْبِنَا، فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الْكَابِتِينَ سَيَطْلُبُ لَنَا عَلَى ذَوْقِهِ،
فَطَلَبَ حَمْزَةَ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَلْوَى، مَقْرُوضَ اللُّوزِ وَالْمُشُوبِكِ، كَمَا
سُعْدَاءَ أَنْنَا بِرِفْقَةِ الْكَابِتِينَ حَمْزَةَ، وَأَجْمَلُ مَا فِي الْأَمْرِ سَعَادَتُهُ وَهُوَ
يَأْكُلُ تِلْكَ الْحَلْوَى، فَسَأَلْنَا حَمْزَةَ بَعْدَهَا: أَيْنَ سَتَكُونُ الْآنَ وَجِهَتْنَا
يا كابتين؟

- نَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ.

- لكننا لم نتعلم السباحة.

- أنا أيضاً لا أُجيدُ السِّباحة.

- لماذا تُريدُنا أن نذهبَ للبحرِ إذا؟

- أنا أحبُّ النَّظرَ إليه، سَيُعْجِبُكُمْ مَنْظَرُهُ.

فتوجَّهنا ناحيةَ البحرِ، راقِنتي جدًّا نظرةَ حمزةِ إليه، كم هي جميلةٌ تلكَ النظرةُ وكم هي بريئةٌ، هي نظرةٌ لا يَسْتَطِيعُ أدباءُ وشعراءُ العالمِ وصفها، فمرَّ بنا ونحنُ وقوفٌ عندَ الشاطئِ باعٍ يبيعُ الدُّرةَ المشويَّةَ، ففرِحَ حمزةُ وقفزَ للبائعِ وطلبَ الدُّرةَ لنا جميعاً، فصرنا نأكلُها وننظرُ إلى البحرِ، ورذاذُ الماءِ يتطايرُ ليُلامِسَ وجوهنا، كأنَّ البحرَ عرَفَ أنَّنا من فلسطينِ فصارَ يبعثُ إلينا قُبلاَتِه مع رذاذِ الماءِ، السَّماءُ أيضاً تبعثُ إلينا سلامها مع نسيمِ الهِواءِ، كلُّ شيءٍ في الجزائرِ يحبُّنا على طريقتهِ، كنتُ أتمنَّى لو قُمنَا بزيارةِ الجزائرِ في ظرفٍ خيرٍ من هذا، فكلَّ ابتسامَةٍ كانت تزورُ شفاهانا كانت تُرافقها همسةُ عتبِ، مفادها أن كيف لكم أن تضحكوا وتتناسوا وضعِ إسرائِ وحالةِ ريمِ؟، كُنَّا ننظرُ إلى البحرِ حسامِ وأنا ويوسفُ، نعم كانت أعيننا ترقبُ تلكَ الأمواجِ، لكنَّ قلبي لم يُفارقِ إسرائِ، كذلكُ يوسفُ لا أظنُّ قلبه أتى بِرِفْقَتِنَا بل ظلَّ مُلازماً لحبيبتِه ريمِ، فمضى الوقتُ والشمسُ صارتُ تتجَّهُ لِتُخْتَبِئَ بِخَبائِها، وكانَ حمزةُ يخلطُ الماءَ بِالرَّمالِ فيبني قُصوراً و مدائنِ، ثمَّ استيقظتُ من غفلي فنظرتُ إلى يوسفِ وحسامِ وهما في حالةٍ من الشُّرودِ وكانَّ على رؤوسِهِما الطَّيرِ، فوضعتُ يديَّ على

كَتَفِيهِمَا وَضَحِكْتُ، فَقُلْتُ لِحَسَامٍ: هَذَا يُفَكِّرُ بِحَبِيبَتِهِ، مَاذَا عَنْكَ يَا
فَتَى!!

- وَأَنَا يَا هِشَامَ أَيْضًا أَفَكِّرُ بِحَبِيبَتِي.

- هَيَّا بِنَا، كَيْ نَعُودَ لِلْمَشْفَى.

هل تُريدُ أَنْ تَأْتِيَ مَعَنَا يَا حَمْرَةَ؟، أَمْ تُوصِلُكَ لِلْبَيْتِ الْآنَ؟

- لا، أَنَا سَابِقِي مَعَكُمْ وَأُخْبِرُكُمْ مِنْ حَبِيبَتِهِ أَجْمَل.

فَضَحِكْنَا مِنْهُ جَمِيعًا وَذَهَبْنَا لِلْمَشْفَى، فَأَحْضَرْتُ بَاقَةَ مِنَ الْيَاسْمِينِ

لِإِسْرَاءَ، وَأَحْضَرَ يَوْسُفَ بَاقَةَ مِنَ الْفَلِّ لَرِيمَ لِيُقَدِّمَهَا لِهِنَّ حَمْرَةَ،

فَدَخَلْنَا الْمَشْفَى وَصَعَدْنَا حَيْثُ عُرْفَتِيهِمَا، فَدَخَلْنَا إِلَى إِسْرَاءَ فِي

الْبَدَايَةِ وَكَانَتْ مَعَنَا بَاقَتِي الْأَزْهَارَ، فَأَخَذَ حَمْرَةُ بَاقَةَ الْيَاسْمِينِ مِنْ

ذِرَاعِي وَقَدَّمَهَا لِإِسْرَاءَ، فَتَعَجَّبْتُ مِنْ فِعْلِهِ، فَكَيْفَ عَرَفَ أَنَّ هَذِهِ

الْفَتَاةُ هِيَ إِسْرَاءُ!، سَأَلْتُهُ، فَقَالَ: أَلَمْ تَقُلْ إِنَّهَا لِحَبِيبَتِكَ يَا هِشَامَ؟

- بَلَى، وَلَكِنْ كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّ هَذِهِ عُرْفَةُ حَبِيبَتِي؟، مَنْ

أَخْبَرَكَ؟

- أَخْبَرْتَنِي دَقَاتِ قَلْبِكَ.

كَمْ هُوَ وَاعٍ هَذَا الطِّفْلِ، يَقُولُ كَلَامًا لَا يَسْتَطِيعُهُ شَابٌّ فِي

الْعِشْرِينَ وَلَا فِي الثَّلَاثِينَ حَتَّى، فَاحْتَضَنَتْهُ وَقَبَّلَتْهُ إِسْرَاءُ،

وَقَالَتْ: مَنْ غَيْرِي يَرُقُّدُ فِي الْمَشْفَى؟، لِتُحْضِرُوا لَهُ تِلْكَ

الْأَزْهَارَ

- إِنَّهَا رِيمَ.

فَجُنَّ جَنُونَهَا وَصَارَتْ تَقُولُ: مَا بِهَا، مَا بِهَا رِيمَ؟

- لقد كان بعض الإزهاق إضافة لانخفاص في نسبة السكر في دَمِها، لا عَلَيْك، ستخرج اليوم.

- لم نَعْرِفِكَ عَلَى صَدِيقِنَا الكابتن حمزة، الذي قَبَلْتَهُ مُنْذُ قَلِيلٍ دُونَ أَنْ تَعْرِفِيهِ حَتَّى، أَلَا تَعْلَمِينَ أَنِّي أَعَارُ؟

- هُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ يَا هِشَامَ، أَعَارُ مِنْ طِفْلِ؟

فَأَنْتَفَضَ حمزة وَقَالَ: أَنَا لَسْتُ طِفْلاً، وَهَذِهِ هِيَ قُبْلَتُكَ لَا أُرِيدُهَا وَقَبَّلَ إِسْرَاءَ عَلَى خَدِّهَا وَهُوَ مُنْتَعِضٌ، يَظُنُّ بِبِرَاءَتِهِ أَنَّهُ رَدَّ إِلَيْهَا القُبْلَةَ الَّتِي قَبَلْتَهُ إِيَّاهَا، فَضَحَكْنَا جَمِيعًا حِينَهَا وَأَنْهَتْ إِسْرَاءُ الخِلافَ وَقَالَتْ لَهُ: أَنْتَ سَيِّدُ الرِّجَالِ يَا حَبِيبِي، سَأَقْبَلُكَ ثَانِيَةً لِأُعِظَ هِشَامَ، فَهَلْ تَقْبَلُ؟، فَاحْتَضَنَهَا حمزة وَقَبَلْتَهُ حُلُوتِي، فَصَارَ يَهْمِسُ يُوسُفُ بِأَذْنِي، هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَرَى رِيمَ وَيَطْمَنَّ عَليْهَا، وَكُنْتُ أَتَلَدُّ أَنَا بِإِضَاعَةِ الوَقْتِ وَصِرْتُ أَفْتَحُ مَوْضُوعًا تَلُو آخَرَ كَي أَثِيرَ غَضَبَهُ، وَأَخِيرًا وَبَعْدَ أَنْ مَلَّ ضَرْبَ كَتْفِي، هَمَسَ لِي أَنْ كُفِّ عَن سَخَافَتِكَ، فَاسْتَأْذَنْتُ إِسْرَاءَ وَقُلْتُ لِحَمْزَةَ: هَيَّا كَي تَرَى المُتَنَافِسَ الثَّانِي يَا كَابِتِنَ، فَتَعَجَّبْتُ إِسْرَاءَ وَسَأَلْتَنِي: عَمَّ تَتَحَدَّثُ يَا هِشَامَ؟، وَمَاهِي المَنَافَسَةُ؟، فَقُلْتُ لَهَا: دَعِينَا نَذْهَبِ الآنَ وَسَأُخْبِرُكَ فِيمَا بَعْدَ، فَذَهَبْنَا إِلَى رِيمَ فِي العُرْفَةِ المُجَاوِرَةِ فَتَقَدَّمَ حمزةُ لَهَا بِالْوُرُودِ بِذَاتِ البِرَاءَةِ الَّتِي تَقَدَّمَ بِهَا لِإِسْرَاءَ بِأَزْهَارِهَا، وَكَانَ يَتَوَقَّعُ أَنْ تَحْتَضِنَهُ رِيمَ وَتُقْبَلَهُ دُونَ حَتَّى أَنْ تَعْرِفَهُ كَمَا فَعَلْتُ إِسْرَاءَ، لَكِنْ عُدْرًا يَا صَغِيرِي فَلَيْسَتْ القُلُوبُ كُلُّهَا عَلَى شَاكِلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَبَادَرْتُ لِسُؤَالِنَا رِيمَ عَن هَذَا الطِّفْلِ وَمَنْ يَكُونُ، قَبَّلَ حَتَّى

أَنْ تَأْخُذَ الْوَرْدَ مِنْ يَدَيْهِ الْمَمْتَدَّةِ إِلَيْهَا بِأَزْهَارِ الْفَلِّ الَّتِي أَحْضَرَهَا
يُوسُفَ،

- كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا رِيمَ؟

- أَنَا بِخَيْرٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، مَتَى سَأَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ الْبَائِسِ
اللَّعِينِ؟

- سَتَخْرُجِينَ مَسَاءً بِإِذْنِ اللَّهِ وَسَتَخْرُجُ غَدًا إِسْرَاءً.
- هَذَا جَيِّدٌ،

فَأَدْلَى بِدَلْوِهِ يُوسُفَ وَقَالَ حَمْدًا لِلَّهِ عَلَى سَلَامَتِكَ يَا رِيمَ

- يُوسُفَ أَنْتَ هُنَا!، لَمْ أَنْتَبِهْ لَوْجُودِكَ، كَيْفَ حَالُكَ؟

لَيْتَكَ مَا انْتَبَهْتَ وَمَا قُلْتَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ يَا رِيمَ، لَقَدْ كَانَتْ عِبَارَتِكَ
صَفْعَةً لِقَلْبِ يُوسُفَ الْمِسْكِينِ، الَّذِي كَانَ مُتَهَفِّفًا كَيْ يَدْخُلَ
غُرْفَتَكَ، كَانَ يُرِيدُ مَا حَدَّثَ عِنْدَ إِسْرَاءٍ مِنْ ضَحِكٍ وَمُزَاحٍ وَحَدِيثٍ
أَنْ يَحْدُثَ مِثْلَهُ عِنْدَ رِيمَ، لَكِنْ هَيْهَاتَ يَا صَدِيقِي، فَرِيمَ الَّتِي أَعْرِفُ
لَيْسَتْ بِرِقَّةِ قَلْبِ إِسْرَاءِ الَّتِي أُحِبُّ.

قَدْ تُحِبُّ إِنْسَانًا فَيَكُونُ لَكَ الْكُونُ بِأَكْمَلِهِ، لَكِنْ قِفْ وَاسْأَلْ نَفْسَكَ
مَاذَا تُمَثِّلُ أَنْتَ بِالنِّسْبَةِ لَهُ؟، كَانَ حَمْزَةُ الْوَلَدِ الصَّغِيرِ يَشُدُّ بِنِطَالِي
فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فَأَشَارَ لِي بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ أَنَّهُ يُرِيدُ الْخُرُوجَ، فَقُلْتُ
لرِيمَ: سَنَسْتَأْذِنُكَ الْآنَ بِالْخُرُوجِ وَسَنَعُودُ مَسَاءً كَيْ نُخْرِجَكَ كَمَا
أَمَرَ الطَّبِيبُ.

كَمْ كَانَتْ الْأَجْوَاءُ جَمِيلَةً عِنْدَ إِسْرَاءٍ، أَجْوَاءٌ مِنَ الْحُبِّ وَالْفَرَحِ
مَلَأَتْ الْمَكَانَ، فَرِحْتُ بِمِزَاحِي مَعَ إِسْرَاءٍ وَفَرِحْتُ بِحُبِّهَا الَّذِي كَانَ

يُحِثُّ فِي سَمَاءِ تِلْكَ الْعُرْفَةِ، فَرِحْتُ أَيْضًا حِينَ رَأَيْتُ ابْتِسَامَةَ
حَمزَةَ عِنْدَمَا كَانَتْ تُدَاعِبُهُ حَبِيبَتِي، فَانْقَلَبَتْ هَذِهِ الْأَجْوَاءُ حَالَ
خُرُوجِنَا مِنْ عِنْدِهَا وَدُخُولِنَا إِلَى رِيمٍ، لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ يَعْينِي
شَخْصِيًّا، فَمَا يَحْدُثُ فِي عُرْفَةِ رِيمٍ سِوَاءِ كَانِ حُزْنًا أَوْ فَرْحًا
سَيَنْتَهِي عِنْدَ عَتَبَةِ عُرْفَتِهَا، لَكِنَّهُ لَنْ يَنْتَهِيَ عِنْدَ يَوْسُفَ بِلَا شَكِّ
وَسَيُظَلُّ صَدَى صَوْتِهَا حِينَ قَالَتْ لَهُ "لَمْ أَنْتَبِهْ لَكَ" يَقْرَعُ طُبُولَ
حُزْنِهِ، أَظُنُّ بَأَنِّي وَحْدِي مَنْ يَسْمَعُ هَذَا الْقِرْعَ عَلَى تِلْكَ الطُّبُولِ،
وَلَمْ تَكْتَرِثْ رِيمٌ وَلَوْ لِطَرْفَةِ عَيْنِ بِيَوْسُفَ وَمَشَاعِرِهِ، أَيًّا كَانَتْ
صِفَتُهُ، إِنْ لَمْ تَعْتَبِرْهُ حَبِيبًا كَانَ بِإِمْكَانِهَا مُجَامَلْتُهُ كَصَدِيقٍ عَلَى
الْأَقْلِ .

أَنْتَ قَدْ تَكْسِرُ قَلْبَ أَحَدِهِمْ فَتَسْلِبَ فَرْحَتَهُ، بَيْنَمَا تَسْتَمْتَعُ أَنْتَ
بِصَوْتِ زَقْرَقَةِ الْعَصَافِيرِ وَلَا تَكْتَرِثُ .

فَاسْتَعْجَلْتُ الْخُرُوجَ مِنْ عُرْفَةِ رِيمٍ دُونَ أَنْ أُوْعِزَ لِيَوْسُفَ بِذَلِكَ فَقَدْ
كَانَ يَكْفِينِي التَّغْيِيرَ الَّذِي طَرَأَ عَلَى لَوْنِ وَجْهِهِ حِينَ قَالَتْ لَهُ " لَمْ
أَنْتَبِهْ لَكَ " .

كُنَّا خَرَجْنَا قَبْلَ سَاعَةٍ نَرِيدُ مِنْ حَمزَةَ أَنْ يَحْكُمَ أَيُّ حَبِيبَتَيْنَا أَجْمَلُ،
فَلَمْ أَشَأْ أَنَا أَنْ أُعِيدَ فَتْحَ الْمَوْضُوعِ مَرَّةً أُخْرَى مُرَاعَاةً لِمَشَاعِرِ
يَوْسُفَ، لَكِنْ مَنْ لِي بِصَبْرِ لَابِنِ عَشْرِ سَنِينَ؟، وَ مَنْ يَسْتَطِيعُ
إِلْهَامَ طِفْلٍِ مِثْلَ حَمزَةَ أَنْ يَسْكُتَ عَنْ مَهْمَةٍ أُوكَلَتْ إِلَيْهِ وَأَنْجَرَهَا؟،
هَذَا مُحَالٌ بِالتَّأَكِيدِ، فَصَمْتُنَا لِلْحِظَاتِ لِيُقَاطِعَ صَمْتُنَا صَوْتُ حَمزَةَ إِذْ
صَارَ يَقْفِرُ أَمَامَنَا وَيَقُولُ: إِسْرَاءُ هِيَ الْأَجْمَلُ، إِسْرَاءُ هِيَ الْأَجْمَلُ،

فحاولتُ أنا التَّغطيةَ على الموضوع، فَحَمَلْتُهُ بَيْنَ ذِرَاعِي وَقُلْتُ
له: أَلَنْ نُكْمِلَ رِحْلَتَنَا أَيُّهَا الْمُرْشِدُ السِّيَاحِي؟

- نعم، بالطَّبَعِ سَنَفْعَلُ

فَمِلْتُ عَلَى يَوْسُفٍ وَحَسَامٍ وَقُلْتُ لَهُمَا: أترغبانِ أَنْ نَأْخُذَ بَقِيَّةَ
المَجَانِينِ مَعَنَا؟

- لا نريدُ صُدَاعًا يا هِشَامَ، فَلنَذْهَبْ وَحدنا.

دَعْنَا نَخْرُجْ، أَكادُ أَخْتَنِقُ مِنْ هَوَاءِ المَشْفَى، كَمَا أَنِّي أُريدُ
التَّدْخِينَ!

- وَيَلِكُ، أَتَخْتَنِقُ مِنْ هَوَاءِ المَشْفَى المَعْمَمِ النَّقِيِّ وَلَا تَخْتَنِقُ
مِنَ السِّيَجَارَةِ!

- كُفِّ عَنِ نَصَائِحِكَ الآنِ وَدَعْنَا نَخْرُجْ.

فَخَرَجْنَا وَمَعَنَا حَمْزَةٌ مِنَ المَشْفَى، فَأَخَذْنَا إِلَى مَدْرَسَتِهِ كَيْ يُرِينَا
فَصْنَلَهُ وَمَقْعَدَهُ، كَمْ أَنْتَ جَمِيلٌ يَا صَغِيرِي. قَدْ لَا تَنْعَمُ بِالسَّعَادَةِ مِنْ
دَاخِلِكَ، لَكِنَّهَا تُوَلِّدُ رَغْمًا عَنَّا حِينَ تَرَاهَا عَلَى وَجْهِ شَخْصٍ تَحِبُّهُ،
وَهَذَا مَا كَانَ سَبَبَ سَعَادَتِي حِينَهَا مَعَ كُلِّ هَذِهِ الأَحْدَاثِ المَوْجِعَةِ
الَّتِي مَرَرْتُ بِهَا فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ، هَذِهِ الرِّحْلَةُ الَّتِي كَانَتْ حُلْمًا، لِي
عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرٍ، فَتَأْمُرُ المَرَضُ وَالْحُزْنَ لِيَجْعَلَا هَذَا الحُلْمَ كَابُوسًا،
لَا تَدْعُ حَدَثًا طَارِيًّا يَجْعَلُ فَرَحَتَكَ حُزْنًا وَيَجْعَلُ سَعَادَتَكَ كَابَةً وَهَمًّا،
فَالشَّيْءُ الَّذِي أَصَابَكَ أَيًّا كَانَ مَقْدَرٌ لَكَ، لَنْ تَسْتَطِيعَ رَدَّهُ بِقُوَّتِكَ،
وَسَنَأَلُهُ رُغْمَ ضَعْفِكَ وَقِلَّةِ حِيلَتِكَ.

ذَهَبْنَا إِلَى مَدْرَسَةِ حَمْزَةَ وَكَانَتْ فَارِغَةً، فَلَسْنَا فِي وَقْتِ الدَّوَامِ
الرَّسْمِيِّ، وَكَانَ حَارِسُ الْمَدْرَسَةِ وَحْدَهُ مَوْجُودًا آنَ ذَاكَ، فَسَمَحَ لَنَا
بِالدُّخُولِ وَرُؤْيَةِ صَفِّ حَمْزَةَ، فَرَأَيْنَا طَاوِلَتَهُ الصَّغِيرَةَ وَكُرْسِيَّهِ،
فَأَمْسَكْتُ قَلَمِي وَكَتَبْتُ لَهُ عَلَى طَاوِلَتِهِ إِهْدَاءً وَقَمْتُ بِالْإِمْضَاءِ،
وَقُلْتُ لَهُ: لَا تَمْسُحْهَا، هِيَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَذَكَّرَنِي،

- وَكَيْفَ سَتَتَذَكَّرُونِي أَنْتُمْ؟

فَأَخْرَجْتُ هَاتِفِي مِنْ جَيْبِي وَقُلْتُ لَهُ: سَنَأْخُذُ صُورَةً لَنَا جَمِيعًا
وَنَحْتَفِظُ بِهَا، فَأَخَذْنَا صُورَةً مَعَ حَمْزَةَ وَقُلْنَا لَهُ: يَجِبُ أَنْ نَعُودَ
لِلْمَشْفَى لِنُخْرِجَ رِيمَ.

- سَنُوصِلُكَ إِلَى بَيْتِكَ وَنَذْهَبُ نَحْنُ لِلْمَشْفَى .

- لِمَ لَا تَأْخُذُونِي مَعَكُمْ؟

حِينَ سَأَلَنِي هَذَا السُّؤَالَ حَمْزَةُ امْتَلَأَتْ عَيْنَايَ بِالْدُمُوعِ وَوَضَعَتْ
كَفِّي خَلْفَ رَأْسِهِ وَضَمَمْتُهُ إِلَى صَدْرِي وَقَبَّلَتْ جَبِينَهُ، كَانَ رَأْسُ
هَذَا الطِّفْلِ الصَّغِيرِ يَحْمِلُ دِفْءَ الْكُونِ، طِفْلٌ يَتِيمٌ، أَحْسَبُ أَنَّهُ لَمْ
يَنَعَمْ بِتِلْكَ الْعَاطِفَةِ الَّتِي يَمْنَحُهَا الْوَالِدُ لِوَلَدِهِ، وَلَمْ يَسْتَظِلَّ بِمِظَلَّةِ
الْأَمَانِ الَّتِي يُوقِرُهَا الْآبَاءُ لِأَبْنَائِهِمْ، كُنْتُ أَلْمَسُ شَعْرَ رَأْسِهِ
وَفَشَعْرِيْرَةً تُصِيبُ جِلْدِي، لَيْسَ سَبَبَهَا شَيْءٌ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا سِوَى
فَسِيلَةٍ مِنْ رَحْمَةٍ وَضَعَهَا اللَّهُ فِي قَلْبِي، وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَضْمُّ ذَلِكَ
الصَّغِيرَ وَأَتَحَسَّنُ رَأْسَهُ، جَاءَتْ بِخَاطِرِي بَعْضُ الذِّكْرِيَّاتِ،
فَتَذَكَّرْتُ يَوْمًا كُنْتُ فِيهِ أَبْلُغُ مِثْلَ سَنِّ هَذَا الصَّغِيرِ وَكُنْتُ خَارِجًا مِنْ
مَدْرَسَتِي وَ مَجْمُوعَةً مِنَ الصَّبِيَّةِ يَتَوَعَّدُونَنِي بِالضَّرْبِ فَوْرَ

خروجنا، كانوا مُعْتَظِينَ مِنْ كَوْنِي مُتَفَوِّقًا عَلَيْهِمْ فِي التَّحْصِيلِ الْعِلْمِيِّ وَفِي الدَّرَجَاتِ وَكُنْتُ دَائِمًا لَفُوزٍ فِي الْمُسَابَقَاتِ، لَمْ يَكُنْ لِي الْكَثِيرُ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ كَيْ يَسَانِدُونِي وَيُدَافِعُوا عَنِّي فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ الْمَوْعُودَةِ، وَلَمْ أَكُنْ حَتَّى أَمْلِكِ الْقُوَّةَ الْكَافِيَةَ لِادِّافَعِ عَنِ نَفْسِي، لَمْ أَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِشَيْءٍ غَيْرِ ضَرْبَاتِ حِقْدِهِمُ الْمُوجِعَةِ، أَيُّ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ يَا أَبِي لِيَأْتِي بِكَ مُسْرِعًا مِنْ عَمَلِكَ عَلَى غَيْرِ عَادَتِكَ، فَأَنَا اسْتَقِلُّ حَافِلَةَ الْمَدْرَسَةِ عَادَةً، أَهْوَى نِدَاءً أَمْ صَرَخَةً تِلْكَ الَّتِي جَاءَتْ بِكَ مَلْهُوفًا؟، لِتِصْفَعِ أَحَدَهُمْ وَتَضْرِبَ آخَرَ، وَتُلْقِي عَلَى الْأَرْضِ نَالْتَهُمْ ثُمَّ تَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِكَ بَيْنَ طُلَّابِ الْمَدْرَسَةِ وَتَقُولُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَجَرَّأُ أَنْ يَمَسَّ هِشَامَ بِسُوءٍ؟، لَمْ يُنَاقِشْ أَبِي يَوْمَهَا أَحَدًا وَلَمْ يَكْتَرِثْ إِنْ كُنْتُ أَنَا الْمُعْتَدِي أَمْ الْمُعْتَدَى عَلَيْهِ، هَبَّ لِنُصْرَتِي فَحَسَبَ وَلَمْ يَهْتَمَّ حِينَهَا ظَالِمًا كُنْتُ أَنَا أَمْ مَظْلُومًا!، فَأَدْرَكْتُ يَوْمَهَا أَنَّ الْجِسْمَ يَمْتَلِكُ حَوَاسًا أُخْرَى لَمْ يَتِمَّ اكْتِشَافُهَا، رَبَّمَا هِيَ قَدْ اكْتَشَفَتْ لَكِنَّ أَحَدًا عَلَى وَجْهِ الْبَسِيطَةِ لَمْ يَسْتَطِعْ وَصْفُهَا وَالتَّعْبِيرَ عَنْهَا حَتَّى الْآنَ!، وَأَحْدُهَا هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ دَقَّاتِ قَلْبِ أَبِي تَضْطَرِبُ وَتَفْقِدُ صَوَابَهَا عِنْدَمَا كُنْتُ فِي خَطَرٍ!.

مَا بِكَ يَا هِشَامَ؟، هَكَذَا قَالَ حَمْرَةَ

- تُرِيدُ أَنْ تُرَافِقَنَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

- نَعَمْ يَا هِشَامَ.

- حَسَنًا، فَلْنَذْهَبْ إِذَا.

فأوقفنا سيارَةَ أُجْرَةٍ، وطلبنا منه إيصالنا للمشفى ثمَّ صعدنا إلى الطابقِ العلوي حيثُ إسرائ وريم ولم يكن أحدٌ من زملائنا هناك، فدخلنا غرفةَ إسرائ لنجد سارة وعلي ورويدة عندها.

- كيف صرتِ؟، هل تشعرينَ بتحسُّن؟

- نعم، الحمد لله.

كيف هي ريم؟.

- هي بخير وستخرج بعد قليل.

- أريد أن أذهب لمفاجئتها.

فخرجتُ أنا إلى الممرضة وطلبتُ منها إحضارَ كرسيِّ مُتحرِّك كي نأخذُ إسرائ إلى غرفةِ ريم، فجاءت الممرضة بالكرسيِّ، فحملتُ أنا إسرائ عن سريرها بين ذراعي كي أساعدها على الجلوس، فبدأ المجانين بالتصفيق والتصفير حين رأوا ذلك المشهد وأطلقت سارة المجنونة زلغوظةً، وحمزة أراه بُجائبي يَفْقِرُ وَيَضْحَكُ، فقال حسام: يا عريس ماذا تفعل؟، إحم إحم، نحن هنا

- أعلمُ أنّك هنا يا ظريف.

وضعتُ إسرائ على ذاك الكرسيِّ وقُلْتُ للمجانين: مَنْ مِنْكُمْ يُريدُ مُرافقتنا؟، فقالوا: لقد كنا هناك لِتَوْنِنا، وأصرَّ يوسف على المجيء، فخرجتُ مع حمزة و يوسف وأمانا إسرائ تجلسُ على الكرسي، فوصلنا إلى غرفةِ ريم، فقُلْتُ لَهُم: سنَدْخُلُ إسرائ ونطمئنُ على ريم ثمَّ نَصْعُدُ سَرِيْعًا إلى الطَّيِّب كي نأخذَ منه الإذنَ

بإخراجها، وعندما رأت ريمُ إسرائاً ابتسمت وقالت: كُنْتُ أَفَكِّرُ أَنْ
أزوركِ عندما أخرج!.

ما أقل حياء هذه الفتاة، وما أطيّب قلبكِ يا إسرائ، أتعبتِ نفسك
وجئتِ إليها، أما هي فقد كانت تُفكّر!

- سأذهبُ كي أعرفَ منَ الطَّيِّبِ وقتَ خروجكِ يا ريم،

فذهبتُ إلى الطَّيِّبِ، وكان مُفترضاً أن أَسْتَفْسِرَ عَنْ مَوْعِدِ إِخْرَاجِ
ريم، لكنني صرْتُ أَسْأَلُ الطَّيِّبَ عَنْ إِسْرَاءَ وَعَنْ حَالِهَا، فَطَمَأْنِنِي
أَنْ وَضَعَهَا جَيِّدٌ وَأَنْ بِإِمْكَانِنَا إِخْرَاجَهَا فِي الْغَدِ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَتَدَكَّرْتُ
الهِدْفَ الرَّئِيسَ الَّذِي كَانَ مِنْ الْمُفْتَرِضِ أَنَّي صَعَدْتُ بِسَبَبِهِ إِلَى
الطَّيِّبِ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَسْمَحَ لَنَا بِإِخْرَاجِ رِيمِ إِنْ كَانَتْ جَاهِزَةً لَذَلِكَ،
فَهَاتَفَ مَمْرِضَتَهُ وَأَوْعَزَ لَهَا بِإِجْرَاءِ اللَّازِمِ وَأَخْبَرَنَا أَنْ بَاسْتِطَاعَتِنَا
إِخْرَاجَهَا عِنْدَ الثَّامِنَةِ مَسَاءً، فَعَدْتُ بَعْدَهَا ظَنًّا مِنِّي أَنْ إِسْرَاءَ
مَازَالَتْ عِنْدَهَا لَكِنَّهُمْ أَعَادُوهَا لِعُرْفَتِهَا فِي غِيَابِي، فَدَخَلْتُ عُرْفَتَهَا
وَكَانَتْ نَائِمَةً حَبِيبَتِي، فَلَمْ أُرِدْ إِيقَازَهَا وَانْتَفَيْتُ بِلَمْسِ جَبِينِهَا
وَخَدِّهَا، فَمَدَّتْ يَدَهَا لِتَمْسِكَ يَدِي وَهِيَ مَغْمُضَةٌ لَمْ تَفْتَحْ عَيْنَيْهَا
وَقَالَتْ: أَهلاً حَبِيبِي، أَهلاً هِشَامَ.

- كيف عرفتِ أنني منَ لَامَسِكَ وَأَنْتِ حَتَّى لَمْ تَفْتَحِي عَيْنَيْكِ؟

- أَحَسَسْتُ بِكَ يَا حَبِيبِي.

صَوْتُ ضَجَّةٍ فِي الْخَارِجِ، يَبْدُو أَنَّ رِيمَ وَالْمَجَانِينَ قَدْ خَرَجُوا،
فَأَفْتَحَمُوا عَلَيْنَا الْعُرْفَةَ وَبَدَؤُوا بِالضَّحِكِ وَاللَّعِبِ كَعَادَتِهِمْ، فَدَخَلْتُ
رِيمَ، وَكَانَتْ تَلْبَسُ فُسْتَاناً أَبْيَضَ قَصِيرَ، فَذَارَتْ حَوْلَ نَفْسِهَا

وكانت تغمرها السعادة وقالت: كيف أنتم يا مجانين؟، فقلنا لها:

حمداً لله على سلامتك، أجاهزة أنت للخروج؟

- نعم، فقد ملئت من المشفى وجوه.

- فأخبرتهم أنني سأظل في المشفى حتى الصباح، سأخرج

من الغرفة فقط عند انتهاء وقت الزيارة.

فرمقتني حلوتي بنظرة لن أنساها، كانت تحمل كلمات ليس غيري

يفرأها، كانت تحمل كلمات شكر لا أستحقها، وتحمل إحساساً

عظيماً بالقدر الذي به أعشفتها، صار قلبي حينها كما ريشة حائرة

في الهواء، تلامس الأرض تارةً، وتارةً تُعانق عنان السماء،

كانت تلك الريشة تنفض عن قلب حبيبتي غبار الخوف والقلق

أنها بعد وفاة أخيها وأبيها صارت بلا سند وأصبح ظهرها عارياً

تجاه الهاوية، لا تخاف يا حبيبتي، فلن تسقطي وأنا جوارك،

كانت نظرتها أيضاً تحمل شيئاً من الكبرياء والاعتزاز، شيئاً من

الفخر أمام ريم، وكأني بها تقول: انظري يا ريم، سيبقى حبيبتي

لأجلي، سيتزك راحتته وسيجافي نومه، فقط من أجلي أنا، فجاءت

الممرضة ودعتنا للخروج لأن وقت الزيارة قد انتهى، فخرجنا

وألقيت نفسي أرضاً مسنداً على الحائط رأسي مغمضاً عيني، لا

أدر هل كان فعلي هذا إرادياً أم كان ذلك إغماً من هول ما أمر

به، لم يكن في الحقيقة إغماً، فحسام يتلمس كتفي ويقول لي:

مايك؟، هل جاء دورك بعد إسرائ وريم؟، فضحكت وقلت له: لا

تخف، كنت أريد أن أفقد وعيي قليلاً، كي أهرب من هذا الضنك.

- لِنَعُدْ إِلَى الْفُنْدُقِ كِي تَنَامَ إِذَا.
- لَنْ يُرِيحَنِي النَّوْمُ يَا حُسَامَ.
- أَلَمْ تَقُلْ أَنَّكَ كُنْتَ تُحَاوِلُ أَنْ تَفْقِدَ وَعَيْكَ؟
- لَيْسَا سَوَاءً، فَحِينَ أَفْقِدُ وَعَيْي، لَنْ أَرَى كَوَابِيسِي الْمَعْهُودَةَ
الَّتِي أَرَاهَا عِنْدَمَا أَنَامَ.
- وَمَنْ أَدْرَاكَ أَنَّكَ لَنْ تَرَى مَا هُوَ أَفْظَعُ حِينَ تَفْقِدُ وَعَيْكَ؟
- لَا لَا، لَا تَقُلْ ذَلِكَ بِرَبِّكَ، وَكَيْفَ أَسْتَرِيحُ إِذَا؟
- لَنْ يَرِيحَكَ سِوَى رُؤْيَةِ حَبِيبَتِكَ تَقِفُ جَوَارِكَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟
- هُوَ بِالْفِعْلِ كَذَلِكَ.

فَأَنْهَيْتُ جَوَارِي مَعَ حَسَامَ مُبْلَغًا إِيَّاهُ رَغْبَتِي بِالْبَقَاءِ فِي الْمَشْفَى
حَتَّى الصَّبَاحِ، فَنَزَلَ حَيْثُ بَقِيَّةُ زَمَلَانَا وَدَعَاهُمْ لِمُرَافَقَةِ رِيمَ
لِلْفُنْدُقِ، فَهِيَ بِحَاجَةٍ لِلنَّوْمِ بِالتَّأَكُّيدِ بَعْدَ خُرُوجِهَا، فَبَقِيتُ وَرَوِيْدَةَ
وَبَقِيَ حَسَامُ، وَكُنْتُ مُتَأَكِّدًا أَنَّ يَوْسُفَ سَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْحَلُ حَتَّى
يَكُونُ بِرِفْقَةِ رِيمَ، فَقَدْ اِكْتَشَفْتُ أَنَّهُ يَحْمِلُ قَلْبًا مُرْهَقًا إِلَى أْبْعَدِ حَدٍّ،
فَقَدْ أَعْطَانِي دَرَسًا فِي أُصُولِ الْحُبِّ، وَهُوَ أَنَّكَ عِنْدَمَا تَهَبُ قَلْبَكَ
لِشَخْصٍ مَا لِيَكُونَ حَبِيبَكَ، فَسَيَعْمَى بِصُرْكَ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ مِنْهُ، عَنْ
كُلِّ أَلَمٍ، بَلْ وَعَنْ كُلِّ خَطِيئَةٍ، أَظُنُّ بِأَنَّي كُنْتُ لِأَفْعَلَ شَيْئًا مُشَابِهًا
لَوْ أَنَّ إِسْرَاءَ كَانَتْ مِنْ فَعَلٍ بِي مَا فَعَلْتُهُ رِيمَ بِيُوسُفَ، وَأَيُّ حَبِيبٍ
ذَلِكَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى حَبِيبَهُ يَتَأَلَّمُ، دُونَ أَنْ يَهْتَزَّ كَيَانُهُ
وَيُصْبِحَ نَبْضَاتُ قَلْبِهِ كَمَا لَوْ كَانَتْ جَمْرًا خَرَجَ مِنْ أَتُونِ.

بَقِيَ حُسَامٌ بِرِفْقَتِي وَرُوَيْدَةٌ، فَجَلَسَا جَوَارِي عَلَى أَرْضِ الْمَشْفَى،
فَطَلَبْتُ مِنْ رُوَيْدَةٍ أَنْ تَجْلِسَ عَلَيَّ الْكُرْسِيَّ، فَلَا يَلِيقُ بِالْأَمِيرَاتِ
مِثْلَهَا أَنْ يَجْلِسْنَ كَقَطَاعِ الطَّرْقِ أُمَّثَالَنَا، فَضَحِكْتَ وَضَحِكَ حُسَامٌ،
وَاتَّجَهْتُ وَجَلَسْتُ عَلَى الْكُرْسِيِّ مُقَابِلَنَا،

- لِمَ أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ وَبَقِيَّتِي يَا رُوَيْدَةٌ؟، كَانَ الْأَجْدَرُ بِكَ لَوْ
ذَهَبْتَ مَعَهُمْ إِلَى الْفُنْدُقِ لِتَسْتَرِيحِي.

- يَبْدُو أَنَّكَ لَا تَعْلَمُ مَاذَا تَكُونُ إِسْرَاءَ بِالنِّسْبَةِ لِي؟.

نَعَمْ هِيَ حَبِيبَتُكَ، لَكِنِّهَا أُخْتُ لَنَا جَمِيعًا، وَأَنَا عَلَى اسْتِعْدَادٍ
أَنْ أَرَاهِنَكَ بِمَا تَشَاءُ إِنْ كَانَتْ قَدْ تَفَوَّهَتْ إِسْرَاءَ حَتَّى لَوْ
بِكَلِمَةٍ تَجْرَحُ بِهَا أَحَدَنَا فِي لِحْظَةٍ مِنَ اللَّحْظَاتِ،

أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا حُسَامُ؟

- بَلَى، نَحْنُ لَمْ نَعْهَدْ عَلَى إِسْرَاءَ مَا يُزْعِجُنَا يَوْمًا، عَلَى
عَكْسِ رُوَيْدَةِ الَّتِي تُزْعِجُنَا بِكُلِّ تَصْرِفَاتِهَا.

قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ حُسَامٌ وَنَشَبَ بَيْنَهُمَا شِجَارٌ كَالْأَطْفَالِ، فَنَهَرْتُهُمَا
بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ،

- فَلْتَصْمِيئُوا، أَلَا تَدْرُونَ أَيْنَ تَجْلِسُونَ؟

- عُدْرًا، لَكِنَّهُ اسْتَفْرَنِي هَذَا الْأَحْمَقُ.

- كُفُّوا الْآنَ، فَلَيْسَ لَذَلِكَ بِقِيْنَا هُنَا.

فَصَمَّتَا كِلَاهُمَا، فَذَمِمْتُ عَلَى إِسْكَاتِهِمَا، فَالضَّجِيحُ وَالصَّوْتُ
الْمُرْتَفِعُ كَانَا يَبْدِدَانِ الْكَثِيرَ مِنَ الْوَحْشَةِ الَّتِي أَشْعُرُ بِهَا.

لَمْ تَكُنْ خَفِيَّةً عَنِّي هَذِهِ الْمُنَاكَفَاتِ الَّتِي يَفْعَلَانِهَا بِيَعِضُهُمَا حَسَامٌ
وَرُوَيْدَةٌ، أَكَادُ أَلْمَسُ مِنْهَا بَوَادِرَ حَبِّ طَاغٍ.

- تَعَالَوْا كَيْ نَجْلِسَ خَارِجًا بَعِيدًا قَلِيلًا عَنِ جَوِّ الْبِنَجِّ وَالذَّوَاءِ،
كَانَ الْوَقْتُ يُشِيرُ إِلَى الْعَاشِرَةِ مَسَاءً عِنْدَمَا خَرَجْنَا، وَكَأَنَّ نَازِعًا
مَا قَدْ نَزَعَنِي مِنَ الزَّمَانِ، فَلَمْ أَدْرِ إِلَّا بِصَوْتِ حُسَامٍ يَقُولُ لِي: أَلَا
تَوَدُّ الصَّلَاةَ؟، فَقُلْتُ لَهُ: لَقَدْ صَلَّيْتُ، فَمَتَّ بِجَمْعِهَا مَعَ الْمَغْرِبِ،
فَضَحِكٌ حَتَّى كَادَ يُغَشَى عَلَيْهِ،

- لِمَ تَضْحَكُ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ؟

- مَا أَعْرِفُهُ عَنْ دِينِكُمْ أَنَّ الصَّلَوَاتِ الْمُتَتَالِيَةَ هِيَ فَقَطِ النَّيِّ
يَصِحُّ جَمْعُهَا.

فَقَالَتْ رُوَيْدَةٌ: نَعَمْ لَقَدْ رَأَيْتُ إِسْرَاءَ تَفْعَلُ ذَلِكَ.

- وَمَا الْمَشْكَلَةُ أَيُّهَا الْأَحْمَقَانُ؟

فَلَمْ أَنْتَظِرْ إِيَّاهُمَا فَقَدْ لَمَحْتُ السَّاعَةَ تَقْتَرِبُ مِنَ الرَّابِعَةِ، فَعَلِمْتُ
أَنَّهُ وَقْتُ الْفَجْرِ، كُنْتُ أَتَوَقَّعُ شَيْئًا مِثْلَ هَذَا حِينَ تَجَاوَزْتُ جُرْعَةَ
الْمُهْدِيِّ الَّتِي وَصَفَهَا لِي طَبِيبِي فِي فِلَسْطِينَ، عَلَى أَنْ تَكُونَ
1ملجم في أسوء الأحوال، كانت كفيلاً هذه الجرعة أن تُنسييني
مُجْرِيَاتِ يَوْمٍ كَامِلٍ عِشْتُهُ عِنْدَمَا يَحِلُّ الْيَوْمُ التَّالِي، فَتَجَاهَلْتُ كُلَّ
تَوْصِيَاتِ الطَّبِيبِ لِي بِأَلَّا أَتَجَاوَزَ الْجُرْعَةَ أَبَدًا دُونَ اسْتِشَارَتِهِ
مُسَبِّقًا، يَبْدُو أَنَّ مَا حَلَّ بِي فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ أَعْطَانِي مُسَوِّغًا أَنْ
أَتَجَاوَزَ الْجُرْعَةَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي وَدُونَ الرُّجُوعِ لِأَحَدٍ، وَلَيْتَ ذَلِكَ
التَّجَاوُزَ كَانَ بِالْقَلِيلِ، فَلَقَدْ أَخَذْتُ جُرْعَةً بِمِقْدَارِ أَرْبَعَةِ

مِيلِجْرَامَات، أَي مَا يُقَدَّرُ بِأَرْبَعَةِ أَضْعَافِ الْجُرْعَةِ الْمُوصَى بِهَا،
فَإِنْ كَانَتْ جُرْعَةٌ مُفْرَدَةً كَفَيْلَةً بِطَمْسٍ يَوْمَ كَامِلٍ مِنْ حَيَاتِي، فَهَلْ
سَتَكْتَفِي أَرْبَعَةً أَضْعَافِهَا بِشَيْءٍ مُمَاتِلٍ يَا تَرَا!، كَانَتْ النَّجْرَبَةُ
أَفْضَلَ إِجَابَةٍ عَنِ سُؤَالِي هَذَا، فَلَقَدْ أَخْبَرَنِي حَسَامٌ عَنْ أَحْدَاثٍ
كَثِيرَةٍ رُبَّمَا كُنْتُ بَطَّلَهَا فِي الْعَالِبِ وَلَسْتُ أَذْكَرُ مِنْهَا شَيْئًا، فَأَخَذْتُ
دَرْسًا مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ بِأَنَّ مَا يُخْطُ عَلَى عُلْبَةِ الدَّوَاءِ بِخَطِّ مُخْتَلَفٍ
دَائِمًا، وَيُوصَى بِعَدَمِ اسْتِخْدَامِ الدَّوَاءِ دُونَ اسْتِشَارَةِ الطَّيِّبِ،
لَيْسَ تَنْظِيرًا كَمَا كُنْتُ أَظُنُّ، فَهَزَّ حَسَامٌ كَتَفِي عِدَّةَ مَرَّاتٍ لِيُنَبِّهَنِي
لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، اعْذُرْنِي يَا صَاحِبِي فَقَدْ كُنْتُ هَانِمًا فِي فِضَاءِ آخِرِ،
عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ لِلْوُضُوءِ مُسْرِعًا، فَذَهَبْتُ وَتَوَضَّأْتُ وَلَحِقْتُ
بِالصَّلَاةِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ الْإِمَامُ، ثُمَّ قَضَيْتُ مَا فَاتَنِي مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجْتُ
مِنَ الْمُصَلَّى فَوَجَدْتُ حَسَامًا، فَوَضَعْتُ كَفِّي عَلَى كَتِفِهِ، فَبَادَرَنِي
بِالْكَلَامِ وَقَالَ لِي: مَاذَا حَلَّ بِكَ؟، أَمْ أَنَّكَ كُنْتَ تَمْرَحُ!، فَقُلْتُ: لَا
عَلَيْكَ يَا صَاحِبِي، سَأُخْبِرُكَ لِأِحْقَاقًا، فَخَرَجْنَا مِنَ الْمَشْفَى كَيْ نَتَنَاوَلَ
الْقَهْوَةَ وَنُمَارِسَ عَادَتَنَا الْقَبِيحَةَ فِي التَّدْخِينِ، كَانَ لَا بَأْسَ أَيْضًا
مِنْ إِضَاعَةِ بَعْضِ الْوَقْتِ، الَّذِي صِرْتُ أَرَاهُ عَصِيًّا عَلَى الْمُرُورِ،
سُبْحَانَكَ رَبِّي كَيْفَ تُقَلِّبُ الْأُمُورَ، كُلَّ يَوْمٍ أَنْتَ فِي شَأْنٍ، فَبِالْأَمْسِ
كُنْتُ أَحْشَى مُرُورَ الْوَقْتِ لِقَرَحَتِي بِوُجُودِي فِي الْجَزَائِرِ وَكُنْتُ أَرَاهُ
يَمْضِي مُسْرِعًا لَا يَتَوَقَّفُ، وَهَا أَنَا الْيَوْمَ أَرَاهُ بَطِينًا لَا يَكَادُ
يَنْزَحْزَحُ لِلْهَفْتِي كَيْ تَخْرُجَ حَبِيبَتِي بِرَفْقَتِي مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، فَمَلَأْتُ

ذَلِكَ الْوَقْتِ الْعَقِيمِ بِذِكْرِيَاتٍ جَمَعْتَنِي بِهَا، عَلَى انْتِظَارِ خُرُوجِهَا
حَتَّى نَصْنَعَ ذِكْرِيَاتٍ جَدِيدَةً مَعًا.

أَفِئ وَحَسَامٍ فِي الْخَارِجِ يَعُجُّ مِنْ حَوْلِنَا دُخَانٌ سَجَائِرِنَا، وَبَدَأَتْ
تَدْبُّ الْحَيَاةَ بِأَرْكَانِ الْمَشْفَى شَيْئًا فَشَيْئًا، بَدَأَ بِعَمَالِ التَّنْظِيفَاتِ،
وَتَتَابَعَ مُوظَّفُوا الْمُسْتَشْفَى عَقِبَهَا وَاحِدًا تَلُوَ الْآخَرَ، حَتَّى صَارَ
يَصِلُ الْأَطِبَّاءُ، فَلَمْ تُصْبِحِ السَّاعَةُ الثَّامِنَةُ حَتَّى جَاءَ كُلُّ مَنْ يَجِبُ
أَنْ يَجِيءَ مِنْ عَمَالٍ وَمُوظَّفِينَ وَأَطِبَّاءَ، فَأَشْرَعَتِ الْمَشْفَى أَبْوَابَهَا
كَيْ تَبْدَأَ يَوْمَ عَمَلِهَا الشَّقَّ الْمُعْتَادِ وَلَمْ نَكُنْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ أَنْ نُفْتَحَ
الْأَبْوَابَ كَيْ نَدْخُلَ إِلَيْهَا، فَقَدْ كُنَّا وَأَطِبَّاءِ الطَّوَارِي بِرِفْقَةِ النَّزْلَاءِ
حَتَّى الصَّبَاحِ، فَامْتَلَأَ الْمَشْفَى بِالْحَيَاةِ، فَهَذَا يَدْخُلُ وَتِلْكَ تَخْرُجُ،
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَسْتَنْقِظَ الْمَرْضَى كَيْ يَتَنَاوَلُوا إِفْطَارَهُمْ عِنْدَ
السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ، بَعْدَهَا فَقَطْ سَنَتَمَكَّنُ نَحْنُ مِنَ الدُّخُولِ إِلَيْهِمْ، فَبَدَأَ
وَجْهِي يَمْتَلئُ حَيَوِيَّةً وَنَشَاطًا، فَقَدْ اقْتَرَبْتُ لِحَظَّةٍ لِقَاءِ حَبِيبَتِي، وَلَا
أُظُنُّ شَيْئًا كَفَيْلًا بِدَبِّ رُوحِ الْحَيَاةِ فِي وَجْهِي وَكَيَانِي كَرُؤَيْتِهَا، وَهَا
أَنَا أَرَى طَاقِمَ التَّمْرِیضِ يَدْخُلُونَ عُزْفَتَهَا، رَبِّمَا لِإِيقَاطِهَا كَيْ تَسْتَعِدَّ
لِتَنَاوُلِ الْإِفْطَارَ.

وَبَعْدَ أَقَلِّ مِنْ سَاعَةٍ تَوَجَّهَتِ الْمُرِضَاتُ نَحْوَ عُزْفَتِهَا، يَبْدُو أَنَّهَا
أَنْهَتِ إِفْطَارَهَا وَأَوْعَزَتْ إِلَيْهِمْ بِجِهَازِ الطَّنِينِ كَيْ تُشْعِرَهُمْ بِذَلِكَ،
فَدَخَلُوا إِلَيْهَا، فَلَمْ أَنْتَظِرْ طَوِيلًا حَتَّى دَعَتْنِي الْمُرِضَةُ لِلدُّخُولِ إِنْ
شِئْتُ كَمَا قَالَتْ، وَحَتَّى يَوْمِنَا هَذَا لَمْ أُنْسَ ذَاكَ الزَّلْزَالَ الَّذِي أَصَابَ
قَلْبِي حِينَهَا، بِحَاجَةٍ نَحْنُ لِلخُوفِ قَلِيلًا عَلَى مَنْ نُحِبُّهُمْ، كَيْ نَعْرِفَ

أَيُّ قِيمَةٍ تَحْمِلُ لَهُمْ قُلُوبُنَا، فَتَوَجَّهْتُ نَحْوَ تِلْكَ الْغُرْفَةِ، وَقَرَعْتُ
الْبَابَ مُسْتَأْذِنًا بِالذُّخُولِ، فَفَتَحْتُ الْبَابَ وَلَمْ أَرَ حَيْثُهَا سِوَى
ابْتِسَامَةِ إِسْرَاءَ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ مِنَ الشَّوْقِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ،
الشَّيْءَ الَّذِي سَكَبَ عَلَى قَلْبِي رِذَاذَ حُبِّ بَارِدٍ، كَانَ يُخْبِرُنِي أَنَّ يَا
هَشَامَ: لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَنُ بِكَ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ دَقَّاتِ قَلْبِكَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ.
شَيْءٌ مَا دَفَعَ كَلِمَتَا لِيْفَتْحَ ذِرَاعَيْهِ، لِنَحْطَى بِأَجْمَلِ ضَمَّةٍ قَدْ يَضُمُّهَا
عَاشِقَيْنِ لِبَعْضِهِمَا، كَانَ الْعَرِيبُ أَنَّ الْمَجَانِينَ لَمْ يُحَرِّكُوا سَاكِنًا
هَذِهِ الْمَرَّةَ، فَلَمْ أَسْمَعْ زَلْغَوَظَةَ رُويْدَةَ حَيْثُهَا، وَلَمْ يَفْعَلْ حُسَامُ شَيْئًا
مِنْ حَرَكَاتِهِ، يَبْدُو أَنَّهُمْ اسْتَشْعَرُوا دِفْأً وَحَمِيمِيَّةَ اللَّحْظَةِ الَّتِي كُنَّا
نَعِيشُهَا آنَ ذَاكَ، فَلَمَسْتُ وَجَنَةَ حَبِيبَتِي الدَّافِئَةَ الْمُنِيرَةَ وَ قُلْتُ لَهَا: لَا
أَرَأَيْتَ أَحَقَّ مِنِّي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا يَا حَبِيبَتِي بِالْخَوْفِ وَالْإِطْمِنَانِ عَلَيْكَ
سِوَى وَالذَّتِكَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

- بلى يا هشام، أنت على حق.
- سأقوم الآن بتشغيل هاتفى والاتصال بها، كم ستفرح حين
ترى رقم هاتفى متصلاً، ولا أعلم إلى أي ارتفاع سيحلّق
قلبها حين تسمع صوتك، فقامت بتشغيل هاتفى وطلبها،
ويبدو أنّ هاتفها عاد للعمل، فأجابته والدة إسرائ، هذا ما
اكتشفته من انقطاع صوت الطنين، أين اختفى صوتك يا
خالة؟، أين ضاعت لهفتك؟، وكم من "أين" سوف
أسألها؟.

لَمْ أَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَى الْبَقَاءِ طَوِيلًا فِي غِيَابِ هَذِهِ الدَّوَامَةِ، فَأَعْطَيْتُ إِسْرَاءَ الْهَاتِفِ وَقُلْتُ لَهَا تَحَدَّثِي إِلَيْهَا، فَأَخَذَتِ الْهَاتِفَ وَلَمْ تَقُلْ سِوَى كَلِمَتَيْنِ فَقَطْ، قَالَتْ: "ألو ماما"، أَكَادُ أَسْمَعُ صَوْتِ وَالِدَتِهَا يَخْرُجُ مِنَ الْهَاتِفِ كَمِثْلِ صَوْتِ الرَّعْدِ، رَغَمَ أَنَّي لَمْ أَكُنْ قَدْ فَعَلْتُ خَاصِيَّةً مُكَبِّرَ الصَّوْتِ حِينَهَا، لَكِنَّ خَوْفَ الْوَالِدَيْنِ عَلَيَّ أَوْلَادِهِمَا كَفَيْلٌ بِتَحْوِيلِ قَطْرَةِ نَدَى إِلَى سَيْلِ جَارِفٍ قَدْ يَفْتِكُ بِكُلِّ شَيْءٍ حَوْلَهُ فَيَزِيلُهُ، وَلَنْ يَكْتَرِثَ حِينَهَا سِوَى لَتَلِكِ الْهَمْسَةِ النَّاعِمَةِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ مَبْسَمِ ابْنِهِ أَوْ ابْنَتِهِ، هُمَا يَسْمَعَانِهِ كَذَلِكَ وَلَوْ كَانَ صَوْتُهُ صَوْتِ زَلْزَالٍ مُرْعِبٍ أَوْ بُرْكَانٍ ثَائِرٍ، هَذَا قَلْبُ الْأَبِ، وَذَلِكَ جَنَانُ الْأُمِّ، فَتَحَدَّثْتُ طَوِيلًا وَالِدَةَ إِسْرَاءَ، وَلَمْ تَكُنْ لِحَبِيبَتِي فُرْصَةً أَنْ تَرُدَّ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ، أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَخَيَّلَ وَأَحْسَّ وَهَجَّ الْفَرْحَةَ الَّتِي تُشْعُّ مِنْ قَلْبِ أُمِّهَا دُونَ أَنْ أَسْمَعَ مِنْهَا كَلِمَةً حَتَّى، فَقَدْ مَلَأَتْ الْعُرْفَةَ ضَوْضَاءً بِفَرْحَتِهَا، كَيْفَ لَا! وَقَدْ أَطْمَأَنَّتْ عَلَى ثَمَرَةِ فُؤَادِهَا أَنَّهَا صَارَتْ بِخَيْرٍ، وَأَخِيرًا وَبَعْدَ مَا يُقَارِبُ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً اسْتَطَاعَتْ حُلُوتِي أَنْ تَتَحَدَّثَ فَقَالَتْ: كَمْ اسْتَقْتُ إِلَيْكَ يَا أُمِّي، إِنَّ كَانَتْ إِجَابَةُ وَالِدَتِهَا عَلَى كَلِمَتَيْنِ كَمِثْلِ "ألو ماما" تَجَاوَزَتْ رُبْعَ سَاعَةٍ فِي الرَّدِّ عَلَيْهَا، فَكَمْ سَتَكُونُ بِرَبِّكَ مُدَّةَ الرَّدِّ عَلَى هَذِهِ الْعِبَارَةِ!، فَانْتَهَتْ الْمُكَالَمَةُ، لَيْسَ رَغْبَةً مِنْ إِسْرَاءَ أَوْ مِنْ وَالِدَتِهَا بِإِنهَانِهَا، لَكِنَّ الطَّبِيبَ جَاءَ فِي جَوْلَتِهِ الصَّبَاحِيَّةِ كَيْ يَطْمَئِنَّ عَنْ حَالَةِ إِسْرَاءَ وَيَصِفَ لِلكَادِرِ الطَّبِيِّ تَوْصِيَاتِهِ النَّهَائِيَّةَ، لِأَنَّ مَوْعِدَ خُرُوجِهَا قَدْ أَصْبَحَ وَشَيْكًا، فَطَلَبَ الطَّبِيبُ مِنَّا الْخُرُوجَ لِيُعْطِيَ

بعض النَّصَاحِ لِمَرِيضَتِهِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ، فَلَقَيْتَنِي الطَّبِيبُ خَارِجًا
وَهَنَائِي بِسَلَامَتِهَا، وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّهُمْ سَيُخْرِجُونَهَا عِنْدَ الثَّلَاثَةِ عَصْرًا
وَطَلَبَ مِنِّي أَنْ آتِيَهُ فِي عِيَادَتِهِ مَعَ إِسْرَاءَ قُبَيْلِ خُرُوجِنَا مِنَ
المَشْفَى كَيْ يُعْطِينَا بَعْضَ الوَصَايَا.

أَرَاهَا عَقَارِبِ السَّاعَةِ تُهْرَوِلُ سَرِيعًا حِينَ تَكُونُ جَوَارِي صَاحِبَةَ
الْقَلْبِ البَاسِمِ، وَبَدَأَ الوَقْتُ يَنْقُضِي وَبَدَأَتِ الشَّمْسُ تَمِيلُ لِشَّيْرِ إِلَى
وَقْتِ العَصْرِ، فَعَدْتُ لِعُرْفَةِ إِسْرَاءَ لِأَجْدَ هُنَاكَ جَمْعًا غَفِيرًا، لَمْ تَكُنْ
رَوِيْدَةً وَحَسَامٍ يَجْلِسَانِ وَحَدَهُمَا عِنْدَهَا، فَقَدْ كَانَ أَكْرَمَ وَهْدَى
هُنَاكَ، وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ حَوْرِيَّةً وَوَلَدَهَا يَجْلِسَانِ عِنْدَهَا أَيْضًا،
وَهُنَاكَ مِنْ يَفْرَعُ بَابِ العُرْفَةِ، فَفَتَحْتُهُ لِأَجْدَ أَمَامِي السَّيِّدِ زَاهِي
وَمَعَهُ الْإِنْسَاءُ هُنَاءَ، فَهَنُّوْهَا جَمِيعًا بِالسَّلَامَةِ، هُنِيئًا لَكَ يَا
حَبِيبَتِي، فَالْخُطُوَّةِ الَّتِي كُنْتُ تَخْطِينَهَا لَمْ تَكُنْ بِبَاطِنِ قَدَمِيكَ عَلَى
الأَرْضِ فَحَسَبِ، بَلْ كَانَتْ دَبِيبًا لِقَلْبِكَ عَلَى قَارِعَةِ قَلْبِ كُلِّ مَنْ
يِرَاكَ، كَانَ يُخْبِرُهُمْ ذَلِكَ الدَّبِيبُ كَمْ مَمْتَنٌّ هُوَ لَهُمْ، كَمْ هُوَ عَاجِزٌ
عَنِ الإِفْصَاحِ عَنِ مَشَاعِرِهِ المَكْنُونَةِ دَاخِلُهُ، لَيْسُوا بِحَاجَةٍ لِذَلِكَ هُمْ
يَا حَبِيبَتِيض، فَلَنْ يَعدَمَ أَهْلُ الجَزَائِرِ وَسِيلَةً لِيَعْلَمُوا كَمْ نَحْنُ
نَحْبُهُمْ، فَحُبُّنَا هَذَا إِنْ لَمْ تَبُحْ بِهِ أَلْسِنَتُنَا فَسَتُبْرِقُ بِهِ أَعْيُنُنَا، وَأَبْسَطُ
مِنْ هَذَا كُلِّهِ، سَتَنْكَفِلُ قُلُوبُنَا بِعَرْفِ سِيمْفُونِيَّةِ لِلحَبِّ وَالْأَخُوَّةِ، وَلَمْ
تَكُنْ سِيمْفُونِيَّتِنَا هَذِهِ بِحَاجَةٍ إِلَى أوركسترا ضَخْمَةٍ أَوْ إِلَى آلَاتِ
مُوسِيقِيَّ ذَاتِ أَصْوَاتٍ عَالِيَةٍ، مَا كَانَتْ تَحْتَاجُهُ فَقَطْ هِيَ قُلُوبٌ نَقِيَّةٌ
تُرْسَلُ مَعَ كُلِّ دَقَّةِ أَلْفِ رِسَالَةٍ حُبِّ.

جَاءَتِ الْمَمْرِضَاتُ لِيُسَاعِدَنَ إِسْرَاءَ عَلَى تَبْدِيلِ مَلَاسِيهَا لِأَنَّ مَوْعِدَ
خُرُوجِهَا قَدْ أَوْشَكَ، فَتَرَكْنَاهُنَّ مَعَهَا يُسَاعِدْنَهَا، كَمَا كَانَ جَمِيعًا
شَكُنَّا وَنَحْنُ مُجْتَمِعِينَ حَوْلَ بَابِ غُرْفَتِهَا كَسِرْبِ النَّحْلِ نَنْتَظِرُ
مَلَكَتَنَا أَنْ تَخْرُجَ عَلَيْنَا.

مُذْ وَطِنْتُ بِأَقْدَامِي ثَرَابَ هَذِهِ الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ تَعَلَّمْتُ عِبْرًا
وَدُرُوسًا مَا كُنْتُ لِأَتَعَلَّمَ مِثْلَهَا لَوْ لَمْ أَحْظَ بِهَذِهِ الزِّيَارَةِ، تَعَلَّمْتُ أَنَّ
لِلْقَلْبِ أَحْكَامًا لَا تَخْضَعُ لِعِلْمٍ أَوْ نَظَرِيَّاتٍ أَوْ لِمَنْطِقٍ، فَالسَّاعَةُ الَّتِي
تَحْوِي سِتِّينَ مِنَ الدَّقَائِقِ قَدْ تَمَضَى بِرَفَقَةٍ عَيْنٍ أحيانًا، وَتَمَضَى
نَفْسَهَا كَمِثْلِ بَضْعِ سِنِينَ فِي أحيانٍ أُخْرَى.

خَرَجَتِ الْمَمْرِضَاتُ وَأَشَارَتَا لَنَا عَلَى إِنْهَاءِ عَمَلِيهِمَا، فَدَخَلْتُ
مُسْرِعًا وَلَمْ أَنْتَظِرْ مُرَافِقَةَ أَحَدِهِمْ لِي، فَفَتَحْتُ بَابَ الْغُرْفَةِ، وَهَجَّ
رَأَيْتُ وَأَيَّ وَهَجَّ!، فَرِحَةٌ كَانَتْ تَكْسُونِي شَخْصِيًّا مَا مِثْلَهَا فَرِحَةٌ،
كَانَتْ تَجْلِسُ حَبِيبَتِي عَلَى الْكُرْسِيِّ فَرِحَةٌ مُبْتَسِمَةٌ وَتَبَعَتْ عِطْرَ
الْيَاسَمِينِ مِنْ مَيَاسِمِ جِلْدِهَا، وَيَبْزَعُ نُورَ شَمْسٍ مِنْ فَمِهَا لِيَحِلَّ
مَكَانَ ضَوْءِ شَمْسِ الْكَوْنِ الَّذِي غَطَّتْهُ السِّتَانُ وَالْأَبْوَابُ

- حَمْدًا لِلَّهِ عَلَى سَلَامَتِكَ يَا حَبِيبَتِي.

- سَلِّمْكَ اللَّهُ يَا هِشَامَ، مَا هَذَا الْكَابُوسُ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ؟!

- لَا عَلَيْكَ يَا أَمِيرَتِي، قَدْ صِرْتُ بِخَيْرٍ الْآنَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

فَأَفْتَحَمَ عَلَيْنَا الْجَمْعَ خَلُوتَنَا، فَهَذِهِ تُقْبَلُ إِسْرَاءُ وَذَلِكَ يُهْنِئُهَا
بِالسَّلَامَةِ وَهِنَاءٍ تَحْتَضِنُهَا وَالسَّيِّدُ زَاهِي يَلْمَسُ شَعْرَهَا الذَّهَبِيَّ
لِمَسَةِ أَبِي حَانَ.

- سَأَسْتَأْذِنُكُمْ جَمِيعًا.

سَأَصْعِدُ مَعَ إِسْرَاءِ إِلَى عِيَادَةِ الطَّبِيبِ.

فَصَعَدْنَا إِلَيْهِ فِي عِيَادَتِهِ وَكَانَتْ حَبِيبَتِي مُنْتَعِشَةً وَفِي قِمَّةِ حَيَوِيَّتِهَا، نَعَمْ هِيَ تَجْلِسُ عَلَى الْكُرْسِيِّ الْمُتَنَقِّلِ اللَّعِينِ، لَكِنَّ رُوحَهَا كَانَتْ تُحَلِّقُ حَوْلِي وَتُرْفِرُ فَرِحَةً بِجَنَاحَيْهَا ، فَدَخَلْنَا إِلَى الطَّبِيبِ فَقَفَزَ عَنِ كُرْسِيِّهِ فَرِحًا، يُعْجِبُنِي بَلْ وَيَدْعُونِي لِحُبِّهِ وَاحْتِرَامِهِ الطَّبِيبُ حِينَ يُشْعِرُنِي أَنَّ الْمَرِيضَ شَيْءٌ غَالٍ لَدَيْهِ، وَهَذَا مَا فَعَلَهُ بِالضَّبَطِ مَعَنَا الطَّبِيبُ، فَدَعَانِي لِلْجُلُوسِ ثُمَّ جَلَسَ هُوَ وَقَامَ بِتَشْتَبِيكِ أَصَابِعِهِ، هَذِهِ عَلَامَةٌ عَلَى الْارْتِيَاكِ كَمَا كُنْتُ قَدْ تَعَلَّمْتُ فِي دُورَةِ لِقَاءِ لُغَةِ الْجَسَدِ، ثُمَّ تَوَجَّهَ بِالْكَلامِ لِإِسْرَاءِ،

- كَيْفَ تَشْعُرِينَ الْآنَ؟

- أَنَا بِخَيْرٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ يَا دُكْتُور.

ثُمَّ سَأَلَنِي قَائِلًا:

وَكَيْفَ تَشْعُرُ أَنْتَ الْآنَ يَا سَيِّدَ هِشَامِ؟، فَقَدْ كُنْتُ تَرْتَجِفُ مِنْ خَوْفِكَ عَلَيْهَا، وَرَغَمَ أَنَّ شُعُورَ الْخَوْفِ يَصْغَبُ تَقْبُلَهُ مِنْ أَدْنَى، قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْاِحْتِلَالِ وَمَا يُحَاوَلُ فَرَضُهُ مِنْ سَطْوَةٍ وَقَمْعٍ لِيَحْصَلَ عَلَى هَيْبَةٍ وَسِيَادَةٍ فِي بِلَادِنَا، لَكِنَّ أِبْنَاءَ وَبَنَاتِ فِلَسْطِينَ يَبْدُونَ أَنَّهُمْ مَجْبُولُونَ عَلَى صِفَةِ الْعِنَادِ، فَكَلَّمَا زَادَ الْاِحْتِلَالُ فِي غِيَةِ وَظَلْمِهِ زَادَ أُرُوحَانَا أَنْفَةً وَرَفْعَةً، قَدْ يَكُونُونَ أَقْوَى بِالْمَنْظَارِ الْعَسْكَرِيِّ، لَكِنَّ اللَّهَ قَالَ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ "كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ" هَاهِي قَدْ أَزَالَتْ هَذِهِ الْآيَةَ مَعْيَارَ الْكَثْرَةِ فِي النَّصْرِ

والهزيمة، وأحسبُ معاييرَ كثيرةٍ سوفَ تتبدلُ إنْ أعدنا التَّفكيرَ فيها، لكنني شعرتُ بالاعتزازِ بهذه الأوصافِ هذه المرةَ بالتحديدِ، حينَ تورَّدتِ وجنتا حبيبتَي خجلاً، وأخفّضتِ رأسها وعلا صوتُ دقاتِ قلبها، قلبها الذي استحالَت دقاتُهُ همساتٍ لضعفه.

أوصانا الطَّبيبُ عدَّةَ وصايا، كانَ منها أنْ تستريحِ إسرائ، وحبذا لو تركتِ الفرقةَ وأنشطتها هذه الفترةَ كما قال، أوصاها أيضاً أنْ تبتعدَ عن أيِّ مجهودٍ يُمكنُ أنْ يُشعرها ولو بقليلٍ من التعب، ثمَّ توجهَ لي بالكلامِ قائلاً: أنتَ مهمتكُ أنْ تُبعدها عن أيِّ ضغطٍ وتوتر، وأنا واثقٌ أنْ بإمكانك ذلك، والوصيةُ الأهمُّ من كلِّ هذه الوصايا هي أنْ تقوموا بمراجعةِ طبيبِ قلبٍ حالَ وُصولكم لفلسطين، فاهتزتِ حبيبتَي وصارتِ تضربُ بيديها ذراعَي الكرسيِّ الذي تجلسُ عليه، فصارتِ تبكي وتصرخُ، "مايه قلبي يا دكتور، ما به قلبي يا هشام؟"، فلمَ أتمالكِ نفسي وصرتُ أجهدُ بالبكاء، فقاطعتنا الطَّبيبُ قائلاً: قلبك بخيرٍ يا إسرائ، نحنُ نريدُ أنْ نطمئنَّ فقط، وسأعطيكُم هاتفَ صديقي في فلسطين الدكتور حسن، هو خيرٌ من أثقُ به في هذا المجال.

- سنتواصلُ معه ونقومُ بمراجعتِهِ بإذنِ الله، نحنُ نشكرك يا دكتور، نحنُ سوفُ نُسافرُ غداً، هل تُوصينا بشيءٍ من فلسطين؟

- رَأَفْتَكُمْ السَّلَامَةَ، عِنْدِي فَقَطْ رِسَالَةٌ صَغِيرَةٌ، أُرِيدُ مِنْكُمْ
إِصَالَهَا.

- تَفَضَّلْ ، نَحْنُ بِخِدْمَتِكَ.

- عِنْدَمَا تَصِلُونَ إِلَى فِلَسْطِينَ، أَخْبِرُوهَا أَنِّي قَطَعْتُ عَلَى
نَفْسِي عَهْدًا وَنَذَرْتُ نَذْرًا أَنْ لَا أَمُوتَ حَتَّى تَلَامِسَ جِبْهَتِي
تُرَابَ قُدْسِهَا بِسَجْدَةٍ فِي أَقْصَاهَا.

فَلَمْ أَمَّاكَ نَفْسِي حِينَ قَالَ ذَلِكَ، كِدْتُ أَخْتَقِقُ، فَكَمْ مِنْ مُسْلِمٍ
وَنَصْرَانِيٍّ فِي أَصْقَاعِ الْأَرْضِ يُمْنِي نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ قَبْلَ أَنْ
يَمُوتَ، وَلِلْأَسْفِ يَمُوتُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ، لَيْسَ غَدْرًا مِنْهُمْ، فَحَاشَاهُمْ
ذَلِكَ، لَكِنْ لِأَنَّ شَرْدَمَةً مِنَ الْعَاصِبِينَ فَرَضُوا بِظُلْمِهِمْ وَجَبَرُوتِهِمْ
أَنْ لَا يَسْتَطِيعَ إِخْوَتُنَا أَنْ يَطُورُوا بِأَقْدَامِهِمْ أَرْضَ فِلَسْطِينَ وَتَكْتَحِلَ
أَعْيُنُهُمْ بِرُؤْيَاهَا، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ.

خَرَجْنَا مِنْ عِيَادَةِ الطَّبِيبِ، ثُمَّ تَوَجَّهْنَا لِلْفُنْدُقِ جَمِيعًا، وَفُورَ وَصُولِنَا
هُنَاكَ اسْتَأْذَنْتُ مِنْهُمْ أَنْ أُوَصِلَ إِسْرَاءَ لِعِرْفَتِهَا، عَلَى أَنْ نُكْمَلَ
سَهْرَتَنَا عِنْدَهَا فِي الْغُرْفَةِ فُورَ اسْتِيقَاطِهَا، فَغَدْتُ لِحَمْلِ إِسْرَاءَ بَيْنَ
ذِرَاعِي مُتَوَجِّهًا بِهَا نَحْوَ الْمِصْعَدِ، فَصَارَتْ تَضْرِبُ كَتِفِي وَتُشِيخُ
بِرَاسِهَا يَمِينًا وَشِمَالًا قَائِلَةً: لَا أُرِيدُ ، لَا أُرِيدُ،

- مَا هُوَ الَّذِي لَا تُرِيدِينَهُ يَا صَغِيرَتِي؟

- لَا أُرِيدُ الصُّعُودَ فِي الْمِصْعَدِ، أَحْمِلْنِي أَنْتِ لِلْأَعْلَى!

- يَا لِلْهُوْلِ!، أَنْتَ لِمِيرَتِي مَعْنَى أَنْ يَصْعَدَ شَخْصٌ مُدَخِّنٌ
ثَلَاثَةَ طَوَابِقٍ مَاشِيًا، إِنَّهُ هَلَاكٌ مُحَقَّقٌ.

- حسناً، لا عليك، مُعْفَى أَنْتِ مِنْ هَذَا الْهَلَاكِ.
- وبالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا تَنَازَلَتْ عَنْ رَغْبَتِهَا، لَكِنْ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْفِيَ
عَنْ قَلْبِ هِشَامٍ حُزْنَآ تَشْعُرُ بِهِ إِسْرَاءً؟.
- لا يا حبيبتى لَسْتُ مَعْفِيًّا أَنَا، سَأَصْعُدُ بِكَ حَتَّى لَوْ كَانَ إِلَى
الغُيُومِ، مَا رَأَيْتُكَ؟
- أَحَقًّا سَتَفْعَلُ؟
- اسْتَمْتِعِي بِالرَّحْلَةِ أَنْتِ فَقَطْ.

فَصَعِدْتُ حَامِلًا إِيَّاهَا، وَلَا وَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ بِالتَّعَبِ، عَلَى الْعَكْسِ، لَقَدْ
كَنْتُ أَشْعُرُ بِرَاحَةٍ وَسَعَادَةٍ غَيْرِ مَسْبُوقَةٍ، وَكَمَا هِيَ عَادَةُ اللَّحْظَاتِ
الْجَمِيلَةِ تَنْقُضِي بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ، فَانْقَضَى ذَاكَ السَّلْمُ الطَّوِيلُ كَمَا لَوْ
أَنَّهُ مَكُونٌ مِنْ دَرَجَتَيْنِ فَقَطْ، سَرِيعًا وَصَلْنَا لِعُرْفَتِهَا فَأَنْزَلْتُهَا مِنْ بَيْنِ
ذِرَاعِيَّ وَوَضَعْتُهَا عَلَى سَرِيرِهَا وَقُلْتُ لَهَا: نَامِ الْآنَ وَاسْتَرِيحِي يَا
أَمِيرَتِي الصَّغِيرَةَ، فَقَالَتْ بِصَوْتِ حَزِينٍ: هَلْ سَتَتْرُكُنِي وَحْدِي؟.

- بِالطَّبَعِ، كَيْ تَنَامِي يَا حُلُوتِي.

قَاطَعْتُنَا حِينَ دَخَلْتُ رُوَيْدَةَ قَائِلَةً: اِحْمِ احْمِ، هَلْ قَطَعْتُ خِلْوَتَكُمْ؟
فَفَهِمْتُ مِنْ دُعَابَتِهَا الَّتِي قَامَتْ بِهَا رِسَالَةٌ أَرَادَتْ إِيْصَالَهَا إِلَيَّ،
بَأَنَّي لَا يَجِبُ أَنْ أَبْقَى وَحْدِي عِنْدَ الْفَتَاةِ فِي عُرْفَةِ نَوْمِهَا، لَا أَدْرِي،
أَكَانَتْ هَذِهِ رِسَالَةٌ مِنْ رُوَيْدَةَ أَمْ كَانَتْ بَرَقِيَّةً أَرْسَلَهَا عَقْلِي الْبَاطِنُ
إِلَى أَخِيهِ الْوَاعِي مَفَادُهَا أَنْ أَسْتَحِ يَا هِشَامَ وَاخْرُجْ عَلَى الْفُورِ،
لَيْسَتْ مُهِمَّةً فِي هَذَا الْوَقْتِ هَلَاوِسِي هَذِهِ، مَا يَهْمُنِي أَنْ
عُصْفُورَتِي أَصْبَحَتْ بِخَيْرٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَافْتَرَبْتُ مِنْ رَأْسِهَا وَقَبَّلْتُهَا

وَمَسَحْتُ بِكَفِّي عَلَى شَعْرِهَا وَقُلْتُ: حَمْدًا لِلَّهِ عَلَى سَلَامَتِكَ يَا حَبِيبَتِي، اسْتَرِحِي الْآنَ، وَأَوْصَيْتُ رُوَيْدَةَ أَنْ تَتَّبِعَ لَهَا وَأَنْ تُشْعِرَنِي إِنْ وَقَعَ أَيُّ طَائِرٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْ غُرْفَتِهِمَا وَنَزَلْتُ إِلَى زُوَارِهَا حَيْثُ تَرَكَتُهُمْ فِي رُدْهَةِ الْفُنْدُقِ، فَتَكَلَّمَ السَّيِّدُ زَاهِي وَقَالَ:

- مَوْعِدُ طَائِرَتِكُمْ سَيَكُونُ فَجْرَ الْأَرْبَعَاءِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

- نَعَمْ يَا سَيِّدَ زَاهِي.

أَرَى أَنْ نَتْرَكَكُمْ الْآنَ وَسَنَأْتِيكُمْ فِي صَبَاحِ الْغَدِ لِنَقْضِي الْيَوْمَ كُلَّهُ بِرَفْقَتِكُمْ.

فَرَحَلُوا كُلُّهُمْ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرِي وَكَتَيْبَةُ الْمَجَانِينِ.

- اللَّهُ يَعْطِيكُمُ الْعَافِيَةَ يَا حُلُوبِينَ.

- يَعْطِيكَ الْعَافِيَةَ أَنْتَ يَا هِشَامَ.

- أَنَا مَا رَحَ أَتْحَكَّمُ فِيكُمْ، الَّذِي بَدُو يَنَامُ يَنَامٌ، وَاللَّي جُوعَانُ يَأْكُلُ، أَنْتَوَ أَحْرَارُ، أَنَا عَنْ نَفْسِي رَحَ أَدْخُلُ غُرْفَتِي وَمَا رَحَ أَطْلَعُ لِلصُّبْحِ.

فَانصَرَفَ كُلُّ مَنْ لَشَانِهِ وَصَعِدْتُ أَنَا لِعُرْفَتِي، أَحْمَدُ اللَّهُ فَقَدْ زَالَ حِمْلٌ ثَقِيلٌ عَنْ قَلْبِي، لَمْ تَكُنْ إِسْرَاءُ هَمًّا يُوْرِقُنِي فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، لَكِنَّ مَرَضَهَا وَأَلَمَهَا هُمَا اللَّذَانِ سَلَبَا قَدَمَيَّ فُذِرْتُهُمَا عَلَى الْوُقُوفِ، فَالْقَيْتُ نَفْسِي عَلَى السَّرِيرِ فَنِمْتُ لِسَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ، وَلَمْ أَكُنْ مُكْتَرِنًا بِشَيْءٍ، فَلَمْ أَضْبِطْ مِنْبَهَا وَلَمْ أُوصِ أَحَدًا أَنْ يُوقِظَنِي فَلَيْسَ هُنَاكَ الْآنَ مَا يَشْغَلُ بَالِي، فَاسْرَاءُ نَائِمَةٌ فِي الْعُرْفَةِ الَّتِي جَوَارِي وَقَدْ صَارَتْ بِخَيْرٍ

والحمد لله، ولم يبقَ شيءٌ يحجبُ النومَ عن جفني، فاستيقظتُ
بعدَ فترةٍ من الزمنِ، ولا أدري حتى كم بقيتُ نائمًا، وما دُلّني
فورَ استيقاظي أنني نمتُ فترةً مُعتبرةً هو أن تعبي الذي كان
يملي جِسمي قد زالَ تمامًا، وها أنا أشعرُ بِرَاحةٍ تامّةٍ، فتوقّعتُ
قَبْلَ أن أنظرَ لساعتي أن نكونَ قد تجاوزنا مُنتصفَ الليلِ،
فخابَ ظني حينَ نظرتُ لها لأجدَها لازالتَ الحاديةَ عشرةَ
والرُّبعَ، فشعرتُ بالعُصبِ حينها، أهذا فقط ما نمتُه؟، بالكادِ
نمتُ ثلاثَ ساعاتٍ، فنَهَضتُ وأخذتُ حمامًا باردًا أزالَ عني
وعنَاءَ التعبِ والكسلِ ثم لبستُ ملابسِي وخرجتُ من عُرفتي
ولا أدري لمَ خرجتُ!، ومادًا سأفعلُ!، فقادتني قدماي، بل قادتني
قلبي تجاهَ عُرفةِ إسرائ، ففرعتُ البابَ مرّاتٍ عديدةٍ وكانَ
يستقرُّ في نفسي أنهما نائمتين، لكن كما قادتني قلبي لغرفتهما
رغمَ تأكّدي من نومهما، أباي عقلي الرَّحيلَ حتى يرى إسرائ،
فاستمررتُ بقرعِ البابِ على مدى عشرِ دقائق، فإذا بي أسمعُ
صوتًا داخلَ العُرفةِ، يبدو أن رويدةً قد استيقظت، ففتَحَ البابَ
ورأيتُ رويدةً تقفُ أمامي، فقالت: كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ أَنْتَ أَيُّهَا
المُزعجُ، فوضعتُ أنا كفي على فمي ليسترَ ضحكةً قد تُزعجُ
كلَّ نزلِ الفندقِ، كانَ ذلكَ بسببِ مظهرِ رويدةٍ حينها وهي
منكوشةُ الشَّعرِ وتُغمضُ عينا وتفتَحُ الأخرى، ناهيكَ عن
صوتها النَّائمِ بل المُستغرقِ في النومِ، فقالت لي دُونَ سؤالٍ:
حبيبُكَ نائمةٌ ناالائمةٌ ولمَ تستيقظُ بعدُ، دعنا نستريحُ بِرَبِّكَ،

فَتَأَسَّفْتُ لَهَا وَدَعَوْتُهَا أَنْ تَعُودَ لِلنُّومِ وَتَوَجَّهْتُ لِشُرْفَةٍ فِي ذَاكَ
الطَّابِقِ لِأَتَلَدَّدَ بِاسْتِنْشَاقِ هَوَاءِ الْجَزَائِرِ النَّقِيِّ، الَّذِي أُبَيْتُ
بِجَهْلٍ وَحِمَاقَةٍ مِنِّي إِلَّا أَنْ أُلَوِّثُهُ بِدُخَانِ سِيَّجَارَتِي، فَأَشْعَلْتُ
السِّيَّجَارَةَ وَحَلَّقْتُ عَالِيًا فِي سَمَاءِ الْفَرَحِ، هَا أَنَا أَحَلِّقُ الْآنَ
فِيهَا، وَقَدْ كُنْتُ أَعُورُ فِي أَرْضِ الْقَهْرِ وَالْحُزَنِ السَّابِعَةِ
بِالْأَمْسِ، وَلَيْسَ لِي الْآنَ إِلَّا أَنْ أُخْرِجَ حَقِيبَةَ ذِكْرِيَاتِي لِأَتَسَلَّى
قَلِيلًا، فَتَذَكَّرْتُ يَوْمًا جَاءَتْني فِيهِ فَرِحَةٌ إِسْرَاءَ، فَسَأَلْتُهَا عَنْ
سِرِّ فَرِحَتِهَا، فَأَخْبَرْتَنِي أَنَّهَا صَارَتْ الْيَوْمَ تُدْعَى "أَمِيرَةً
الشُّعْرَاءِ"

- لقد كنتِ أميرة شاعِرٍ واحدٍ واسمه "هشام الماضي"،
- أخبريني متى أصبحتِ أميرة الشعراءِ كلهم يا خلوتي!
- اليومَ قرأتِ المُعلِّمةُ بيتَ شعْرٍ كتبتُهُ عنكَ فأعجَبها كثيرًا
وقالت لي: يا إسرائِ أنتِ شاعِرةٌ مؤهوبةٌ.
- هذا جيّدٌ، أسمعيني ماذا كتبتِ يا شاعِرتنا.
- احم احم،
- هشامٌ أنت من يحيى عشاني وأنت النور في عيني وقلبي
- رابعا يا حبيبتى، من علمك هذا؟
- فرحتِ إسرائِ وقالت: هل أعجبتكِ حقًا يا هشام؟
- جميلٌ جدًّا يا حبيبتى.
- ما كان لي أن أقولَ غيرَ ذلكِ وأنا أرى هذه الفرحةَ بعينيها!
- وإن كانتِ كلمةُ "عشاني" عليها بعضُ التحفظِ.

- لَكُنِّي أَفْضَلَ لَوْ تَرَكْتَ الشَّعْرَ لِي وَانْشَغَلْتَ أَنْتِ بِالرَّسْمِ
وَرَفْصِ الدَّبَكَةِ!

- أَلَمْ يُعْجِبْكَ شِعْرِي؟

- بَلَى يَا حُلُوتِي، مُمَيَّزَةٌ أَنْتِ دَائِمًا، فَلَمْ يَذْكَرْ كَلِمَةً "عَشَانِي"
أَحَدٌ قَبْلَكَ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ!

فَقَاطَعْتَ شُجُونِي وَذِكْرِيَاتِي تِلْكَ السِّيَجَارَةَ اللَّعِينَةَ الَّتِي أَشْعَلْتَهَا
وَلَمْ تَلْمَسْ شِفَاهِي سِوَى وَقْتِ إِشْعَالِهَا، كُنْتُ قَدْ ضَعْتُ فِي غِيَابِ
ذِكْرِيَاتِي، فِي حُبِّي وَعِشْقِي وَحَنِينِي إِلَى أَنْ أَحْرَقْتُ أَصَابِعِي تِلْكَ
السِّيَجَارَةَ، وَهَا أَنَا أَرَى يُوسُفَ يَخْرُجُ مِنْ غُرْفَتِهِ، فَرَأَيْتِ وَاتَّجِهْ
نَحْوِي،

- مَا بِأَلْكَ؟، مَا الَّذِي أَوْقَظَكَ؟

- أَنَا لَمْ أَنْمَ فِي الْأَصْلِ حَتَّى أَسْتَيْقِظَ.

فَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ، فَهُوَ مَعْرُوفٌ لَا يَحْتَاجُ لِسُؤَالٍ وَلَنْ
يَكُونَ سُؤَالِي سِوَى تَعْرِيفٍ لِلْمَعْرِفِ، هَبْ أَنِّي سَأَلْتُهُ عَنْ سَبَبِ
عَدَمِ نَوْمِهِ، فَسَتَكُونُ الْإِجَابَةُ الَّتِي يَتَّفِقُ عَلَيْهَا كُلُّ عَشَّاقِ الْمَجْرَةِ
أَنَّهَا لَوْعَةُ الْحُبِّ، سَوْفَ تَخْتَلِفُ تَوْصِيفَاتُهُمْ وَتَتَبَدَّلُ تَعَابِيرُهُمْ، لَكِنَّ
الْفَخْوَى وَاحِدٌ لَا يَتَّعَيَّرُ، الْحُبُّ هُوَ الْمَتَّهَمُ الرَّئِيسُ فِي تَهْمَةِ فِرَاقِ
النَّوْمِ وَتَشْتَتِ الْبَالِ وَضِيَاعِ التَّرْكِيزِ، وَلَنْ تَحْتَاجَ مُحَاكَمَةَ الْحُبِّ
إِلَى عَدِيدِ جَلْسَاتٍ، فَالْقَاضِي حُكْمُهُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ثَابِتٌ لَا يَتَّعَيَّرُ،
وَلَيْسَ ذَلِكَ بِالْعَرِيبِ، فَعِنْدَمَا يَكُونُ قَلْبُكَ هُوَ الْقَاضِي وَالْحُبُّ هُوَ
الْمَتَّهَمُ، فَمَاذَا سَتَتَوَقَّعُ أَنْ يُصَدِرَ هَذَا الْقَاضِي حُكْمًا؟، أَشْبَهُ مَا

يُكُونُ الأَمْرُ بِالذِي وَقَعَ لِلشَّاعِرِ المُتَنَبِّي فِي مَجْلِسِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ
الْحَمْدَانِي، حِينَ قَالَ: 'فِيكَ الخِصَامُ وَأَنْتِ الخِصْمُ وَالْحَكْمُ'.
فَأَجْلَسْتُ يوسُفَ بَعْدَهَا وَوَجْهَهُ تَلْقَاءَ وَجْهِي، وَنَظَرْتُ فِي عَيْنَيْهِ،

- أَنْتَ تَحِبُّهَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

- أَحِبُّهَا أَكْثَرَ مِمَّا تَتَصَوَّرُ

- اسْمَعْنِي إِذَا،

أَنَا أَعَاهِدُكَ أَنْ أَبْقِيَ مَعَكَ خَطْوَةً بِخَطْوَةٍ حَتَّى تَأْسِرَ قَلْبَهَا،
ثُمَّ أَرْفَعُكَ إِلَى عَيْشِ الزَّوْجِيَّةِ وَ أَتَخَلَّصَ مِنْكُمَا!.

فَضَحِكَ يوسُفَ وَقَالَ لِي:

وَمَتَى سَنَرْفُقُكَ وَإِسْرَاءُ؟

- لَا تَقْلُقْ، أَعْدُكَ لَنْ تَتَنظَّرُوا طَوِيلًا يَا صَاحِبِي.

أَحْتَاجُ بِرَمِيلاً مِنَ القَهْوَةِ.

مَا رَأَيْتُكَ لَوْ نَزَلْنَا لِلْمَقْهَى الَّذِي بِالْأَسْفَلِ لِنَشْرِبَهَا وَنُشَاهِدَ
أَحَدَ المُبَارِيَاتِ الَّتِي يَعْرضُونَهَا؟

- نَعَمْ، لِنَنْزِلِ، مَعَ أَنِّي لَا تَسْتَهْوِينِي فِكْرَةُ مُشَاهَدَةِ اثْنَيْنِ

وَعِشْرَيْنِ مَجْنُونًا يَرْكُضُونَ خَلْفَ مَطَّاطَةٍ مَجْنُونَةٍ مِثْلَهُمْ،

- وَلَا أَنَا يَا صَاحِبِي، لَكِنَّهَا فُرْصَةٌ أَنْ نَتَسَلَّى قَلِيلًا، بِمَا أَنَّهُمْ

نَائِمِينَ جَمِيعًا.

فَنَزَلْنَا لِذَلِكَ المَقْهَى فَجَاءَنَا مُوظَّفُ الطَّلِبَاتِ وَسَأَلَنَا عَنِ طَلِبِنَا

فَأخْبَرْنَاهُ أَنَّنَا نُرِيدُ كَوْبَيْنِ مِنَ القَهْوَةِ المَرَّةِ، وَشَدَّدَ عَلَيْهِ يوسُفَ

فَقَالَ: هَلْ سَمَعْتَنِي جَيِّدًا؟، كَوْبَيْنِ وَليْسَ فَنجَانَيْنِ.

كانت نظريتنا أننا لا نستمع بالقهوة في فنجان، حيث أن
الجُرعة يجب أن تكون كبيرة "مشان نعبي الطاسة"، كما كان
يقول المجانين، حيث اتفقوا على وصف العقل بـ "الطاسة"، ثم
التفتنا إلى شاشة التلفاز وكانوا يعرضون مباراة لأحد البطولات
فالتفت نحو يوسف وابتسمت ابتسامة ساخرة وقلت له: من
ستشجع يا فتى؟

فقال لي: سأشجع الفريق ذو القمصان البيضاء، فقلت له: وأنا
سأشجع اللون الأصفر.

- دعنا نتفق، من يخسر فريقه سوف يدفع الفاتورة، ما
رأيك؟

- أنا موافق، لنرى من سيفوز.

رغم أنني ويوسف لسنا من عشاق "الساحرة المستديرة" كما
يخلو للبعض تسميتها، إلا أن جو التحدي الذي اختلقناه بتنا
الكثير من الحماسة، فمررت وقت المباراة كأنها مسرحية كوميدية،
فلم أتوقف ويوسف عن الضحك طوال الوقت، لأن فريقنا كان
يصارع الهبوط للدرجة الأولى وفريق يوسف كان يطلب
الصدارة، كان من الطبيعي أن نضحك لغزارة الأهداف التي دخلت
مرمى فريقنا، وضحكنا أكثر حين عرفنا أن المباراة في الدوري
الاسكتلندي، و زاد الطين بلة حين اكتشفنا أن المباراة مسجلة
وليست بناً مباشراً، فخرجنا من المقهى قبل حتى أن نكمل
المباراة،

- هل تعتقد أن أحداً من المجانين قد استيقظ؟
- أعتقد أن حسام سيكون مستيقظاً، لأن ضميره سوف يؤلمه إذا مرت ساعة ولم يدخن فيها.
- فصعدنا حيث عُرفنا وكان حسام مستيقظاً كما توقعنا، رأيناه يقف حائراً بين الغرف، فملت على يوسف وقلت له: يبدو أن صاحبك ليست لديه سجاير، إصمت أنت، سأمازحه قليلاً.
- أهلاً أهلاً بعملاق الدبكة، أهلاً حسام.
- ظننتكم نائمين.
- لا، لقد كنا نتابع مباراة هامة في الدوري الاسكتلندي.
- ماذا! ماذا!، ومنذ متى تحبان الكرة أنثما الاثنتين؟.
- ثم ضحك ضحكة ساخرة وقال: ومن تشجعان في الدوري الاسكتلندي؟
- أنا كنت أشجع الفريق الأصفر، وكان يوسف يشجع الفريق الأبيض،
- أسألك عن اسميهما وليس عن ملايسهما.
- إسأل يوسف، هو يعرفهما جيداً!
- فضحك يوسف وقال: هذا أكيد، فأنا أعشق الدوري الاسكتلندي منذ طفولتي، فقاطعنا حسام قائلاً: فليعطني أحدكما سجايره.
- ماذا تقول يا حسام؟،
- ألم تفلح عن هذه العادة المميّنة بعد؟

تَعَاهَدْتُ وَيُوسُفَ أَلَّا نَقْرَبَ السَّجَائِرَ بَعْدَ الْيَوْمِ وَقُمْنَا بِكَسْرِ
جَمِيعِ السَّجَائِرِ الَّتِي لَدَيْنَا.

- تَبًّا لَكُمَا ثُمَّ تَبًّا، بَلْ تَبًّا لِحَظِّي.

عَلِي لَا يُدَخِّنُ، وَالصَّبَايَا لَا يُدَخِّنُ، وَأَنَا نَفَذْتُ سَجَائِرِي،
وَأَنْثُمَا وَعَلَى غَيْرِ الْعَادَةِ تَشْكُوَانِ صَحْوَةً مُفَاجِئَةً فِي
ضَمِيرِكُمَا الْمَيِّتِ أَصْلًا.

فَضَحَكْتُ وَيُوسُفُ خِلْسَةً ثُمَّ أَخْرَجْتُ عُلْبَةَ سَجَائِرِي وَقُلْتُ لِحَسَامٍ:
خُذْ أَيُّهَا الْمُدْمَنُ الْأَحْمَقُ، فَفَرِحَ حَسَامٌ، وَأَخَذَ الْعُلْبَةَ مِنِّي،
- لَنْ تَأْخُذَهَا قَبْلَ شُرُوقِ شَمْسِ الْغَدِ.

- لَا يُهْمُنِي، فَيُوسُفُ مَعِيَ وَسَيُعْطِينِي مَا أُرِيدُهُ.

فَأَقْتَرَبَ يُوسُفُ مِنِّي وَقَالَ :

هَلْ نَسِيتَ أَنَّ سَجَائِرِي نَفَذْتُ وَلَمْ تَشْتَرِ قَبْلَ عَوْدَتِنَا؟!
يَا لِسُوءِ الطَّلَعِ، فَقَدْ انْقَلَبَ السِّحْرُ عَلَى السَّاحِرِ وَوَقَعَتْ بَشِيرَ
أَعْمَالِي، وَإِذَا بَابِ غُرْفَةِ إِسْرَاءِ وَرَوِيدَةٍ يُفْتَحُ، فَخَرَجَتْ رَوِيدَةٌ
بِشَعْرِهَا الْمُنْكَوَشِ وَهِيَ تَتَنَاءَبُ وَتَفْرِكُ عَيْنَيْهَا فَقَالَتْ: كَمْ السَّاعَةُ
الْآنَ؟، أَلَمْ يَحِنْ مَوْعِدُ الْعِشَاءِ!، أَنَا أَشْعُرُ بِالْجُوعِ.

- أَلَا تُلَاحِظِينَ أَنَّكَ أَكْثَرُنَا حُبًّا لِلطَّعَامِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَأَنْتِ أَقْلُنَا
وَرِزْنَا!

لَقَدْ فَاتَكَ وَقْتُ الطَّعَامِ، أَلَمْ تَنْظُرِي إِلَى السَّاعَةِ؟

- لاااااااا، مَاذَا سَأَكُلُ أَنَا الْآنَ؟

- انزلي للمطعم واطلبي منهم ما شئت فلن يمنعوك.

- لَنْ أَنْزَلَ وَأَتْرَكَ إِسْرَاءَ وَحْدَهَا.

- سَأَذْهَبُ أَنَا لِأَبْقَى عِنْدَهَا.

فَنظَرْتُ إِلَيَّ مِنَ الْأَسْفَلِ لِلأَعْلَى وَقَالَتْ: أَنَا أَشْكُرُ مَجْهُودَكَ،

سَأَهَاتِفُ سَارَةَ أَوْ لِينَا لِتَأْتِي أَحَدَهُنَّ وَتَبْقَى عِنْدَهَا، اسْتَرِحِ أَنْتِ.

فَهَاتِفْتُ رَوِيدَةَ سَارَةَ فَأَخْبَرْتَهَا أَنْ تَأْتِي لِلْبَقَاءِ بِرَفْقَةِ إِسْرَاءَ.

لَا أَدْرِي، هَلْ أَجَابَتْ سَارَةَ بِالْقَبُولِ أَمْ الرَّفْضِ، لَكِنِّي رَأَيْتُهَا أَمَامَ

عَيْنِي بَعْدَ مُرُورِ دَقِيقَتَيْنِ فَقَطْ!

- مَا هَذِهِ السَّرْعَةُ؟، لَمْ تَمُضِ سِوَى دَقِيقَتَيْنِ عَلَى مُهَاتِفَتِنَا

لَكَ!

- لَكِنَّ عِشْرِينَ عَامًا قَدْ مَضَتْ عَلَى صِدَاقَتِي وَإِسْرَاءَ يَا

هَشَامَ، هِيَ كَفِيلَةٌ لِتَجْعَلَنِي أَحْضَرَ فِي ثَانِيَتَيْنِ وَلَيْسَ

دَقِيقَتَيْنِ فَقَطْ.

الصَّدَاقَةُ الْحَقَّةُ هِيَ هِبَةٌ مِنَ اللَّهِ، لَنْ تَسْتَشْعِرَ جَمَالَهَا وَأَنْتَ تَانَةٌ

فِي عِمَارِهَا، سَتُدْرِكُ قِيمَتَهَا فَقَطْ إِنْ فَقَدْتَهَا، حَالُهَا كَحَالِ كُلِّ جَمِيلٍ

فِي حَيَاتِنَا، فَلَسْنَا نُدْرِكُ نِعْمَةَ الْمَالِ إِلَّا حِينَ نَسْتَشْعِرُ لَذْعَةَ الْفَقْرِ

وَالْفَاقَةِ، وَلَنْ تَسْتَشْعِرَ نِعْمَةَ وَجُودِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ إِلَّا إِنْ بُلِيتَ بِغَيْبَةِ

أَحَدِهِمَا، وَهَكَذَا.

الصَّدَاقَةُ هِيَ ذَلِكَ الشُّعُورُ الَّذِي يَتَسَلَّلُ إِلَى خَبَايَا رُوحِكَ لِیَصْنَعَ مِنْ

خُيُوطٍ وَحِبَالٍ أَفْكَارِكَ نَسِيجًا، بِهِ مِنَ الْجَمَالِ بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْ

الْقُوَّةِ، هِيَ الصَّدَاقَةُ الَّتِي إِنْ شَتَّتْ أَنْ تَصِفَهَا بِالْجَمَالِ فَسَتَكُونُ

مَلَكَةً عَلَى عَرْشِهِ، وَإِنْ شَتَّتْ وَصَفَ قُوَّتَهَا فَهِيَ حَبْلٌ مَتِينٌ لَا

يمكن قطعه، وحجر ماسٍ جبارٍ قويٍّ عصيٍّ على الكسر مُمتليٍّ
بريقاً وقوةً وجمالاً.

جميلٌ أن تخطَّ بقلمك سطوراً من الحبِّ وأن تكتبَ أبياتاً تصِفُ
فيها معنى الوفاء، وأن ترسم صوراً لذكرياتٍ جميلةٍ صنعتها مع
أهلكِ و أصدقائك، هي أسطرٌ لن تندم يوماً أنك كتبتها ولن تجد
رقابةً تقضُّم أجملَ ما فيها كما تفعل الصُّحفُ في معظمِ بلادنا،
فيغدو المقالُ مهلهلاً كما طيرٍ ذبيحٍ وضع في ماءٍ مغليٍ ليخرج
منتوفَ الريش، وهكذا تغدو مقالاتنا منتوفةً الأفكارِ، مَبتورة
القضايا، فقط إن خالفتَ معاييرَ ما يُسمَّى بالرقابة.

تحدثت عن "الصداقة الحقة"، وسأتحدث الآن عن مصطلحٍ آخر
يُدعى "الصحافة الحقة"، وسأعطي نفسي حقَّ الحديث عنها
بحكمِ دراستي وبحكمِ عملي في عددٍ من الصحفِ الداخليَّةِ
والخارجيَّةِ مع الفارقِ الكبيرِ بينَ التعبيرين، فالصداقةُ تكونُ حقةً
في الغالب، ما لم تشبها الدَّسائسُ والمصالح، أمَّا الصحافةُ فهي
غيرُ حقةٍ في معظمها، ففي بلادنا، سيُطمسُ من مقالِكَ سطرٌ إن
خالفتَ أحدَ السِّياسيينِ الرَّأي، وسطرٌ آخرٌ سيتمُّ طمسُهُ إن خالفتَ
سياسةَ الدولة التي يصفونها بالعليا، رغم إيماني كمواطنٍ قبل أن
أكون صحفياً أن المواطنَ هو صاحبُ السِّيادةِ العليا وليسَ غيره،
ناهيك عما يتمُّ إزالتهُ مُحاباةً لأحدِ أصحابِ النفوذ، أو لغضِّ
الطرفِ عن مخالفةِ أحدِ أصحابِ المناصب.

فتوجَّهنا على وجه السرعةِ بعدها لغرفةِ إسرائ، فدَخَلت سارةَ إليها مُحمَّلةً بالتَّوصياتِ التي كانَ مُعظَّمُها مِنِّي معَ رَشَّةٍ بَسيطةٍ من الوصايا مِن حُسام ورويدة، فَوَقَفْتُ لِأَسألَ نَفسي، إنْ كانَ لي غَرَضٌ من التَّوصيةِ على إسرائ فليكونِها حبيبي، لكنَّ أيَّ غَرَضٍ هُوَ الذي تَمَلُّكُه رويدة؟، ويملِّكُ مثلهُ حسام!، فلمَ تَكُنِ الإجابةُ عَسيرةً عَن هذا التَّساؤلِ، إنَّها الصِّداقةُ الحَقَّةُ بلا شَكِّ.

نزلت رويدة لتأكلَ ونزلَ حسامُ معها بِحِجَّةِ الجُوعِ، ولازلتُ أَشْتَمُ رائحةَ الحَبِّ مِن تَصَرُّفاتِهما، أراهُ الحَبِّ يَغزو أَعْضاءَ الفِرقةِ، فبالأمسِ كُنْتُ وإسرائ، ثمَّ ريمَ و يوسُفَ، واليومَ رويدةَ و حسامَ، ومنْ يَدري مَن سَيَكُونُ غَدًا؟، فبقيتُ ويوسفَ وحَدنا، فأخَذتُ أسألهُ منذُ متى وَقَعَ في حَبِّ ريمَ، فقال: لَقَدْ دَخَلتُ قَلبي مِن أَوَّلِ يَومِ التَّقِيئِها في الجَامعةِ، كُنَّا في السَّنةِ الأُولى في كَلِيَّةِ الفُنونِ، و كانتِ الجَامعةُ قَدِ أَقامتِ احتِفالًا لِلتَّرحيبِ بِالطَّلبةِ الجُدِّدِ، وكُنَّا حَدِيثي عَهدٍ بِالتَّخَرُّجِ مِنَ الثَّانَوِيَّةِ، جاءَ يَومَها رَئيسُ الجَامعةِ و الطَّاقمُ التَّدريسيُّ لِلكَلِيَّاتِ بِكُلِّها، فقاطعتُ حديثهُ قائلاً: أَتَحبُّ أنْ أَكَمَلَ لَكَ بَقِيَّةَ بِرنامِجِ ذلكَ الحَفلِ؟، فقالَ لي: وهَلْ كُنْتُ حاضِراً، فَضَحِكْتُ وَقُلْتُ له: هَلْ نَسيتَ أنَّ إسرائَ في نَفْسِ دُفْعَتِكم؟، أيعقَلُ أَلَّا أَحضُرَ؟، ولكنَّ هَلْ مِن المَعقولِ أنْ تَدَرسَ مَعَكَ ريمَ في نَفْسِ التَّخَصُّصِ وعلَى مَدَى أربَعِ سَنواتِ، إذا اسْتثنينا رُسوبَكُما المُتَكَرِّرِ في كَثيرٍ مِنَ المَوادِ كما أَعلمُ، ولمَ تَجِدُ فُرْصَةً لِتُخَبِّرَها بِتلكَ الاضطِراباتِ التي تُورِّقُ قَلبَكَ المَسمَّاةِ حَبًّا؟، فَضَحِكنا سَويًّا،

وَشَتَانَ بَيْنَ ضِحْكَتِي وَضِحْكَتِهِ، فَأَنَا ضَحَكْتُ لِأَنِّي وَصَفْتَهُ وَرِيمَ
بِكَثِيرِي الرُّسُوبِ، بَيْنَمَا أَظُنُّهُ يَضْحَكُ إِمَّا لِشَعُورِهِ بِالْخَيْبَةِ، أَوْ
ضَحْكَ مُجَامَلَةً لِيُجَارِيَنِي فَقَطًّا، كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ ضَحْكَتَهُ مَا كَانَتْ تَنْمُ
أَبَدًا عَنِ فَرَحٍ أَوْ سَعَادَةٍ.

كثِيرًا كُنْتُ أَنْتَقِدُ نَفْسِي عِنْدَمَا أَجْلِسُ فِي جَلْسَةٍ حِوَارٍ مَعَ ذَاتِي،
وَكَانَتْ جَلْسَاتُ الْحِوَارِ هَذِهِ كَمَا مُحْكَمَةٌ أُقِيمُهَا لِتَقْيِيمِ نَفْسِي،
وَكَانَتْ تُعْطِي أَحْكَامًا وَتُوصِي بِتَوْصِيَّاتٍ تَصَبُّ فِي صَالِحِي
بِالْمُجْمَلِ، لَكِنِّي كُنْتُ قَدْ قَطَعْتُ عَهْدًا بِأَلَّا أَسْتَجِيبَ لِأَيِّ مَنِ
أَحْكَامِهَا، بَلْ وَكُنْتُ أَفْعَلُ الضَّدَّ تَمَامًا، فَالنَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ تَغْلِبُ عَلَيْهَا
عَاطِفَةٌ مُرْتَبِطَةٌ بِالْقَلْبِ، وَبِحَنَانِهِ الْمَعْهُودِ يَرَأْفُ هَذَا الْقَلْبُ وَيَعْفُو
فِي كَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِهِ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَتَدَخَّلَ الْعَقْلُ حِينَهَا رَغْمَ قَسْوَتِهِ،
وَيَبْقَى لَكَ أَنْتَ أَنْ تُوَازِنَ بَيْنَ عَاطِفَةِ الْقَلْبِ وَحَنَانِهِ وَحِكْمَةِ الْعَقْلِ
وَ قَسْوَتِهِ ثُمَّ تُطَلِّقَ الْحُكْمَ النِّهَائِيَّ، أَشْبَهُهُ مَا يَكُونُ الْأَمْرُ بِتَشَارِكِ
الْأَبِ وَالْأُمِّ فِي تَرْبِيَةِ ابْنٍ لَهُمَا، فَالْأُمُّ هِيَ مَصْدَرُ الْعَاطِفَةِ، وَالْأَبُ
عِنْدَهُ تَكْمُنُ الْحِكْمَةِ، وَكَثِيرَةٌ هِيَ الْقَرَارَاتُ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى
الْحِكْمَةِ، وَلَا يَخْلُو الْأَمْرُ مِنْ قَرَارَاتٍ يَجِبُ أَنْ تَتَغَلَّبَ فِيهَا الْعَاطِفَةُ،
فَلَا بَدَّ مِنَ الْمُوَازَنَةِ بَيْنَهُمَا كَيْ تَنْجَحَ تَرْبِيَةُ هَذَا الطِّفْلِ، وَحَبْدًا لَوْ
خَالَطَتْ حِكْمَةُ الْأَبِ شَيْئًا مِنَ الْعَاطِفَةِ، وَامْتَزَجَتْ عَاطِفَةُ الْأُمِّ
بِشَيْءٍ مِنَ الْحِكْمَةِ.

عُدْنَا نَعْرِفْنَا وَعَادَاتٍ مَعِي إِسْرَاءَ، قَدْ لَا تَكُونُ مَوْجُودَةً جَسَدًا،
لَكِنَّهَا مَوْجُودَةٌ بِذَاكَرَتِي عَلَى الدَّوَامِ، هِيَ بَطْلَةٌ كُلِّ أَحْلَامِي سِوَاءَ

كانت في اليقظة أو في المنام، وعبق رائحة الياسمين التي تتبعث منها لا تفارق الهواء الذي أتَنَفَّسه، إن كان الطَّعامُ غذاءً للجسد، فإسراءٌ بضحكتها، بدلالها، برائحتها الزكيَّة، بغضبها مني الذي لم تُجده يوماً بل كانت تصطنعه، وبراءتها المنقطعة الشبيه كانت غذاءً لروحي، كانت تُرافقتني في سهري ونومي، في أنسي ووحدي، وفي سفري وإقامتي، فابتسامه واحدة من فيها كانت كقيلةً بملى حياتي بالسَّعادة والسُّرور.

كثيرةً هي نعم الله علينا و له الحمد، لكنني عندما كنت أستشعرُ نعمةً وجودها في حياتي كنتُ أتذكرُ قوله تعالى في كتابه الكريم " وإذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ " فكنْتُ أغمضُ عينيَّ وأنفكرُ فيها وأشكرُ الله كثيراً ولا أظنُّ شكري هذا مهماً بلغت كثرته يُساوي نعمةً واحدةً أنعم الله بها عليّ، فعُدْتُ لأنام مُستريح البال مُطمئن القلب، وإذا بصوتِ أذانِ الفجرِ يُوقظني، لكنَّ الشيطانَ أفتني بغفوةٍ لا تتجاوزُ عشرَ دقائق، أعلمُ بتقصيري في كثيرٍ من الفروض، لكنني لم أضع صلاةَ الفجرِ في الجماعةِ يوماً أيّاً كان الظرفُ مذ بلغتُ الرَّابِعةَ عشرةً من عمري، كان سببُ حرصي أن أصلِّيها بالتحديد في جماعةٍ حديثٌ عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَنَا بِهِ مَعَلِّمٌ فِي مَرِحَةِ دَرَسَتِي الْمُتَوَسِّطَةِ، يَقُولُ فِيهِ رَسُولُ اللهِ: " من صَلَّى الفجرِ في جماعةٍ فهو في ذمَّةِ الله "، ما أجملَ هذا الوعد، فهو ضمانٌ من الله على لسانِ خيرِ خلقه لِمَن يُصَلِّي هذه الصَّلَاةَ في جماعةٍ بأن يكونَ في

ذِمَّتْهُ سُبْحَانَهُ، رَاحَةً نَفْسِيَّةً عَظِيمَةً كُنْتُ أَسْتَشْعِرُهَا عِنْدَمَا أُوَدِّيْهَا فِي وَقْتِهَا مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَلَكِنِّي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْ سِنِينَ خَلْتُ أَضْعُفُهَا، فَأَوْقَظَنِي ضَوْءُ الشَّمْسِ حِينَ بَزَغَ فِي عَيْنِي، فَذَهَبْتُ لِلْمُصَلَّى وَكَانَ الْمَصَلُّونَ قَدْ خَرَجُوا، فَصَلَّيْتُ مُفْرَدًا ثُمَّ صَعِدْتُ لِلأَعْلَى وَجَلَسْتُ عَلَى الشَّرْفَةِ، فَحِينَ لَا تَكُونُ مَوْجُودَةً إِسْرَاءَ أَفْضَلِ الْبَقَاءِ وَحَدِي وَلَا يُؤَانِسُنِي سِوَى قَهْوَتِي وَسِجَارَتِي، فَاسْتَعِيدُ ذِكْرِيَاتِ الْمَاضِي، فَأَدْرِكُ مَوَاضِعَ خَطَايَا وَصَوَابِي، وَأَتَفَكَّرُ فِي الْحَاضِرِ وَكُلِّ مَا يَدُورُ حَوْلِي، وَأَخْطِطُ لِمَا قَدْ أَحْيَى لِأَعِيشُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

أَعَشَقْتُ هَذِهِ الْخَلْوَةَ رَغْمَ أَنَّهَا غَيْرُ مُتَاحَةٍ لِي دَائِمًا بِحُكْمِ عَمَلِي فِي الصَّحَافَةِ وَالْإِعْلَامِ وَبِحُكْمِ حَيَاتِي بِرَفَقَةٍ وَالِدِيِّ وَمُتَطَلِّبَاتِيهِمَا، وَجُودِ إِسْرَاءَ فِي عَالَمِي أَيْضًا يَشْغَلُ مُعْظَمَ وَقْتِي، لَا أَحْظِي بِهَذِهِ الْخَلْوَةَ إِلَّا حِينَ أَنْجَحُ فِي التَّمَلُّصِ مِنْ أَحَدِ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ.

أَذْكَرُ مَرَّةً أَنِّي قَرَّرْتُ الْخَلْوَةَ مَعَ نَفْسِي وَطَفَّفْتُ فِي التَّرْتِيبِ لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ، كَانَ وَالِدِي مُنْشَغَلًا فِي عَمَلِهِ وَطَلَبَتْ وَالِدَتِي مِنِّي إِبْصَالَهَا لِتَقْضِي عِنْدَ حَنَانِ يَوْمِهَا وَأَبْلَغْتَنِي إِسْرَاءَ أَنَّهُمْ مَدْعُوْنَ فِي مَنْزِلِ جَدِّهَا، فَخَرَجَ أَبِي وَأَوْصَلْتُ وَالِدَتِي وَمُطْمَئِنٌّ كُنْتُ عَلَى حَبِيبَتِي كَيْفَ تَقْضِي وَقْتَهَا، أَذْكَرُ أَيْضًا أَنِّي أَغْلَقْتُ هَاتِفِي النَّقَّالَ وَرَفَعْتُ سَمَاعَةَ هَاتِفِ الْمَنْزِلِ لِيَبْقَى مَشْغُولًا وَلَا يَنْصَلِّ بِي أَحَدٌ، ثُمَّ أَطْفَأْتُ أَنْوَارَ الْمَنْزِلِ وَاكْتَفَيْتُ بِنُورِ الشَّمْسِ وَرَفَعْتُ يَدَايَ فِي السَّمَاءِ وَفَرَّقْتُهُمَا يَمِينًا وَيسَارًا وَتَنَهَّدْتُ بِأَعْلَى صَوْتٍ ثُمَّ دَخَلْتُ

للمطبخ لأستدعي حبيبتي السمرء التي اخترتها لشاركني هذه
الخلوة، فقامت بتحضيرها وتكريمها، فصنعتها في أفضل آنية
وصببها في أجمل كوب، ثم توجهت لمكتبي، فجلست بين
أفلامي، أوراقى وكُتبي، بين أشعاري، أفكارى و مقالاتى وأشعلت
سيجارتى ورشفت رشفة من قهوتى ثم أغمضت عيني كي تركد
الأفكار بعقلي وتستقر، لأعرف بأيها أبدأ، هل أكتب مقالاً؟، أم
أحكي شعراً؟، أم أستقل آلة الزمان الأسطورية لأستعيد بعضاً من
ذكرياتى التي عشتها؟، وبعد طول تفكير استقرت على أن أكتب
مقالاً، فاسترجع الذكريات لا يكون لي في وقت أرقى رفيق
سواه فلن أدعه يأخذ حصّة غيره من الوقت، وأما الشعر فمؤمن
أنا أن أجمله يأتي فجأة، دون أن تبدل أدنى جهد لاستدعائه،
أستطيع أن أكتب من الشعر ديواناً إن كان الشعر مقتصرًا على
سرد الكلمات فقط وصقها بميزان معين دون أيّ مشاعر، فإن
أكتب بيتاً تحكيه دقائق قلبي أفضل عندي ألف مرّة من معلقة
مجردة من المشاعر.

كان ما كتبته مقالاً في ثوب قصة، فهو يحمل شيئاً من الحكمة
والبعض من التسلية، وكان عنوان قصتي "حكايته مع الحكيم"،
وسردتها على هذا الشكل :

"ذات يوم كنت أجلس مع صديق لي في أحد المقاهي، فنظرت إليه
فوجدت علامات الدهشة ظاهرة على وجهه، فسألته ماذا رأيت

ولماذا كلُّ هذه الدهشة؟، فقال لي: أتعلمُ من ذاك الكهل الذي يقرأ
الصَّحيفةَ على الطاولةِ المُجاورةِ؟
فأجبته: ومن أين لي أن أعرفه!، فأجابني إجابةً أدخلت إلى قلبي
السُّرورَ بالقدرِ الذي أدخلت به إلى عقلي الدهشة.
قال لي هل تذكرُ الكاتبَ الذي تملأُ كُتبه مكتبك ولطالما تحدّثت عن
حكّمه وكتّابته؟

فأجبته: نعم بالتأكيد وكيف لي أن أنساه!، فقال لي: ذاك هو الحكيم
الذي تُعجبك كتّابته دون أن تلتقي به حتى.

لا أخفيكم أنني شعرت بالسعادة والفرح أنني التقيتُه، لأنني أملك
موضوعًا في صدري لطالما وددت أن أناقشه فيه وجها لوجه،
فقررتُ أن أذهب إلى طاولته، لأجد إنسانًا بسيطًا رائعًا لم أشعر
معه بالخجل، لأنه عاملني كما لو كنتُ صديقه منذ زمن بعيد.

وبعد جلوسي وحديثي معه وبعد حفنة من المُجاملات التي غمرني
بها، تجرأتُ وأخبرته بالموضوع الذي طالما رغبتُ في مناقشته
معه بالذات، فقلتُ له: يا دكتور "فلان" بحكم أنك حاصلٌ على
شهادةِ الدكتوراة في علمِ النفس وكل مؤلفاتك تبحثُ في علم
الاجتماعِ ومحاكاةِ النفسِ البشريّة، لن أخفيك بأنني لطالما رغبتُ
بلقائك حتى أسألك عن صحةِ مقولةٍ لطالما استقرت في خلدي.

فقال لي تفضلُ فكلي آذان مُصغية، فبدأتُ حديثي وقلتُ له: أريد أن
أطرح عليك سؤالًا: هل يمكن للإنسان أن يشعرَ بالسعادةِ لأنه
حزين؟، فنظر إليَّ وتبسّم وأشعلَ سيجاره الثخين وقال لي: ومن

الذي أَخْبَرَكَ أَنَّ الحُزْنَ هو نَقِيضُ السَّعَادَةِ؟، فَقُلْتُ لَهُ: مَاذَا إِذَا؟، فَتَبَسَّمَ وَقَالَ أَعْرَنِي انْتِبَاهَكَ قَلِيلًا، الحُزْنَ نَقِيضُهُ الفَرَحُ، كَمَا أَنَّ السَّعَادَةَ نَقِيضُهَا التَّعَاسَةُ وَلَيْسَ الحُزْنَ، فَمِنَ المُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ حَزِينًا لَكِنَّا نَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ وَقَدْ لَا تَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ فِي دَاخِلِكَ حَتَّى لَوْ مَرَّتْ بِكَ لَحَظَاتُ الفَرَحِ بِسَبَبِ مَوْقِفِ مَا.

لَا أَخْفِيكُمْ أَنَّنِي طَالَمَا أَظْهَرْتُ عَدَمَ فَهْمِي وَعَدَمَ اقْتِنَاعِي، وَمَا كَانَ هَذَا إِلَّا لِأَنَّي كُنْتُ أَرْغَبُ أَنْ أُطِيلَ الحَدِيثَ مَعَ هَذَا الحَكِيمِ كَيْ أَنهَلَ مِنْ مَعِينِ العِلْمِ الَّذِي يَمْلِكُهُ، مَعَ أَنَّنِي قَدْ اقْتَنَعْتُ بِكَلَامِهِ مِنْ كَلِمَتِهِ الأُولَى، فَانْهَى سَيِّدِي الحَكِيمُ كَوْبَ قَهْوَتِهِ وَهَمَّ بِالرَّحِيلِ، فَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أُخْبِرَ مَنْ أَعْرَفَهُمْ بِهَذِهِ القِصَّةِ، فَأَذِنَ لِي أَنْ أُخْبِرَ بِالقِصَّةِ وَلَكِنْ دُونَ أَنْ أَدُكِّرَ اسْمَهُ، لَعَلَّهُ قَالَ فِي نَفْسِهِ تُرَى أَيْنَ سَيَزُجُّ هَذَا الأَحْمَقُ بِاسْمِي؟.

كَانَ يَلْفُتْنِي مَا يُطْلَقُهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ عَلَى قِصَائِدِهِمُ الصَّغِيرَةِ، حَيْثُ كَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَيْهَا اسْمَ "طَقْطُوقَةٍ"، وَكَانَتْ كَثِيرًا مَا تَسْتَهْوِي القُرَّاءَ وَالمُسْتَمْعِينَ هَذِهِ الطَّقْطُوقَةَ، أَشْبَهَ مَا يَكُونُ الَّذِي كَتَبْتُهُ لِتَوِي طَقْطُوقَةً فِي الصَّحَافَةِ فَابْتَسَمْتُ ثُمَّ تَرَكْتُ مَكْتَبِي بَعْدَهَا وَاتَّجَهْتُ لِأَقْفِ قَرَبِ النَّافِذَةِ الَّتِي تُطَلُّ عَلَى الشَّارِعِ أَرْقُبُ المَارَّةَ ، فَاسْتَشْعَرْتُ حِينَهَا أَنَّ أَحَدَنَا يَظُنُّ النِّعْمَةَ الَّتِي هُوَ عَارِقٌ فِيهَا أَنَّهَا نِعمَةٌ وَلَا يَسْتَشْعَرُهَا إِلَّا إِذَا انْتَزَعَتْ مِنْهُ، وَأَكْبَرُ مِثَالٍ مَا قُمْتُ بِهِ أَنَا اليَوْمَ، فَقَدْ كُنْتُ أَعْدُ النَّوَانِي كَيْ أَنْفِرَدَ بِنَفْسِي وَأَبْقَى وَحِيدًا، وَبَعْدَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطَّ شَعْرَتُ بِالمَلَلِ وَسَيِّمْتُ الوَحْدَةَ، وَبَعْدَ أَنْ كُنْتُ

أَفْضَلُ بَيْنَ كِتَابَةِ الشَّعْرِ وَكِتَابَةِ مَقَالٍ، صِرْتُ أَفْضَلَ بَيْنَ الْإِتِّصَالِ
بِوَالِدَتِي أُمِّ بَوَالِدِي، فَأَيَّقَنْتُ يَوْمَهَا أَيُّ نِعْمَةٍ تَلَكَ الَّتِي أُرْفَلُ فِيهَا.
عُدْتُ لِعُرْفَتِي عَلَيَّ أَخْطَفَ غَفْوَةً قَصِيرَةً، فَأَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ وَإِذَا بَابِ
عُرْفَتِي يَفْرَعُ، مَنْ تَرَاهُ هَذَا السَّخِيفُ!، فَفَتَحْتُ الْبَابَ فَرَأَيْتُ أَمَامِي
رِيْمَ فِي ثِيَابِ النَّوْمِ، لَا لَيْسَتْ ثِيَابَ نَوْمٍ، هِيَ ثِيَابُ إِثَارَةٍ وَإِغْرَاءِ،
فَامْتَزَجَ مَظْهَرُهَا الْمَثِيرُ بِرَائِحَةِ عِطْرِهَا الرَّقِيقِ الَّذِي أَنْسَابَ مَعَ
نَسَمَاتِ الْهَوَاءِ، فَامْتَزَجَتْ هَذِهِ بِتِلْكَ، وَزَادَتْ ذَلِكَ الْمَوْقِفَ صُعُوبَةً
إِمْسَاكُهَا بِذِرَاعِي وَهِيَ تَقُولُ: أَلَنْ تَدْعُونِي لِلدُّخُولِ؟، بِصَوْتِهَا
النَّاعِمِ الَّذِي خَالَطَهُ شَيْءٌ مِنْ غُنْجٍ مِصْطَنَعٍ، فَاجْتَمَعَتْ عَلَيَّ ثَلَاثٌ
هِنَّ كَفِيلَاتٌ بِإِيقَاعِ أَيِّ إِنْسَانٍ فِي الْمَحْظُورِ إِذَا نَقَصَتْ إِرَادَتُهُ، إِنَّهَا
النَّفْسُ وَالْهَوَى وَالشَّيْطَانُ وَأَظْنُهَا قَدْ اجْتَمَعَتْ، فَالْنَّفْسُ الْأَمَارَةُ
بِالسُّوءِ وَجَدَتْ مِنَ الْمُبَرَّرَاتِ وَالْمَسْوُوعَاتِ الْآفَاءَ، وَهَوَى شَابٍ فِي
مِثْلِ عُمْرِي هُوَ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا الْفِعْلَ الَّذِي يُعْتَبَرُ فِرْصَةً قَدْ لَا تَتَكَرَّرُ،
وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَهَذَا هَدَفُهُ وَتِلْكَ غَايَتُهُ، سَيَجْعَلُ الْقَبِيحَ فِي حِينِهَا آيَةً
فِي الْجَمَالِ، وَيَجْعَلُ الْحَرَامَ حَلَالًا وَالْمَكْرُوهَ مُسْتَحَبًّا، فَسَحَبْتُهَا بِقُوَّةٍ
مِنْ ذِرَاعِهَا وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ وَقُلْتُ لَهَا: هَلْ جُنِنْتِي؟، كَيْفَ تَخْرِجِينَ
مِنْ عُرْفَتِكَ بِهَذِهِ الْمَلَابِسِ؟، وَبِذَاتِ الْغُنْجِ قَالَتْ: هَلْ تُرِيدُنِي أَنْ
أَخْرُجَ؟، كَأَنِّي بِهَا قَرَأْتُ فِي عَيْنَيَّ الَّتِي كَانَتْ تَتَفَحَّصُ مَفَاتِنَهَا
الْإِجَابَةَ عَنْ سَوَالِهَا، شَيَاطِينُ الْجَنِّ تُوسَّوْسُ لِي وَتُغْرِينِي بِهَا،
وَشَيْطَانَةٌ مِنَ الْإِنْسِ تَقْفُ أَمَامِي، وَلَسْتُ بِالصَّدِيقِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَلَسْتُ بِعَفَّتِهِ، وَلَسْتُ بِنَقَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَانَتِهِ

لَتَصْفِي فَتَاةً لِأَبِيهَا وَتَقُولُ "إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ"،
فَلَمْ تَدَعْنِي نَفْسِي حَتَّى وَقَعْتُ فِي الْهَائِيَةِ، وَفِيمَا أَعْرَفُ أَوْ لِنَقْلِ
فِيمَا شَاهَدْتُ فِي أَفْلَامٍ وَمَسَلْسَلَاتِ التَّلْفَازِ أَنَّ الْفَتَاةَ تَكُونُ مُنْكَسِرَةً
نَادِمَةً بَعْدَ فَعْلٍ كَهَذَا، لَكِنَّ رِيمَ كَانَتْ نَائِمَةً عَلَى السَّرِيرِ وَقَدْ تَجَرَّدَتْ
مِنْ حَيَائِهَا، وَكَانَتْ تَضَعُ كَعْبَ قَدَمِهَا الْيُمْنَى فَوْقَ أَصَابِعِ قَدَمِهَا
الْيُسْرَى ثُمَّ أَخَذَتْ عُلْبَةَ سَجَائِرِي وَأَشْعَلْتُ سِجَارَةً، وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ
مَرَّةٍ أَرَاهَا تَقُومُ بِالتَّدخينِ فِيهَا، ثُمَّ اقْتَرَبَتْ مِنِّي وَغَرَسَتْ سِجَارَةً
بَيْنَ شَفَتَيْ وَأَشْعَلْتُهَا مِنْ سِجَارَتِهَا الْمُشْتَعِلَةِ فِي فَمِهَا، فَقَبِضْتُ
بِيَدِي السِّجَارَةَ فَانْطَفَأَتْ، وَلَا أَدْرِي هَلْ دَمَعُ عَيْنِي مَا أَطْفَأَهَا أَمْ
صَدِيدٌ خَرَجَ مِنْ كَفِّي حِينَ قَبِضْتُ بِيَدِي تِلْكَ السِّجَارَةَ، وَفِي ظِلِّ لَا
مُبَالَاتِهَا هَذِهِ، كُنْتُ أَجْلِسُ أَنَا عَلَى حَافَةِ السَّرِيرِ وَأُغْمِضُ بِيَدِي
عَيْنِي، لَيْتَ هَذِهِ الْعَيْنَيْنِ لَا تَرَ الشَّمْسَ بَعْدَ الْيَوْمِ، هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي
هُوَ أَسْوَأُ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيَّ مِنْذُ وَوَلَدْتَنِي أُمِّي، فَقَدْ خُنْتُ فِيهِ حَبِيبَتِي
وَخُنْتُ حُلْمَ عُمْرِي، وَخُنْتُ دِينِي وَالتَّزَامِي وَصَلَاتِي، خُنْتُ أَيْضًا
صَدِيقِي الَّذِي أَخْبَرَنِي مِنْذُ سَاعَاتٍ مَضَتْ أَنَّهُ غَارِقٌ فِي حَبِهَا،
وَأَخِيرًا خُنْتُ تَرْبِيَّتِي الَّتِي لَطَالَمَا رَفَعَ بِهَا رَأْسَهُ أَبِي وَكَذَلِكَ أُمِّي،
كَيْفَ فَعَلْتُ ذَلِكَ!، تَبًّا لِي، تَبًّا لِقَلْبِي، أَيُّ مَنَافِقٍ دَجَّالٍ أَنَا!، كُلُّ تَأْيِيبِ
الضَّمِيرِ هَذَا رَاوَدَنِي وَرِيمُ اللَّعِينَةُ مُسْتَلْقِيَةً عَلَى السَّرِيرِ مُنْتَشِيَةً
لِإِطَاعَتِهَا بِي، فَبَدَأْتُ أَسْئَلُهُ تُخِيمَ عَلَى عَقْلِي وَأَنَا مُغْمِضٌ عَيْنِي، مَا
الَّذِي فَعَلْتَهُ يَا هِشَامُ!، أَعْطَنِي مُبَرَّرًا وَاحِدًا لِنَفْعَلُ مَا فَعَلْتُ، أَهْوَى
الشَّيْطَانُ مَنْ أَطَاعَ بِكَ؟ أَمْ لِلدَّوَاءِ الَّذِي اسْتَمَرَّتْ شُرْبُهُ دُونَ إِذْنِ

طبيبٍ دَوْرُهُ؟، أَعْرَكَ ثَنَاءَ رِيمٍ حِينَ قَالَتْ بِأَنَّ عَيْنَكَ لَا تَرَى أَنَّنِي
أَجْمَلُ مِنْ إِسْرَاءِ؟.

لَنْ أَنْجَحَ فِي إِيجَادِ مَبْرَرٍ لِقَبِيحِ فِعْلِي، فَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنِّي تَجَاوَزْتُ
جُرْعَةَ الدَّوَاءِ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ تَفَنُّنِ رِيمٍ فِي إِثَارَتِي إِلَّا أَنَّنِي كُنْتُ
وَاعٍ تَمَامًا لِكُلِّ مَا قَمْتُ بِفِعْلِهِ، وَهَذَا مَا يَزِيدُ نَفْسِي لَوْعَةً
وَضَمِيرِي تَأْنِيبًا، فَقَمْتُ مِنْ مَكَائِي وَوَقَفْتُ بِجَانِبِ رِيمٍ وَقُلْتُ لَهَا
بِنَبْرَةِ التَّوْبِيخِ: مَا لَذِي فَعَلْتَهُ أَنْتِ؟، مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ إِلَى عِرْفَتِي
فِي هَذَا الْوَقْتِ؟، فَقَالَتْ: أَنَا لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا، أَنْتَ مِنْ فَعَلٍ، وَبِالنِّسْبَةِ
لِمَجِيئِي لِعِرْفَتِكَ فَقَدْ كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنِ السَّاعَةِ، وَهَذَا دَلِيلٌ
أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ مَا الْوَقْتُ، وَحَتَّى لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُهُ فَلَا مُشْكَلَةَ،
فَالشَّمْسُ كَانَتْ مُشْرِقَةً وَلَمْ آتِ إِلَيْكَ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، فَدَعَوْتَنِي
لِلدُّخُولِ، فَدَخَلْتُ وَكُنْتُ مُطْمَئِنَّةً لِدِينِكَ وَأَمَانَتِكَ، وَفَوْقَ ذَلِكَ فَقَدْ
كُنْتُ مُتَأَكِّدَةً مِنْ حُبِّكَ لِحَبِيبَتِكَ، لَكِنَّكَ خَذَلْتَنِي لِلْأَسْفِ، وَكَانَتْ تَتَكَلَّمُ
بِطَرِيقَةٍ مُسْتَفْزِةٍ، فَسَحَبْتُهَا مِنْ شَعْرِهَا وَقُلْتُ لَهَا: تَكْذِيبِينَ أَيَّتْهَا
الْحَبِيبَةُ، فَأَمْسَكْتُ خِصْلَةً مِنْ شَعْرِهَا وَنَفَخْتُهَا عَلَى وَجْهِهِ وَقَامَتْ
مِنَ السَّرِيرِ وَقَالَتْ: لَا تَخَفْ، لَنْ أُخْبِرَ حَبِيبَةَ الْقَلْبِ الْآنَ بِمَا فَعَلْتَهُ،
لَكِنَّكَ تَعْلَمُ بِالتَّأَكِيدِ مَا عَلَيْكَ فِعْلُهُ، فَسَأَلْتُهَا بِغَضَبٍ عَنِ الَّذِي
تَرِيدُنِي أَنْ أَفْعَلَهُ، فَقَالَتْ: مَاذَا سَيَكُونُ غَيْرَ الزَّوْاجِ، رَغْمَ أَنَّهُ لَا
يَشْرَفُنِي، فَمَنْ يَخُونُ حُبَّ عَمْرِهِ كَمَا يَدَّعِي مِنْ أَجْلِ شَهْوَةٍ، لَنْ
يَكُونَ مُؤْتَمِنًا عَلَى زَوْجَةٍ، فَقُلْتُ لَهَا: لَا تَحْلُمِي أَنْ يَحْصُلَ هَذَا،
فَقَالَتْ: إِنْ لَمْ يَحْصُلْ بِرِضَاكَ فَسَيَحْصُلُ رُغْمًا عَنْكَ، ثُمَّ خَرَجَتْ

وَحَرَجْتُ أَنَا مِنَ الزَّمَانِ وَأَتَى بِبَالِي مِثْلَ لَطَالَمَا رَدَدْتُهُ أَمِّي إِذْ كَانَتْ تَقُولُ: تَذْهَبِ السَّكْرَةُ، وَتَأْتِي الْفِكْرَةُ، أَيُّ أَنْ السَّكْرَانَ سَتَاتِيهِ لِحِظَةً تَنْتَهِي فِيهَا سَكْرَتُهُ الَّتِي ظَنَّ أَنَّهُ بِهَا قَدْ تَخَلَّصَ مِنْ مُشْكِلتِهِ، لَتَعُودَ الْمَشْكلَةُ وَتَقُولُ لَهُ: هَا أَنَا ذَا!.

الدُّمُوعُ تَتَصَبَّبُ مِنْ عَيْنِي كَالشَّلَالِ، فَمَا قَدْ فَعَلْتَهُ كَانَ شَبِيهَا بِلَعْبَةِ "البولينج"، حَيْثُ تُطْلَقُ الْكُرَةُ لِتُسْقَطَ أَكْبَرَ عَدِيدٍ مِنَ الْعَصِيِّ الْمَرْصُوصَةِ، وَكَانَتْ لُعْبَتِي أَنَا بِكُرَةً مِنْ لَهَبٍ، أَطْلَقْتُهَا تَجَاهَ أَحْلَامِي الَّتِي لَطَالَمَا اجْتَهَدْتُ فِي رَصِّهَا وَتَرْتِيبِهَا طَوَالَ حَيَاتِي، فَكُنْتُ كَلَاعِبٍ مُحْتَرَفٍ قَذَفْتُ بِالْكُرَةِ لِأَسْقَطَ جَمِيعَ الْعَصِيِّ، نَعَمْ لَقَدْ أَسْقَطْتُ جَمِيعَ أَحْلَامِي دَفْعَةً وَاحِدَةً، فَصَارَ عَلَيَّ مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ أَنْ أَقُومَ بِتَرْتِيبِ الْكُوابِيسِ الَّتِي سَتَكُونُ بِانْتِظَارِي، مِنْ هَذِهِ السَّاعَةِ أَنَا لَا أَدْرِي كَيْفَ سَأَنْظُرُ لِمِرَاتِي!، وَهَلْ سَأَمْسُطُ شَعْرِي وَأَهْتَمَّ بِمَلْبَسِي وَهِنْدَامِي؟، أَمْ سَأَبْصُقُ وَأَكْسِرُ هَذِهِ الْمِرَاةَ حِينَ أَرَى صُورَتِي فِيهَا، وَنَظَرْتُ إِلَى كُوفِيَّتِي وَسَأَلْتُهَا: هَلْ أَسْتَحِقُّ أَنْ أَضَعَكَ حَوْلَ رِقْبَتِي وَفَوْقَ أَكْتَافِي بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ؟، وَأَنْتِ يَا حَبِيبَتِي، هَلْ أَسْتَحِقُّ أَنْ أَلْمَسَ وَجْنَتِكَ؟، هَلْ يَحِقُّ لِي أَنْ أُمْسِكَ خِصْلَةً مِنْ شَعْرِكَ؟، وَأَنْتِ يَا يَوْسُفَ، هَلْ أَسْتَحِقُّ صِدَاقَتَكَ؟، تَطْلُبُ نَصِيحَتِي دَائِمًا، فَهَلْ أَنَا أَهْلٌ لِأَنْصَحَكَ؟، أَسْئَلُ لَيْسَ لَهَا غَيْرُ إِجَابَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ "لا"، فَلَمْ أَعُدْ أَهْلًا لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا بِإِلَّا شَكِّي. فَحَرَجْتُ مِنْ عُرْفَتِي وَوَقَفْتُ فِي شُرْفَةِ الطَّابِقِ أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَزَائِرِ وَطَهْرِهِمْ، ثُمَّ أَعُودُ لِأُخْفِضَ رَأْسِي وَأَهْرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا

نَدَمًا عَلَى تِلْكَ الْغُدْرَةِ الَّتِي غَدَرْتَ وَالْخَطِيئَةَ الَّتِي ارْتَكَبْتُ؟، صرْتُ
أَتَحَدَّثُ لِنَفْسِي بِصَوْتٍ مَرْتَفِعٍ قَائِلًا: ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ؟، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ
لِي مِنْ مُجِيبٍ عَنِ سُؤَالِي، فَوَضَعَ يَدَهُ فَوْقَ شَعْرِي أَحَدَهُمْ فَلَمْ
أَفْتَحْ عَيْنِي مُبَاشَرَةً، حَتَّى نَادَانِي مَنْ وَضَعَ عَلَى رَأْسِي يَدَهُ
بِاسْمِي، وَكَانَتْ رَوِيدَةٌ هِيَ ذَلِكَ الشَّخْصُ، فَسَأَلْتَنِي إِذَا مَا كُنْتُ
نَائِمًا، فَأَبْتَسَمْتُ ابْتِسَامَةً سَاخِرَةً وَقُلْتُ: وَهَلْ يَنَامُ الْمَرْءُ وَاقْفًا؟،
تَبِعْتُ إِجَابَتِي هَذِهِ تَنْهِيدَةً خَرَجْتُ مِنْ قَاعِ قَلْبِي، فَسَأَلْتَنِي عَمَّا
يُكَدِّرُنِي، فَأَجَبْتُهَا بِأَنْ كَابُوسًا قَدْ نَعَّصَ نَوْمِي، وَلَيْتَهُ كَانَ كَابُوسًا
فَيُكْتَفَى بِتَنْغِيصِ بَضْعِ سَاعَاتٍ مِنَ النَّوْمِ فَقَطْ، مَا أَشْكَو مِنْهُ هُوَ مَا
سَيُنْعِصُ عَلَيَّ مِنْ عُمْرِي سَنَوَاتٍ وَ سَنَوَاتٍ، وَلَا أَرَاهُ سَيُكْتَفَى
بِذَلِكَ، فَلَقَدْ سَلَبَ وَاقِعِي وَعَبَتْ بِذِكْرِي الَّتِي اجْتَهَدْتُ فِي
صِنَاعَتِهَا أَيَّامًا طَوِيلَةً وَسِنِينَ، فَقُلْتُ لَهَا: دَعِينَا نَطْمِئِنُّ عَلَى
إِسْرَاءِ وَنَعُودِ لِلنَّوْمِ قَلِيلًا، فَدَخَلْنَا غُرْفَتَهُمَا وَأَقْتَرَبْتُ مِنْ سَرِيرِ
حَبِيبَتِي الَّتِي كَانَتْ نَائِمَةً، يُشَبِّهُهَا الْأَطْفَالُ فِي نَوْمَتِهَا، فَهَمَمْتُ أَنْ
أَحْظِيَ بِلَمْسَةٍ مِنْ خَدِّهَا، فَقَابَلَ كَفِّي كَفَّهَا، فَضَمَّتْ يَدِي بِكِلْتَا يَدَيْهَا
وَوَضَعَتْهَا فَوْقَ قَلْبِهَا وَلَمْ تَفْتَحْ عَيْنَيْهَا وَقَالَتْ: أَهْلًا هَشَامَ، أَهْلًا
حَبِيبِي،

- كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّي الْقَائِمِ؟، أَمِنْ رَائِحَتِي!
- كَلَّا، فَرَائِحَةُ الْبَنَجِ وَالْمَحَالِيلِ لَازَلْتَ تَعْبَثُ بِحَاسَّةِ الشَّمِّ
عِنْدِي بَيْنَ الْفِينَةِ وَالْأُخْرَى.
- كَيْفَ عَرَفْتَ إِذَا؟

- إن لم أستطع شمَّ رائحة المسك النابغة من جلدك ولم أسمع صوتك الدافئ الحاني الحنون، فلن يعجز قلبي أن يستشعر قرب القلب الذي لطأما أحبه.

تظلُّ حبيبتي تتعلم مني جميل القول وتضع عليه من حلاوة قولها، لكن أيُّ قولٍ جميلٍ هذا الذي سأقوله لها معتذراً عما فعلت، وهل سأعود لأطرب بحلاوة كلامها إن فُدر لها بأن تعرف.

هناك من يتصلُّ بي، فأجبت بسرعةٍ دون أن أقرأ اسم المتصلِّ، فقلت: أهلاً يا خالة،

- لستُ خالتك يا أخي، أنا أختك حنان.

- حبيبتي يا حنان، ظننتك والدةٍ إسراء.

- كيفك؟ ومتى ستعودون؟، اشتقتُ إليك يا أخي.

فشعرت بالقلق حينها، فحنانٌ لا تُناديني أخي إلا إن كان هناك ما يُكدر خاطرها، فسألتها إن كان ثمة ما يُزعجها فأنكرت ولم تُخبرني رغم إلحاحي، فأخبرتها أننا قادمون صباح الغد بإذن الله، وسنكون في عمان عند العاشرة صباحاً ثم نأتي إلى فلسطين بمشيئة الله، فتمنت لنا السلامة وانتهت المكالمة بيننا.

حتى راحة البال التي أنشدتها من صوت حنان دوماً، أطلقت هي عليها رصاصة عذاب، ما كانت رصاصة رحمة أبداً، فعدت لأجلس معهم جسداً فقط بغير روح، فأنا أعرف أختي لا تُناديني بأخي إلا

لِخْبِرْنِي أَنْ شَيْئًا مَا لَيْسَ عَلَيَّ مَا يُرَامُ وَتَقُولُ: أَنَا بِحَاجَتِكَ يَا هِشَامَ، تُتَادِينِي أَحْمَقًا وَمَجْنُونًا فِي بَعْضِ الْمَرَّاتِ وَبِاسْمِي فِي أَوْقَاتٍ أُخْرَى، وَبِالْأَخْصِ حِينَ كُنَّا نَتَشَاجِرُ، هَكَذَا اعْتَدْنَا مُذْ كُنَّا صِغَارًا هِيَ وَأَنَا وَهَاشِمَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَذَهَبْتُ لِعُرْفَتِي كَيْ أَنَامَ قَلِيلًا، وَلَا أَظُنُّنِي قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ، خَرَجَ جَسَدِي مِنْ عُرْفَةِ إِسْرَاءَ وَبَقِيَتْ عِنْدَهَا رُوحِي، يَحِقُّ الْآنَ لِعَيْنِي أَلَّا تَكْتَفِي بِإِسْبَالِ الدَّمُوعِ، فَلَوْ صَرْتُ أَصْرُخُ وَأَبْكِي فَأَشْهَقُ كَالْأَطْفَالِ لَمَا كَانَ ذَلِكَ كَافِيًا، فَدَخَلْتُ عُرْفَتِي وَكُنْتُ أَتَمْنَى لَوْ عَلَى السَّرِيرِ أَلْقَيْتُ جَسَدِي، وَعَلَى الْوَسَادَةِ أَلْقَيْتُ رَأْسِي لِأَنَالَ غَفْوَةً أَيًّا كَانَ وَصَفْهَا، هَادِنَةً أَوْ صَاحِبَةً، لَنْ تَكُونَ مُرِيحَةً بِكُلِّ الْأَحْوَالِ وَبِالْأَخْصِ عَلَى ذَاتِ السَّرِيرِ وَفَوْقَ تَفْسِ الْوَسَادَةِ وَفِي ذَاتِ الْعُرْفَةِ الَّتِي شَهِدْتَ مِنْذُ سَاعَاتٍ تِلْكَ الْجَرِيمَةَ الَّتِي سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ارْتِكَابَهَا، هِيَ لَمْ تَكُنْ خِيَانَةً فَقَطُّ، بَلْ كَانَتْ أَفْطَعُ، أَرَى وَصَفْهَا بِالْخِيَانَةِ تَكْرِيمًا لَهَا، فَلَقَدْ أَضَعْتُ فِي لِحْظَاتٍ فَقَطُّ كُلَّ حِلْمٍ وَكُلَّ ذِكْرِي، أَضَعْتُ قَلْبًا كَانَ وَمَا زَالَ مُتَعَلِّقًا بِي، قَدْ يَكُونُ اسْتِطَاعَ قَلْبِي أَنْ يَتَغَاضَى لِلْحِظَاتِ عَنْ كُلِّ عَهْدٍ قَطْعَتَهُ وَذِكْرِي وَ قَدْ يَكُونُ نَسِيًّا أَوْ تَنَاسَى تِلْكَ اللَّحْظَةَ الَّتِي قَالَتْ لِي فِيهَا إِسْرَاءُ أَنَّهَا ضَعِيفَةٌ جَدًّا بِدُونِي، فَلَمْ أَرْحَمْ ضَعْفَهَا بَلْ وَلَمْ أَصْنِ وَصِيَّةَ أَخِيهَا الَّذِي اسْتَشْهَدَ أَمَامَ نَازِرِي وَلَمْ أَكْرِمْ دِمَاعَهُ، وَيَلِي مَا أَقْبَحَ مَا فَعَلْتُ، لَقَدْ ظَلَمْتُهَا وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فَلَنْ يَكُونَ الْيَوْمَ الْحَالُ كَمَا كَانَ الْبَارِحَةَ!.

فبدأت بحزْم أمتعي ولم تبقَ إلا كوفيتي التي كانت معلقةً في أعلى
حاملةِ الملابس، فتناسيتُ وجودها لأنني أستحي أن ألبسها
وأعقدها حولَ رقبتِي، لستُ أستحي بها فحاشاها ذلك، فهي رمزٌ
للأنفةِ والعزَّةِ والكرامةِ، وسيكونُ ارتدائي إياها إهانةً لها بلا شك،
فحملتُ حقيبتِي ونزلتُ إلى استقبالِ الفندقِ فسلمتهمُ عُرفتي وتركنتُ
لديهم حقيبتِي حتى يحينَ موعدُ خُروجنا، سلَّمتُ العُرفةَ مبكرًا جدًّا
كأنِّي كنتُ أحاولُ الهروبَ منها والهروبَ من ذنبي وجريرتي التي
اقترفتُ فيها، فتذكَّرتُ يومًا أخذتُ فيه أختي وإسراءَ في نُزْهة،
وحاصرَ مصادفةً جيشُ الاحتلالِ ذلكَ الحي، فلم نستطعِ العودةَ
أدراجنا، وسيكونُ قبيلًا منظرنا إذا استمررنا باللَّعبِ أو حتى
بالتنزه، فقد صارَ الحالُ مريبًا حولنا بمجيءِ أولئك الأعرابِ، وبعدَ
بعضِ الوقتِ، استشعرَ القلقُ من وجودنا في الطَّرِيقِ أحدهمُ فجاءَ
برشاشه وقنابله اليدويَّةِ كي يُفتِّشنا، فصارتَ تضحكُ يومها إسراءُ
ضحكةً ساخرةً، فسألْتُ نفسي حينها، هل هذهِ إسراءُ التي تخافُ
من قَطِيعِ أغانِمٍ متوجِّهٍ إلى مرعاهِ يسيرِ أمامها، وترتعدُ خوفًا إن
رأت نَمْلَةً سَوْداءَ تصعدُ على عُصنٍ في بُستانٍ جوارها، الشيءُ
الذي يدفعُها للبعاءِ أحيانًا!، لا بدَّ أنَّ النملةَ والأغانِمَ كانتِ أكثرَ رهبةً
في قلبها من ذلكَ المارقِ الذي يظنُّ أنَّه بدرعه وسلاحه ملكُ
الكونِ، فسألْتُها بعدَ أن رحلوا عن سرِّ ضحكاتها تلكِ، فقالتُ وهي
شامخةُ الرأسِ: ماذا سيفعلون؟، لن تسمَحَ لأحدهمُ أنتِ أن تمتدَّ يدهُ
لضربي، وأنا واثقةٌ من ذلكِ، وإن غافلكَ أحدهمُ برصاصةِ غدرٍ

يَقْتُلْنِي بِهَا، فَسَأَلْتُ حُلْمِي بِالشَّهَادَةِ فَأَلْقَى فِي الْجَنَّةِ أَخِي وَأَخَاكَ،
أَلَا يَحَقُّ لِي أَنْ أَضْحَكَ بِرَبِّكَ؟، يَحَقُّ لَكَ يَا عَصْفُورَتِي أَنْ تُحَقِّقِي
حُلْمِكَ، فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ خَطَأٌ أَوْ عَيْبٌ، لَكِنَّ الْخَطَأَ الْوَحِيدَ الَّذِي
ارْتَكَبْتَهُ يَا أَمِيرَتِي هُوَ أَنَّكَ كُنْتِ وَاثِقَةً أُنِّي لَنْ أَسْمَحَ لِأَحَدٍ أَنْ
يُوذِيكَ، مَاذَا سَتَقُولِينَ الْآنَ وَقَدْ غَرَسْتُ بِيَدِي خِنْجَرًا فِي ظَهْرِكَ،
تُرَا هَلْ سَتَغْضَبِي وَتَثُورِي أَمْ سَتُعْدِينَ كَمَا شَاءَ ذَبِيحَةٍ تُعَالِجُ الْمَوْتَ
فَتَنَاقِ بِرَأْسِهَا يَمِينًا وَشِمَالًا حَتَّى تَسْتَسَلِّمَ رُوحَهَا وَتُفَارِقَ جَسَدَهَا!.

مَضَى الْوَقْتُ وَأَنَا فِي صَمْتٍ لَا أَتَكَلَّمُ وَلَا أَلْتَفِتُ حَتَّى، بِالْكَادِ كُنْتُ
أَتَنَفَّسُ، وَإِذَا بِيُوسُفَ يَتَوَجَّهُ نَحْوِي، فَقَالَ: مَا بَكَ يَا هَشَامُ؟، هَلْ كُلُّ
شَيْءٍ بِخَيْرٍ؟، فَطَمَأَنْتُهُ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ جَيِّدٌ وَعَلَى مَا يُرَامُ، ثُمَّ
أَمْسَكْتُ يَدَهُ وَكُنْتُ سَاقِبُلُهَا وَأَبْكِي وَأَطْلُبُ مِنْهُ الْعَفْوَ وَالسَّمَّاحَ عَلَى
خِيَانَتِي لَهُ، لَكِنِّي فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ أَجْرُوا عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ، وَاكْتَفَيْتُ
بِدَمْعَةٍ نَدِمٍ سَأَلْتُ مِنْ عَيْنِي لِتَلَامَسَ أَرْضَ الْجَزَائِرِ الطَّاهِرَةِ، وَحِينَ
سَأَلَنِي يُوسُفَ عَنْ سِرِّهَا، أَخْبَرْتُهُ بِأَنِّي اشْتَقْتُ لِفَلَسْطِينَ فَقَطْ، وَلَمْ
يَعْلَمْ أَنَّ هَذَا الشُّوقَ أَثْقَلْتُهُ مَرَارَةً خِيَانَتِي لَهُ.

كَمْ صرْتُ مُتْلَهِّفًا لِأَنَّ يَمْضِي الْوَقْتُ بِسُرْعَةٍ، يَمْضِي كِي تَسْتَيْقِظُ
إِسْرَاءَ، كِي نَعُودَ إِلَى فِلَسْطِينَ، الْكُلُّ يُحِبُّ وَطَنَهُ وَيَعْشَقُ ثُرَابَهُ،
لَكِنَّا أَبْنَاءَ فِلَسْطِينَ بِالذَّاتِ نَمْلِكُ عِلَاقَةً عَمِيقَةً بِهَذَا الْوَطَنِ، عَمِيقَةً
بِعُمْقِ قَضِيَّتِنَا الْعَادِلَةِ، الَّتِي يَعْلَمُ بِعَدَالَتِهَا الْأَعْدَاءُ بِكَثْرَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ
يَعْلَمَهَا الْأَصْدِقَاءُ مَعَ قَلَّتِهِمْ، فَهُمْ يَتَعَافَلُونَ عَنْ حَقِّنَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ
مِنْ سَلْبِهِ!.

نصيبٌ لنا أن نتشرَّفَ بنسبِكُمْ، مُعَلِّلاً ذلكَ بأنَّ ابنَ عمَّةِ هُناكَ كانَ قد تقدَّم لخطبَتِها سابقاً، ثمَّ تحدَّثوا قليلاً وأنها المكالمَةُ لينتهي ويتفتَّت بعدها الجبلُ الذي كان يُطَبَّقُ على صدرِ هُناكَ.

مؤلِّمُ حالِ الفتاةِ في بلادنا إلاَّ من رَحِمَ اللهُ، فلا أحدٌ يكثرُ لموافقَتها أو لعدَمها في أكثرِ شأنٍ يخصُّها، كثيرونَ يعتبرونه حملٌ ثقيلٌ على كاهلهم وجودُ هذه الفتاةِ ويتحيَّنون الوقتَ لإلقائه، كانوا يدفنونَ هذه العطيَّةَ الربَّانيَّةَ حيَّةً أيَّامَ الجاهليَّةِ، ليأتي نورُ الإسلامِ فيقول اللهُ في كتابه الكريم: " وإذا المؤمنةُ سئلتْ بأيِّ ذنبٍ قُتلتْ"، فانتَهتْ عادةُ وأد البناتِ في عهدِ النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام ولم يعد أحدٌ يفعلُ هذا الفعلَ الوحشيَّ حتَّى الآن، لكنَّهم استحدثوا طُرُقاً جديدةً لوأدهنَّ غيرَ الدَّفنِ، فهذا يُعاملُ ابنته مُعاملةً قاسيةً، لتُحسَّ بأنَّه يُعاقبُها على أنَّها وُلدت أنثى ولم تكن ذَكَراً، ومنهم أيضاً من يحرمها أن تكونَ مُتعلِّمةً، ويرى الذَكَرَ أولى وأحقَّ بالتَّعليمِ منها، وكثيرونَ يحرمونها حقَّها في الميراثِ لأنَّها بنتٌ فقط، لكنَّ من لا تأخذُه سِنَّةٌ ولا نومٌ، لا يرضى بهذا الظُّلمِ وسيعاقبُ منْ يظلمُكِ أختاه، إن لم يكن في الدُّنيا سيكون في الآخرة بلا ريب، فلا تقلقي ستنايين من ربِّك الكريم العِوضُ ولا يظلم ربُّك أحداً.

هَبوبٌ يحمل رذاذاً مُعطرًا بالياسمين يُداعب أنفاسي، وها قد جاءت صاحبةُ القلبِ الأنقى لتغمض عيني من خلفي، فسبقتها وأمسكت

يديها ثمّ التفتُ نحوها وقبّلت باطن كفيها كطفلةٍ صغيرةٍ في الثانية من عمرها .

استيقظت حبيبتي فاستيقظت حواسي، وليس عن تلك الحواس التي تعلّمتها في مقرّر العلوم في الصفّ الثاني الابتدائي أتحدّث، ما أتحدّث بشأنه هي حواسٌ مُنصّلةٌ بعضلة القلب، فالحبُّ لا يعتبره العلماء حاسةً رغم أنّي أراه أهمّ الحواس.

اطمأنّ قلبي وهدأ، وهذه حاسةٌ أخرى لم تُذكر أيضاً، فوفّقت بجانبتي وأمسكت ذراعي بكليّتي يديها وأسندت رأسها فوق كتفي أمام الجميع، كأننا أعلنّا كسر إضرابنا عن البوح بمشاعرنا، مشاعرنا التي كنّا نظنُّ بأننا نجحنا في إخفائها، لكن أعيننا، نظرانا وهمساتنا، كانت كفيلاً بكشف الحبّ الذي تحمله قلوبنا، كم كنت فرحاً بهذا البوح، ولم يكن يُنغص فرحتي سوى نظرة ريم لي وضحكتها التي ما كانت تتجاوز قول "هه"، و ما كان أحدٌ من أصدقانا مرتاباً بسبب همزات ريم تلك، فهم معتادون عليها بأن لا شيء يُعجبها، لم يدروا بفعلنا الحقيّر صباح اليوم الذي كان سبب تلك الهمزات هذه المرّة!، فتوجّهت بكلامي لزملائي وأخبرتهم بأن يقوموا بتجهيز حقائبهم، فلم نعد نملك الكثير من الوقت، فهمت بالقيام حبيبتني فطلبت منها الجلوس وطلبت من رويده أن تقوم بما كانت ستقوم هي به، فصعدت الصبايا ولم يتأخرن في العودة ثمّ صعد الشباب ولم يتأخروا أيضاً، وتجهّزت السماء كي ترتدي ثوبها الأسود مُعلنةً حلول اللّيل، ولن نكون موجودين في الجزائر حين

ثُبِّدَ رِداءُها هذا السَّماءَ، عَسَفِمِلت على إِسراءِ وسألَها إن كانت
ترغبُ بِنُزهةٍ أخيرةٍ بالِحافِلةِ مع أكرمِ نُودِعَ فيها طُرُقَ ومِحَلَّاتِ
الجزائرِ، فصدَمَنتي حينَ قالت: قُمتُ بتوديعِها في الصَّبَّاحِ ، اذهبوا
أنتم، لم أكنُ أرغبُ بِنُزهةٍ في الحقيقَة، كان قلبي يُريدُ فقط أن يأخذَ
من الطمأنينةِ جرعةً، لكن وكما قال الشَّاعرُ: "تجري الرِّياحُ بما لا
تشتهي السُّفنُ"، فأخذتُ بدلَ الطمأنينةِ قَلَقًا وبدلاً عن راحةِ البالِ
خَوْفًا، فجاءَ إلينا أحدُ مُوظَّفي الفُنْدُقِ كي يُخبِرنا بِحلولِ موعِدِ
العشاءِ، فذهَبنا وتناولنا عشاءَنا على وجهِ السُّرعةِ ثمَّ عُدنا إلى
الرُّدهةِ وكنا نُحسُّ عقاربَ السَّاعةِ كسِياطِ الجَلَّادِ، وكانَ جَلَّادًا
قاسيًّا، وكنتُ اسمعُ قرعةً تُعلنُ بها آلهُ الزَّمَنِ مُرورَ ساعةٍ منَ
الوقتِ، كنتُ أستمعُ لهذهِ الدقائقِ ولا أنظرُ إلى السَّاعةِ، كاتِي بها
ستَقِفُ إن لم أنظرُ إليها.

كنتُ وإسراءُ قد اتَّفَقنا على قضاءِ أُسبوعِنا الأوَّلِ في الجزائرِ
عندما ننتزِجُ، لكنَّ عن أيِّ زواجٍ سأحدثُ بعدَ اليومِ وقد فعلتُ
الذي فعلتُ!.

أحاديثُ كثيرةٌ وضحكاتُ تبادلوها جميعًا، لكنِّي وحبِيبتي لم نكنُ
منهم، لا أدري بِحقِّ ما كانَ سببُ صمتِنا، كانوا حَزَّانِي جميعًا، لكنَّ
هذا الحزنَ لم يدعُهم للصَّمَتِ والوُجومِ مثلي وإسراءُ وكانَ على
رؤوسِنا الطيرِ، كنتُ خائفًا أن تكونَ حبِيبتي تشعُرُ بالألمِ وتنتكُمُ،
ولا وريِّي لم يكنُ خوفًا على جُرحِ عَمَلِيتها، بقدرِ ما كانَ خوفًا على

ضعف قلبها، كنت متوجساً أيضاً أن تشتم رائحة قذارة فعلتي،
فاقتربت منها وسألتها بعد أن طلبت المَعذرة عن الحاحي،

- هل أنت بخير يا حلوتي؟

فألقت بنفسها فوق صدري وتهادت دمعاً من عينيها، لم أرها
بعيني، لكنني أحسستها بقلبي، فجعلت بيدي أتلمس شعرها
وسألتها: هل تشعرين بالألم؟، فرفعت رأسها وازدادت بكاءها حتى
صارت كما الأطفال تشهق من كثرة البكاء، فجئن جنوني،

- ما بك يا إسراء؟

قلتها بصوتٍ صاخبٍ، وكأني غاضبٌ منها، فأجابتي بصوتٍ
هائِنٍ مُنكسرٍ، زادت انكساره صرختي تلك بوجهها وقالت: لا
أدري يا هشام، لا أدري،

- هل تتألمين؟ اصدقيني القول.

- لا، ليس ألماً، أقسم لك ،

- لم تبكين إذاً يا حلوتي ؟

- لا أعلم ما بي .

فرفعت نظري عنها لأجد الجميع مُلتفتاً حولنا وكانت رويدهُ أول من
بادرني بالسؤالِ قائلةً: ما بك؟، لماذا كنت تصرخ؟، هل وقع خلافٌ
بينكما؟، أجننت؟ ألا تراها مريضةً أمامك ؟

فقلتُ لها: وهل عهدتنا نخلف حد الصراخ؟، كنتُ مُنقِعلاً

قليلاً، هي بخير، لا تقلقي، فاقتربت سارة وضمت اسراء.

كان الوقت يمضي كما البرق، ولا أدري أهي آلة الزمن أم الشمس
أم القمر من تتأمر لتسريع الوقت هكذا!، هذا كان إحساسي ولا
أعتقد أن الشمس أو القمر تغيرت أوقاتها لثانية حتى، كذلك كنت
أحس منذ أيام الدراسة، فحين كنت آخذ ورقة أي امتحان كان
يضيع الوقت بغمضة عين، أما حين كنا نترقب حلول وقت الرحلة
المدرسية بعد يومين، كنا نرى هذين اليومين شهراً.

كانت الساعة تُشير إلى الثامنة، فأتت إلي السيدة حورية تُريد أن
تودعني وتعود لبيتها كي ينام حمزة ويستيقظ لمدرسته، فقالت:
نستودعك الله يا أخي، فقلت لها: سنأتي للجزائر مرة أخرى بإذن
الله، فقالت: قد يكون موعدنا القادم على أعقاب الأقصى بعد أن
يتحرر، ثم تركتني السيدة حورية وتركت معي حمزة، الذي كان
منهكاً من كثرة اللعب، وذهبت لتوديع بقية زملاءي، فبقيت أرقبها
حتى جاء دور إسراء في وداعها فبدأت حبيبتي تبكي الدموع بشكل
مفرط، ولا أظن هذه الدموع سببها الوداع فقط، وليس الألم سببها
أيضاً، فقد أقسمت حبيبتي أنها لا تتألم، ولم تكن إسراء تكذب في
حديثها يوماً وبالأخص وقد أقسمت بالله العظيم، فنزلت نحو حمزة
وأوصيته بأمه وأخته وقلت له: سأترك رجلاً أليس كذلك؟،
فاحتضني حبيبي الصغير وقال: نعم، نعم، فودعت الجميع السيدة
حورية، فطلبت من أكرم أن يوصلها وحمزة للمنزل، فذهبوا هم
برفقتهم وعدنا نحن للجلوس، فعم الصمت قليلاً، كان كل منا يحدث
نفسه، كثيرة هي الأفكار التي غزت عقولنا في دقائق الصمت تلك.

كنتُ أكتبُ مقالًا قبلَ مجيئي للجزائر، أدركني الوقتُ ولم أكمله، كانَ يحملُ عنوانًا فلسفيًا، كانَ عنوانُهُ " مفاتيحُ التفكُّر "، وكانتِ النتيجةُ التي وصلتُ إليها أنَّ الحُزنَ و الوداعَ هُما أبرزُ ما يدفعاينا لنذهبَ بخيالنا لأحداثِ الماضي والحاضرِ والمستقبل، نتفكَّرُ في أحداثٍ حصلتُ وأخرى لم تحصلُ و أخرى يستحيلُ حدوثها حتَّى، عظيمَ عقلنا البشري فأنتَ قد ترى نفسك ماشيًا على الجمرِ دونَ أن تتأثَّر، وقد تصعدُ إلى كوكبِ آخرِ بسُلْمِ افتراضيِّ اخترعته لنفسك، يستطيعُ الإنسانُ اختراعَ أشياءٍ كانَ الناسُ يرونها مُعجزاتٍ في زمانٍ غابر، فمنَ كانَ يظنُّ أنَّ بإمكانه مشاهدةَ إنسانٍ في الهندِ يلعبُ الكريكت، لينتقلَ بضغطةٍ على زرِّ ليشاهدَ وقائعَ اجتماعِ طارئٍ لمجلسِ الأمنِ في نيويورك، يرى شمسَ الصِّباحِ تُضيءُ حولهَ وينظرَ إلى التلفازِ ليجدَ مراسلًا في الولاياتِ المتَّحدةِ يقولُ أنَّ الساعةَ الآنَ هي الواحدةُ بعدَ مُنتصفِ اللَّيل، لو كنتَ في القرنِ الثامنِ تحدَّثتَ عن شيءٍ من هذا لنعتوك بوصفٍ من اثنين، فإمَّا أن تكونَ أحمقًا أو مجنونًا، نحنُ أيضًا نرى شخصياتٍ أسطوريَّةٍ كـ "superman" الذي يستطيعُ بجسده أن يُحلقَ في الهواءِ دونَ أن يستقلَّ طائرةً أو صاروخًا حتَّى، قد يكونُ ثمةَ وسيلةً لشيءٍ مثل هذا في يومٍ ما، قد يكونُ ذلكَ متوقِّرًا لأحفادِ أحفادي فيضحكونَ من زماننا هذا كما نضحكُ نحنُ اليومَ من زمانٍ من سبقونا.

أخذُ يُحدِّثنا ويؤصينا بأنفسنا السيِّدِ زاهي، وسرعانَ ما مضى الوقتُ فلم يبقَ لنا سوى أربعِ ساعاتٍ لموعدِ إقلاعِ طائرتنا، كانتِ

أَيَّامًا قَلِيلَةً هِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي بَقِينَاهَا فِي الْجَزَائِرِ إِذَا مَا احْتَسَبْتُ عَلَى التَّقْوِيمِ الْوَرَقِيِّ، لَكِنِّي أَحْسَسْتُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ أَنَّي عَشْتُ حَيَاةً أُخْرَى مَلِيئَةً بِالْحُبِّ وَالْوَفَاءِ، بِالكَرَمِ وَالطَّيِّبَةِ.

فَهَمَمْنَا بِتَوْدِيْعِ السَّيِّدِ زَاهِي وَابْنَتِهِ هِنَاءَ، فَلَمْ يَقْبَلَا تَوْدِيْعَنَا لِأَنَّهَمَا سِيرَافِقَانِنَا إِلَى الْمَطَارِ، فَاحْتَضَنَتْهُ وَقَبَّلَتْ رَأْسَهُ وَاقْتَرَبَتْ مِنَّا هَدَى، فَظَنَنْتُهَا تَرِيدُ وَدَاعِنَا أَيْضًا، لَكِنَّهَا قَالَتْ أَنَّهَا سَتَذْهَبُ وَأَكْرَمُ لِيَتْرَكَ أَوْلَادَهُمَا عِنْدَ وَالِدَتِهَا ثُمَّ يَعُودُوا لِإِيصَالِنَا لِلْمَطَارِ، فَذَهَبُوا بِالْفِعْلِ ثُمَّ جَاءَ إِلَيْنَا مُدِيرُ الْفَنْدُقِ فَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ جَاءَ لِيُودِعِنَا قَبْلَ أَنْ يَعُودَ لِمَنْزِلِهِ، وَتَتَابَعُ بَعْدَهُ كُلُّ مُوظَّفٍ فِي الْفَنْدُقِ تَعَرَّفْنَا عَلَيْهِ طِيلَةَ فِتْرَةٍ مُكُونِنَا، سِوَاءَ كَانُوا مِنْ الْعَمَالِ أَوْ مُوظَّفِي الْإِسْتِقْبَالِ، فَأَرْسَلُوا مَعْنَا بَاقَةً مِنَ النَّحَايَا لِفَلَسْطِينَ وَرُزْمَةً مِنَ الْوَصَايَا عَلَى أَهْلِهَا وَقَالَ مُدِيرُ الْفَنْدُقِ: إِنْ تَنَكَّرَ لَكُمْ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَلَنْ نَكُونَ مِنْ ضَمْنِهِمْ، وَلَوْ أُوْصِدَتْ فِي وُجُوهِكُمْ كُلِّ الْأَبْوَابِ سَتَظَلُّ أَبْوَابُ الْجَزَائِرِ لَكُمْ مُشْرَعَةً، هَذِهِ الْكَلِمَاتُ لَيْسَتْ مِنِّي وَخُدِّي، بَلْ هِيَ مِنْ كُلِّ جَزَائِرِيٍّ وَجَزَائِرِيَّةٍ، سُرِّرْنَا بِرُؤْيَيْكُمْ وَأَسْعَدْتَنَا صُحْبَتِكُمْ وَنَتَمَنَّى لَكُمْ النَّصْرَ وَالتَّمَكِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ، ثُمَّ وَدَّعْنَا وَكَافَّةً الْمُوظَّفِينَ مِمَّنْ تَعَامَلُوا مَعْنَا أَوْ اقْتَصَرَتْ مَعْرِفَتُهُمْ بِنَا عَلَى لِحْظَةِ الْوَدَاعِ تِلْكَ، فَقُمْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُكَالِمَةِ أَهْلِي، فَطَلَبْتُهُمْ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً لَكِنْ لَمْ يُجِئْنِي أَحَدٌ، فَعُدْتُ لِلدَّخْلِ وَجَلَسْنَا وَشَرَبْنَا الْقَهْوَةَ بِالنَّتَظَارِ عَوْدَةً أَكْرَمَ لِيُوصِلِنَا لِلْمَطَارِ، فَجَاءَ أَكْرَمٌ بِسُرْعَةٍ، وَفُورَ رُؤْيَيْنَا لَهُ حَرَجْنَا إِلَى الْحَافِلَةِ وَأَخْرَجْنَا حَقَائِبِنَا وَسَاعَدْنَا عَمَّالَ الْفَنْدُقِ فِي ذَلِكَ، صَعَدْنَا

فَجَلَسْتُ إِسْرَاءَ وَلَمْ يَكُنْ يَفْصِلُنِي عَنْهَا سِوَى رِيمِ الَّتِي كَانَتْ تَقْفُ
أَمَامِي، فَجَلَسْتُ عَلَى الْفُورِ بِجَانِبِ إِسْرَاءَ فِي الْمَقْعَدِ الَّذِي كُنْتُ
أَنْوِي الْجُلُوسَ فِيهِ، وَيُكَائِنُهَا تُرِيدُ إِبْعَادِي عَنْهَا فَحَسَبَ ، فَابْتَسَمَتْ
إِسْرَاءَ، وَلَا أَظُنُّ ابْتِسَامَتَهَا كَانَتْ كَيْ تُعَبِّرَ عَنْ فَرَحِهَا، بَلْ كَانَ
سَبَبُهَا سُوءَ حَظِّي فَقَطْ، فَجَلَسْتُ فِي آخِرِ الْحَافِلَةِ وَأَسْتَدْتُ رَأْسِي
عَلَى النَّافِذَةِ نَازِرًا لِلخَارِجِ، فَإِذَا بِجَمِيعِ مُوظَّفِي الْفُنْدُقِ يَقِفُونَ لَنَا
مُودِّعِينَ ، فَأَشَرْنَا إِلَيْهِمْ بِقُلُوبِنَا قَبْلَ أَيْدِينَا ثُمَّ انْطَلَقَ بِنَا أَكْرَمُ مَا شِئْنَا
فِي طُرُقَاتِ الْجَزَائِرِ، وَكُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى تَفَاصِيلِ تِلْكَ الطَّرِيقِ وَلِسَانُ
حَالِي يَقُولُ: هَلْ سَتَطُولُ بِكَ الْحَيَاةُ لِتَمْشِيَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ مَرَّةً
أُخْرَى؟، هَذَا عِلْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَمْنَحَنِي فُسْحَةً مِنْ
الْأَجْلِ لِأَعُودَ فَأَرَى هَذَا الشَّارِعَ، فَأَغْمَضْتُ عَيْنِي بَعْدَهَا لِأَتَذَكَّرَ الْأَيَّامَ
الَّتِي مَكْتَنَاهَا هُنَا، فَكَمْ ضِحْكَةً ضَحِكْنَا رَغْمَ أَلْمِنَا، وَكَمْ دَمْعَةً أَسْقَطْنَا
رَغْمَ فَرَحِنَا، عَشْنَا سَعَادَةً وَعَشْنَا أَلْمًا، وَجَمَعْتُنَا هَذِهِ الزِّيَارَةَ بِأُنَاسٍ
تَمَلَّئُ قُلُوبَهُمُ الطَّيِّبَةَ، أَعْطَوْنَا أَجْمَلَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ حَبِّ وَ مَوَدَّةٍ
وَأَسْوْنَا حُزْنَنا عَلَى فِرَاقِ حَبِيبَتِنَا فِلَسْطِينِ، وَأَسْوْنَا مِنْ وَحْشَتِنَا
لِفِرَاقِ أَهْلِنَا، فَكَانُوا لَنَا أَكْثَرَ مِنْ أَهْلِ، هِيَ أَيَّامٌ مَعْدُودَةٌ الَّتِي قَضَيْنَاهَا
هُنَا، لَكِنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ مِنْ الْحَبِّ مَا يَحْتَاجُ دَهْرًا لِتَحْصُلَ عَلَيْهِ،
وَبَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ مِنَ الذِّكْرِيَّاتِ الرَّائِعَةِ أَوْقَفَ أَكْرَمُ حَافِلَتِهِ، وَتَرَدَّدَ
فِي دَعْوَتِنَا لِلنُّزُولِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، جَالَ فِي خَاطِرِهِ عَلَى مَا يَبْدُو مَا
يُخْبِرُهُ أَنَّنَا حِينَ نَنْزِلُ مِنَ الْحَافِلَةِ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَنْ نَعُودَ إِلَيْهَا مَرَّةً
أُخْرَى، وَتَرَدَّدْنَا نَحْنُ بِدُورِنَا فَمَنْ يَذْرِي عِنْدَ نُزُولِنَا وَرُكُوبِنَا

الطائرة متى سندوسُ بأقدامنا أرضَ هذا المطار مرةً أخرى، فنزلنا إلى قاعةِ المسافرين ونزلوا معنا جميعًا، فكما منحونا حبّهم منحناهم نحن، فاعتبرناهم بعضًا من أهلنا ورأونا كذلك هم، تبقى على موعدِ طائرتنا ما يُقاربُ ثلاثَ ساعاتٍ كما هو مكتوبٌ في شاشةِ مواعيدِ الرّحلاتِ في المطار، فوضعنا حقائبنا على مسارِ الحقايبِ الخاصّةِ برحلتنا ثمّ جلسنا في قاعةِ الانتظارِ وكانَ أكرمَ وزوجتَهُ وهناءَ والسيدَ زاهي برفقتنا، كمّ أوصونا بأنفسنا وكم سلامًا أرسلوه معنا للقدسِ والمسجدِ الأقصى، لكنيسةِ المهدِ و القيامة، بعثوا سلامهم لكلِّ مدنِ فلسطينِ وكلِّ قرأها، لجمعِ شوارِعها وأزقتها، بعثوا تحاياهم إلى ترابِ فلسطينِ وبحرِها وإلى هوائِها ومائِها، وأوصونا أن نصيرَ على البلاءِ الذي حلَّ علينا من هذا الاحتلالِ الظالمِ الذي يسلبُ أرضَ بلادنا ويقتلُ شبابتنا وأطفالنا، ثمّ يهدمُ بيوتنا بحجّةِ عدمِ الترخيص، ويلهمّ أجبُ أن نأخذَ الترخيصَ منهم كي نَعمرَ أرضنا!، وهاهم اليومَ يُريدونَ سلبَ قدسنا، وما لنا غيرَ الله من نصير، لا لن يكفي الصبرَ وحدهُ لكنسِ هذا الاحتلالِ النَّجسِ، أعدكم باسمي وباسمِ كلِّ شبابِ فلسطينِ و نساءِها، باسمِ أطفالِها وكهولِها، وباسمِ شبيها وعجائزها أن لن نُفرطَ في ذرةِ ترابِ حائرةٍ لا تدري أينَ مُستقرُّها في أرضِ فلسطين، إياك أن تظنَّ يا أكرمَ أننا يُمكنُ أن نتخلى عن شبرٍ واحدٍ من أرضِ فلسطين، ليستقرَّ ذلكَ في ذهنك، وأخبرِ بهِ كلَّ الجزائرِ وأهلها ولا تغترَّ بما يُقالُ في الإعلامِ عن حلولٍ واتِّفاقات، فحينَ

يشعُرُ أحدنا أنّ مكيدةً ما تُحاك لأرضنا وأقصادنا سننتفضُ جميعًا وتذوبُ خِلافاتنا، فمن ينتمي لهذا الحزبِ قد تظنُّ بأنه مُنتمٍ للحزبِ الأخرى، وابنُ هذه الطائفةِ يمشي بجانب أخيه من الطائفةِ الأخرى فيصعُبُ عليك التفریقُ بينهما، قد تصلُ خِلافاتنا لِعنان السّماءِ، ووحدها فلسطين تبقى ما يوحدنا أيّا كان الخِلافُ بيننا، فهذه فلسطين، التي لا يعدو فيها خِلافنا سوى على من يكون الأجدر بتحقيقِ مصلحتِها.

اطمئن يا أكرم فلن يفنى فينا حماسُ الشّائر للجِهاد في جبهة النضال لفتح الأرض التي فتحها عمر ابنُ الخطّابِ يومًا.

صوتٌ في مُكبرِ الصّوت يدعو ركّاب الرّحلة المُتجهة إلى مطر الملكةِ علياء الدّولي للتوجّه إلى الطّائرة، وها قد حان وقتُ الوداع، وداعُ الجزائر ومن عرفناهم فيها، ليسوا أصدقاءً فقط، ولم تكن مصلحةً هي التي جمعتنا، لقد كانت محبةً وأخوةً، الدّمعاتُ تسابُ على خُدودنا جميعًا عدا صاحبةَ القلبِ القاسي، عداها ريم لم تتأثر، فمدّ إليّ كفّه السيّد زاهي مُصافحًا فاحتضنته بحرارةٍ باكيًا ثم ودّعتُ أكرم بعده وهدى وهناء ثم تتابع زملائي جميعًا وفعلوا مثل الذي فعلتُ، ثم توجّهنا للممرّ الذي سيفودنا إلى بابِ الطّائرة ، وجمعتنا جميعًا دمةً على خدّ كلِّ منا ، كذلك جمعتنا تلك النّظرة العفوية التي نظرناها لكلّ ما في المطار، ووحدها ريم لم تُشاركنا

تلك المشاعر، حتى أنها لم تلتفت كي ترى ماذا يجري خلفها، ولو من باب الفضول حتى.

منذ أيام عندما جننا بهذه الطائرة إلى هنا وعلى ذات المدرج، كنت منتشياً أن قد حققت حلمي، وها أنا أقف اليوم في ذات الطائرة، لكنني عائدٌ بلا حلم، فحلمي في زيارة الجزائر حققته و حلم حياتي في الزواج من حبيبتي إسرائ أراني قد وأذته، كنت أتحين أن يزور النوم عيني في رحلة مجيئنا كي ينقضي بسرعة الوقت، أما الآن فأنا أستزير هذا النوم كي أهرب من ضميري الذي يطمئني كل حين بعد ذلك الفعل الحقيق الذي فعلته، وكما هي العادة في كل رحلة، يقوم الكابتن بإخبارنا بموعد الإقلاع والهبوط والوجهة التي نفضدها، فأخبرنا بذلك الكابتن وما وعيت من كلامه غير أننا سنصل إلى مطار الملكة علياء في العاصمة الأردنية عمان، عند الساعة الخامسة فجراً، فطلبت من المضيفة أن لا ثوقطني لوجبة الطعام، ورفعت رأسي فرأيت إسرائ تنظر تجاهي وتجلس جوارها ريم، اعذريني يا حبيبتي فليست رحلة الذهاب كما هي رحلة العودة، كانت هذه الرسالة التي أرسلتها دموع عيني عندما تلاقفت نظرتي بنظرة إسرائ في الطائرة، فادنيت رأسي سريعاً حتى لا تُرسل إلي رسالة مماثلة من دمع عينيها، فقلبي يستطيع احتمال دموعي، لكنه أبداً لا يحتمل دموعها، فأغمضت عيني و جعلت أتذكر إسرائ، أتذكرها وأمتار قليلة فقط تفصلني عنها.

في الحبِّ لا تهْمُ المسافة، فالقلوبُ لا تعرّف بالزمنِ ولا
المسافات، فقد يكونُ حبيبك يسكنُ قارةً أخرى، لكنّه يسكنُ ذاكرتكِ
وأحلامك، وتستشعرُ وجوده في كلّ تفصيلٍ من تفاصيل حياتك، فإن
تناولتَ طعامًا سيكونُ جليساك دوماً على المائدة، وإن ما نمتَ
سيكونُ طيفه زائراً لأحلامك، حتّى لو عزلت بسجنِ انفرادي
سيكونُ أنيسَ وحدتك في هذا العزل، كم كنتَ أحبُّها نظرةَ إسرائِ
الطُفوليّة البرينةِ هذهِ وكم هي ثقيلةُ اليومِ على قلبي، ثقيلةٌ لأنّها
تؤبّب ضميري وتلومُ كلّ مفصلٍ في بدني، فيستحيلُ رماداً من
حَجَله، و كيفَ لا يخجلُ وقد فعلَ فعلاً سيجعلُ حبّها هباءً ونفخةً
واحدةً من فم ريم كفيلةً بأن تجعله في أنحاء الكونِ منشوراً، كيفَ
لا يخجلُ وقد نقضَ عهدهُ لها بالوفاء!.

كانَ قد هدأ من روعي حضور الكلِّ لوداعنا قبلَ قليل، فانشغلتُ بهم
وبمزاحهم وأحاديثهم لبعض الوقت، وما كان ينغصني سوى نظرةِ
ريم وابتسامتها المستغرّة تلك، لكن من يواسيني الآنَ وأنا أجلسُ
وحدّي وليست بعيدةً عني حبيبتي!، هي قريبةٌ مني بالمسافة، لكنّ
غدرتي التي فعلتُ قريبةً بالزمن، ونظراتُ ريم المسمومةِ أقربَ
من هذهِ وتلك.

أستحي من ربّي أن أدعوه وقد فعلتُ ذلكَ الفعلَ وهو يراني، لكنني
لا أجدُ أرحمَ منه ليُخرجني من هذا المأزق الذي أوقعتُ فيه نفسي،
فيارب أنا أعلمُ أنّي عصيتُك وأستحقُّ العقاب، لكنني أعلمُ أنّك عفوٌ
كريمٌ فسامحني.

سأخرج حقيبة ذكرياتي التي لا أرى في الأفق أني سأملئها بغير
الحزن والحسرات بعد اليوم، أذكر يوماً كانت تركض بسرعة
إسراء وجاءت لتختبئ خلفي، وكان يتبعها أخوها ساجد رحمه الله،
فسألتها: ما بك يا مجنونة؟، فقالت لي: يريد أن يضربني يا هشام،
فالتفت إليه وسألته عن السبب، فقاطعتني هي وقالت: لأنه يغار
مني، وأخرجت لسانها تريد أن تغيظه تلك العصفورة، فاحمر وجهه
ساجد وأبعدني من أمامها بالقوة وأمسك بها، مضحك كان منظرها
وهي تضع ذراعيها على جانبي رأسها وتغمض عينيها، فوضع
يده فوق رأسها وقال: ما بك يا إسراء؟ هل تخافين مني؟، هل
امتدت يدي لضربك يوماً؟، فأجابته: لا، ولكنك ستصرخ، و أنا لا
أحب الصراخ ، فضحك يوماً وضمها إلى صدره وقبل رأسها
وقال: لن أصرخ، لكن لا تعودي لهذا الفعل مرة أخرى، وكان الفعل
أنها صرخت بوجهه في وسط السوق لأنه كان مستعجلاً في العودة
 للمنزل، ما أجملها إسراء وما أحلى براءتها، كم كنت جميلاً أنت
أيضاً يا صديقي، لازال صدى وصيتك التي أوصيتني بها قبل أن
تستشهد بيومين يتردد في صدري، قلت لي يوماً: يا هشام، أنا لا
أخاف الموت، ما أخافه هو أن أترك والدتي وأختي بعدي
فتنهشهما الحياة، فقاطعتني قائلاً: كُفَّ عن هرايك هذا، ليعطيك ربي
العمر المديد يا أخي فقال: هما وصيتي لك يا هشام، كانت مؤلمة
هذه الذكرى، فما أنا اليوم خنت الوصية، وما عهدت نفسي أخلف
وعداً ولا عهداً قطعه من قبل، لكن وكما يقول مثلنا الشعبي:

"غلطةُ الشاطرِ بعشرة"، وليتها كانت بعشرةٍ فقط هذه الغلطة،
لكنْتُ احتملتُها، لكنّ غلطي كانت عصيةً على العدّ، ويلَ قلبي، إن
كنتُ أنا لا أستطيعُ احتمالَ فعليّ، فكيفَ تحتملُها شقراي الصّغيرة
التي أحبّتي بكلِّ ما أُوتيت، كيفَ ستحتملُها حبيبي بقلبها
الضعيف!.

كنتُ أوّلَ اسمٍ تنطقُ به في حياتها، فلمَ تنطقُ باسمِ أمّها ولا باسمِ
أبيها، فقدُ تعلّمتُ أن تقول: "بابا" و"ماما"، ولمَ تتعلّم أن تُناديهما
بأسمائهما، كانَ ما ستتعلمُه بعدهما أحدَ خيارين، فإمّا أن تقول:
ساجد أو أن تقولَ هشام، وكنتُ الفائزَ آنذاك، كنتُ فرحًا في وقتها،
لكنني أكادُ أموتُ حسرةً الآن، وكيفَ لا أتحسّرُ وقد خنتُ قلبًا لم
يتعلّم كيفَ يحبُّ غيري، فضلًا عن أن يتعلّم كراهيتي.

لم أرفع رأسي وما فتحتُ عينيّ طوالَ الرحلة، والأقبحُ من ذلك
أنني لم أنم دقيقةً واحدةً منذُ أفلأعنا من مطارِ هوارى بومدين في
الجزائر وحتى هبوطِ طائرتنا في مطار الملكة علياء في المملكة
الأردنية الهاشمية.

خرجتُ منكِ بالأمس يا أردن وأنا أحملُ طهارةً كنتُ أحسبُها
موجودةً، وها أنا اليومَ أعودُ وقد دنّست هذا الطهر المفترض،
كذلك أنتِ يا جزائر، جنّتكِ أحملُ حُلمًا ملائكيًا طاهرًا بريئًا، ورجعتُ
بكابوسٍ شيطانيّ فظيع.

وصلنا العاصمة الأردنية، ثم نزلنا إلى قاعةِ المطار، وكانت شمسُ
الصباحِ حديثةً عهدٍ بالشروقِ ذلكَ اليومَ، وببراءتها الم عهدودِ

جاءت وأمسكت ذراعي إسرائ، إمسأها بذراعي الذي كان بالأمس
قمةً طموحي، صار مصدرًا للقلق وباعثًا للريبة في نفسي اليوم،
كان ذلك بسبب تلك النظرات التي تطلقها كحيم الشرر ريم حين
أقرب من إسرائ، تظن هي أنها استمكت حلاًمًا أبلت عمراً في
بنيانه بسبب نزوة حغيرة، لكن هذه النزوة فتحت علي ما يشبه
أبواب الجحيم، فأنا أخاف الفضيحة وأخاف خسارة حبيبة العمر،
كذلك أخاف ما يمكن أن تفعله ريم في قادم الأيام، فإن كنت
استسلمت لها لدقائق فقط، فدمرت لي أحلامي وعبثت بقيمي
ومبادئ التي ظننت لردح من الزمن أنها أقوى من جدار اسمنتي
مسح بالفولاذ ، فما الذي يمكنها فعله لو استحالت هذه الدقائق
أيامًا!.

نزنا إلى قاعة الاستقبال في مطار الملكة علياء، فحصلنا على ختم
الدخول، ثم استلمنا حقائبنا وخرجنا لناخذ حافلة نوصولنا إلى معبر
الكرامة فنعبر فوق جسر الملك حسين، فوق مياه نهر الأردن
ونصل إلى فلسطين الحبيبة، لكن حجر عثرة اسمه الاحتلال يقبع
بين ضفتي نهر الأردن الشرقيّة والغربيّة، يقومون بتفتيش كل ما
يمكنهم تفتيشه، فيبعثون الحقيب والأمتعة، ولو استطاعوا بعثرة
أعضاء أجسادنا من معدة و أمعاء لما توانوا عن فعل ذلك، فهم
مشمولون في المثل القائل: كاد المرعب أن يقول خذوني، حق لهم
أن يقلقوا ويرتابوا، فلقد سرقوا أرضاً لم يتخلى أصحابها عنها

ولن يتخلّوا، وينظرون صباح مساء في أعين أصحاب الحق،
يظنون أنّ أسلحتهم مهما زادت قوتها ستخيفنا ويعتقدون أنّ
مؤامراتهم التي يحيكونها مع من يدعون محبّتنا من أبناء جلدتنا
قد تنطلي علينا، اطمئنوا فنحن نرى كلّ صفقة تعقدونها ثمّ نتظاهر
بالعمى، ونسمع ضجيج مؤامراتكم ونغلق أمامكم آذاننا، نقوم
بإمضاء معاهداتٍ واتفاقاتٍ ظاهرها التنازل عن حقنا، فقط
لنرضيكم ونتقي شرّكم، والأقبح من هذا كلّهُ أنّكم تصدّقون!، سحقاً
لكم.

نسيم هواءٍ بلادنا ليس يمنعهُ مانعٌ من التسلّل ليصافح أنفاس هذا،
ويقبّل وجنة تلك، ويعبث بتسريحة حبيبتي، وليس لهذا الاحتلال
أي سلطانٍ عليه، وإن كان يعبثُ بنقائه بينَ فينةٍ وأخرى بقنابل
الغاز المسيلة للدموع، أيّها الاحتلال الغاشم لقد سألت دموعنا بما
يكفي حين سرقتُم أرضنا وما زالت تسيل، ولن يفعلَ غازكم هذا
بأنفاسنا أكثر ممّا فعلتهُ سرقتكم لأرضنا بقلوبنا، فحين يطعنك
أحدُهم بسكين، فلن تكونَ هذه الطّعةُ موروثاً لولدك ولابنتك، هذا
ما ينصُّ عليه علمُ الوراثة، لا أدري كيف خالفنا نحنُ أبناءَ
فلسطين ما اتّفقَ عليه العلماء، فالصفعةُ التي نالها جدّي عام ألفٍ
وتسعمائةٍ وثمانيةٍ وأربعين لازالت تولمّني أنا، والرّصاصةُ الغادرةُ
التي اخترقت قلبَ جدّك يا حُسام، أراها لاتزال حائرةً أين تستقرُّ
أفي أدينٍ لقلبك أم بطينٍ؟، ولكلِّ منّا ذكرى كلّما همّ أن يتنساها

ابْتَلِيَ بِأَفْظَعِ مِنْهَا وَأَكْثَرَ إِيْلَامًا، نَسَّأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنَّا هَذَا
الْبَلَاءَ فَهُوَ حَسْبُنَا وَهُوَ نِعْمَ الْوَكِيلُ.

الفصل الثاني

أنهينا إجراءات الدُخولِ إلى بلادنا، وركبنا حافلةً توصلنا لمدينةِ رام الله، فأمسكتُ بيدي حبيبتي لئلا يفصلَ أحدٌ بيننا، وليتكِ فعلتي ذلك صباحًا يا حلوتي، فلو كنتِ من جاءَ لِعُرْفَتِي في الصِّباحِ لما كنتِ فعلتُ معكِ كالذي فعلتهُ مع ريم، فأنتِ عندي ماسَّةٌ يُمكنُ خدشَ نقائِها بلمسة، وما كنتِ لأمسَّ أنا بسوءِ هذا النِّقاءِ، فجلسنا في مقعدينِ مُتجاورينِ وظلَّتْ مُمسكةً يدي إسرائ، وظلَّتْ تُرسلُ لي الرِّسائلِ بضغطةٍ على كفي مرَّةً وبدفي أكفطِها مرَّةً أُخرى، كنتِ أستطيعُ قراءةَ رسائلِكِ يا حلوتي وكنتِ أستطيعُ فكَّ شفرتها، لكنَّ نظراتِ ريم المحمَّلةِ بالخُبثِ تجاهي والتي كنتِ أدعي عدمَ تنبُّهي لها، كانتِ كما جهازِ تشويشٍ يُدمِّرُ رسائلي، هي لم تستطعِ على رسائلِ إسرائِ لأنَّ دهاءَها عجزَ أن يقرأَ شيفرةَ حبيبتي النقيَّة، فكانتِ ترسلُ رسائلها أميرتي، وما كانتِ تستقبلُ مني أيَّ ردٍ. وصلنا مشارفَ مدينةِ رام الله، وكانَ ينزلُ شابٌّ مِنَّا أو صبيَّةٌ إن مرَّت الحافلةُ بمنزله، ولِحُسنِ الحظِّ وسوئه في آنٍ معًا، بقيتُ وإسرائِ وكانتِ ثالثتنا ريم، فقدُ كُنَّا نسكنُ الحيَّ نفسه، كانَ يُفترضُ أن أكونَ الأوَّلَ في التُّزولِ و أظنُّ ريم ستكونُ مِن بعدي لكونِها الأقرب، لكنَّ وبطبيعةِ الحالِ لم أكنَ لأنزلَ ولا لأفارقَ صغيرتي حتى أوصلها لحُضنِ أمِّها، وكانتِ هذه حجةَ ريم أيضًا للبقاء، ولستُ أدري أيُّ نوعٍ مِنَ النِّفاقِ نتمتَّعُ به كلانا!.

وَصَلْنَا مَنْزِلَ إِسْرَاءَ، فَقَرَعْنَا جَرَسَ مَنْزِلِهَا فَسَمِعْنَا صَوْتَ قَرَعَةٍ
غَيْرِ قَرَعَةِ الْجَرَسِ، أَظْنُّهَا قَرَعَةُ قَلْبِ وَالِدَتِهَا، فَفَتَحَتْ بَابَ الْمَنْزِلِ،
وَكُنَّا أَمَامَهَا ثَلَاثَتَنَا، لَكِنِّي أَظْنُّهَا لَمْ تَعْرِفْ مِنَّا سِوَى صَاحِبَةِ الْقَلْبِ
الْبَاسِمِ، فَاحْتَضَنَتْهَا وَطَفَقَتْ تَقْبِلُ وَجَنَّتِيهَا وَرَأْسَهَا وَيَدَيْهَا، لَمْ تَكُنْ
أَجْسَادَهُنَّ فَقَطْ مَنِ تَصَافَحَتْ بِالْعِنَاقِ، دُمُوعٌ أَعْيُنَهُنَّ تَصَافَحَتْ
أَيْضًا، فَتَلَاقَتْ دُمُوعَ هَذِهِ بِتَهْيِيدَاتِ تِلْكَ، فَقُلْتُ أَنَا: هَا قَدْ أَوْصَلْنَا
إِلَيْكَ الْأَمَانَةَ يَا خَالَةَ، سَنَتْرُكُهَا الْآنَ لِنَسْتَرِيحَ وَنَأْتِي لِرِيزَارَتِهَا فِي
الْمَسَاءِ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَجَلَسْتُ قُرْبَ إِسْرَاءَ وَأَوْصَيْتُهَا أَنْ لَا تَفْعَلَ شَيْئًا
إِلَّا الرِّاحَةَ حَتَّى أَعُودَ لِأَرَاهَا مَسَاءً، فَاقْتَرَبْتُ مِنْ أُذُنِي حَبِيبَتِي
وَهَمَسَتْ لِي وَقَالَتْ: هَلْ سَتَخْرُجُ مَعَ رِيمٍ وَتَتْرِكُ حَبِيبَتَكَ؟، وَيَلِي لَوْ
تَدْرِينَ مَاذَا فَعَلْتُ بِكَ يَا حَبِيبَتِي؟، لَوْ عَرَفْتَهُ لَكَانَ فَنَجَانُ
الْقَهْوَةِ الَّذِي اغْتَضَيْتِي مِنْهُ مِنْذُ أَيَّامٍ خَلْتُ لِأَيِّ تَنَاوَلْتَهُ مَعَ رِيمٍ أَمْرًا
طَبِيعِيًّا، وَلَوْ أَنَّكَ عَرَفْتَ مَا فَعَلْتَهُ بِكَ وَمَا فَعَلْتَهُ بِثِقَتِكَ الَّتِي تَجَاوَزَتْ
كُلَّ وَصْفِ حِكَاةِ الْأَدْبَاءِ وَتَخَطَّتْ كُلَّ تَوْصِيفِ نَظْمِ الشُّعْرَاءِ، لَكَانَ
إِبْصَالِي لَهَا الْآنَ لِمَنْزِلِهَا لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْهَامِ، رَافِقُ كُلِّ تَفْكِيرِي هَذَا
إِبْتِسَامَةٌ سَاخِرَةٌ، لَمْ تَكُنْ سَاخِرَةً مِنْ إِسْرَاءَ، لَكِنِّي كُنْتُ أَسْخَرْتُ بِهَا
مِنْ نَفْسِي لِهَوْلٍ وَفِظَاعَةٍ مَا فَعَلْتَهُ، فَلَمَسْتُ وَجَنَّتَهَا وَوَضَعْتُ كَفِّي
الْآخَرَ عَلَى ذِرَاعِهَا وَقُلْتُ لَهَا: لَا تَخَافِي يَا حُلُوتِي، سَأُوصِلُهَا وَكُنْتُ
أَقْصِدُ رِيمَ، ثُمَّ أَذْهَبُ لِلسَّلَامِ عَلَى أَهْلِي، وَسَأَعُودُ لِيَلًا بِإِذْنِ اللَّهِ،
وَبِالْفِعْلِ خَرَجْتُ مَعَ رِيمَ، فَكُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى الْأَرْضِ وَكُنْتُ أَلْمَحُّهَا
بِطَرَفِ عَيْنِي تَنْظُرُ إِلَيَّ، فَلَمْ أُعْرِهَا انْتِبَاهًا إِلَى أَنْ تَوَجَّهَتْ لِي

بالكلام وقالت: ماذا سنفعل الآن؟، فقلت لها: سأوصلك لمنزلك وأمضي أنا لشأني، فقالت: ليس ذلك أعني، ما قصدته متى سنبدأ بمشروع الزواج؟، فألقيت الحقائب من يدي وأمسكت بقميصها الأزرق الذي ما كان يحمل من السماء غير لونها، لم يكن يحمل جمالها ونقاءها الذي لا يكدره سوى وهج نجم أو ضوء قمر، فقلت لها: هل جننتي؟، أتريديني أن أقتل الفتاة الوحيدة التي أحببت بيدي؟، ثم وكزتها بعيداً عني وقلت لها: لا تعودي للتفكير بشيء كهذا حتى في خيالك، وإن كان غشاء الشرف هو ما يهتك ولا أظن الشرف يهتك كثيراً، فيوجد الآن أطباء يعيدون أي عاهرة لعزيبتها، وقبل أن أدير لها ظهري مولياً برقت بعيني دمعاً تتهادى على خدها، ما كنت أظن ريم متحجرة القلب التي أعرف تسبل مثلها يوماً، فلم أبه كثيراً لدمعتها تلك ودفعت لها بقوة حقيبتها ثم حملت حقيبتي متوجهة للمنزل، كم كنت مشتاقاً لذاك المنزل ولمن يسكنونه، فوصلت المنزل وهممت بالدخول بلهفة، ليصادف دخولي خروج أبي، فاحتضني بقوة وقال: كم اشتقت إليك يا فتى، فعدل عن الخروج وعاد ليدخل برفقتي، ففتح باب المنزل لنجد أختي أمامنا، ليست على ما يرام حنان، هذا ما أحسسته من نظرتها اليوم وما كنت قد توجست منه أثناء حديثها معي بالأمس، فاحتضنتها وقبلتها وهمست بأذنها أن سنتحدث بعد قليل، ثم جاء دور أمي التي كانت مسك الختام، فوقفنا أمامها حائراً من أين أبدأ بتقبيلها، أم من قدميها أبدأ أم من رأسها، فلم تترك لي فرصة

للتفكير وكانت هي من قبل يديّ وخطي، واحتضنتني وقالت: حمدًا

لله على سلامتك يا حبيبي، طمئني عن حالك يا نور عيني،

- حمدًا لله ، أنا بخير يا حبيبتي.

- ها قد زرت الجزائر كما كنت تتمنى، هل استمتعتم

برحلتكم؟

- نعم والحمد لله، سعدنا كثيرًا، لم ينغصنا سوى بُعدنا عنكم

ومرضُ إسرائ، ماذا لو أخبرتكم بالمُصيبةِ العُظمى التي

ارتكبتها بالأمس!

- ماذا تقول؟، ما بها إسرائ يا هشام؟

- أصيبت بالتهاب في الزائدة، فقاموا بإجراء عملية لها

لاستئصالها، لم تكن هذه وحدها هي المشكلة، فقد أخبرني

الطبيب أنها تعاني مشكلة في القلب.

أذكر أنّهما كانتا تجلسان جوارى عندما أخبرتهما بذلك الخبر، ولم

أدر بهما إلا وهما تقفان عند باب المنزل وتقولان هل سئوّلنا أم

نأخذ سيارة أجرة؟، فلم أحتج لسؤالهما عن الوجهة التي

ستقصدان، فالوجهة معروفة بلا ريب!، ذهبنا إلى منزل إسرائ

فقرعنا جرس المنزل طويلاً، فلم يكن لنا من مجيب حينها، يبدو أن

إسرائ ووالدتها خرجتا من الدنيا حين رأت إحداهما الأخرى،

فانتظرنا لأكثر من عشر دقائق حتى تنبّهت لنا والدّة إسرائ وفتحت

الباب، وعندما نظرت إلينا لم تتمالك نفسها من البكاء وألقت

رأسها فوق صدر أمي، وصارت تبكي بكاءً شديداً وتصرخ وتقول:

ستصبح بخير ابنتي، أليس كذلك؟، فحاولت تهدئتها أمي وصارت
تمسح على شعرها وتكفكف دمعها وتقول: لا تقلقي يا أم ساجد،
ستكون ابنتك بخير بإذن الله، وإذا بحبيبتي تأتي من الداخل، فقالت
لوالدها: يا أمي، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، كم هي رائعة
حبيبتي، فلو رأت أمها دمعها بالأمس لأصيبت بسكتة قلبية، تدعي
القوة طفلي وتظاهر بها أمام أمها، وأنا أقرأ الحزن في قلبها قبل
عينها، كانت كما طبيب في أصل معركة يعاني جرحاً مُميتاً لكنه
يُداوي خدشاً بسيطاً لطفل يئن، فقَبَلَتْها حنان وقالت لها: لا تخاف
يا حبيبتي، نحن حولك ومعك دائماً، فجلسنا مع إسراء ووالدها
وصرنا نخلق الأحاديث كي نملئ الوقت فقط ولا نذكر الموضوع
الأهم وهو صحة إسراء، كان كل منا يتجنب التطرق لشيء يخص
هذا الموضوع، فانقضى الوقت وطببت مني حنان وكذلك أمي أن
أوصلهما للمنزل كي نترك إسراء لتستريح، فأوصيتها أن تنام قليلاً
وترتاح، على أن أعود لرؤيتها في المساء، كنت أريد أن أرتب
معها موعداً لطبيب القلب الذي سنراجعه، لكن لا داعي لتوتير
الأجواء ومواجهتهم بالوحش الذي يتجنبون لقاءه الآن، فخرجنا
مُتوجّهين للمنزل ودعوتهما للنزول، على أن أذهب لقضاء بعض
الأعمال، فاغتاظت مني أمي ورفضت أن تنزل إن لم أسبقها أنا
للمنزل، ففعلت لأني ما كنت أدري إلى أين كنت سأذهب إن رحلت،
كنت فقط أريد أن أهرب، وماكنت أعرف تحديداً مم سأهرب!.

خطيئة واحدة ارتكبتها جعلت الأرض تضيق عليّ بما رحبت وحقّ لها ذلك، فدخلنا منزلنا بعدها، وكان قد ذهب إلى عمله أبي، فقالت أمي: اذهب ونم قليلاً أنت يا هشام وساعدك أكلة "الشيشبرك" التي تحبها في الغداء، فدخلت بالفعل لغرفتي وتبعني حنان مسرعةً كائني بها تحمل حملاً تريد إنزاله عن ظهرها، فأغلقت الباب ووقفت أنا في وسط الغرفة، فاقتربت مني ووسدت رأسها صدري وقالت: أنا لا أستطيع العيش دونك يا أخي.

- ولا أنا يمكنني البعد عنك يا حبيبتي.

- لا أريد السفر، أنا أرجوك.

- إلى أين ستسافرين يا طفلي؟

- إلى البرازيل، نبيل يريد أخذنا معه إلى هناك.

الكل يقفون إلى صفه، لا أحد غيرك سيكون في صفي.

فدعوئها للجلوس ونزع ثوب الانكسار الذي ترتديه وقلت لها: لن يجبرك أحد على شيء لا ترغبينه، لا تخاف شيئاً يا حلوتي، وإذا بصوت هشام الصغير يبوح بوضائه، فضحكت وقلت لها: كم أنت مجرمة يا حنان، أتتركيني دون أن أرى حبيبي الذي سرق اسمي كل هذا!، فابتسمت ثم ذهبت وأحضرت من سريره ووضعته بين ذراعي، فنظرت إليه وقبلته وقلت له: كم أحبك يا صغيري، وقلت له مازحاً: تعال كي نرى من الذي أغضب أمك يا سيد هشام، فابتسمت حنان ابتسامتها الدامعة التي لم أعد أرى غيرها،

- لماذا لا تُريدِينَ الذَّهَابَ مع زوجِكَ؟

- أترِيدِينِي أن أتركَكَ وأسَافِرُ!، يستَحِيلُ ذلكَ.

فخرجتُ مِنْ عِنْدِهَا بعدَ أن صرَعَنِي كَلَامُهَا، وأنا الَّذِي كُنْتُ أَنُوي
أن أبُوحَ لَهَا دونَ سِوَاهَا بما فَعَلْتُ، فعدتُ إلى عُرْفَتِي وكنْتُ متعبًا،
وما إلى الرَّاحَةِ من سَبِيلٍ، وكنْتُ أرى نورَ الشَّمْسِ من النَّافِذَةِ،
لكنَّهُ فِشَلٌ أن يتَسَلَّلَ إلى رُوحِي، التي أراها قد انسلَّتْ من بَدَنِي
لتَقْبَعِ في قَاعِ سَحِيقٍ، فليستَ قَريبَةً لثُشَعِرِنِي بِريحِ الحَيَاةِ وليستَ
بعيدةً بما يكفِي، لتسَاعِدَنِي أن أهرُبَ مِنْ جُرْمِي، فلو كانَ فِعْلِي هَذَا
سيبْطِشُ بِي وُحْدِي وبِأحلامِي فلا بأسَ، لكنَّ أبسطَ ما سيُحدِثُهُ هو
أن يسْلُبَ فرحةَ حَبِيبَتِي، وليتَهُ بذلكَ يَكْتَفِي، فهوَ سيجنِي ثَمَارَ قَلْبِهَا
الصَّغِيرِ الضَّعِيفِ، ويُقْهِهَا في مَكَبٍ لِلنَّفَايَاتِ ثمَّ يَقومُ بِزَرعِ شَجَرِ
العَرَقَدِ مَكَاتِهَا، ويَلِي ما أَقْبَحَ فِعْلِي.

ذَهَبْتُ لِأَجْلَسَ في صَالَةِ المَنْزَلِ فرَأْتُنِي أُمِّي.

- أَلَمَّا يَنْمُ حَبِيبِي بَعْدَ؟

- لا يَا أُمِّي، جَلَسْتُ قَلِيلًا مَعَ حنانَ، دَعِينَا نَتَحَدَّثُ قَلِيلًا

بشأنِهَا، أنتِ تَعْلَمِينَ بِالتَّأَكِيدِ أنَّ زَوْجَهَا يَريدُهَا أن تُسَافِرَ

مَعَهُ وَهِيَ تَرفُضُ ذلكَ،

- بِالطَّبَعِ أَعْلَمُ،

- فَمَا رَأْيُكَ إِذَا؟

- سأُخْبِرُكَ بِمَا يَجِبُ عَلَيَّهَا أن تَفْعَلَهُ وبِما أتمنَّى أن يَحْصُلَ،

- الأُمْنِيَّةُ أَعْرَفُهَا، وَالوَاجِبُ كَذَلِكَذ، أَرِيدُكَ أَنْ تَنْصَحِيَنِي بِمَا يَجِبُ أَنْ أَفْعَلَهُ أَنَا مِنْ أَجْلِ أُخْتِي ،
- هَذَا أَفْضَلُ، عَلَيْنَا يَا وَلَدِي أَنْ نَفْكَرَ بِحَلِّ نَهْيِي بِهِ هَذَا الْخِلَافِ، وَإِنْ كَانَ صِهْرُكَ نَبِيْلٌ عَلِنْدَ حَقِّ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يُجْبِرُهُ عَلَى تَرْكِ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ يَعِيشُونَ بَعِيدًا عَنْهُ،
- أَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ وَأَنَّ عَلَى حَنَانٍ أَنْ تُطِيعَهُ ، لَكِنِّي أَرَاهَا تَرْفُضُ الْمَوْضُوعَ بِالْكَلِيَّةِ ،
- إِيَّاكَ يَا وَلَدِي أَنْ تُرِيَهَا أَنَّكَ تَوَافِقُهَا.

فَقَاطَعْتُنَا حَنَانٌ حِينَ قَدِمْتَ مِنْ غَرَفَتِهَا حَامِلَةً وَلَدَهَا وَقَالَتْ بِنْبِرَةِ الْمُتَحَدِّي: لَا أَحْتَاجُ مُوَافَقَةَ أَحَدٍ، وَسَأَفْعَلُ الشَّيْءَ الَّذِي أُرْغِبُ بِهِ أَنَا، فَصَارَ عَلِيٌّ أَنْ أَبْتَكِرَ طَرِيقَةً أَنْهِيَ بِهَا هَذَا النِّقَاشَ بَيْنَهُمَا، فَهَذِهِ عَنِيدَةٌ وَتِلْكَ أَعِنْدَ وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ مُشَاهَدَتُهُمَا فِي حَلْبَةِ اللَّيْنِاقِشِ، فَاسْتَعْلَتْ سِيْجَارَتِي وَنَظَرْتُ إِلَيْهِمَا وَقَلْتُ: كَفَاكُمَا جَدْلًا، سَنُنَاقِشُ الْمَوْضُوعَ عِنْدَمَا يَأْتِي نَبِيْلٌ وَوَالِدِي فِي الْمَسَاءِ، وَطَلَبْتُ مِنْ أُمِّي كُوبًا مِنَ الْقَهْوَةِ وَدَخَلْتُ لِمَكْتَبِي، كَانَ الْجِسْمُ مُتَعَبًا وَكَانَتْ الرُّوحُ تَتِنُّ، وَخَلِيْلَايَ الْمُتَصَارِعَانِ دَوْمًا لَمْ أَعُدْ أَسْمَعُ لَهُمَا حَسِيْسًا، فَلَمْ يَعْذِ الْقَلْبُ يَحِبُّ شَيْئًا، وَمَا عَادَ الْعَقْلُ يُنْظِرُ عَلِيَّهِ لِيَمْنَعَهُ مِنْهُ، وَلَا أَدْرِي هَلْ يُعَاقِبَانِي عَلَى فِعْلَتِي، أَمْ قَدْ اِكْتَشَفَا زَيْفَ صُورَتِي الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَكَوَّنَتْ لَدَيْهِمَا عَلَى مَدَى الْعَمْرِ فَقَرَّرَا التَّخْلِيَّ عَنِّي!، فَإِذَا كَانَ عِقَابًا سَبَبُ صَمْتِهِمَا فَأَنَا أَسْتَحَقُّهُ هَذَا الْعِقَابَ، أَمَّا تَخْلِيُّهُمَا عَنِّي فَلَنْ أُطِيقَهُ أَبَدًا، فَأَنَا وَكَمَا يَبْدُو مُقْبَلٌ عَلَى أَيَّامٍ عَصِيْبَةٍ

وسأكون بحاجة لرفيقٍ يُعِينُنِي عَلَيْهَا، وَلَا أَعُولُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي
أَوْ أَصْدِقَائِي أَنْ يَكُونَ إِلَى جَانِبِي، بِالْأَخْصِ إِذَا عَلِمُوا قَبِيحَ فِعْلَتِي!
وَحَدَّهَا أُمِّي مِنْ أَسْتِطِيعُ أَنْ أُرَاهِنَ أَنَّهَا سَتَبْقَى، هَكَذَا هِيَ أُمِّي، بَلْ
هَكَذَا تَكُونُ الْأُمَّهَاتُ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتْرِكَ الْأُمَّ وَوَلَدَهَا وَحِيدًا وَلَوْ كَانَ قَدْ
مَلَأَ الدُّنْيَا ذُنُوبًا وَخَطَايَا، لَكِنْ هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لِإِخْبَارِهَا بِجُرْمِي الَّذِي
أَقْتَرْتُ، أَعْتَقِدُ أَنَّ بَقِيَّةَ مِنَ الْحَيَاءِ عِنْدِي بَاقِيَةٌ سَتَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ،
فَتَرَكْنَا أُمِّي وَبَقِيْتُ وَحْدِي مَعَ حَنَانٍ، فَقُلْتُ لَهَا: لَا تَخَافِ شَيْئًا يَا
حَبِيبَتِي، هَلْ عَهْدَتِي يُمْكِنُ أَنْ أَتْرَكَكَ؟

- لَا يَا أَخِي، وَأَنَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَتَخَلَّى عَنْكَ يَوْمًا.

فاحتضنتها وقبّلت رأسها، فاطمأنت نفسي قليلاً ووقع اختياري
عليها لأبوح لها بالذي فعلت، لكنني أريد أن أجد التوقيت الأنسب
لذلك، فأحضرت لنا القهوة أُمِّي وجلسنا نحن الثلاثة سويًا، كنّا
نحبُّ هذه الجلسة التي تجمَعُنَا، كَانَ مَا يَمِيزُهَا أَنَّنَا نُلْقِي جَمِيعَ
خِلَافَاتِنَا خَارِجَ حُدُودِهَا مَهْمَا بَلَغَتْ مِنَ الْعِظَمِ، فَجَلَسْتُ أُمِّي قَرَبَ
حَنَانٍ وَصَارَتْ تَمْسُحُ بِكَفِّهَا عَلَى شَعْرِهَا الْبُنِّي النَّاعِمِ، فَقَامَتْ مِنْ
جَوَارِهَا حَنَانٍ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْقِيَامُ بِسَبَبِ الْعُضْبِ، لَكِنَّهَا قَامَتْ
لِتَجْلِسَ أَرْضًا وَتُسَنِّدَ ظَهْرَهَا وَتُلْقِي رَأْسَهَا فَوْقَ رُكْبَتِي أُمِّي، يَعُودُ
الْإِنْسَانُ طِفْلًا فِي حَضْرَةِ أُمِّهِ وَآبِيهِ، فَقَدْ يَسْتَلِبُ الْعَمْرُ مِنْهُمَا الْقُوَّةَ،
لَكِنَّهُمَا فِي أَوْجِ ضَعْفِهِمَا يَكُونَانِ مَصْدَرًا لِلْأَمَانِ لَوْلَدِهِمَا وَابْنَتَيْهِمَا،
كَنتُ قَدْ قَرَأْتُ مَقُولَةً ذَاتَ مَرَّةٍ تَقُولُ: "يَظَلُّ الْإِنْسَانُ طِفْلًا إِلَى أَنْ
تَمُوتَ أُمُّهُ، فَإِنْ مَاتَتْ، شَاخَ فَجَاءَتْ"، فَصِرْتُ أَنْظُرُ لَهُمَا وَأَضْحَكُ،

- أدامَ اللهُ عليكِ الفرحةَ يا ولدي، علامَ تضحك؟
- ألسنُما متشاجرتين؟، ولا أظنُّ هذه الجلسةُ الودودةَ من

آدابِ الشِّجار!

- هل تظنُّ يا حبيبي أنّي أُطيقُ البُعدَ عنكَ وعن أختك "الغبيّة"
- طرفةَ عينٍ!، أقولُ بلساني ما ليسَ في قلبس ، فأنا كنتُ ألحُّ
- عليها أنْ تقبلَ بالسّفَرِ أمامهم، وقلبي كانَ يرجوها أنْ تُصرَّ
- على البقاء.

فقامت حنانٌ وضمت أمي بعد أن سمعت كلامها، فقلتُ لهما: ها قد صرنا حلقًا، ولن نوافق على سفرها، ليبقى نبيلٌ إذا شاء، ثم أكملتُ شرب قهوتي وأخفضتُ رأسي واستسلمت لتعبي، وزارني النوم دون عناء، فلم يعد قلبي وعقلي يختصمان لمنعي من ذلك كما أرى، ولازلت لا أدري أعقابٌ هو أم تخلي سبب صمتها.

لم توقظاني برغم نومتي التي قد تضر برقبتي، لعلمهما أنّي لطلما عانيتُ من صعوباتٍ في النوم، بالتزامٍ مع ذلك لم يشهد نومي حلمًا جميلًا ولا حتى كابوسًا مُفزعًا، وماكان الحلمُ ليُسعدني وما كان الكابوسُ لينعص نومتي لو جاء حتى، فما يورقني شأنٌ أكبر من هذا كله، فالحلمُ ستنتهي بهجته حال استيقاظي، وكذلك الكابوسُ لن يدوم ولن يظل أثره لأكثر من دقائق معدودة، ما يخيفني هو الواقع الذي سأحياه في يقظتي.

كان من أوقظني من نومي ضربةٌ من نبيل السخيف على رقبتني، لم يكن النعاسُ وحده ما امتص غضبي حينها، بل كان لشوقي إليه

دوره أيضاً، فقامت واحتضنته وقبلته ووجهت إليه ضربتين على كفه، وقلت له: أهكذا يُوقظ النَّائم أيُّها المعتوه؟، فضحك وقال: وهل ينامُ الانسانُ بهذه الطريقة أيُّها الأحمق؟

- حمداً لله على سلامتِكَ يا أبا هشام.

- سلّمك الله.

فدخلت أمي وقاطعتنا لنخبرنا بأنَّ الغداء جاهز، فذهبنا على الفور لغرفة الطعام، وكان والدي يجلس في رأس الطاولة و يجلس جواره طفلة حنان، لازال يراها كذلك حتى بعد أن أصبحت زوجة وأماً، فتناولنا غداءنا في جو لا تنفصه الألفة ولم تغب عنه المودة، ثم توجهتُ وأبي ونبيل إلى غرفة الجلوس على أن تحضر أمي وحنان لنا الشاي بعد قليل،

- مبارك لك هذا الطفل الذي انتحل اسمي.

- أيزعجك ذلك؟

- أنت لا تعلم كم كنت سعيداً عندما أخبرثموني باسمه، أسأل الله أن يكون ذخراً لك ولتلك المجنونة، وكنت أقصد حنان.

ولم أصفها بذلك من باب الغيبة التي أمقت، لكنني لمحتها تدخل من الباب تحمل الشاي لتقدمه لنا، فضحكت وقالت: هكذا أنتم يا أعداء النجاح وأخرجت لسانها صغيرتي وقدمت لنا الشاي ثم خرجت، فبقيتُ وأبي ونبيل ولم يكن على بالي حديث غير موضوع أختي وسفرها، فقلت لنبيل: أَلنَّ تتخلى عن رغبَتِكَ في اصطحاب حنان؟، فارتعد وقال لي بوجه يملئه الغضب : أليست زوجتي ويحق لي أن

أَخَذَهَا أَيْنَ شِئْتَ؟، ثُمَّ أَدَارَ ظَهْرَهُ وَخَرَجَ مِنَ الْمَجْلِسِ، وَيَبْدُو أَنَّهُ رَأَاهَا حِينَ وَلَّى خَارِجًا، وَقَالَ لَهَا بِصَوْتٍ غَاضِبٍ مُرْتَفِعٍ: أَنَا فِي الْمَنْزِلِ بِانْتِظَارِكَ، وَكَانَ مَا أَدْهَشَنِي أَنِّي رَأَيْتُ الْيَوْمَ نَبِيلَ بِشَكْلِ غَيْرِ الَّذِي اعْتَدْتُ أَنْ أَرَاهُ، فَقَدْ تَخَلَّى عَنْ ذَوْقِهِ وَلِبَاقَتِهِ الْمَعْهُودَةِ وَخَرَجَ دُونَ اسْتِئْذَانٍ مِنْ أَبِي أَوْ مَتِي، يَبْدُو أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ بِسَيِّئًا كَمَا ظَنَنْتُ، فَجَاءَتْ مُسْرِعَةً حَنَّانٍ نَحْوِي فَاحْتَضَنْتَنِي وَوَضَعَتْ رَأْسَهَا فَوْقَ كَتْفِي وَهِيَ تَبْكِي وَتَقُولُ: لَا أُرِيدُ السَّفَرَ يَا هِشَامَ لَا أُرِيدُ، كَأَنِّي بِهَا تَلْقِي مَسْئُولِيَّةَ الْأَمْرِ كُلِّهِ عَلَى عَاتِقِي، وَيَلِكُ يَا هِشَامَ هَلْ كَانَ يَنْقُصُكَ هَذَا!، فَالْتَفَتْتُ إِلَى أَبِي الَّذِي كَانَ يُرَاقِبُ الْأَمْرَ بِصَمْتٍ وَقَلْتُ لَهُ: مَا رَأَيْكَ أَنْتَ يَا أَبِي؟، فَقَالَ: هِيَ يَجِبُ أَنْ تُطِيعَ زَوْجَهَا، نَبِيلٌ وَأَبِي يَرِيدَانِهَا أَنْ تُسَافِرَ، وَأُمِّي أَيْضًا تُظَهِّرُ مُوَافَقَتَهَا أُمَّامَهُمْ، لَمْ يَبْقَ مَعَكَ غَيْرِي يَا صَغِيرَتِي، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اقْتِنَاعِي بِحُجَّةِ نَبِيلٍ وَمَوْقِفِ أَبِي، لَكِنْ لَوْ كَانَ أَهْلُ الْأَرْضِ فِي كَفَّةٍ كَلَّهْمُ وَتَقْفِينِ أَنْتِ مُقَابِلَةً لَهُمْ فِي الْكَفَّةِ الْأُخْرَى، سَأَكُونُ أَنَا فِي كَفَّتِكَ، فَطَوَّقَتْ عُنُقَهَا بِذِرَاعِي وَأَسْنَدَتْ رَأْسَهَا عَلَى صَدْرِي ثُمَّ تَوَجَّهَتْ بِالْكَلَامِ لَوَالِدِي وَقَلْتُ لَهُ: لَنْ أُوَافِقَ عَلَى سَفَرِهَا أَيًّا يَكُنْ ثُمَّ قَبَّلَتْ رَأْسَهَا وَقَلْتُ: لَا تَخَافِ يَا صَغِيرَتِي، لَنْ تَفْعَلِي شَيْئًا رُغْمًا عَنكَ، وَكَفِّي عَنْ هَذَا الْبُكَاءِ بِرَبِّكَ وَكَوْنِي جَاهِزَةً فِي الْمَسَاءِ وَوَالِدَتِكَ كَيْ نَذْهَبَ لِرُؤْيَا إِسْرَاءَ، فَخَرَجَتْ حَنَّانٍ وَبَقِيْتُ وَأَبِي وَحَدْنَا، وَلَا أُدْرِي أَذْكَرُ إِسْرَاءَ هُوَ مَا جَلَّبَ فِكْرَةَ الزَّوْجِ عَلَى بَالِهِ أَمْ أَنَّهَا ذَاتُ الْفِكْرَةِ الَّتِي اسْتَوَظَنْتُ فِكْرَهُ مِنْذُ وُلِدْتُ وَأَخِي هَاشِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَبِرَغْمِ أَنَّهُ

أصبحَ جدًّا لولدِ حنانِ قبلَ أيَّامٍ، إلَّا أنَّ هذا الطفلَ لن يكونَ اسمُ أبي
قُربَ اسمه في أيِّ شهادةٍ أو بطاقةٍ، كما أنَّ ولدَ حنانِ على معرَّته
سيذكرُ أنَّه من مدينةِ الخليلِ إن سُنلَ من أيِّ مدينةٍ أنتِ، ولنْ يأتي
على ذِكرِ رامِ الله التي تنتسبُ إليها والدتهُ!، فقالَ لي أبي: أمَّا إن
الأوانَ لتتزوَّجِ يا ولد؟، فقلتُ له: سأتزوَّجُ بإذنِ الله، دعنا ننتهي
من مُشكلةِ حنانِ الآنَ ثمَّ سأفكرُ في قصَّةِ الزواجِ هذه، فأجابني:
معنى ذلكَ أنَّكَ قدَّ تقبلُ و قدَّ تمتنعُ، أليسَ كذلكَ؟

- بالتأكيد يا أبي، لم أحسمْ أمري بعد.
- اسمع يا ولد، قالها بنبرةٍ حازمةٍ أبي، سواءً أعجبتك الفكرةُ
أم لمْ تُعجبك فسوفَ تتزوَّجُ، ولنْ أقبلَ منك جدلاً ولا حتَّى
نقاشاً في الأمرِ.

- أليسَ هذا الأمرُ يخصُّني أنا، ويجبُ أنْ أقدمَ عليه بإرادتي؟
- لطالما طرَحنا الأمرَ عليكِ وكنْتَ تُسوّفُ وتوجِّلُ، أمَّا الآنَ
فستقبلُ رغماً عنك، تركنا لكِ اختيارَ العروسِ، وهو ما كانَ
جدلنا في الأيامِ الماضيةِ، فوالدتكِ وحنانُ تُعجبهُما إسرائِ،
وأنا اخترتُ لكِ ريمَ، أراها أجملُ وأنسبُ، و لنْ نُجبركَ على
أحدِهِما يا ولدي، وإنْ كنتِ تهوى فتاةً أخرى، نذهبُ في
الغدِ ونخطبُها لكِ، فأجبتُهُ في عقلي وقلتُ: قد اخترتِ إسرائِ
ولنْ أفكرَ بالزواجِ من غيرها!.

إنْ كنتِ أراها كذلكَ فما الذي فعلتهُ بالأمسِ!، ألمْ تشهدِ لي بلسانها
ريمَ أنَّ عيني لا ترَ أجملَ من إسرائِ أنتي؟، وليتَّها لمْ تتفوهَ بهذهِ

الشهادة التي غرّنتي لتسوّل لي نفسي أن أفعل ما فعلت، فكنْتُ مُعْتَرًا جَدًّا بِكَلِمَاتِهَا تَلْكَ، وَظَنَنْتُ أَنِّي مُحَصَّنٌ بِهَا مِنَ الْوَقُوعِ فِي الْمَحْظُورِ، لَكِنْ وَعِنْدَ أَوَّلِ امْتِحَانٍ لِي وَإِرَادَتِي وَمَمَّنَ أَعْطَانِي جَرْعَةً فَانِضَةً مِنَ الثَّقَةِ، أَعْلَنْتُ رَسُوبِي، فَكَانَتْ رِيمَ كَمَا مَعْلَمٌ يَجْتَهِدُ أَنْ يُوَصِّلَ الْمَعْلُومَةَ لِطُلَّابِهِ، وَحَالَمَا تَصِلُهُمْ يَقُومُ بِطَرِيقَةٍ مُبْتَكِرَةٍ بِامْتِحَانِهِمْ، وَهَذَا مَا فَعَلْتَهُ بِالضَّبْطِ رِيمَ، فَكَانَتْ كَمُعَلِّمٍ مَآكِرٍ يُجِيدُ امْتِحَانَ طُلَّابِهِ، وَكُنْتُ أَنَا ذَلِكَ الطَّالِبَ السَّادِجَ الَّذِي يَقَعُ فِي أَسْهَلِ فَخٍّ.

عُدْتُ لِغِرْفَتِي كَيْ أَسْتَرِيحَ، وَكَالْعَادَةِ سَاجِدٌ مَن يَمْنَعُنِي مِنْ هَذِهِ الرَّاحَةِ، وَكَانَتْ حَنَانٌ هِيَ مَن مَنَعُنِي، فَجَلَسْتُ عَلَى السَّرِيرِ جَوَارِي فَوَضَعْتُ كَفِّي فَوْقَ رَأْسِهَا وَقُلْتُ: بِمِ تُرِيدُ أَنْ تَبُوحَ قِطِّي الْجَمِيلَةَ، فَقَالَتْ: لَا شَيْءَ، فَقُلْتُ لَهَا: أَنْتِ تَتَحَدَّثِينَ إِلَى هِشَامِ أَيَّتْهَا الْحَسَنَاءُ، أَخْبَرَنِي هِيًّا، فَأَلْقَتْ نَفْسَهَا حَنَانٌ فَوْقَ صَدْرِي وَصَارَتْ تَبْكِي، فَحَاوَلْتُ تَهْدِئْتُهَا وَ قُلْتُ: مَابِكِ يَا صَغِيرَتِي فَقَالَتْ: لَا أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ، لَا أُرِيدُ، فَأَمْسَكْتُ وَجَنَّتِيهَا الْغَارِقَتَيْنِ بِالذَّمُوعِ.

- مَابِكِ يَا حَنَانُ، لِمَ أَنْتِ خَائِفَةٌ مَنِ السَّفَرِ لِهَذَا الْحَدِّ؟
- لَا أُرِيدُ أَنْ أَبْتَعِدَ عَنْكَ يَا أَخِي.
- لَنْ تَكُونِي وَحْدَكَ يَا نُورَ عَيْنِي، سَيَكُونُ مَعَكَ حَبِيبُكَ نَبِيلَ وَسَيَكُونُ مَعَكَ هِشَامُ سَارِقُ اسْمِ خَالِهِ.
- وَأَنْتَ مَعَ مَنْ سَتَبْقَى؟

كانت تُحدِّثني بلسانها ودُموعها تنزلقُ على خديها، فطلبتُ منها أن تهْدأ قليلاً وذهبتُ أنا للمطبخ وطلبتُ من أمي كأساً من اللَّيْمون لتهدأ أعصابها كما أراهم يفعلونَ في الأفلام، ولم أُنْعِب نفسي يوماً في البحثِ عن صحَّةِ هذه النَّظريَّة، فانتظرتُ أمي حتَّى أنْهت تحضيره ثمَّ عدتُ إلى عُرفتي فوجدتُ حنان باكيةً كما تركَّتها فأعطيْتُها كأسَ اللَّيْمون وجلستُ جوارها وقلتُ لها: أخبريني ما الأمرُ يا حبيبتِي؟

- باختصار، أنا لا أستطيعُ الابتعادَ عنك، هل فهمتُ؟
- هذه سنَّةُ الله، فكلُّ النساءِ يفارقنَ أهلهنَّ عندَ زواجهن، وكذلك الرجال.
- أنا لن أتركك.

ما أجملكِ وما أرقَّ قلبكِ يا أُخيَّة، تفعلينَ ذلكَ وأنتِ أختي الصَّغيرة التي كنتُ مسؤولاً عن تربيتهَا بشكلٍ من الأشكال، فكيفَ لو كنتِ تكبريني؟! فدخَلَ علينا أبي بوجهٍ أحمرٍ مُلتهبٍ وقال: بعد ساعةٍ من الآن ستذهبينَ لمنزلِ زوجك، هل فهمتي؟، قالَ هذه الكلماتِ أبي ثمَّ خرَّجَ دونَ أن يسمَعَ تعليقاً حتَّى على ما قاله، فصارتِ الأفكارُ تتلاطمُني، أهذه حبيبتكِ الصغيرةُ يا أبي؟

أتهونُ دمعُها عليكِ؟

ألتذكرُ ذات مرَّةٍ عندما ضربتُها وجاءتكَ باكيةً؟، أتذكرُ ماذا فعلتُ؟، ألم تطردني خارجَ المنزلِ يومها ولم تسمَح لي بالدُّخولِ

مرّةً أخرى إلا إن صَفَحْتَ عَنِّي؟، ما عهدتُك هكذا تَقْسُو عليها!، ما الذي غَيَّرَكَ؟، لازلْتُ غيرَ قادرٍ على استيعابِ ما أرى!.

كانت تبكي أمي وأنفثُ أنا سَمَّ سيجارتي السَّابِعة في الهواءِ النقيِّ من حولي، أشعُرُ بأنني وسَطُ دَوَّامةٍ ولا أملكُ من أمري إلا أن أَسْتَسَلِمَ لدورانها السَّريعِ غيرِ المُنتَظِمِ، وسواءً أمنتَظماً كان أم غيرِ مُنتَظِمٍ فسَتَهْوِي بي هذه الدَوَّامةُ إلى قاعِ سحيقِ.

جرسُ المنزلِ يقرَعُ، من تُراه يَكونُ؟، فَقَمْتُ لِأَفْتَحَ بابَ المنزلِ وكان نبيلٌ هو القارعُ، فأبعدني بقوةٍ عن بابِ المنزلِ وتوجَّهَ مُسرِّعاً نحوَ حنانٍ وقالَ لها: ألمَ تَسْتَعِدِّي كي تعودِي للمنزلِ؟ فقالت حبيبتي بِصوتٍ فيه انكسارُ العالمِ: سأجهِّزُ حقيبةَ الطفلِ فقط، اصبر قليلاً، فجلسَ جوارها نبيلٌ ومَسَحَ دَمْعَها وقالَ: لا تبكي يا حبيبتي، فلنَ أُجبركَ على شيءٍ، أتُؤمِنِ عليَّ أيُّ أريدُ أخذَ أميرتي للعيشِ معي؟، فاحتضنته حنانٌ وكانت عينها دامِعةً وشفاهاها تبتسمُ، و تَعْمَرُني وهي تَحْتَضِنُ زوجها وترفعُ إبهامها أن قد انتصرتُ، فقدمتُ أنا عليه وضربته على كتفه وقلتُ له: لمَ أعهدك مثيراً للمشاكلِ هكذا، فَضَحَكَ وقالَ: لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْكَ أَيُّها الأحمقُ، فانتَهَى ذاكَ الخِلافِ و خرجتُ من ذاكَ المَازِقِ وعادتِ البهجةُ إلى كلِّ أرجاءِ المنزلِ ، وهاهي أختي تحتضنُ صغيرها وتُغَدِّقُ عليه القُبْلَ، وهاهي أمي تمسحُ على شعرها وتقبِّلُ رأسها، حتَّى أثارُ المنزلِ أحسَّهُ يَهْتَزُّ فَرَحًا وَيَتَرَاقِصُ، ما غيرَ قلبي الذي كان يستكثِرُ على نفسه الفرحَةَ جزاءً على فِعْلَتِهِ التي اُقْتَرَفَ، فصعدتُ حنانُ

لَتَضَعُ طِفْلَهَا فِي سَرِيرِهِ الصَّغِيرِ، فَاحْتَقَتْ بِهَا عَلَيَّ أَخْبَرَهَا بِهِمَيَّ،
فَنظَرْتُ إِلَيَّ بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ صَغِيرَهَا فِي سَرِيرِهِ ، فَاحْتَضَنْتَنِي
وَقَالَتْ: كَمْ أَحْبَبْتُكَ يَا هِشَامَ.

فَرَحَّتْهَا وَابْتِسَامَتْهَا عَقَدْتُ لِسَانِي فَلَمْ أَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ حَتَّى وَاکْتَفَيْتُ
بِمَسْحَةٍ عَلَى شَعْرِهَا وَقُلْتُ لَهَا: اسْتَرِيحِي يَا أُخْتِي، فَجَزَعَتْ حَنَانُ
وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى كَتْفِي وَقَالَتْ: مَا بَكَ يَا هِشَامَ؟، هَلْ ثَمَّةَ مَا
يُزْعِجُكَ؟، يَبْدُو أَنِّي كُنْتُ وَاهِمًا عِنْدَمَا ظَنَنْتُ أَنَّي وَحْدِي مَن يُجِيدُ
قِرَاءَةَ الرِّسَائِلِ الْمُخْتَبِئَةِ خَلْفَ السُّطُورِ!، فَهَا هِيَ حَنَانُ قَرَأَتْ قَلْبِي
وَانزَعَجِي لَمَّا نَادَيْتُهَا بِأُخْتِي، وَقَدْ تَكُونُ قَرَأَتْ ذَلِكَ أَيْضًا مِّنْ
دِمْعَاتِي الْمَكْبُوتَةِ فِي مَقْلَةٍ عَيْنِي، لَكِنِّي قُلْتُ لَهَا بِأَنَّي مُتَعَبٌ مِّنْ
السَّفَرِ فَقَطْ، ثُمَّ أَدْرْتُ ظَهْرِي هَارِبًا بِحُجَّةٍ أَنِّي ذَاهِبٌ لِعُرْفَتِي كَيْ
أَنَامَ، فَلَمْ تُصَدِّقْنِي أَظْنُّهَا وَقَالَتْ: اذْهَبِي إِلَى عُرْفَتِكَ وَاسْتَرِحِي
وَسُنْعَاوُدُ الْحَدِيثِ مَسَاءً، فَذَهَبْتُ عَاقِدًا الْعِزْمَ أَنْ أَعْقِدَ صُلْحًا مَعَ
خَلِيلِي عَقْلِي وَقَلْبِي، فَلَمْ يَعُدْ عِنْدِي مَن أَشْكُو إِلَيْهِ غَيْرَهُمَا، وَإِنْ
كُنْتُ أَظْنُّهُمَا بِالْكَادِ يَحْتَمِلَانِ الْبِقَاءَ فِي جَسَدِي، فَأَلْقَيْتُ نَفْسِي عَلَى
سَرِيرِي بَانْتِظَارِ أَنْ يَتَنَازَعَا كِعَادَتِهِمَا فَأَعْفُوَ وَأَنَا أَسْمَعُ شِجَارَهُمَا،
لَكِنِّي بَقِيْتُ مُسْتَيْقِظًا دُونَ جَدْوَى، فَلَا الْقَلْبُ يَدُقُّ فِي جَسَدِي لِغَيْرِ
ضَخِّ الدَّمِ، وَلَا الْعَقْلُ يَشْتَهِي التَّفْكِيرَ بِشَيْءٍ، وَمَا كَانَ يَجِدُ لِقَلْبِي
أَهْوَاءً يَمْنَعُهُ مِنْهَا كِعَادَتِهِ، فَلَمْ يَكُنْ أَمَامِي غَيْرَ الدَّوَاءِ الْمَنُومِ
لِيَسَاعِدَنِي أَنْ أَنَامَ.

لَطالَمَا كَانَ النَّوْمُ مُشْكَلَةً لَدَيْ وَكُنْتُ أُلْقِي النَّوْمَ عَلَى عَقْلِي وَقَلْبِي،
لَكِنَّ طَرَفًا ثَالِثًا أَرَاهُ قَدْ تَدَخَّلَ هَذِهِ الْمَرَّةَ، إِنَّهُ الضَّمِيرُ الَّذِي كُنْتُ
أُظَنُّهُ تَابِعًا لِأَحَدِهِمَا، لَكِنِّي اكْتَشَفْتُ لِتَوَيِّ أَنَّهُ عَضْوٌ مُسْتَقِلٌّ، فَهُوَ
قَاضٍ قَاسٍ لَا يَقْبَلُ الدَّفُوعَ وَالْأَعْدَارَ وَلَيْسَتْ تُقْتَعُهُ الْحُجَجُ وَلَا يَلِينُ
لِلْإِسْتِرْحَامَاتِ، أَرَانِي وَقَعْتُ تَحْتَ حُكْمٍ مِنْ لَا يَرْحَمُ، فَشَرِبْتُ الدَّوَاءَ
الْمَنُومَ بِجَرَعَةٍ مُضَاعَفَةٍ، فَأَمَامَهُ كَمَا أَرَى مُوَاجِهَةً لَيْسَتْ تَنْقُصُهَا
الشَّرَاسَةُ، فَقَلْبِي يَصْطَفُّ فِي الْمَيْمَنَةِ وَعَقْلِي فِي الْمَيْسِرَةِ وَضَمِيرِي
الْآبِقُ أَرَاهُ فِي مَقْدَمَةِ الْجَيْشِ، وَفِي غَفْلَةٍ مِنْهُمْ وَمِنْ صِرَاعِهِمْ
اخْتَطَفْتُ غَفْوَةً مَا أَوْقَظَنِي مِنْهَا غَيْرُ صِرَاحِ هَشَامِ الصَّغِيرِ الَّذِي
كَانَتْ تَحْمَلُهُ حَنَانٌ وَتُدَاعِبُهُ وَتَقُولُ لَهُ: أَوْقِظْ خَالَكَ الْكَسُولَ لِيَشْرَبَ
الْقَهْوَةَ مَعَنَا، فَفُتُّ مِنْ سَرِيرِي وَأَمْسَكْتُهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَوَضَعْتُ
جَبِينِي عَلَى جَبِينِهِ وَقُلْتُ لَهُ: لَا تُصَدِّقْهَا يَا صَغِيرِي، فَالْمَثَلُ يَقُولُ:
ثَلَاثًا الْوَالِدِ لِخَالِهِ، فَأَنَا أَمْلِكُ الثَّلَاثِينَ، وَ سَرَى لَاحِقًا إِنْ تَحَصَّلَتْ أُمَّكَ
الْحَمَقَاءُ عَلَى قِضْمَةٍ صَغِيرَةٍ مِنْكَ يَا حَبِيبِي، فَضَحَكْتُ حَنَانًا وَقَالَتْ:
تَعَالَ وَاشْرَبِ الْقَهْوَةَ مَعَنَا يَا حَبِيبِي، فَنَزَلْتُ لِلْأَسْفَلِ وَكَانَتْ أُمِّي
تَجْلِسُ مَعَ أَبِي يُشَاهِدَانِ التِّلْفَازَ، كَانَا يُتَابِعَانِ فِيلْمًا وَثَانِقِيًّا لِمَجْرَزَةٍ
فَعَلَهَا جُنُودُ دَوْلَةِ الْإِحْتِلَالِ الْمَرْعُومَةِ، حَيْثُ قَتَلُوا عِدَدًا يَتَجَاوَزُ
الْعَشْرِينَ، وَجَرَحُوا قُرَابَةَ مَائَةٍ وَخَمْسِينَ شَخْصًا وَقَامُوا بَعْدَهَا
بِاعْتِقَالِ أَكْثَرِ مِنْ مَائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ فَرْدًا، كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ حَاوَلَ
بَعْضُ الْمَتَطَرِّفِينَ وَكَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ "أَمْنَاءَ جَبَلِ
الْهَيْكَلِ" أَنْ يَضَعُوا حَجْرَ أَسَاسٍ لِمَا يُسَمُّونَهُ "الْهَيْكَلُ الثَّلَاثُ"، الْأَمْرُ

الذي دفع أكثر من خمسة آلاف فرد بين امرأة ورجل، بين شابٍ وصبيّة، وحتى بعضاً ممن كانوا يجلسون على كراسٍ متحركة أن يذودوا عن قدسيهم وأقصاهم، فسالت دمعاً كلِّ منا حزناً وهتفت قلوبنا بعهدٍ يراه البعض بعيداً، لكننا نراه أقرب ممّا يتخيّلون، كان عهداً لقننا إيّاه أبائنا كما ورثوه من أجدادنا، وأوصونا أن نزرعه في صدورِ أبنائنا، عهدٌ بالألّا نفرط أو نترك شبراً أو حتّى ذرّة ترابٍ من أرض فلسطين كلّ فلسطين.

فجاءت لنا بالقهوة حنان فبادعني أبي بالحديث وقال: هل اخترت عروسك يا فتى؟، فقلتُ له: سنتحدّث في هذا الموضوع لاحقاً، كم كنتُ أتمنى لو أمسكتُ بيدهُ ويد أمي وقلتُ لهم: زوجوني إسرائ اليوم!

فشربتُ قهوتي سريعاً على غير العادة وقلتُ لهم: أنا ذاهبٌ لزيارة إسرائ، فرأيتُ أبي يهزُّ رأسه ويقول: "أها"، يبدو أنّه تلقى جواباً مبطناً عن سؤاله بشأن العروس، فوقفتُ حنان وقالت: وأنا آتية معك، فتجهّزنا سريعاً وقصدنا منزلَ إسرائ، لنرى سيّارة إسعافٍ تقف أسفلَ البناية، فتركْتُ السيّارة وحنانٌ بداخلها في وسطِ الطريق كي أرى ماذا حلَّ بحبيبتي، فوصلتُ مُسرّعاً لأراها، فوجدتُ عُصفورةً أخرى صغيرةً، كانت طفلةً سقطت عن درج المنزل فكسرت ساقها، فأوقفتُ حنان السيّارة في الموقف وجاءت بسرعةٍ ليست بأقلّ من سرعتي حين أتيت، فطمأنتها وأمسكتُ كفّها وصعدنا إلى منزلِ إسرائ سوياً، وكان ما أسعدني أنّ حبيبتي

هي التي استقبلتنا عندما قرعنا الجرس، فرحبت بنا فقلت لها: ألم يطلب الطبيب منك أن تستريحي؟

- شو رح يصير يعني؟

- هل جُننتي؟، هذا قلبٌ يا صغيرتي وليس زكامًا.

- قلبٌ تسكنه أنت يا حبيبي، لا يمكن أن يموت.

فقاطعتنا حنان قائلةً:

- احم احم، نحن هنا

- ههه لقد أحسستُ بك!

- نعم نعم أنا أصدِّقك.

- كيف طفلك؟ وكيف هو زوجك؟

- هما بخير يا حبيبتي، وهشامُ يرسلُ إليك قبلاته.

فنظرتُ وإسراءَ لبعضنا بخجلٍ، فقاطعت خجلنا حنان وقالت: بلا قلة أدب أنت وياها، أنا لا أقصد هذا الأحمق، أنا أقصد ولدي!، فضحكنا جميعًا وعمَّ السرور جلستنا إلى أن حلت علينا اللعنة وجاءت ريم لتزورَ إسراءَ، هكذا صرتُ أراها مع يقيني بأنني متحامِلٌ عليها قليلًا، لا ليسَ قليلًا، بل هوَ يفوقُ الكثيرَ كثرةً، فقد تكونُ أخطأتُ بفعلها، لكن هل كانت لتتمَّ هذه الخطيئة لو لم أحملُ أنا رايتهَا، فأنتِ تقومُ بإحماءِ مركبتك، لكنَّها لن تمشي إن لم تُوجِّهها بنفسك، قامت ريم بإغرائي وتأمَرَ معها هوايَ وشيطاني، ففعلتُ ما فعلتُ، وكانَ يجبُ أن تردعني وتمنعني هي من فعل ذلك، لكن لماذا ألومُ هوايَ وشيطاني أنا وأتغاضى عن أن ريم لها هوئ

أيضاً وقد ينزغها الشَّيْطَانُ في لحظةٍ ضعفاً، فالتفتُ إليهنَّ بعد دقائقٍ تبادِلنَّ فيها القُبْلَ والأحْصَان، وكانت تجلسُ إِسْرَاءَ عن يميني وحنانُ تجلسُ عن يساري، فجلَّستُ ريمَ مقابلةً لي ولم تفتأ تُرسلُ إليَّ برسائلها الخفيَّةِ الملوَّمةِ بابتسامَةٍ سوداءَ تارةً وبهمسةٍ سامَّةٍ كلدغةِ ثعبانٍ تارةً أُخرى، فقَّامتُ أُختي كي تُحضِرَ القهوةَ، ثمَّ جاءت ريمُ وجلَّستُ مجاورَةً لِإِسْرَاءَ، فصارت تمسحُ على رأسِها، ماذا تفعلُ هذه الشَّمْطَاءُ؟، ألم تغدُرِ بِإِسْرَاءَ؟، أليست تُحاولُ أن تسرقَ حبيبها وتُبْعِثِرَ أحلامها؟، أهو النِّفاقُ ما تفعله؟، لكنَّ إن كنتُ سأسمي ما تفعله هي نفاقاً، فما اسمُ الذي أفعله أنا؟، ذكَّرني فعَلنا هذا بالجملةِ المتأصِّلةِ في معظمِ الأفلامِ العربيَّةِ والتي تقول: "يقتلُ القَتِيلَ ويمشي في جنازته"، كانت هذه الجملةُ كفيلاً بوصفِ حَالِنَا، فهي القَتِيلَةُ إِسْرَاءَ ونحنُ القَتَلَةُ الذين يتدافعون ويتسابقون كي يمشوا في جنازتها، فجلَّسنا سوياً جلسةً ودودةً وكانت باردةً النَّسيمِ على قلوبهم، لم يكن غيرَ قلبِي الذي كانت تُفحهُ نارُ سمومِ حارقةٍ، فأشْرَتْ لِإِسْرَاءَ أن تقومَ لأكلِها وحدها، فقَّامتُ ووقَّفتُ أنا فقلتُ لها: سأترُكُ اليومَ لتستريحِي، وسأخذُ موعداً من الطَّبيبِ عِداً، ثم استأذنتُها بالرحيلِ وسألتُ حنانَ إن كانت سترافِقني فوافقتني وكانت ثالِثتنا في هذه الرَّغبةِ بالمغادرةِ ريم، مع أنني لم أطلبَ رأيها في ذلك، فخرَجنا وأوصلنا ريمَ وعدتُ وحنانُ إلى المنزلِ لنجدَ أبي ونبيلَ ووالدتي التي كانت تَضَعُ هِشامَ الصَّغِيرَ في حُضْنِها وتُداعبه، فجلَّستُ قُرْبَها و أحطتُ رقبَتها

بذراعي و خاطبتُ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ وقلتُ له: أراك تأخذ مكانَ خالك
يا صغيري، هنيئًا لك، فنظرتُ بعينيَّ أُمِّي و قالت: ألا تحبُّ أن
يكونَ لك طفلٌ مثلهُ يا حبيبي؟

- بلى يا أُمِّي، أحبُّ طبعًا، لكن أخفضي صوتك برَبِّك كي لا
يُثوروا عليَّ بهذا الموضوع الآن.

- حسنًا يا ولدي، لن أضغط عليك.

ويكأنَّ أبي كانَ يجلسُ قُرْبِي وَأُمِّي ولا يفصله عَنَّا أكثرُ من خمسةِ
أمتارٍ، فقالَ لي: لن أصبرَ كثيرًا عليكِ يا فتى، ولم يزد على ذلك،
فقد كانَ يعرفُ أنني مُدركٌ لذلك الشيء الذي لن يطولَ عليه صبره
ألا وهو الزَّواج، فكانَ ردي أن أخفضتُ رأسي وقلتُ له: بإذنِ الله،
ثمَّ استأذنتهم بعدها وصعدتُ لِعُرْفَتِي فهاتفتُ طبيبَ القلبِ الذي
أوصانا بمراجعتِهِ الطَّبيبُ في الجزائر، فأجابتني السكرتيرةُ وقلتُ
بحجزِ موعدٍ عندَ العاشرةِ صباحًا، ثمَّ شربتُ بعدها جرعةَ المنومِ
المضاعفةِ التي أدمنتها، فاستيقظتُ صبيحةَ اليومِ التالي، فنزلتُ
للأسفلِ لأجدَ أُمِّي تودِّعُ والدي الذي كانَ خارجًا إلى عمله، فقَدِمْتُ
على أُمِّي وقبَّلتُ رأسها وسألتها عن السَّاعةِ، فقالت: إنَّها السَّابعةُ
والنِّصف، فضحكتُ وقلتُ لها: ألنَّ يكفَّ زوجك عن نشاطه المبالغِ
فيه هذا؟، فضحكت بدورها وقالت: ألنَّ تكفَّ عن كسلكِ المبالغِ فيه
أنت؟، فقلتُ: لا أظنُّ يا أُمِّي، ثمَّ طلبتُ منها كأسًا من القهوةِ،
فضحكت مرةً أُخرى وقالت: الناسُ في كلِّ العالمِ يطلبونَ القهوةَ في
فنجانٍ، ما غيرَ حبيبي الذي يُريدُها في كأس.

- لَتَتَنَاوَلِ إِفْطَارَكَ ثُمَّ اشْرَبَ مِنَ الْقَهْوَةِ مَا شِئْتَ.
 - أَيْنَ هِيَ حَنَانٌ؟ هَلْ لَازَلْتَ نَائِمَةً؟
 - لَيْسَتْ هُنَا حَنَانٌ، لَقَدْ ذَهَبَتْ بِالْأَمْسِ مَعَ زَوْجِهَا.
 - خَيَالِانَةٌ، كَيْفَ تَذْهَبُ دُونَ أَنْ تُخْبِرَنِي؟
 - كَانَتْ سَتُخْبِرُكَ، لَكِنَّهَا تَرَاجَعَتْ عِنْدَمَا رَأَتْكَ نَائِمًا.
- فَجَلَسْتُ وَتَنَاوَلْتُ عَلَى عَجَلٍ إِفْطَارِي كَيْ أَنْتَهِيَ مِنْهُ وَ اشْرَبَ كَأْسَ قَهْوَتِي الَّذِي تَعْرِفُ مَقَادِيرَهُ أُمِّي وَتَزْنُهَا بِمِيزَانِ الذَّهَبِ، فَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ الْقَهْوَةَ مِنْ يَدَيْهَا مُفَضَّلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا عِنْدِي، حَالُهَا كَحَالِ كُلِّ شَيْءٍ، فَطَعَامُهَا الْأَذَى وَ ذَوْقُهَا الْأَفْذَى وَ حَنَانُهَا وَدَفْءُ كَلِمَاتِهَا هِيَ مَرَهُمُ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ، لِيَحْفَظَكَ اللهُ لِي يَا أُمِّي.
- صَارَتْ السَّاعَةُ التَّاسِعَةُ، فَهَاتَفْتُ إِسْرَاءَ لِتَقْوِمَ بِتَحْضِيرِ نَفْسِهَا كَيْ أَخْذَهَا لِلطَّبِيبِ فَمَوْعِدُنَا عِنْدَ الْعَاشِرَةِ، كُنْتُ فَرِحًا لِأَنَّ إِسْرَاءَ سَتُرَافِقُنِي، لَكِنِّي كُنْتُ حَزِينًا لِلشَّانِ الَّذِي سَتُرَافِقُنِي لِأَجْلِهِ، كَمْ أَكْرَهُ هَذِهِ الْفَرِحَةَ الْمُتَمَرِّجَةَ بِالْحُزْنِ، فَالْأَفْضَلُ عِنْدِي أَنْ تَكُونَ الْفَرِحَةَ خَالِصَةً نَقِيَّةً كَيْ أَنْعَمَ بِلَذَّتِهَا، لَكِنِ الرِّيَّاحَ لَيْسَتْ دَائِمًا كَمَا تَشْتَهِي أَشْرَعَةُ السُّفُنِ تَسِيرُ، فَخَرَجْتُ مِنَ الْمَنْزِلِ مُتَوَجِّهًا لِمَنْزِلِ إِسْرَاءَ، فَلَمْ أَكُنْ أَتَرْقَّبُ مَفَاجَأَةً أَسْوَأَ مِنْ وَجُودِ رَيْمٍ عِنْدَهَا آنَ ذَاكَ، كَانُوا يَتَنَاوَلُونَ الْإِفْطَارَ، فَانْتَظَرْتُهُمْ حَتَّى أَنْهَوْا إِفْطَارَهُمْ ثُمَّ دَعَوْتُ حَبِيبَتِي لِتَقْوِمَ بِتَحْضِيرِ نَفْسِهَا كَيْ نَنْطَلِقَ عَلَى الْفُورِ، فَكَانَتْ جَاهِزَةً رَغْمَ إِحْسَاسِي بِأَنَّهَا تَتَنَصَّلُ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْعِدِ، فَخَرَجْنَا مِنْ مَنْزِلِهَا وَرَكَبْنَا سَيَّارَتِي، وَمَا أَثَارَ غَيْظِي أَنْ رَيْمَ جَلَسَتْ فِي الْمَقْعِدِ

المجاور لي وعلّلت ذلك بأنها تركت إسراء لتجلس على المقعد الواسع في الخلف، فمضيت في الطريق ولم أفعل ما يفعله من يقودون السيارات عادةً، فينظرون إلى الزُجاج الأمامي وإلى الطريق أين يتّجه، وإن كان به مطبٌّ أو إشارة ضوئية أو حتى إن كان أحد المارة ودَّ المُقامرة بحياته فقاطع خط سيرنا، لكن على الرغم من تسرُّعي وعبثيَّتي التي كنت أتصرفُ بها آنذاك، إلا أننا وصلنا بسلامٍ إلى وجهتنا، ولم يكن ذلك بفضلِي أنا، لكن وكما أظن أن سرِّبًا من دعواتِ أمي التي تطرُق أبوابَ السَّماءِ راجيةً الله أن يحميني كانت تُظنُّني، فوصلنا عيادةَ الطَّبيبِ وكان ثمة مريضين قبلنا، فانتظرنا حتى جاء دورنا فدخَلنا إلى الموعدِ ثلاثتنا، دخلتُ حبيبتي لأنَّها المريضة، ودخلتُ أنا لأنني المسؤولُ عنها، وما غير التطفُّلِ والفضولِ كانا ما دفع ريم لدخولِ الموعدِ معنا، أمَّا اعتباراتِ الرِّمالةِ والصِّداقةِ فقد سقطت أراها بالأمسِ كُلِّها، وأظنُّ ريم ترَّ اعتباراتِ الحبِّ والهِيامِ والعشيقِ والولهِ قد سقطت عني أيضًا، فدعانا الطَّبيبُ للجلوسِ وقال: بأيكم سوفَ أبدأ؟، فقلتُ له مازحًا: لن تفحصَ أيًّا منَّا يا دكتور، جننا فقط لرؤيتك والسلام عليك، ثمَّ استدركتُ وقلتُ له: إسراءُ هي من تُعاني المُشكلة فسألها إن كانت قديمةً أم أنها ظهرت فجأةً هذه المُشكلة؟، فأجابته بأنها لم تشكُّ يومًا من هذه العوارِضِ التي استجدَّت، ثمَّ أخبرته بما جرى في الجزائر، فأكملتُ أنا الحديثَ عنها وأخبرته أنها بطلة فرقة "شمس الحريّة" للدبكة، وأثناء إقامتنا لاحتفالٍ بذكرى يوم

الأرض في سفارتنا هناك أصيبت بالتهاب في زائدها، وقاموا بإجراء جراحة لها، ليُفاجؤوا أثناء العملية بضعف قلبها، فأنهوا العملية بنجاح والحمد لله، ثم طلب منَّا الدكتور حازم الذي أجرى لها العملية مراجعتك عندما نعودُ لفلسطين.

- حمدًا لله على سلامتكم.

- سَلِّمك الله يا دكتور.

- سأرى ما بال قلب الأنسة الحسناء.

فاقترب الطبيب من حبيبتي وطلب منها الاستلقاء على سرير عيادته الأبيض، ثم قام عن مكتبه وسمع دقات قلبها، ثم أعطيتها أنا المغلف الذي كنت أحمله ويحوي الصور والفحوص التي أجريناها في الجزائر، فعاد وجلس على مكتبه وأخذ يقرأ تلك التقارير، ثم نظر إلينا مُبتسمًا وقال: الحمد لله فإسراء لا تشكوا من أي مشكلة في قلبها، وليس عليّ أنا إلا أن أُعيدَ عليها النصائح التي سيخبرها بها أي طبيب، بأن تبتعد عن الإجهاد بكافة أشكاله، سواء كان جسميًا أو نفسيًا، وسنحرمُ محبي مشاهدة استعراضات الدبكة من هذه الفراشة لبعض الوقت، ولهم أن يعذرونا في ذلك.

كنت قد دخلتُ عيادة الطبيبِ وعلى عاتقي عبءٌ كمثلِ الجبلِ، لكن كلماتِ الطبيبِ قد أزاحت هذا الجبل وأذابته، وألقت فوق صدري رذاذ الطمأنينة التي افتقدتها في الأيام الماضية، كانت سعيدةً أيضًا حبيبتي، وما كنتُ أرى تعبيرًا على وجه ريم، بالإيجاب ولا بالسلب حتى، فخرجنا من عيادة الطبيب وركبنا سيّارتي، فتوجّهت لمنزل

ريم دون أخذ مشورة أيّ منهن، فقد صرت أرى وجودها عبئاً
أتحيّن الخلاص منه، وعندما وصلنا منزلها، كنت أودُّ أن أُلقيها من
السيارة لتستقرّ جالسةً على موقد النار ، لكنّها بلامبالاةٍ قاتلةٍ قالت
لي وكما لو كنتُ سائقاً عندها: لا لا أنا سأبقى اليوم مع إسرائ ،
أوصلنا لمنزلها واذهب أنت لمنزلك، فأوصلتُهنّ ثمّ ذهبتُ أنا
للصحيفة، وكان أول ما فعلته أن طلبتُ كأس قهوتي المعتاد، ثمّ
شذتُ قلّمي لأكتب مقالاً عن الغدرِ و الخيانة، ويبدو أنّي لن أكتب
عن موضوعٍ آخرٍ غيره بدءاً من اليوم، فجاء مقالي على هذا
الشكل :

" لم أكن قد بلغت الثامنة من عمري بعد، حين قال لي أبي عبارةً
استقرت في ذهني حتى الآن وقد صرت في الثلاثين، قال لي: "إذا
قام أحدهم بالكذب عليك واستمرّ خداعك، وأنت تعلم الحقيقة وتعلم
أنه يكذب فلا تقاطعه، بل قف واستمتع بمنظره وهو يظنك أحمقاً
سادجاً"، لازلتُ منذُ قال أبي هذه العبارة حتى الآن ، أي على مدى
اثنين وعشرين عاماً وإلى وقت قريب، لا أستطيع السيطرة على
مشاعري حين يحاول أحدهم غشّي، فأوقفه وأواجهه بكذبه، وكنتُ
أحسُّ وقتها أنّي قد انتصرت، لكنّي مع كثرة هذه المواقف وكثرة
الكاذبين، آليتُ أن أجرب اقتراح أبي، فلم انتظر طويلاً فدُنيانا تعجُّ
بالكذب وليس فينا منزهة عنه، فلسنا ملائكة ولا أنبياء.

أطالَ اللهُ عمركَ يا أبِي فَقَدَ وَجَدْتُ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ الَّتِي كُنْتُ قَدْ
عَلَّمْتَهَا لَطْفًا صَغِيرًا آفَاقًا وَاسِعَةً يَصْعَبُ حَصْرُهَا حَتَّى مِنْ ذَوِي
الْأَلْبَابِ الْفُحُولِ.

لَنْ أَدَّعِي أَنَّي أَفْوَقُ أَحَدًا خَبْرَةً أَوْ عِلْمًا، لَكِنِّي وَدِدْتُ التَّحَدُّثَ عَن
دَرَسٍ تَعَلَّمْتَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَقُولَةِ أَوْ دَعَوْنِي أُطْلِقُ عَلَيْهَا "الْحِكْمَةَ"
وَأَسْرُدُ بَعْضًا مَنِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي عَاشَيْتُهَا وَكَيْفَ اسْتَفَدْتُ مِنْ
نَصِيحَةِ أَبِي لِي.

مَا بِالْكَ لَوْ أَنَّكَ التَّقِيْتُ فَتَاةً مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ وَثَلَاثَةَ، إِلَى أَنْ تَسَلَّلَ
الْحُبُّ إِلَى قَلْبَيْكُمَا وَقَطَعْتُمَا الْعَهْدَ لِبَعْضِكُمَا أَنْ لَا يَفْرَقَكُمَا غَيْرُ
الْمَوْتِ، فَفَرَّقَكُمَا الْعُرْبَةَ، لَكِنَّكَ بَقِيْتَ عَلَى الْعَهْدِ وَبَقِيَتْ تَتَوَاصَلُ
مَعَهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ بِكُلِّ طَرِيقَةٍ مُمَكِّنَةٍ، لَتَكْتَشِفَ عَن طَرِيقِ الصَّدْفَةِ
أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ تَزَوَّجَتْ وَهِيَ حُبْلَى وَعَلَى وَشِكِّ الْوِلَادَةِ، تُرَى أَيْنَ
ذَهَبَ الْعَهْدُ؟، لَقَدْ ذَهَبَ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ وَلَمْ يَتَبَقَّ مِنْهُ سِوَى دِمْعَاتِكَ
الْمَسْكُوبَةِ عَلَى خَدَيْكَ.

لَيْسَ هَذَا مَغْزَى الْقِصَّةِ الَّتِي لَمْ تَحْدُثْ لِي بِشَكْلِ شَخْصِي ، بَلْ
حَدَّثْتَ لِأَحَدِ أَصْدِقَائِي الَّذِي أَعْتَبَرُهُ بِمَثَابَةِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ.

ظَلَّ يَحْدِثُهَا كَمَا الْمَعْتَادِ وَدُونَ أَنْ يَبِينَ لَهَا مَعْرِفَتَهُ بِالْحَقِيقَةِ، كَانَ
قَدْ أَحَبَّهَا بِصِدْقٍ، وَلَطَالَمَا آثَرَ مَصْلَحَتَهَا وَصَحَّتْهَا وَسَعَادَتَهَا عَلَى
نَفْسِهِ، هِيَ تَظُنُّهُ لَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ، وَهُوَ يَعْمَلُ بِنَصِيحَتِي وَوَقَّفَ
لِيضْحَكَ فِي دَاخِلِهِ وَلَمْ يَفَكِّرْ لِلْحِظَّةِ فِي التَّخَلِّي عَنْهَا، غَرِيبٌ أَمْرُكَ
يَا صَاحِبِي، أَنَا كُنْتُ قَدْ نَصَحْتُكَ هَذِهِ النَّصِيحَةَ، لَكِنْ لَا أُخْفِيكَ أَنِّي

لو كنتَ تعرّضتَ لمثلِ هذا الموقفِ لانفجرتُ في وجهها ولكنتُ عليها من اللومِ والشتائمِ ما اللهُ بهِ عليمٌ، وهاهي الآنَ أصبحتُ أمًا، فهلَ ستدعو لها ولطفلها؟، أم أنك ستدعو عليهما؟، قل لي بربِّك!، فجاءني صاحبي قائلاً: لقدَ عملتُ بنصيحتك، لكنني ضعفتُ عندما وجدتها بحاجةٍ إليّ!، لن أومك يا صاحبي، فهذا هو الحبُّ وهذه لعنته!، كانَ هذا نموذجًا لمحاولةِ تطبيقِ تلكَ الحكمةِ.

والآنَ سأطرحُ درسًا آخرَ مؤلمٌ أكثرَ من سابقه، لا لشيءٍ إلا لأنه حدثَ لي بشكلٍ شخصي.

ما ثراكَ ستفعلُ لو أنك كنتَ إنسانًا مثاليًا محبًا للخير، لطالما أظهرَ الناسُ حبَّهم لك، لكنَّ الدنيا من طبيعتها الدوران، ف وقعتَ في مشكلةٍ بسببِ شخصٍ لطالما مددتَ له يدَ العونِ والمُساعدة، وكنتَ تقولُ في نفسك: ليستَ مُشكلةٌ فأصحابي وأحبائي كثرَ وسيقفونَ جوارِي في هذه الأزمة، وكما يحصلُ في أرضِ المعركةِ وقفتَ مُواجهًا له وجهًا لوجهٍ ونظرتَ وراءك ظانًا أنك سترى جيشًا من أصحابك وأحبائك يتمرسونَ خلفك، فلمَ تجدَ أحدًا، لا بأسَ لعلَّهم يحضرونَ بعدَ قليل، فأعدتَ النظرَ إلى خصمك لتجدَ خلفه جيشًا عرمرمًا، المؤلمُ أنَّ هذا الجيشَ كانَ ذاتَ الجيشِ الذي كنتَ تنتظرُ مجيئه لمساندتك، فنظرتَ إليهم فأذا بأعزِّ أصدقائك يحقِّزهم ليقوموا بالهجومِ كي يُجهزوا عليك، فلمَ تفعلَ شيئًا حينها، فانسحبتَ فقط ولمَ يكنِ انسحابك خوفًا من سيفٍ أو

سَهْم، إِلَّا أَنْ خِنْجَرَ الْخُدَّانِ أَصَابَكَ فِي مَقْتَلٍ، وَلَمْ يَكُنْ انْسِحَابُكَ
بِأَنْ رَفَعْتَ الرَّايَةَ الْبِيضَاءَ، بَلْ انْسَحَبْتَ بِدَمْعَةٍ نَزَلَتْ عَلَى خَدِّكَ،
فَرَأَاهَا خِصْمُكَ، فَظَنَنْتُهُ سَيُضْحِكُ فَرِحًا بِانْتِصَارِهِ، لَكِنَّهُ قَابِلَ هَذِهِ
الدَّمْعَةِ بِدَمْعَةٍ أُخْرَى، فَاقْتَرَبَ مِنْكَ وَعَانَقَكَ وَقَالَ: لَا تَخَفْ يَا
صَاحِبِي، فَلَوْ وَقَفُوا جَمِيعًا فِي مُوَاجِهَتِكَ، تَأَكَّدُ أَنَّ سَيْفِي لَنْ أَرْفَعَهُ
إِلَّا دِفَاعًا عَنْكَ، وَمَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ كَلَّ هَذَا الَّذِي فَعَلْتُ إِلَّا لِأَعْلَمَكَ
دِرْسًا بِأَنْ لَا تُعْطِي ثِقَتَكَ التَّامَةَ لِإِنْسَانٍ قَدْ يَتَخَلَّى عَنْكَ لِسَبَبٍ مَا،
فَتُخَسِرَ بِذَلِكَ كَلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ فَهَمْتَ يَا صَاحِبِي؟.

قد ذكرتُ القصةَ على أنَّها نزالٌ في معركة، لكنْ ليسَ بالضروريةِ
أَنْ يكونَ النزالُ مبارزةً بسيفٍ، وأنْ تكونَ طعنةُ الغدرِ بخنجرٍ أو
بسكينٍ مسمومٍ، فقدْ تقومُ كلمةٌ بهذا الدورِ وقدْ يكفي موقفٌ ما
عن طعنةِ الخنجرِ وسُمِّه.

أنهيتُ مقالي ثمَّ خرجتُ من الصَّحيفةِ متوجِّهًا للمنزلِ، لأجدُ أمِّي
كعادتها حائرةً في جنباتِ المنزلِ، لا تدري ما تُريدُ أَنْ تفعلَ، لقدْ
جئتُ لكِ بالخادِمةِ لتستريحِي يا أمِّي وليسَ كي تقعي في فخِّ المللِ
والفراغِ، لكنَّ التَّعوُّدَ على التَّعبِ يجعلُه أمرًا طبيعيًّا، ويجعلُ
الرَّاحةَ أمرًا دُخيلًا غيرَ مرغوبٍ، فَجَلَسْتُ على الأريكةِ وَجَلَسَتْ
أمِّي جوارِي وسألَتْنِي عن حالي، فَأَشْعَلْتُ سِجَارَتِي وَنَفَثْتُ سَمَّهَا
المعهودِ مخلوطاً بنفثةِ غضبٍ، لِأَنَّي أَعْلَمُ أَنَّ طَرِيقَةَ أمِّي هَذِهِ
بالسؤالِ عن حالي سيُتْبَعُها موضوعٌ تُريدُ أَنْ تُناقِشَهُ معي، وهوَ
موضوعُ الزَّواجِ.

- أَلَمْ يَبْنِ الْأَوَانُ كَيْ نَرَى أَوْلَادَكَ يَا حَبِيبِي؟

- سَتَرَيْنَهُمْ وَتَرَيْنَ أَوْلَادَهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ يَا أُمِّي.

- أَلَيْسَتْ حَبِيبَتُكَ إِسْرَاءَ؟

لَمْ لَا نَخْطُبُهَا لَكَ يَا وَلَدِي وَنَزَوَّجُكُمَا فِي نَهَايَةِ الْعَامِ؟

- إِنْ شَاءَ اللَّهُ خَيْرٌ، تَوَكَّلِي عَلَى اللَّهِ يَا أُمَّ هِشَامٍ.

كَانَ هَذَا الْحَوَارُ لِيَقْدِفَنِي إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ مِنْ فَرَحَتِي لَوْ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ، لَكِنِّي أَرَاهُ يَقْدِفَنِي إِلَى فَوَّهَةِ بُرْكَانِ الْآنَ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِيَدِي لَخَطَبْتُهَا الْيَوْمَ وَتَزَوَّجْتُهَا غَدًا، لَكِنَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً مِنْ فَمِ رِيمٍ كَفِيلَةٌ أَنْ تُحْدِثَ زَلْزَالًا مُدْمِرًا قَدْ يَفْتِكُ بِنَا جَمِيعًا.

انْقَضَتْ تِلْكَ الْجَلِيسَةُ وَلَمْ تَنْتَهِ الْحَسْرَةُ الَّتِي أَوْرَثَتْهَا لِقَلْبِي فَصَعِدْتُ لِعَرَفَتِي بَعْدَهَا، فَوَجَدْتُنِي أُمْسِكِ بِهَاتِفِي الْمَحْمُولِ لِأَدْخُلَ إِلَى مَوَاقِعِ التَّوَاصِلِ الَّتِي لَمْ أَحَبَّ دُخُولَهَا يَوْمًا، بَلْ وَكُنْتُ أَنْتَقِدُ مَنْ يُدْمِنُونَهَا، لَكِنَّ لَا بَأْسَ فَانْتِ فِي هَذِهِ الْمَوَاقِعِ سَتَلْتَنِي أَنْسَا لَسْتُ تَعْرِفُهُمْ عَنْ طَرِيقٍ غَيْرِ شَاشَةِ هَاتِفِكَ، فَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَبُوحَ لَهُمْ بِأَيِّ شَيْءٍ دُونَ أَنْ تَحْسِبَ حِسَابَ نَظَرْتَهُمْ لَكَ وَمَكَانَتِكَ الَّتِي قَدْ تَتَّعِيرُ عِنْدَهُمْ، فَأَيُّ إِحْسَاسٍ سَيَتَكَوَّنُ لَدَيْهِمْ سَيَبْقَى مَا دَامَتِ شَاشَاتُ هَوَاتِفِهِمْ مُضَاعَةً، وَمَا أَنْ تَنْطَفِئَ سَيَخْتَفِي وَيَتَلَاشَى كُلُّ إِحْسَاسٍ تَكُونُ عِنْدَهُمْ وَشُعُورٌ، فَدَخَلْتُ بِرَنَامَجًا ذَا أَيْقُونَةٍ زَرْقَاءَ، كُنْتُ أَرَى الْمَجَانِينَ يَدْخُلُونَهُ دَائِمًا وَأَوَّلَهُمْ حَبِيبَتِي، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ الْأُولَى الَّتِي أَدْخُلُ فِيهَا إِلَى هَذَا الْعَالَمِ، وَكُنْتُ أَظُنُّهُ عَالِمًا مَلِينًا بِالْمَرَاهِقِينَ الَّذِينَ يَتَبَادَلُونَ الصُّورَ وَالنِّكَاتَ فَقَطْ، لَكِنِّي فُوجِئْتُ عِنْدَمَا وَجَدْتُ

كثيرًا من الفئات من كتّابٍ ومُفكِّرين وشُعراء، حتّى أهل السّياسة لم يكن يخلو منهم ذاك الموقع ذا الأيقونة الزّرقاء، فدخلت صفحاتٍ ومنتدياتٍ عديدةً، كان منها الترفيهيّ ومنها الثّقافيّ، وضحكت كثيرًا من نفسي عندما وجدّتي مُشتركةً في صفحةٍ لعارضات الأزياء في بيلاروسيا!

دخلت صفحةً أدبيّةً فقرأت العديد من المقالات، منها ما أعجبنى ومنها ما لم يرق لي حتّى أن أضيع وقتي وأكمل قراءته، كانت هذه فقط تجربتي في هذا الفضاء الواسع، هي لم تدم لأكثر من ساعةٍ من الزّمن.

هي فكرةٌ جميلةٌ أن يكون المجال متاحًا لكلِّ منّا أن ينشر ثقافته وآراءه ويتداولها مع غيره، لكنّي لم أحبّها لنفسي، فأنا مُعرمٌ بالإمساك بالقلم وسكّب أفكارٍ على الورق الأبيض، لتُشر في الصّحف ويقرأها الناس كلَّ صباح، قد يسميني البعض "دقّة قديمة"، ولا ضير في ذلك عندي، فليس القدمُ عارًا أستحي به ومنه، فالقدم عندي يرمزُ للأصالة والعراقة، ألا ترّ الناس يتدافعون لزيارة المتاحف والأماكن التّاريخيّة في سياحتهم لكلِّ بلد، هم يبحثون عن هذه الأماكن في بلدانٍ يطمحُ الناس لمضاهاتها في رقيّها وتقدّمها، تراهم يتركون التطور والحدّاتة باحثين عن القدم والعراقة!، ما سيتغيّر عندي فقط هو أنّي لن أعود لِلوَمِ رواد مواقع التّواصل هذه، فهي قد تكون منبرًا لأحدهم لبيع أفكارًا ظلّت حبيسةً صدره أيامًا أو حتّى سنينًا، منعه من

إطلاقها خوفًا أو خجلًا أو مظنةً فشلًا!، فلا تدع أفكارك تولد في قلبك، فتنشأ وتشب وتهرم وهي لم تلامس أحبالك الصوتية، حتى لو كنت بحاجة أن تسافر إلى مشرق الأرض أو مغربها أو لأن تتعلم اللغة الهيروغليفيّة أو السنسكريتيّة كي تنشرها.

تركتُ هاتفي بعدها فوق طاولةٍ صغيرةٍ بجانبني وأخذتُ بي الذكريات إلى يومٍ عرفتُ فيه عن أختي ذات الشيء الذي عرفه ساجدٌ عني وعن إسرائ، لكنّ وجهة نظري في الموضوع تبدّلت عندما كانت المقصودة أختي حنان، يبدو أنّ ساجدَ رحمه الله كان أوسعَ مني أفقًا ونظرته أبعد، فما أن عرفتُ أنّ حنان ونبيل متحابّين حتى تغير لونٌ وجهي وجحّظت عيناوي وبرزت عروقي، فذهبتُ إلى حنان في غرفتها يومها وصرختُ بوجهها بانفعالٍ قائلاً: هل تحبين أيتها اللعينة؟، فاضطّرت للكذب يومها كي تتجنّب مواجهةً ذاك الثور الهائج المسمّى هشام، وقالت بعد أن أنكرت تلك التهمة: "لكن لا تُبح لنفسك ما تحرّمه على غيرك"، ثم أدارت ظهرها لي وخرجت من الغرفة، كانت شياطين الكون تعبث حينها بخيالي وأفكاري، ما غير صوتٍ واحدٍ رقيقٍ نقّي وقّف لي ليخبرني أنّ ما من سببٍ كافٍ لأنثور ثورتي هذه، وما كان مضحكًا أنّ ما جعلني أكتشف هذا الحب، هي بعض التصرفات التي يراها البعض حمقاء من أفعال العشاق، كمثل أن تكتب اسمه وتحيطه بالقلب الأحمر الذي يرمز للحب أو كمثل حاملة مفاتيح تحمل الحرف الأول من اسمه!، أضحك الآن من نفسي وقد صار نبيل

صَهْرِي وَصَارَتْ حَنَانُ أُمِّ لَوْلِدِهِ، فَلَا تَظْلِمُوا الْعَشَاقَ بِذَاكَ الْحَكْمِ
الْمُوَحَّدِ الَّذِي يَنْبُذُ وَيَكْرَهُ هَذَا الشُّعُورَ، بَلْ إِنَّ الْبَعْضَ رَأَيْتَهُ
يَتَطَرَّفُ فِي بَعْضِ الْعَشَائِرِ وَالْقُرَى بِأَنْ يُحَرِّمَ زَوَاجَ أُخْتِهِ مِنْ
شَخْصٍ لَوْ كَانَ بَيْنَهُمَا شُبُهَةٌ عِشْقٍ!، كَمْ قَاسٍ أَرَاهُ وَصَفِي لِلْعِشْقِ
بِأَنَّهُ شُبُهَةٌ.

كَانَ حِمْلًا ثَقِيلًا قَدْ أُزِيحَ عَن صَدْرِي بَعْدَ أَنْ طَمَأَنَّنَا الطَّبِيبُ عَن
حَالِ إِسْرَاءِ أَتْنَهَا بِخَيْرٍ، لَعَلَّ هَذَا يُخَفِّفُ عَنِّي شَيْئًا مِّنْ هَمِّي الثَّقِيلِ.

أَيَّامٌ انْقَضَتْ لِيَهْلَ بَعْدَهَا عَلَيْنَا بِهِئِ الْحَلَّةِ، شَهْرُ رَمَضَانَ الْكَرِيمِ
بَخِيرِهِ وَبِرَكَتِهِ، فَمَدَّ كُنَّا صِغَارًا كُنَّا نَفْرَحُ بِحُلُولِهِ، كُنَّا نَسْعُدُ بِهِ وَلَمْ
نَكُنْ نَعْلَمُ أَجْرَ صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ، حَتَّى كَبُرْنَا وَعَرَفْنَا ذَلِكَ الْفَضْلَ
الْعَظِيمَ الَّذِي يَأْتِينَا بِهِ شَهْرُ رَمَضَانَ، هَذَا الشَّهْرُ الَّذِي بِهِ عِبَادَةُ
الصَّوْمِ الَّتِي تَكْفُلُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ بِأَجْرٍ هَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ بِقَوْلِهِ
"إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ"، فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ،
الَّذِي يُسْقِي وَيُطْعِمُ حَتَّى مَنْ يَكْفُرُ بِهِ، هَذَا فَضْلُهُ عَلَى مَنْ يَعْصِيهِ
فَمَا سَيَكُونُ بِرَبِّكُمْ جَزَاؤُهُ لِمَنْ عَبَدَهُ وَأَطَاعَهُ!.

سَيَقْضِي نَبِيْلٌ شَهْرَ رَمَضَانَ هُنَا فِي فِلِسْطِينَ، ثُمَّ يَعُودُ لِلْغَرْبَةِ عَن
وَطَنِهِ وَعَن زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ، مَجْبُولُونَ نَحْنُ فِي فِلِسْطِينَ عَلَى
الْغَرْبَةِ وَالْفِرَاقِ، فَمَنَّا مَنْ أُخْرِجَ قَسْرًا مِنَ الْوَطَنِ بِأَكْمَلِهِ، لِيَعِيشَ
لَا جَنًّا فِي دُولِ الْجَوَارِ، فَيَحْصُلَ عَلَى الْقَلِيلِ وَيَشْكُرَ، وَيُحَرِّمَ الْكَثِيرَ
وَلَا يُنْكَرَ، وَمَنَّا مَنْ بَقِيَ عَلَى أَرْضِ فِلِسْطِينَ، لَكِنَّهُ بَقِيَ فِيهَا دُونَ

بيته، دون رزقه، ودون أهله، فلم يحتفظ من هذا كله بغير مفتاح
لبيت قد تهدم، أو لرزق قد تعطل، ولم يكن احتفاظه به بعد أن
تأمر عليه الصدا والتلف إلا رمزيةً ووصيةً لجيلٍ وجيلين وثلاثة
منا أبناء فلسطين بأن هذه الأرض حق لكم، ستعودون لها يوماً
بإذن الله طال الزمان بكم أو كان قصيراً، سيرحل نبيل في يوم
العيد الخامس إلى البرازيل، وسبب رحيله هو سعيه لطلب
الرزق، وسيترك هاهنا زوجته وطفله، ليترك نوبات الاشتياق
التي تستوطن قلبه، ففي بداية غربته كان يشتاق لوطنه وأهله،
وصار مشتاقاً بعدها لزوجته، والآن سيكون مشتاقاً لطفله
الصغير، فلم يعد في وطننا الحبيب قلب لا تعصره الغربة، فإما
أن يكون مغترباً أحننا وإما أن يغترب أحد أهله وقلماً تجد أسرةً
مكتملة بكل أفرادها، وقد يكون من الأسرة الواحدة مغترباً وأسيراً
وجريحاً ومطاردٌ وشهيد، هذه ضريبة أن يكون لك وطن تعشقه
مثل فلسطين.

اجتمعنا في أول نداءٍ لصلاة المغرب في هذا الشهر المبارك،
وكان اجتماعنا على مائدة الإفطار في منزل الأسرة، فاجتهدت
أمي ومعها حنان في تقديم ما لذ من الطعام وطاب، فقد صار من
الشائع عن هذا الشهر الكريم بأنه شهرٌ للمأكّل والمشرب، وزادوا
على ذلك بأن أغرقوا أوقاته بالمسلسلات والمسابقات التي
يسمونها بالرمضانية، فجعلوا شهر العباد والصلاة شهراً للسهر
والتسليّة فقط، فتناولنا إفطارنا عندما نادى المُنادي لصلاة المغرب،

ثم تركتهم أنا وخرجتُ ذاهبًا لعملي في الصحيفة، الذي تحوّل للمساء بدلًا من كونه في الصباح كما يصبح حاله في شهر رمضان من كلِّ سنة، فوصلتُ الصحيفةَ ووجدتُ زملائي هناك، فتبادلنا عباراتِ التهنئةِ بحلولِ الشهرِ الكريمِ ثمَّ ذهبتُ لمكتبي كي أمارس عملي، أكونُ في الغالبِ قد وضعتُ خطوطًا عريضةً لمقالي الذي سأكتبه وأنا في المنزلِ قبلَ أن أصل، وكان مقالي لهذا اليوم باسم "مُسكِّن الم" فقلتُ فيه:

"حاولتُ البدايةَ في موضوعِ هذه المقالةِ عن طريقِ المقدِّمة، فحاولتُ تارةً بالتلميحِ وتارةً بضربِ الأمثلة، ولا أرى أنني أفلحتُ، لم يبقَ لي إلا أن أطرح موضوعي بتوجيهِ سؤالٍ لكم، وبالطبع لن أحصلَ على إجابةٍ منكم عن سؤالي، سأحاولُ أن أكونَ نائبًا عنكم وأقومُ بالإجابةِ عن هذا التساؤلِ.

ماذا لو رأيتَ أحدهم في أزمةٍ، كما لو كان غريقًا يجتمع الناسُ حوله، لا لينقذوه من الغرق، بل ليدفعوه إلى القاعِ كلِّما قاربَ على الخروجِ والخلاصِ، وكنتَ صاحبَ اليدِ الوحيدةِ التي امتدَّت إليه كي تُساعدهُ على الخروجِ، وفوقَ كلِّ ذلكَ كنتَ مع ضَعْفِكَ وقلَّةِ حيلتِكَ تدفعُ عنه أولئك الذين يحاولونَ إغراقه.

وأخيرًا وبعدَ طولِ عناءٍ نجحتَ في إنقاذه، فلم يشكرَكَ، ليسَ لأنه جاحدٌ وناكرٌ للجميلِ، بل لأنه بالكادِ يلتقطُ أنفاسه فضلًا عن تزيينِ كلماتِ الشُّكرِ والعرفانِ.

سأحاولُ أنا أن أعوضَكَ عن ذاكِ الشكرِ الذي كانَ منَ المُفترضِ
أنَ تسمعهُ منَ ذاكِ الغريقِ، فشكرًا لكِ، لأنَّكَ بالفعلِ أهلٌ للشكرِ.
مرَّت الأيامُ ومضتِ الليالي، فعملتَ حملاً في أحدِ الموانئ، وكنتِ
قدَ تعرّضتِ لإصابةٍ في قدمِكَ كثيراً ما تُتعبُك، لكنكَ مضطرٌّ للعملِ
كيَ تُوفِّرَ قوتَكَ وقوتَ عيالكِ، وكالعادةِ ذهبتِ إلى الميناءِ لتحمِلَ
أكياسَ البضائعِ فوقَ ظهركِ، فشعرتِ بألمٍ شديدٍ، فصرتِ بينَ
مِطْرَقَةٍ أَلَّا تحمِلَ تلكَ الأكياسِ وتُتعبَ قدمَكَ، وسندانٍ أنَ تضغطَ
على نفسِكَ وتحملها فتتأثرَ إصابتُك، فقررتِ أنَ تحملها ولكنِ
بقدرٍ يكونُ أخفَّ عبئًا عليكِ.

وكالعادةِ جاءتِ السفنُ المحمّلةُ بالبضائعِ كيَ تُفرغَ حمولتها في
الميناءِ ويقومَ الحمالونَ بنقلها للمخازنِ، فوقفتِ كما عادتكَ قرب
أحدِ السفنِ لتحملَ البضائعَ مقابلَ أجرٍ زهيدٍ، فبدأَ عمالُ أحدِ
السفنِ بوضعِ البضائعِ فوقَ ظهورِ العمالِ، فجنّتِ لتطلبَ منَ
المُشرفِ على أحدِ السفنِ أنَ يستأجركِ للعملِ وأخبرتهُ بموضوعِ
قدمِكَ وأنَّكَ لا تحتمِلُ تعريضها للضغطِ، فقالَ لكِ المُشرفُ: لا
عليكِ، احملِ ما تستطيعه ولكِ أجرُكِ كاملاً غيرَ منقوصِ.

وبالفعلِ بدأتِ بالعملِ وأوصى الرَّجُلُ عمالَ السفينةِ أنَ يُخفّفوا
حملَكَ، واستمرّوا على ذاكِ المنوالِ حتّى صارتِ استراحةُ الغداءِ
فاسترحتِ، كُنْتَ قدَ شعرتِ بالألمِ في قدمِكَ، لكنّه لم يكنِ مثلَ ألمِكَ
لو أنّهم زادوا عليكِ الحملِ، فانتهتِ استراحةُ الغداءِ ونادى منادٍ
هيا يا رجالِ، هلمّوا إلى العملِ.

كان مالكُ السفينةِ قد وصلَ أثناءَ توقُّفكم للغداء، فعدتَ لتحمِلَ
 نصفَ ما يحملهُ زملاءُك كما كانَ قد أوصى لك المُشرف، فَرَآكَ
 صاحبُ المركبِ على هذا الحالِ فَعَضِبَ ونَادَى مُشرفَ العمَّالِ
 ليخبرهُ عنكَ ويسألهُ لِمَ يحمِلُ نصفَ حمْلِ زملائه، فأجابهُ بأنَّ
 الرَّجَلَ لديه إصَابَةٌ في قَدَمِهِ، ويجبُ أن لا يَضْغَطَ عليها، فزادَ
 غضبُ صاحبِ المركبِ وأشارَ إلى أحدِ العمَّالِ أن يُقومَ بإخباره
 عندَ عودتِكَ، وَعندمَا أفرغتَ حمولتَكَ في الجِهَةِ المُقابِلَةِ وعدتَ
 لتأخذَ حملاً آخر، أشارَ العاملُ إلى صاحبِ السفينةِ بأنَّ قد جاءَ من
 كُنْتَ تطلبه، فجاءَ صاحبُ السفينةِ ووقَّفَ لينظرَ إلى حمليكَ،
 وبالفعلِ رأى العمَّالَ كلَّهم يحملونَ كيسينِ إلا أنتَ كنتَ تحمِلُ كيساً
 واحداً، فنَهَرَ العاملَ وقالَ له: لِمَ يحمِلُ كيساً واحداً ولا يحمِلُ مثلَ
 زملائه؟، ضغ على ظهره كيساً آخر، فوضعه فوقَ ظهرك فتألَّمتَ
 وقلتَ للعاملِ: لِمَ وضعتَ كيسينِ؟، ألم يوصيك المُشرفُ بأن تخفِّفَ
 حملي؟ كانَ صاحبُ المركبِ يقفُ لينظرَ ولم تكن تراه فقد كنتَ
 تُديرُ ظهرك كي تحمِلَ الكيسَ، فنَهَرَ صاحبُ المركبِ العاملَ بحزمٍ
 وقال: لِمَ تُناقشُ هذا التافه، أو ليس يأخذُ أجرَةً مثلَ باقيِ العمَّالِ؟،
 زدَ حملةُ كيسينِ إضافيَّين، فوضَعُوا كيسينِ فوقَ ظهرك، فاشتدَّ
 ألمُكَ لتصرُخَ مِن شدَّةِ الوجعِش، فقَفَرَ صاحبُ السفينةِ فوقَ
 ظهرك فسقطتَ أرضاً فوَقَّفَ صاحبُ المركبِ ورفسكَ برجله وقال:
 ألم نعتد من الحمارِ، وكانَ يقصدُك أنتَ، أن يُعانيَ من زيادةِ
 الحملِ فوقَ ظهره وضحكَ ضحكةً حقيرةً ومضى، لم يكن هذا كله

الألم الذي أبحثُ له عن مُسكِّن، كان الألمُ الأشدُّ هو عندما وقف ونظرَ إلى صاحبِ السفينةِ ليجدهُ هوَ ذاكَ الرجلُ الذي قامَ بِاتِّقادهِ منَ الغرقِ ذاتِ يومٍ.

وقفَ المشرفُ جوارهُ بعدَ أن رحَلَ صاحبُ السفينةِ وقالَ له: هل تأذيت؟، هل أصابك ضرر؟

فأجابَه: لا عليك، كُسرَ قلبي وانتهى الموضوع

هذا هوَ الألمُ الذي أبحثُ له عن مسكِّن، نُكرانُ الجميلِ ما أراه المُتسبِّبِ في الألمِ أكثرَ من غيره.

أنهيتُ مقالِي ثمَّ جلستُ قليلاً بِرفقةِ زُملاني في الصَّحيفةِ، ولم تكن في ذلكَ لي عادةٌ من قَبْل، لكنَّ أحدنا عندما تُصيبُه مشكلةٌ أو مُصيبةٌ يبحثُ عمن يُعينُه على تحمُّلِها والتعلُّبِ عليها، وهكذا فَعَلت، لكنني أَسْتحي أو إن شئتَ لا أجروُ أن أُخبرَ أحدًا بمُشكلتي، لاحظتُ هذه المُعضلةَ عندَ كثيرٍ من البشر، فكنت ترى أحدهم يَخْتنقُ بحبالِ مشكلةٍ ما ومعَ ذلكَ فنفسُه لا تدعُه يحكي ويُفصح عن سببِ ألمِه الذي يطلبُ له مرهمًا وعلاجًا.

قد يكونُ الحَجَلُ وقد يكونُ الخوفُ هُما ما يَمْنَعانِ كثيرًا منَّا أن يبوَحَ بما في قلبه، فتجدُ أحدنا يُفضِّلُ أن يَخْتنقَ ويموتَ على أن يُصارحَ أحدًا بِفِعْلته.

ما أحلمك يا الله، فأنتَ تملكُ يا ربِّ أمري وِرزقي وأجلي ومعَ ذلكَ فأنتَ ترى عِصيانِي لكَ معَ مُقدِّرتك عليّ، ولكنك ترأفُ وتغفُو، وأجدني مستحٍ من عبدٍ ضعيفٍ لا يملكُ من أمرِ نفسه شيئًا، أيعقلُ

أَنْ تَخَافَ وَتَخْجَلَ مِنَ الضَّعِيفِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ وَتَأْمَنَ مَكْرَ الْقَوِيِّ
الَّذِي يَعْلَمُ مَا تُخْفِ الصُّدُورُ!، ذَلِكَ لَا يُعْقَلُ بِالتَّكْوِيدِ، لَكِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ
الْوَاسِعَةَ وَطَمَعَنَا نَحْنُ بَنُو الْبَشَرِ بِكِرْمِ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هِيَ
مَنْ تَسْوَلُ لَنَا أَنْ نَفْعَلَ كُلَّ هَذِهِ الْمَوْبِقَاتِ.

الْجَمِيلُ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَسْتَوِي عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ
السَّابِعَةِ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَكَذَلِكَ نَعْلَمُ أَنَّهُ أَقْرَبُ لِكُلِّ
مَنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَنَعْلَمُ أَنَّنَا بِحَاجَةٍ لِأَنْ نَرْفَعَ صَوْتَنَا كَيْ
يَسْمَعَنَا جَارٌ فِي غُرْفَةٍ جِوَارِنَا، وَنَحْنُ مُتَأَكِّدُونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ
نَجْوَانَا فِي سُجُودِنَا، نَجْوَانَا تِلْكَ الَّتِي لَا نَكَادُ نَسْمَعُهَا نَحْنُ مِنْ
أَنْفُسِنَا، فَسُبْحَانَكَ يَا اللَّهَ مَا أَعْظَمَكَ وَمَا أَكْرَمَكَ.

رَجَعْتُ لِلْمَنْزِلِ بَعْدَ أَنْ أَنْهَيْتُ عَمَلِي فَوَجَدْتُ أَهْلِي مُجْتَمِعِينَ حَوْلَ
شَاشَةِ التِّلْفَازِ، فَأَقْبَيْتُ عَلَيْهِمُ التَّحِيَّةَ ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَى غُرْفَتِي كَيْ
أَنَامَ، فَهَذِهِ هِيَ عَادَتِي مِنْ صِغَرِي، أَهْرَبُ مِنْ حَزْنِي بِالنَّوْمِ، وَلَكِنْ
الآنَ بَعْدَ أَنْ كَبُرْتُ وَصِرْتُ شَابًّا وَصِرْتُ أَوَاجَهُ مُشْكَلَةً فِي هَذَا
النَّوْمِ، صِرْتُ أَلْجَأً لِلدَّوَاءِ الْمُنَوِّمِ كَيْ أَحْصَلَ عَلَيْهِ، وَبِالْفِعْلِ شَرِبْتُ
حَبَّاتِ الْمُنَوِّمِ وَنَمْتُ، وَلَمْ يُوقِظْنِي أَحَدٌ لِوَجِبَةِ السَّحُورِ كَمَا الْمُعْتَادِ
فِي رَمَضَانَ، لَكِنِّي اسْتَيْقِظْتُ عِنْدَمَا سَمِعْتُ أَذَانَ الْفَجْرِ، فَقَمْتُ
وَدُونَ كَسَلٍ كَيْ أُصَلِّيَهَا فِي جَمَاعَةٍ وَأَتُوبَ لِرَبِّي وَأَطْلُبَ مِنْهُ
الرَّحْمَةَ وَالْمَغْفِرَةَ، فَصَلَّيْتُ فِي الْمَسْجِدِ وَبَقَيْتُ جَالِسًا أَخْفِضُ
رَأْسِي وَدُمُوعِي تَنْسَابُ مِنْ عَيْنِي نَدْمًا وَاعْتِرَافًا بِذُنُوبِي، فَأَطَلْتُ
الْجُلُوسَ حَتَّى أَشْرَقَتْ شَمْسُ الصَّبَاحِ، فَفَطِنْتُ لِعَدَمِ سَمَاعِي أَيَّ

صوتٍ في المنزلِ عندَ خروجي، حتَّى أنِّي لا أرى والدي بينَ صفوفِ المصلِّينَ كما العادة، وأمِّي التي تودِّعني بدعواتٍ من قلبها عندما أهُمُّ بالخروجِ لأيِّ مكانٍ، لم أرها وما شعرتُ بوجودها، ناهيكَ عن أنها لم تُوقظني لتناولِ السَّحورِ.

فعدتُ للبيتِ سريعاً، وما كان يكسرُ وحشةَ روعي غيرَ نورِ الشَّمسِ، وما كان يكسرُ الصَّمَتَ الكامنَ في جنباتِ البيتِ غيرَ صوتِ الصدى الذي تُحدثه دقاتُ قلبي، كان يقرعُ بسرعةٍ فُوادي وتتردَّدُ على جدرانِه أصواتُ أوهامه، التي لم تصدقُ في مرَّةٍ، وأحمدُ الله على ذلك!، لكن وعلى الرُّغمِ من هذا، فلا بدَّ أن أبتدعَ أوهاماً جديدةً في كلِّ مناسبةٍ كهذه، فناديتُ بصوتٍ مرتفعٍ: أينَ أنتم؟، ولم يكن لي من مُجيبٍ، فذهبتُ لغرفةِ أبي وأمِّي، فلم أجدهما، فاتَّصلتُ بأختي حنان كي أسألها إن كانت تعلمُ بمكانهما!، فأجابتنِي الحمقاءُ وقالتُ: أهلاً بأخي المزعج، كنتُ أعلمُ أنك تخافُ النَّومَ وحدك، فحمدتُ ربِّي، فمجردُ معرفةِ حنان أني أنامُ وحدي، فهذا يعني أنها تعرفُ مكانَ أبي وأمِّي، ثمَّ أخبرتنِي بأنَّها دعتهما لإكمالِ السَّهرةِ في منزلها والنَّومَ عندها لأنها ستقيمُ دعوةً للإفطار، فقلتُ لها مازحاً: وهل أنا مدعوٌّ أم ماذا؟، فقالت: أنت من يدعو يا هشام، هل تريدنا أن ندعوَ صاحبَ منزلٍ في منزله!، كانت مجاملةً لطيفةً منها، أتبعتها بمجموعةٍ من الطَّلباتِ من أجلِ عزيמתها، حتَّى تمنيتُ أنها لم تدعني ولم

ثُجَامِلْنِي، لَا لشيءٍ إِلَّا لِتَبَاعُدِ أَمَاكِنِ تِلْكَ الطَّلَبَاتِ وَغَرَابَتِهَا شَيْئًا
مَا كَقَوْلِهَا : أَرِيدُ قَلِيلًا مِنَ الرِّزْمَارِيِّ

- وَمَا هُوَ الرِّزْمَارِيُّ هَذَا يَا سَيِّدَةَ مِلْعَقَةٍ.

- اِكْلِيلِ الْجَبَلِ يَا جَاهِلٍ.

- وَفَسِّرِ الْمَاءَ بَعْدَ الْجَهْدِ بِالْمَاءِ!

وَهَلْ فَهَمْتُ الْأَوْلَى لِتَتَّبِعِيهَا بِالثَّانِيَةِ!

وَبَعْدَ جَدَلٍ طَوِيلٍ مَعَ الْحَمَقَاءِ، خَرَجْتُ وَهَاتِفْتُ إِسْرَاءَ قَبْلَ أَنْ
أَشْتَرِيَ الْأَغْرَاضَ، فَأَخْبَرْتَنِي أَنَّ حَنَانَ قَدْ دَعَتَهَا أَيْضًا، فَتَحَمَّسْتُ
أَنَا لِأَحْضَرَ طَلَبَاتِ حَنَانَ أَيْمًا حَمَاسَةً، فَأَحْضَرْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
أَفْضَلَهُ، ثُمَّ تَوَجَّهْتُ لِمَنْزِلِ أُخْتِي، فَوَجَدْتُ هُنَاكَ أَبِي وَأُمِّي
فَعَاتَبْتُهُمَا عَلَى خُرُوجِهِمَا دُونَ أَنْ يُخْبِرَانِي، فَضَحَكَ أَبِي وَقَالَ:
هَذَا مَا كَانَ يَنْقُصُنَا، أَنْ نَأْخُذَ إِذْنَ الْأَطْفَالِ لِنَخْرُجَ مِنَ الْمَنْزِلِ، ثُمَّ
ضَحَكَ فَقُلْتُ لَهُ: أَمَا زِلْتِ تَرَانَا أَطْفَالًا يَا أَبَا هِشَامٍ؟

- سَتِظَلُّونَ فِي عَيْنِي وَعَيْنِ أُمَّكَ أَطْفَالًا حَتَّى يَشِيْبَ أَحْفَادُكُمَا.

كَانَ مَعْنَى كَلَامِهِ أَنَّهُ سَيُظَلُّ يَرَانَا أَطْفَالًا لِلأَبَدِ!

جَاءَتْ حَنَانُ مِنَ الْمَطْبَخِ مُمَسِكَةً بِيَدِهَا مِلْعَقَةً كَبِيرَةً وَسَكِينًا،
فَضَحِكْتُ أَنَا وَقُلْتُ: هَا قَدْ جَاءَتْ السَّفَاحَةُ، فَقَالَتْ: أَهْلًا بِكَ يَا
حَبِيبِي، فَاقْتَرَبْتُ مِنْهَا وَأَعْطَيْتُهَا مَا أَوْصَيْتَنِي بِهِ وَقَبَّلْتُ رَأْسَهَا
وَقُلْتُ لَهَا : أَيْنَ زَوْجُكَ الْمَجْنُونُ؟

- لَقَدْ خَرَجَ لِیُحْضِرَ الْجِزءَ الثَّانِي مِنَ الْمُتَطَلَّبَاتِ،

- أَنْتِ تَسْتَعْلِينَنَا إِذَا!

- بإمكانك قول ذلك!

فوصلَ نبيلَ حاملاً ما طُلبَ منه ثمَّ جلسَ بجواري وقال: هل يُعجبُك ما تفعله بي أختك؟، لقد جئتُ مشرقَ البلادِ ومغربها، فضحكتُ أنا وقلتُ له: لقد جئتُها قبلك يا صديقي، فأطّلتُ برأسها من المطبخ حنان وقالت: ألا يُعجبُكما؟

- يُعجبنا يا حبيبتي، وانتِهي أن يحترق الطّعام كالعادة.

- حتّى لو احترق، فستأكلونه رُغمًا عنكم!

وصلتُ إسرائ ووالدتها، فكُنتُ أنا من فَتَحَ لهُما البابَ ودعاهُما للدُّخولِ، فالقوا علينا التحيّة، ودخلتُ إسرائ لمساعدة حنان في تحضيراتِ الطّعامِ، فلم يتبقَّ على أذانِ المغربِ غيرُ القليلِ، فأطّلتُ إسرائ من المطبخ مازحةً وقالت: من أيّ مطعمٍ تُريدون أن نطلبَ الإفطار، فحنان كعادتها أحرقت الطّعام ثمَّ ضحكت وصارت تضربها حنان، كانت تضربها بحب، ومع أنّ الحبَّ والضرب لا يجتمعان كثيرًا، إلّا أنّهما اجتمعا عند حنان وإسرائ، فلم تكُن هذه تضربُ تلكَ لتُوجعها، وما كذبتُ وادّعتُ عليها الأخرى إلّا لثمازحها، كان هذا الجوّ يسودُ دائمًا في اجتماعاتنا العائليّة التي كنتُ مُصرًا دائمًا على جعلِ إسرائ جزءًا منها، وحتّى لو غفلتُ أنا عن ذلكَ أو نسيتهُ، كانت أمي وحنان تقومان بهذه المهمّة عوضًا عني، فأمي كانت ولا زالت تُحبُّها من يوم مولدها وتتمنّاها زوجةً لي، وكذلك حنان.

تَبَّأَ لِي، هُمْ يَفْعَلُونَ الْمُسْتَحِيلَ لِتَقْرِيْبِنَا، وَأَنَا فَعَلْتُ مَا سَيَجْعَلُ قُرْبَنَا مُسْتَحِيلًا!.

اعتلا المؤذنُ المئذنةَ واعتلينا نحنُ كراسيَّ السفرةِ، وما أن قالَ المُنَادِي "الله أكبر" إلَّا وكأنتَ لُقَيْمَاتُنَا فِي أَفْوَاهِنَا، فتناولنا الطَّعَامَ ثُمَّ تبادَلْنَا المُزَاحَ قَلِيلًا، كوَصَفْنَا طَعَامَ حَنَانِ بِأَنَّهُ غَيْرُ شَهِيٍّ وَ أَنَّهُ مُحْتَرَقٌ، فَقَالَتْ حَنَانُ: زَوْجِي وَأَبِي وَأُمِّي وَخَالَتِي أُمَّ سَاجِدٍ يُعْجِبُهُمْ طَعَامِي، أَمَّا أَنْتُمْ فغَيْرُ مَهِّمٍ رَأَيْكُمْ وَأُخْرَجْتَ لَنَا لِسَانَهَا الحَمَقَاءُ! وبالرغمِ مِنْ أَنَّهُا كَانَتْ تَحَاوُلُ إِغَاظَتِي، إلَّا أَنَّ سَعَادَةً تَسَلَّلَتْ إِلَى قَلْبِي، فَقَدْ جَمَعْتَنِي حَنَانٌ مَعَ إِسْرَاءَ فِي كَفَّةٍ وَحَدَانَا وَجَمَعَتْ الجَمِيعَ فِي الكَفَّةِ الأُخْرَى وَأظْنُهَا تَعَمَّدَتْ ذَلِكَ!.

أنهينا بالفعل طعامنا و شكرنا لحنان ونبيل دعوتهما، ثم جلسنا قليلاً في غرفة الضيافة فجاءتنا حنان بالحلوى وقالت: "عميل يدياً و حياة عينيّاً"، كانت لذيذةً تلكَ الحلوى، فنظرتُ بعدها إلى سَاعَتِي فَكَانَتْ تَقْتَرِبُ مِنَ التَّاسِعَةِ، فَسَأَلْتُهُمْ إِنْ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ أُوصِلَهُمْ قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ لِلصَّحِيفَةِ، فَاجْمَعُوا عَلَي رَغْبَتِهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَنظَرْتُ إِلَى إِسْرَاءَ وَسَطَ هَذَا الرِّفْضِ كَأَنِّي بِهَا تَقُولُ: أَرِيدُ أَنْ أَبْقَى مَعَكَ أَنْتِ، هِيَ لَمْ تَبْحَ بِطَلْبِهَا وَلَمْ أَبْحَ أَنَا بِمَا فِي عَيْنِهَا قَرَأْتُهُ، فَتَرَكْتُهُمْ كَمَا رَغِبُوا وَاتَّجَهْتُ أَنَا لِلصَّحِيفَةِ وَمَا كَانَ ذَهَابِي يَعْدُو كَوْنَهُ إِثْبَاتَ حُضُورٍ لَيْسَ أَكْثَرَ، فَلَمْ أَكُنْ أَحْمِلُ أَفْكَارًا أَزْرَعُهَا فَوْقَ أَوْرَاقِي فَتُثْمَرُ قَصِيدَةً أَوْ قِصَّةً أَوْ مَقَالًا، مَا كُنْتُ أَحْمِلُ غَيْرَ حُزْنٍ وَنَدَمٍ وَحَسْرَةٍ، فَدَخَلْتُ لِمَكْتَبِي فِي الصَّحِيفَةِ وَكَانَتْ أَمَامِي

على مكتبي مقلمة مليئة بالأقلام، فصرت أجمع الأقلام كلها
بقبضة يدي ثم أتركها، فعلت ذلك مرّات عديدة، كان ذلك دالاً على
توتّر عظيمٍ أشعرُ به.

تنقلت بعدها بين مكاتب زملائي، لأدرك من ردة فعلهم عند رؤيتي
أدخل مكاتبهم كم كنت بعيداً عنهم مع قربي منهم، اكتشفت كم
كنت متقوقعاً على ذاتي، ما أتاح لبعضهم وخاصة زملاؤنا الجدد
أن يذهب بخياله إلى عوالم عن نفسيّتي وشخصيّتي، الشيء الذي
دفع معظمهم لتتبع كل كلمة كنت أكتبها، كانت هذه وسيلة دعاية
جيدة ولو أنّي لم أقصدها!، فدخلت إلى أولهم وكان اسمه عروة،
وكان فتى حديث عهد بالعمل في صحيفتنا، فقلت له عندما علمت
أن الرياضة اختصاصه: ما آخر أخبار الرياضة هذه الأيام، فقال
لي: لكنني أكتب عن الرياضة المحليّة ولا أظنّها تهّمك!، فقلت له:
وعنها سألتك، فأنّا لا تهمني رياضة أوروبياً كما يحبّ البعض أن
يُحكي عنه، يظنونها ميزةً أن تشجّع وتتعبّ لفريقٍ فرنسيٍّ أو
إيطاليٍّ، التعبُّ مرفوضٌ على الإطلاق، لكن إن كان اهتماماً
بأبناء أرضك أو من هم من أهل لغتك، فقد أجد لك عذراً، لكن إن
كان غير ذلك فانت تتعبّ فقط ليقال عنك متعبّ وليس أكثر!،
ثم أثبتت على عروة وحفّزته ببعض من كلمات النّساء، برغم أنّي
لم أقرأ كتابته ولم أعرف اسمه من قبل، وأزيدكم من الشّعير بيتاً
أنّي لو كنت أعلم أنّه مختصٌّ بشؤون الرياضة لما دخلت مكتبه
حتّى، وليس ذلك انتقاصاً من الرياضة والرياضيّ، إلا أنّها لم تعد

تَسْتَهْوِينِي مِنْ ذَاكَ الْيَوْمِ الَّذِي خَسِرْتُ فِيهِ سَاجِدٌ صَدِيقِي،
فَخَرَجْتُ مِنْ مَكْتَبِ ذَاكَ الصَّحْفِيِّ الْفَتِيِّ وَقَصَدْتُ الْمَكْتَبَ الْمُجَاوِرَ
لَهُ، فَفَرَعْتُ الْبَابَ لِيَسْبِقَنِي لِلدُّخُولِ وَغَدًّا لَا يَعْرِفُ ثِقَافَةَ الْإِسْتِزَانِ
وَلَا يُقِيمُ مَهَابَةً وَلَا حُرْمَةً لِمَكَانٍ، أَتَطْلُبُ مِمَّنْ كَسَرَ أَقْفَالَ مَنْزِلِكَ
أَنْ يَسْتَأْذِنَكَ فِي الدُّخُولِ إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِكَ!، قَدْ يَسْتَأْذِنُكَ الْيَوْمَ وَقَدْ
يَفْعَلُ غَدًا، لَكِنَّهُ سَيَأْتِي فِي يَوْمٍ وَيَمْنَعُكَ أَنْتَ مِنَ الدُّخُولِ لَتَلْكَ
الْغُرْفَةَ، وَإِنْ كَانَ كَرِيمًا مَعَكَ سَيُقَسِّمُهَا إِلَى أَمَاكِنَ وَأَمَاكِنَ، ثُمَّ لَنْ
يَسْمَحَ لَكَ بِدُخُولِ أَمَاكِنَ مُحَدَّدَةٍ إِلَّا فِي أَوْقَاتٍ مَعِينَةٍ!، قَدْ يَكُونُ
ذَلِكَ أَقْلًا إِيْلَامًا مِنْ رُؤْيَيْكَ لِحَيْرَانِكَ يَتَزَاوَرُونَ مَعَهُ وَيَطْلُبُونَ وَدَّهَ،
مَاذَا يَفْعَلُونَ؟، هَلْ هُمْ جَبْنَاءُ؟، أَمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاءٌ لَهُ فِي جَرِيمَتِهِ،
وَمَا كُنْتَ وَأَهْلَكَ وَمَنْزِلَكَ سِوَى قُرْبَانًا لَهُ يَنَالُونَ فِيهِ الرِّضَى؟، لَقَدْ
كَانَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنْ جَيْشِ الْهَجُومِ الْمُحْتَلِّ، نَعَمْ نَعَمْ، هُمْ جَيْشُ
الْهَجُومِ وَلَوْ كَانُوا حَرِيصِينَ عَلَى تَسْمِيَةِ أَنْفُسِهِمْ بِجَيْشِ الدِّفَاعِ،
وَتَسْمِيَةِ وَزَارَةَ حَرِبِهِمْ بِذَاتِ الْإِسْمِ، وَلَكِنْ لِيُجِبْنِي ذَا عَقْلٍ، عَمَّ
يُدَافِعُ هَوْلَاءُ؟، أَيُدَافِعُونَ عَنْ وَطَنٍ؟، لَكِنْ لَا وَطَنَ لَهُمْ عِنْدَنَا،
لَعَلَّهُمْ طُلَّابٌ ثَارٌ!، وَأَيُّ ثَارٍ هَذَا الَّذِي يَطْلُبُونَ وَمِمَّنْ؟، يُذَكِّرُنِي
حَالَهُمْ بِالْمَثَلِ الْمِصْرِيِّ الْقَائِلِ "ضَرَبَنِي وَبَكَى ثُمَّ سَبَقَانِي
وَاشْتَكَى"، فَقَدْ سَلَبُوا أَرْضَنَا وَخَيْرَاتِنَا، وَقَتَلُوا رِجَالَنَا وَنِسَاءَنَا ثُمَّ
صَارُوا يَشْتَكُونَ مِنْ نَوَاحِنَا وَمَا تَمَنَّا، أَلَا تَبَا لَكُمْ ثُمَّ تَبَا وَسَحَقًا لَكُمْ
وَلِمَنْ يَنْصُرُونَكُمْ، وَإِنْ كَانَتْ نُصْرَتُهُمْ لَكُمْ لَا تَعْدُوا أَنْ تَكُونَ اتِّقَاءً
لِشَرِّكُمْ، هَذَا الشَّرُّ الَّذِي مَلَأَ الْكُونَ، شَرٌّ يَلْبَسُ حُلَّةَ ابْتِرَازٍ حَقِيرٍ،

يَلْبَسُ إِزَارَ ظَلَمٍ أَثِيمٍ، فَقَدْ تَمَسَّكَ هَوْلًا حَتَّى تَمَكَّنُوا، وَعِنْدَمَا
وَحَقَّقُوا مَرَادَهُمْ، لَمْ يُرَاعُوا فِي بَشَرٍ وَلَا حَجْرٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً، فَقَضَى
أُولَئِكَ الْأَغْرَابُ غَايَتَهُمْ، وَالَّتِي كَانَتْ اِعْتِقَالَ رَئِيسِ تَحْرِيرِ
الصَّحِيفَةِ السَّيِّدِ كِنَعَانَ، لَقَدْ كَانَ بَطْلًا، فَقَدْ كَانُوا يَبْعَثُونَ إِلَيْهِ
الْإِنذَارَاتِ وَالتَّهْدِيدَاتِ كَيْ يَمْنَعِ الصَّحَفِيِّينَ مِنْ كِتَابَةِ مَوَاضِعِ
تَسْتَفْزُؤِ مَشَاعِرِ الْقُرَّاءِ ضَدَّهُمْ!، وَيُلْهِمُ الْآلَا يَعْلمُونَ أَنَّ مَشَاعِرَ
الْقُرَّاءِ لَيْسَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُحَرِّكُهَا أَوْ يَسْتَفْزِئُهَا، أَلَيْسَ مِنْ يَقْرَأُ
صَحِيفَتَنَا هُوَ أَبُو هَذَا وَأَخُو تَلِكْ!، أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي قَتَلْتُمْ أُمَّهُ أَمَامَ
عَيْنِهِ ثُمَّ سَلَبْتُمْ مَنْزِلَهُ!، أَمْثَلُ هَذَا بِحَاجَةٍ بَعْدُ إِلَى اسْتِفْزَازٍ؟، لَقَدْ
سَرَقْتُمْ أَرْضَهُ وَهَدَمْتُمْ بَيْتَهُ وَقَتَلْتُمْ أَعَزَّ إِنْسَانٍ عَلَى قَلْبِهِ، مَاذَا
يَمْلِكُ أَخْبِرُونِي؟، أَلَمْ تَسْلُبُوا بَسْتَانَهُ؟، وَهَاهُوَ الْآنَ بَعْدَ أَنْ كَانَ
يَعْمَلُ فِي أَرْضِهِ فَيُزْرِعُ الْبُذُورَ وَيَجْنِ الثَّمَرَ، صَارَ أَجِيرًا فِي أَرْضِ
غَيْرِهِ لِقَاءِ قُرُوشٍ ثَلَاثَةَ، فَقَرَشٌ يُحَارِبُ فِيهِ جُوعُهُ وَجُوعَ عِيَالِهِ
بِبُضْعَةٍ لِقِيَمَاتٍ تَدْخُلُ أَجْوَافَهُمُ الْخَاوِيَةَ، وَقَرَشٌ يَتَاجَرُ فِيهِ مَعَ اللَّهِ،
فَيَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَلَوْ كَانَ أَفْقَرَهُمْ، وَالْقَرَشُ الثَّلَاثُ يَدَّخِرُهُ
لِيَشْتَرِيَ بِنَدَقِيَّةٍ يَدَافِعُ فِيهَا عَنْ أَرْضِهِ وَعَرِضِهِ.

مَا دَعَانِي لَوْصَفِ السَّيِّدِ كِنَعَانَ بِأَنَّهُ بَطْلٌ هُوَ أَنِّي وَلَا أَيًّا مِنْ
رُؤْمَلَانِي عَرَفَ بِتَلِكِ التَّحْذِيرَاتِ وَالتَّهْدِيدَاتِ الَّتِي تَعَرَّضَ لَهَا فِي
غَيْرِ يَوْمٍ اِعْتِقَالِهِ!، فَلَمْ يُثَبِّطْ أَحَدَنَا يَوْمًا وَلَمْ يُعَاتِبْنَا عَلَى حِدَّةِ
لَهْجَتِنَا وَقَسْوَتِنَا عَلَى ذَاكَ الْمُعْتَدِ الظَّالِمِ.

شعورٌ بفخرٍ عظيمٍ تولد لديّ يومها، عندما أحاط عُشرون جُندياً
مكتبه، فظننتُ أنّ أحدَ أبطالنا المقاومين متخفٍ عن أنظارهم
ويطلبونه، لكنني اكتشفتُ الحقيقةَ بعدها، عندما كان ثلاثةٌ من
الجُند يُمسكون السيدَ كنعان ليعتقلوه، كنتُ أحسبُ من خوفهم
أنهم سيُخرجون من مكتبه قاذفةً مضادّةً للدروع أو حزاماً ناسفاً،
لكنهم لم يُخرجوا شيئاً من هذا!، فاكتشفتُ وتأكدتُ أنّ سلاحه لم
يكن غيرَ كلمته، ولا عجبَ في ذلك، فهل كان سلاحٌ لغسان
كنفاني غيرَ الكلمة!، وهل كان لناجي العلي سلاحٌ غيرَ قلمه
ومبراته!، لتسألوا "حنظلة" إن كان ناجي يملك شيئاً غيرَ هذا!،
فجلستُ وزملائي بعدها وأشرتُ عليهم أن لا ننشرَ أيّ موضوعٍ
في عددِ العَد وأن نكتفي بوشاحٍ أسودٍ يُعطي صفحائنا البيضاء،
تتعبُ من ذلكِ الوشاحِ عدّةَ قطراتٍ حمراء، تكونُ رمزاً لدمائنا
التي أريقتُ وتراقُ كلَّ يوم، وأمّا الوشاحُ الأسودُ فهو حدادٌ على
حريتنا التي تُنتهكُ ويُعاتُ فيها فساداً، فأنهيتُ كلامي وبقيةَ
الزملاءِ وخرجتُ من الصّحيفة، فوصلتُ لمنزلِ حنان ولا أدري
هل أنا من استعجلَ العودة أم أنّ إسرائاً تأخّرتُ انتظاراً لعودتي!،
وعندما دخلتُ المنزلَ، وقفتُ مفزوعةً حنان وقالت: خيراً ما بك
يا أخي؟، أقسمُ بأنك ذهبتَ بغيرِ هذا الوجهِ يا حبيبي، ما بك يا
هشام أخبرني؟

- لا تقلقي يا حنان، هو شيءٌ من انتهاكِ الكرامةِ فقط -

كُنْتُ أَضْحَكُ مَلِيًّا مِنْ هَذِهِ الْخِرَافَاتِ وَالْإِدْعَاءَاتِ الَّتِي يُطَلِّقُهَا هَؤُلَاءِ وَيَخْتَلِقُونَهَا، لِيُعْطُوا وَجُودَهُمْ أَيَّ شَرِيعَةٍ، لَكِنَّ ضَحِكَاتِي هَذِهِ تَحَوَّلَتْ إِلَى دُمُوعٍ، عِنْدَمَا حَاجَّنِي أَحَدُ إِخْوَانِي فِي الْعُرُوبَةِ وَالِدِينَ وَلَوْ بِالتَّمْلِيحِ إِلَى إِمْكَانِيَّةِ وَجُودِ أَصْلِ لِهَؤُلَاءِ الْأَغْرَابِ فِي بِلَادِنَا!، كَانَ رَدِّي يَوْمَهَا عَلَيْهِ بِقَوْلِي: " لَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ عُرُوبَةٍ أَوْ قَوْمِيَّةٍ لِأَنِّي أَرَاهَا لَمْ تُعِدْ تُهْمُكَ، سَأُحَدِّثُكَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يَدْعِي هَؤُلَاءِ، لِمَاذَا يَقْتُلُونَ أَطْفَالَ وَنِسَاءً وَشِيُوخًا؟، لِمَاذَا يَسْلِبُونَ أَرْضَ وَيَهْدِمُونَ بِيوتًا؟، هَلْ يُرِيدُونَ إِخْفَتَنَا؟، أَمْ يُرِيدُونَ أَنْ نُسَلِّمَ بِالْأَمْرِ الْوَاقِعِ!، لَنْ يَحْدُثَ هَذَا أَبَدًا أُبَلِّغُهُمْ بِذَلِكَ.

فَجَلَسْتُ مَعَهُنَّ قَلِيلًا فِي جَلِسْتَهُنَّ النِّسَائِيَّةِ تِلْكَ ثُمَّ أَخْبَرْتُهُنَّ بِالذِّي وَقَعَ الْيَوْمَ، وَجَلَسْنَا بَعْدَهَا مُغْشَيْنَ بِالْأَسَى وَمُسْرِبِلِينَ بِالْحُزْنِ، فَاسْتَأذَنْتُ بَعْدَهَا إِسْرَاءَ وَوَالِدَتَهَا، فَطَلَبْتُ مِنِّي إِيصَالَهُنَّ أُمِّي فَفَعَلْتُ، وَكُنْتُ وَإِسْرَاءَ نَتَبَادُلُ النَّظْرَاتِ عَنْ طَرِيقِ الْمَرَاةِ، أَوْ إِنْ شِئْتَ هِيَ لَمْ تُكُنْ مِبَادِلَةً، فَلَمْ تَحِدْ عَيْنِي الْيُمْنَى عَنْ تِلْكَ الْمَرَاةِ الَّتِي كَانَتْ تَعَكِسُ صُورَةَ وَجْهِهَا، أَمَّا الْعَيْنُ الْيُسْرَى فَكَانَتْ مُرْغَمَةً أَنْ تَنْظُرَ لِلطَّرِيقِ وَتَدْفُقَ السَّيْرَ، فَوَصَلْنَا إِلَى مَنْزِلِهِمْ، فَوَدَّعْنِي إِسْرَاءُ وَدَخَلْنَا لِلْمَنْزَلِ بَعْدَهَا وَعُدْتُ أَنَا أَدْرَاجِي إِلَى مَنْزَلِ حِنَانٍ، فَلَمْ أَدْخُلْ وَاكْتَفَيْتُ بِالِاتِّصَالِ بِأَبِي وَأُمِّي كَيْ يَخْرُجَا لِنَعُودَ لِلْمَنْزَلِ، فَلَمْ أَطِلْ الْمَكُوثَ خَارِجًا، فَعُدْنَا لِلْبَيْتِ بَعْدَهَا وَكَانَتْ السَّاعَةُ تَقْتَرِبُ مِنْ أَنْ تُصِيرَ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ، وَكَانَ مَوْعِدُ نَشْرَةِ أَخْبَارِ الْمَسَاءِ، كَانَتْ مَتَابَعْتُنَا لِتِلْكَ النَّشْرَةِ يَوْمِيًّا، كَيْ نَعْرِفَ كَمْ

ارتقى منّا من الشهداء، فلم يخلُ يومٌ مهمًا بلغ من الهدوء من
دماءٍ تُسفك وأرواحٍ ترتقي لجنّات النّعيم، وكان في ذلك اليوم
ثلاثة شهداء ذبّحتهم قوّات الظلم والبطش والعدوان، كانت تدمع
أعيننا، قد يكون الحزن سبب بعض تلك الدّمعات، الفراق أيضًا
يستفزّ الأعين لتنزف الدّموع، لكن ومع كلّ هذا الحزن والألم،
ترى أحدنا يحسدُ ذلك الشّهيد على ما ناله من كرامةٍ، وداخل كلّ
منّا صوتٌ يصرخ: متى يكون دوري؟

صعدتُ إلى عُرفتي بعد ذلك وجلستُ على سريري الذي يساندني
في حملِ أوزاري التي تُثقلني، وبالكادِ كان يستطيعُ ذلك، فما بالك
بمن يحملُ تلك الأوزار على عاتقه طوالَ يومه وليلته!، كم
اشتقتُ لتلك المعارك التي كان قلبي يُقيمها مع عقلي كلّ يومٍ عند
وقتِ النوم، وبعدَ طولِ تأملٍ في سقفِ العُرفة، وبعدَ أن أغرقتُ
وسادتي بركةً من الدّموع، سمعتُ صوتًا يصدحُ من داخلي،
فأنصتُ له، فإذا به صوتٌ عقلي جاءني معاتبًا مؤنبًا، فقال لي:
أندعي أنّك تحبُّ دينك ومُستعدُّ أن تفدي وطنك بروحك!، وقد
ضغفتَ عندَ أولِ فتنةٍ تعرّضتَ لها، أيعقلُ ذلك؟، فأجبتُه بأنّ
الغدرة والكبيرة التي فعلتُ لا تُخرجني من رحمةِ ربي، وإن كانت
نفسي قد سوّلت لي ذلك الفعل وتلك الكبيرة، فدموعُ الندمِ والتّوبة
لربِّ العرشِ كفيلاً بأن يغفرَ لي الرّحمنُ زلّتي تلك، فاستدركتُ
بعدها فسألته عن غريمه الدائم في ساحةِ النّزال، سألتُه عن قلبي
أين هو، فقال لي: ألم تطعنه في مقتل؟، ألم تُغده طوالَ عمرك

على حبِّ إسرائٍ حتَّى جعلتها أصلَ نبضِهِ وأنفاسِهِ؟، هل تتوقَّعُ أن
يحتملِ ذاكَ الضَّعيفُ جُرمَكَ الذي أجرمتَ، لقد ماتَ قلبُكَ يا هشامَ،
ماتَ في ذلكَ اليومِ الذي أنكرتَ فيه دينَكَ وتربيتَكَ وخُلُقَكَ، في
اليومِ الذي تبرَّأتَ فيه من الحبِّ الذي لظالمًا أطلقتَ عليه حبَّ
عمرِكَ، فلندعُ الهُ بالرحمةِ،

- أنتَ تكذبُ، كيفَ ماتَ وهو يقرعُ بين جنبي؟
- ماتَ به الشُّعورُ، ماتتِ العاطفةُ، ماتَ الحبُّ والوفاءُ.
- قد صارَ مثلَ مُحركِ السيَّارةِ، يقتصرُ دوره على الوظيفَةِ
الميكانيكيَّةِ فقط، ولا شأنَ لهذهِ الوظيفةِ في أي إحساسٍ
أو مشاعرٍ.
- أَمَا مِنْ سَبِيلٍ لَأَيِّ صُلْحٍ مَعَهُ؟
- هل رأيتَ روحًا تعودُ لجسديها بعدَ أن فارقته؟
- لا، يستحيلُ ذلكُ.
- إذاً فقد أجبَتَ نفسكُ.

مضت ساعاتٌ مُذَ جئتُ لغُرفتي، فجاءت أُمِّي بعدها لتوقظني
لوجبةِ السَّحورِ فوجدتني مُستيقظًا، فطلبتَ مِنِّي النَّزولَ لتناولِ
الطَّعامِ، فأخبرتها أَنِّي أَكلتُ كثيرًا عندَ حنانٍ وَأَنني أشعرُ بالشَّبَعِ،
فجلبتَ لي ماءً لِأشربهُ قبلَ أن يحينَ أذانُ الفجرِ، فشربتُ الماءَ
وتجهَّزْتُ كي أنزلَ للصَّلَاةِ في المسجدِ، فذهبتُ وأبي سويًّا وأدينا
الفريضةَ ثمَّ عدنا للمنزلِ، فذهبتُ لغُرفتي ونمتُ طويلاً وعندما
استيقظتُ في الصَّبَّاحِ كانَ هشامُ الصَّغيرِ هوَ من أوقظني وأشعلَ

بداخلي عاطفة كنت أظنها غير موجودة لدي بعكس البشر كلهم، هي عاطفة وشوق لأن أكون أباً ويسبق اسمي اسم آخر، فيجبرني أن لا أكتفي بكتابة "هشام زيد الماضي"، فيصير علي أن أكتب "زيد هشام زيد الماضي"، كم صرت أشتاق لتلك اللحظة.

توالت بعد ذلك أيام رمضان، حتى شارف على الانتهاء، فعدنا للحديث عم كنا نتحدث فيه قبله، عدنا نناقش إن كانت ستسافر مع زوجها حنان أم لازالت مصرة على البقاء!.

وفي يوم من أواخر الشهر الفضيل، وكان اليوم الثامن والعشرين بالتحديد، لم أشأ أن أذهب للصحيفة في المساء واكتفيت بإرسال مقالي اليومي عبر البريد الإلكتروني، وبينما كنت أجلس في مكنتي إذا بها تفرع أذني عبارات ترحيب بأحدهم!، من ثراه جاء لزيارتنا؟

فحصلت على الإجابة عندما قرعت الباب أختي حنان لتخبرني أن ريم كانت ذلك الضيف الذي انهالت عليه عبارات الترحيب، وإذا بها تفرع باب مكنتي مستأذنة بالدخول، ويلها!، أتستأذن للدخول إلى مكنتي ولم تستأذن في اقتحام حياتي وبعثرة أحملي!، فدخلت ريم وطلبت أنا من حنان أن تحضر لنا القهوة، فجلست في مقعد الضيافة عندي في المكنت، فرحبت بها وحاولت الانشغال بأي شيء، فقط حتى لا أنظر إليها، فإذا بها تمد يدها أمامي وهي تمسك جهازاً يظهر عليه خطين لم أفهمهما، فنظرت إليه وما

كُنْتُ أَعْرِفُ مَا هُوَ، فَقُلْتُ لَهَا: مَا هَذَا؟، فَقَالَتْ: هَذَا فَحْصٌ لِلْحَمْلِ
يا هشام،

- أهُوَ إِجَابِي؟

- نَعَمْ هُوَ كَذَلِكَ.

- مُبَارِكٌ لَكُمْ، أَهُوَ لِأَحَدِ قَرِيبَاتِكَ أَمْ صَدِيقَاتِكَ؟

- هُوَ لِي أَنَا.

- كَيْفَ ذَلِكَ؟، مَا أَعْلَمُهُ أَنَّكَ غَيْرُ مَتَزَوِّجَةٍ، فَمِمَّنْ هَذَا الْحَمْلُ؟

فَلَمْ تُجِبْنِي رِيمٌ، لَكِنَّهَا وَقَفَتْ جَوَارِي وَنَظَرَتْ فِي عَيْنِي بِحَدَّةٍ، ثُمَّ
صَفَعَتْنِي عَلَى وَجْهِِي، وَصَادَفَ تِلْكَ الصَّفْعَةَ دُخُولَ حَنَانٍ تَحْمِلُ
الْقَهْوَةَ لِتَقْدِمَهَا لَنَا، فَالْمَصَانِبُ كَمَا يَقُولُونَ لَا تَأْتِي فُرَادَى،
فَأَوْقَعَتْ حَنَانُ الْقَهْوَةَ وَالْفَنَاجِينَ أَرْضًا، وَلَمْ يَكُنْ سَقُوطُهَا تَعْمُدًا،
لَكِنَّ الْمَوْقِفَ الَّذِي رَأَتْهُ لِنَوَّهَا سَبَّبَ لَهَا صَدْمَةً، مَاذَا تُرَاهُ رَاوِدَ
عَقْلَهَا عِنْدَمَا رَأَتْ هَذَا الْمَشْهَدَ؟، مَاذَا ظَنَنْتِ؟، هَلْ تَبَادَرَ لَهَا أَنَّ
سَبَبَ تَجَرُّئِي رِيمَ عَلَى صَفْعِي فِي مَنْزِلِي وَبَيْنَ أَهْلِي سَبَبٌ تَأْفَهُ، أَمْ
أَنَّهَا مَصِيبَةٌ وَكَارِثَةٌ؟، وَوَقُوفِي أَمَامَهَا بَعْدَ تِلْكَ الصَّفْعَةِ دُونَ أَدْنَى
رَدَّةٍ فَعَلِ مَاذَا كَانَ سَبَبُهُ؟، هَذِهِ بَعْضٌ مِنَ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي طَرَحْتَهَا
عَلَى نَفْسِهَا حَنَانُ بِلَا شَكِّ، فَجَلَسْتُ بَعْدَهَا حَنَانٌ عَلَى أَقْرَبِ أَرِيكَةٍ
فِي مَكْتَبِي وَخَفَضَتْ رَأْسَهَا لِلْأَسْفَلِ، وَلَمْ تَكُنْ مُكْتَرِثَةً رِيمٌ كَثِيرًا
لِمَا رَأَتْهُ لِنَوَّهَا أُخْتِي، وَقَالَتْ لِي بِصَوْتٍ تَسْمَعُهُ حَنَانٌ: فَكِّرْ فِيمَ
يَجِبُ أَنْ تَفْعَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَتْ دُونَ إِذْنٍ أَوْ تَحِيَّةٍ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا بَعْدَهَا
أُخْتِي وَكَأَنِّي بِهَا تَقُولُ لِي: أَفْصِحْ فَأَنَا أَسْمَعُكَ، فَجَلَسْتُ عَلَى تِلْكَ

الأريكة السوداء جوارها وقلت لها: هل تسامحيني يا أختاه على
أي خطأ ارتكبه؟

- إن كان يا هشام هذا الخطأ بحقي، فكيف لا أصفح!، أما إن

كان بحق غيري فمن أنا حتى أسامح؟،

لكن الآن أخبرني لم صفعتك تلك الأفعى؟، وما الذي رأيته

وسمعه لتوي؟

فوضعت يدي على وجهي وأخفصت رأسي، وتكاثرت في عيني
دمعاتي فسقطت غنوة.

أخي هشام يبكي!، أخي الذي ما فتى يعلمني كيف أكون قوية

وكان يعينني على نوائب الدنيا يبكي الآن أمامي؟، وأنا التي ما

رأيت دمعته في حياتي أراه يبكي الآن!، أخي يصفع أمامي على

وجهه ويقف أمام من صفعه كالصنم لا يتحرك؟، هكذا قالت

حنان، فرفعت يدي عن وجهي لأنظر إليها، وخزي الكون يبدو

على ملامحي، فأخفصت رأسي مرة أخرى فور التقاء عيني

بعينها، ثم أشعلت سيجارتي، لعل دخانها يحجب نظرات الاحتقار

التي تنتظرها إلي عندما تعلم حقيقة الأمر، فاستجمعت نبضات

قلبي، علّ الدماء تصعد إلى لساني ويدي، أما إلى لساني فكي

يبوح بسرّه، وإلى يدي فلكي تكونا قادرتين على رفع راية

الاستسلام البيضاء، والتي ما كنت لأرفعها غير أمامها، فبطبيعة

الحال لو حتى بلغت ذنوبي عنان السماء، فلن تطيب النفس أن

ترفعها يوماً لعدوّها، فبدأت حديثي لحنان بقولي: سأحكي لك ما

لَمْ تَظَنِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ فَمِ أَخِيكَ الْوَاعِ الْمُثَقَّفِ الْمُتَعَلِّمِ الَّذِي يُنْظَرُ
عَلَيْكُمْ عَلَى الدَّوَامِ بِوَعِيهِ وَثِقَافَتِهِ، فَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلًا يَا حَنَّانُ لَا أَظُنُّ
بِحَارِ الدُّنْيَا وَمُحِيطَاتِهَا كَافِيَةً لَتَمْحُو عَنِّي دَرَنَهُ وَنَجَاسَتَهُ، وَلَا
أَظُنُّ رِيَّاحَ الْكُونِ وَعَوَاصِفَهُ قَادِرَةً عَلَى كَنَسِ غِبَارِهِ عَنِّي.

- خَيْرًا، مَا الَّذِي فَعَلْتَهُ يَا هِشَامُ؟
- أَنْتِ تَعْلَمِينَ أَنِّي ذَهَبْتُ وَإِسْرَاءُ وَكُلُّ أَعْضَاءِ الْفِرْقَةِ لِإِحْيَاءِ
ذِكْرِي يَوْمَ الْأَرْضِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟
- نَعَمْ، لَطَالَمَا حُلِمْتَ أَنْتِ بِرَحْلَةٍ مِثْلِهَا.
- لَكِنَّ هَذَا الْحَلْمَ أَصْبَحَ يَا حَبِيبَتِي كَابُوسًا.
- كَابُوسٌ!، كَيْفَ ذَلِكَ؟
- قَبْلَ أَنْ نَعُودَ إِلَى هُنَا بِسَاعَاتٍ قَلِيلٍ، جَاءَتْ إِلَيَّ رِيمٌ فِي
عُرْفَتِي سَائِلَةً عَنِ السَّاعَةِ، ثُمَّ سَرَدْتُ لَهَا الْحِكَايَةَ!
- رَفَعْتُ رَأْسِي بَعْدَ ذَلِكَ وَأَسْبَلْتُ دُمْعَتِي ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى حَنَّانِ، وَإِذَا
بِهَا مُحْمَرَّةَ الْعَيْنَيْنِ، فَقَالَتْ: لَا دَاعِي لَأَنْ تُكْمَلَ، فَقَدْ فَهِمْتُكَ
- أَحَقًّا فَعَلْتَ ذَلِكَ يَا هِشَامُ؟

فَقُلْتُ لَهَا: لَقَدْ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، فَقَالَتْ: ارْفَعِ رَأْسَكَ وَانظُرْ إِلَيَّ،
فَظَنَنْتُ طَلِبَهَا هَذَا كَيْ تُهْدِي خَاطِرِي قَلِيلًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَلَيْتَنِي
لَمْ أَرْفَعُهُ، لِأَنَّ حَنَّانَ سَدَدَتْ إِلَى خَدِّي صَفْعَةً كَانَتْ أَقْسَى مِنْ
صَفْعَةِ رِيمِ، وَصَارَتْ تَصْرُخُ بِوَجْهِِي وَتَقُولُ: كَيْفَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟، أَلَا
تَخَافُ رَبِّكَ؟، وَلَكِي يَفْتَضِّحُ الْأَمْرُ أَكْثَرَ، كَانَتْ قَرِيبَةً مِنْ مَكْتَبِي
أُمِّي، فَسَمِعَتْ صَوْتَ حَنَّانِ وَصَرَخَاتِهَا، فَجَاءَتْ مُسْرِعَةً إِلَيْنَا

فسألنا ما بكما يا أولاد؟، وأتبعنا سؤالها بقول ما أراه إلا قد استفرز حنان وزاد غضبها وبخاصة بعد أن قالت أمي: لا تغضب يا ولدي، ألسنت تعرف أن أختك مجنونة؟، فزاد غضب حنان وقالت: نعم أنا مجنونة، وعاهرة أيضاً، وولدك هو الشريف الطاهر الطيب، وعموماً فأنا سوف أريحكم مني ومن جنوني وأذهب عند زوجي بل وسأسافر معه أيضاً، وأمسكت حقيبتها وخرجت من مكثبي ومن البيت كله، فنظرت إليّ أمي وقالت: ما بها تلك المجنونة؟، فأجبتها: ليست مجنونة، وهي على حق في غضبتها تلك، فتعجبت أمي كما قرأت بعينها، فمذ كنا صغاراً أنا وحنان كنا ننفن في استمالتها عندما نختصم لتكون في صف أحدنا وتنصره، أما أن أقف في صف حنان، وبخاصة وقت الخصومة، فلم تعهد مني ذلك من قبل أمي، فالقيت رأسي المثلث بهوميه وذنوبه فوق صدرها، فشعرت أمي بعمق مشكلتي أو إن شئت مأساتي التي أنا واقع فيها، فقالت: أخبرني ما الأمر يا ولدي؟

- إن أخبرتك يا أمي فهل تتخلين عني؟

- أنت لا تعرف قلوب الأمهات يا حبيبي.

أنت تعلم أنني لست من أهل الشعر، لا أجيدُه ولا أسمعُه حتى، لكنني حفظت قصةً حكيمةً عبر بضعة أبيات، وكانت على هذا النحو:

أغرى امرئ يوماً غلاماً جاهلاً
بنقوده كي ما ينال به ضرر
قال انتني بفؤاد أمك يا فتى
ولك الجواهر والدراهم والدرر
فمضى وأغمد خنجراً في صدرها
والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنه من فرط سرعته هوى
فتدحرج القلب المقطع إذ عثر
ناداه قلب الأم وهو معقر
ولدي حبيبي هل أصابك من ضرر
فكان هذا الصوت رغم حنوه
غضب السماء على الغلام قد انهز
فارتد نحو القلب يغسله بما
لم يأتها أحد سواه من البشر
واستل خنجره ليطعن نفسه
طعناً فيبقى عبرة لمن اعتبر
ناداه قلب الأم كفاً يداً ولا
تذبح فؤادي مرتين على الأثر

فألقيتُ نفسي ثانيةً باكياً على صدرها وقلتُ لها: قصتكِ هذه يا
أمي كانت الصّفة الثالثة بعد صفة ريم وحنان، فتوسّعت حدقتنا
أمي وقالت بصوتٍ غاضبٍ: ولماذا تضربك ريم؟، شئتُ يدها،

- اهدي يا أمي، يبدو أن ليس لي إلا أن أخبرك،

فبدأتُ أسرد عليها تلك الحكاية التي أشعرُ بألفِ غصةٍ عند
ذكرها، وأوشكُ على التقيئِ عندما أصلُ لختامها، فصمتتُ والدتي
لدقيقتين وألقت جبينها المضيء على كفيها وقالت: لا أصدق ما
أسمعه، لا أصدق أن ولدي يفعل مثل هذا الفعل.

- أرجوكِ يا أمي، لقد ضاقت عليّ الأرض بما وأطبقت فوق
صدري السماء، ماذا أفعل؟

- لقد صدمتني بك، أهذا هشام!، الشاب الذي نفخر به
جميعاً، الرجل الذي نستشيرُهُ في أدقِّ أمورنا!

- لم يكن هشامًا حين فعل ذلك يا أمي، لقد كان شيطانًا
رجيمًا، لتصحيني يا أمي، ماذا عليّ أن أفعل الآن؟،

فأنذرَ بالطنينِ هاتفي وكانتِ إسرائُ المتصلِ آنذاك، فلم أجبُ على
اتصالها، فعاودتِ الكرّة مرّاتٍ ومرّاتٍ، إلى أن نفذَ صبرُ أمي
فصرخت بوجهي قائلةً: فلنحب من يطلبك أو لتغلق هاتفك اللعين
إلى الأبد، فاكثفتُ بإغلاقِ هاتفي، مُلقياً بإسراءٍ وما كانت تُريده
خلفَ ظهري بمنتهى الأنانيّة، ولم أكثرِث إن كانت مريضةً أو
بحاجةٍ إلى مساعدةٍ حتّى، فقامت من مكثبي بعد ذلك أمي دونَ
سلامٍ أو كلامٍ، ففُمتُ بتشغيلِ هاتفي بلهفةٍ لأهاتف من ستنظّل

حبيبتي و نورَ عيني وحلمَ عمري، ففمتُ بالاتصال، فأجابتنِي
إسراء وقالت: أين أنت يا هشام؟

- في البيتِ يا حبيبتي، هل أنتِ بخير؟

- الحمد لله، أنا بخير،

كنتُ أريدُ أن أضحكك فقط.

- خيرًا يا حلوتي، علامَ تُريدين أن تُضحكيني؟

- جارنا مأمون يريدُ أن يخطبني لولده، كدتُ أضحكُ في

وجهه وأفهبته، كنتُ سأقولُ له: اذهب واخطبني من

حبيبي.

فبقيتُ صامتًا وأنا أسمعُها تضحك، وأحسُّ السعادة تُشعُّ من

صوتها، فتنبهتُ لصمتي ذاك وقالت: هل غضبتِ يا حبيبي؟، هل

أزعجتك يا هشام؟، لا تخف، فالموتُ عندي أهونُ من أن أكونَ

لرجلٍ غيرك.

كانت فخورةً بنفسها حبيبتي، وكانت تغلو وتعلو فرحًا بما فعلت،

بينما كنتُ أصغرُ أنا وأتضاعلُ أمامها وأمَامَ هذا الحبِّ الطاهر

الذي لا أستحقُّه!، فسألتنِي عن حنانٍ لأنَّها اتَّصلت لتسألها عني

عندما لم أجب مكالماتها، ماذا عساني أقولُ لها؟، أخبرها أن

حنان غضبت من أجلها؟، أم أقولُ لها أن أختي لا تملكُ كلامًا

تقوله لها!، فقد حارت حنانُ فيم ستقول، فآثرتُ أن لا تُجيبَ

المكالمة من الأساس.

جاء المساء ولا أر غير نظراتِ لومٍ واحتقارٍ من أمي، قد
تحتقرني وقد تشعر بالخزي والعار مني، لكن محال أن تتركني
وحدي في مصيبي أمي، فجاءت إلي في عرفتني وكنت حينها
مستلقياً على سريري، فاعتدت من حالة الاستلقاء تلك وجلستُ
مُسندًا ظهري على الجدار، وجَلَسْتُ بدورها أمي على مكثبي،
وكنتُ ألاحظُ أنها تتجنبُ الجلوسَ بجانبِي، ولولا أنها بحاجة
للحديثِ لتحلَّ المشكلةَ لما تحدّثت، فقالت لي بصوتها الخائب:
"ماذا طلبت منك تلك الأفعى؟"، فقلت لها أنها جاءت لتُخبرني
أنها حُبلى، فقالت أمي: والطبيعي أن تتزوجها، أليس كذلك؟
فقمْتُ من مكاني وقلتُ لها بنبرة المُنزعِج: يستحيل أن أفعل ذلك
حتى لو قتلتموني، لست أنا والد هذا الطُفل، فقامت من مكانها
أمي بوجهٍ أحمرٍ غاضبٍ وصفعتني على وجهي هي الأخرى،
لست أدري من بقي أيضاً ليصفعتني؟، فقالت لي: ألا يكفيك الذي
فعلته؟، فقد ظلمت نفسك وظلمت من كنت تدعي حبها، وتريدُ
الآن أن تظلم ريم، ما ألمني لم تكن الصَّفعةُ ولم تكن صورتي
التي تشوّهت وسِتري الذي فُضح، لقد ألمني أن الحديث عن
إسراءٍ وحبي لها أصبح عند الجميع بصيغة الماضي، هل أصبح
يا حبيبتي حُبنا ماضياً؟، ألم يكن بالأمس حاضراً ومُستقبلاً؟، هل
صار كابوساً بين عشية وضحاها بعد أن كان لي ولكِ حُلماً
وأملًا؟، فدخل علينا العُرفة أبي، هو لم ير الصَّفعة بل رأى أثرها،
فقال: أهلاً بأحبابي، فلم أجبه أنا ولم تفعل أمي كذلك، فقال والدي

وقد سمعَ خُصومَتنا وصُراخَ أمِّي بي قبلَ دخوله: خيراً يا هشام،
خيراً يا أمَّ هشام فيمَ الخُصومة؟، فصرتُ أمهدُ خدي لصفعةٍ
أخرى، وليستَ صفعةُ الرَّجلِ كصفعةِ المرأةِ بحالٍ من الأحوالِ،
وبرحمةِ الأمِّ التي أعرفُ قالتُ والدتي: نريدُ أن نزوِّجَ هشامَ يا
زيد، وقد أجمَعنا وأقنَعناه أن تكونَ عروسهُ ريمُ كما ترغِبُ، فقامَ
من مكانه والدي فرِحاً، وما كانَ الفرخُ الذي رأيته لأحدٍ غيره في
ذاكَ اليومِ، فالأمرُ كلُّه لم يَكُنْ على هوى أمِّي وما كانَ لِيُسعِدَها،
فقامتُ من مجلسِنا أمَّ هشامَ وقالتُ: ساذهبُ لأنهيَ بعضَ أشغالِ
المنزلِ وأتركُما تتفَقانِ فيما تودَّانِ أن تفعَلانِه في الأيامِ القادمة،
فخرجتُ وبقيتُ وحدي مع أبي، فسألني عن سرِّ اقتناعي بالزَّواجِ
من ريم، فقلتُ له: لو كانَ أمرِي بيدي لما تزوَّجتُ غيرَ إسراءِ
ولو بعدَ مئةِ عام، لكنَّ خطأ ارتكبته يا أبي أخرجَ القَرارَ من يدي
ولم يَبقِ لي غيرَ الألمِ والحسرةِ، ففاجأني حينَ قال: أنتَ تقصدُ ما
تمَّ بينك وبينَ ريمَ عندما كُنتم في الجزائرِ، أليسَ كذلكِ؟، فصعقتُ
من برودهِ، ثمَّ تنبَّهتُ أن من أينَ عرَفَ بالحكايةِ وما حدثَ بيني
وبينَ ريم، فقلتُ له: ومن أخبركَ يا أبي؟، هل حنانُ هيَ من
أخبرتكَ؟، وكنتُ أرى أَنَّهُ منَ المستحيلِ أن تكونَ ريمُ هيَ من
حادثتهِ بموضوعٍ كهذا!، وكانَ عكسُ الذي ظننَّته، فريمُ كانتَ هيَ
من أخبرهُ بالذي جرى،

- وماذا قلتَ لها يا أبي؟

- لم أُصدِّقَ الذي سمِعته، وكانت الصِّفَعَةُ التي تستحقُّها أنتَ من نصيبِها هي.

فأغمضتُ عينيَّ وصرتُ أهزُّ رأسي يَمَنَةً ويسرةً، فقال لي: رَغْمُ فُجِحِ فَعَلِكَ، إِلَّا أَنْ فِيهِ خَيْرًا عَظِيمًا،

- كيف ذلك؟ وأيُّ خيرٍ يمكنُ أنْ أجنبي مِنْ فِعْلٍ كهذا؟

- لطالما رفضتَ الزَّواجَ بريم، وها أنتَ اليومَ تطلبُ زواجها بلسانك، وأختك التي كانت ترفضُ السَّفَرَ مع زوجها، هاهي الآن تطلبُ الإسراعَ به.

يرى أبي في الأمرِ خيرًا جمًّا، ولا أرَ أنا فيه إِلَّا الشَّرَّ والشَّرَّ فقط، كانَ مافعلته باختصارٍ أني في ساعةٍ غفلةٍ، أضعتُ حلمًا بريئًا لفتاةٍ لم يكن لها ذنبٌ في الدُّنيا غيرَ أنَّها أحبَّتني بكلِّ ما أُوتيت، لكِ اللهُ يا حبيبتي!، فقالَ لي بعدَ ذلكَ أبي: قد يكونُ غدًا آخرَ أيامِ الشَّهْرِ الفِضيلِ، فإنَّ كانَ كذلكَ فسندهبُ في العيدِ لنخطبَ لكِ ريمَ ثمَّ نرُفِّكما عندَ نهايةِ الأسبوعِ!

- ألا تأخذُ رأيي في الموضوعِ الذي يَخْصُني أنا في المَقامِ الأوَّلِ؟

- أنتَ مَنْ وضَعنا جَميعًا في هذا الموقِفِ!، فلنَ نستطيعُ تأخيرَ زواجكما حتَّى!

فرآني أُسبِلُ دمعَةً أبي فقال: علامَ تبكُ يا ولدا؟

أبكي نفسي وما صرتُ إليهِ، أبكي حسرةً وألمًا، أبكي حلمَ فتاةٍ وثقت بي فكافأتها بالخيانة، أبهذه البساطةِ انتهى كلُّ شيءٍ؟،

أليس ثمّة حلٍّ آخر؟، فقال لي: دع عنك هذا الكلام يا ولد، كُنّا أحببنا في صِباتنا وانفصلنا غير مرّة، أفتبكي من أوّل مرّة؟، لا يعلمُ أبي عمقَ جرحي وهو يصفُ حبيبتي وحبّ حياتي أنّها "مرّة"، ألهدأ الحد هانت عليكِ إسرائ يا هشام ليصفوها على مسمّعك أنّها "مرّة"!، كم هي مُزعجةٌ هذه الكلمة وكم هي مُوجعة، كآني بهم يصفون حبنا أنّه مجرد نزوة، ويرون النّزوة الحقيقيّة أنّها هي الحقُّ والصّواب.

نحترفُ نحنُ بنو البشر فنّ الخياطةِ والقيافة، فترانا نخيّطُ ما يسترُ سوءاتنا التي لا نُريد ظهورها فقط، ونتعافلُ عمّا نراه على عينيه عُرْفًا ساندًا، فإنّ أخطأ الشابُّ فهذه مجرد نزوةٍ وطيش، أمّا إن أخطأت الفتاة، فمباحٌ دُمها لأنّها دنست الشّرف!، إنّهُ الكيلُ بمكيالين، أليست النّزوةُ التي ارتكبتها ولدكم كانت شريكته فيها ابنةُ أناسٍ آخرين، دفعها طهرها وبراءتها أن تؤمنَ بما يسمونه حبًّا؟.

اتّصلَ بي يوسفُ وقالَ مازحًا: أهلاً بالخائن!، قالها من غير قصد، قالها ليذكري بوّعدي له عندما كنّا في الجزائر، وليسَ يدر المسكينُ ماذا فعلتُ به وبوّعدي ذاك قبلَ حتّى أن نعود، لقد كان ينتظرُ أن أجعله يأسر قلبَ ريمَ بحبّه، لا تحزنُ يا صاحبي، فقد تكونُ ريم شرًّا صرفهُ اللهُ عنك وابتلاني أنا به، فتحجّجتُ له أنّي سأغلقُ المُكاملةَ لأنّ ضيوفًا قد جاؤوا لزيارتنا، لم يأتنا زوّارٌ ولا ضيوف، إلّا أنّ ثقةَ يوسفَ بأنّي لنُ أخذله كانت على قلبي مثل

سوطِ الجَلَادِ، مؤلِّمٌ هو جلدُهُ لك، لكنَّهُ سيَكُونُ أَكْثَرَ إِيْلَامًا إِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا، وَسيَكُونُ قَاتِلًا لو نَظَرْتَ فَرَأَيْتَ مِنْ كُنْتَ تَرَاهُ أَخًا لَكَ هُوَ مَنْ يَجْلِدُكَ بِلِ وَيتَفَنَّنُ فِي جَعْلِ جُلْدَاتِهِ أَشَدَّ وَأَقْسَى، فَحِينَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ مِنْ قَلْبِ أَحَدِنَا، فَلَنْ يَكُونَ لَهَا بَدِيلٌ غَيْرَ الظُّلْمِ، فَتَرَ الظَّالِمَ يَهْرَبُ مِنْ ضَمِيرِهِ بَأَنْ يَزِيدَ ظَلْمَهُ، حَتَّى لَا يَجِدَ نَفْسَهُ عَارٍ أَمَامَ ذَاتِهِ، وَلَا يَجِدُ وَسِيلَةً يَسْتُرُ بِهَا عُرْيَهُ وَعَارَهُ، وَكُنْتُ أَنَا ذَلِكَ الْجَلَادِ الَّذِي يَجْلِدُ قَلْبَ صَاحِبِهِ وَيَصْفَعُ قَلْبَ حَبِيبَتِهِ دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُ بِهِمَا رَحْمَةٌ أَوْ رَافَةٌ، فَانْتَهَيْتُ الْمَكَالِمَةَ مَعَ يَوْسُفَ لِأَتَابِعَ حَدِيثِي مَعَ وَالِدِي، الَّذِي وَدُونَ أَخْذِ رَأْيِي اتَّصَلَ بِوَالِدِ رِيمِ الَّذِي هُوَ شَرِيكٌ لَهُ فِي عَمَلِهِ وَتِجَارَتِهِ وَقَالَ لَهُ: سَنَاتِي لِزِيَارَتِكُمْ مَسَاءً فِي أَمْرِ هَامٍ، فَسَأَلَهُ قَائِلًا: خَيْرًا يَا زَيْدُ مَا الْأَمْرُ؟، فَأَجَابَهُ مُنْتَشِيًا وَالِدِي وَقَالَ: يَبْدُو أَنْ لَا مَفْرَءَ مِنْ مُصَاهَرَتِكَ يَا صَاحِبِي، ثُمَّ ضَحَكَ أَبِي بِفَرَحٍ، ضَحْكَةً أَبِي الَّتِي أَحَبُّ رُؤْيَيْهَا فِي كُلِّ حِينٍ، هَا أَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَرَاهَا الْيَوْمَ، فَانْتَهَتْ مَكَالِمَتُهُمَا بَعْدَ أَنْ اتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَكُونَ مَوْعِدُنَا فِي الْمَسَاءِ عِنْدَ الثَّامِنَةِ، فَهَاتَفَ بَعْدَهُ حَنَانُ أُخْتِي لِتَجِيبَهُ مُعْتَذِرَةً بِأَسْلُوبٍ لَبِقٍ بِأَنَّهَا لَنْ تَتِمَّكَنَ مِنَ الْحُضُورِ، وَلَا وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ لِثَانِيَةٍ حَتَّى أَنَّهُا قَدْ تَحَضَّرَ، فَخَرَجْتُ أَنَا مِنْ مَجْلِسِ أَبِي وَقَالَ لِي وَأَنَا أَوْلَى خَارِجًا: لِنُرْسِلِ إِلَيْكَ وَالِدَتِكَ، فَأَخْبَرْتُهَا بِرَغْبَتِهِ وَصَعْدَتْ لِعُرْفَتِي، فَغَيَّرْتُ مَلَاسِي ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى الصَّحِيفَةِ، خَرَجْتُ وَكُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ يَسْبِقَ انْتِهَاءُ أَجَلِي انْتِهَاءَ سَاعَاتِ دَوَامِي، وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى هُنَاكَ وَجَدْتُ وَرَقَةً كُتِبَ عَلَيْهَا "مَغْلُوقٌ" بِخَطِّ عَرِيضٍ،

وبيانٌ تحت هذه الورقة يحوي نصَّ حكمٍ بغلقِ صحيفتنا ومُصادرةِ
كافةِ أجهزةِ وأدواتِ التَّحرير، ها أنا أخسرُ عملي أيضاً وأوشكُ
على خسارةِ حبيبتي ولا أراني إلاّ قد خسرتُ أصدقائي، كان جيشُ
الاحتلالِ قد قرَّرَ إغلاقَ صحيفتنا بعدَ أن قبضَ على رئيسِ
تحريرنا، هو يُزهقُ الأرواحَ و يبطشُ بالأحلام، ينغصُ كلَّ ما
يُبقينا على قيدِ الحياة، وعلى الرِّغمِ من هذا كلِّه فنحنُ صامدون
وبنصرِ الله الذي وعدنا واثقون، وعلى خُطى شهدائنا وأسرانا
نحن سائرون، فإن ظنُّوا أنّهم قد استولوا على بلادنا فصارت
ملكهم، فهيئاتٌ هيئاتٌ لما يظنون، وإن اعتقدوا أنّ ظلمهم
وغيّهم سوف يكسرنا، فليسألوا أطفالنا الذين يُحرقون ويعدمون
هل مثلٌ هؤلاء يكسرون؟، فعدتُ للمنزلِ ثانيةً عليّ أجدُه في
مكانه لا يزال!، فقد أصلُ إليه وقد علقتُ على مدخله كلمةً مغلق،
وقد أصلُ إليه وقد وصلتُ إليه قذيفةً من إحدى الدبّابات قبلي، قد
يظنُّ من يسمعي إن كان لا يعرفُ حالنا بحقٍ، أنّي أتَهكّمُ أو
أبالغ، والصدقُ أنّي ما قلتُ الحقيقةَ كاملةً، سأدعوكُ أن تسألَ
صديقي رائدَ كم بقيَ من أبنائه الأربعةِ الذين ودَّعوه في الصِّباحِ
على أن يستقبلوه مساءً وقد أحضرَ لهم الحلوى، اسألهُ هل كانَ
أسرعَ في العودةِ أم أنّ صاروخَ جيشِ الاحتلالِ كانَ الأسرعَ في
الوصولِ إليهم، أو إن شئتَ فاسألَ بتولَ هل كانَ والداها يقويان
على رَفَعِ ورقةٍ تسفُطُ منهما فضلاً على أن يحملا بندقيّةً، اسألهما
لماذا تُطلقُ عليهن قذيفةً من مدفعيةٍ فتقتلهما.

وصلتُ منزلي فوجدتُ أبي وأمِّي يجلسان في صالةِ المنزلِ ويتحدَّثانِ بشكلٍ ليسَ بالودِّي كما أحسَّست، فلم تَكُنْ أمِّي تملكُ مثلَ حماسةِ أبي لتزويجي بريم، فألقيتُ عليهما السَّلامَ فردَّ أبي واكتفتُ أمِّي بقول "وعليكم"، فقال لي أبي: أين كنت؟، فأجبتُهُ بأنِّي لم أنسَ وكانَ لديَّ بعضُ العملِ في الصَّحيفةِ، فطلبَ مِنِّي أنْ أصعدَ لأتجهَّزَ قائلاً: اذهبِ وحضِّرِ نفسَكَ يا عريس، فكلُّنا بانتظارِكَ، فصعدتُ وكلمةُ "عريس" ترنُّ بأذني، فما كنتُ أتمنَّى أنْ أنادى بهذا الوصفِ إن لم تَكُنْ إسرائُ هي العروس، فدخلتُ كي أغتسلَ وأبدلَ ملابسِي التي تمنَّيتُ أنْ تكونَ كفنًا بدلَ بدلةِ عريس، ولستُ في ذلكَ أتمنَّى الشَّرَّ والسوءَ لنفسي، لا واللهِ ما تمنَّيتُ إلَّا خيرًا، حينَ تمنَّيتُ أنْ ألبسَ الكفنَ الأبيضَ بدلًا عنِ البدلةِ السوداء، فحينَ ألبسُ الكفنَ، لن أرى دَمعةَ حبيبتي وانكسارها، أما البدلةُ السوداء فسثورتني نظراتِ احتقارٍ منَ الجميعِ وأولهمُ أهلُ بيتي، وسثورتني دَمعةً قاتلةً تنسابُ على خَدِّ حبيبتي، فقمْتُ بالاختسالِ ولبسِ تلكَ الملابسِ التي كانت كسراييلِ القطران، وبالكادِ مشطتُ شعري ثمَّ نزلتُ للأسفلِ، فانتفضَ منْ مكانه أبي حالَ رؤيتي وقال: أذاهبونَ نحنُ كي نخطبَ أم تُرانا ذاهبينَ لرحلةِ شواء؟

- هذا ما أحسنه ولا أجيد غير ذلك.

- أنت تظهُرُ بهندامٍ أجملَ حينَ تذهبُ للصَّحيفةِ كلَّ يوم، ألا

تدري أنك ذاهبٌ كي تخطب؟

- أعلمُ ذلك، وهذه طبيعتي، لهم الخيارُ وإن شاؤوا
فليرفُضوا طلبي، لا مشكلة لدي.

فخرجنا من المنزلِ قاصدينَ منزلَ ريم، وكنتُ من يقودُ السيَّارة،
وما كانَ يَمْنَعُنِي من ارتكابِ حادثٍ مُميتٍ غيرَ أنَّ أبي وأمِّي كانا
بِرفقتي، فوصلنا منزلَ ريم فاستأذنا بالدُّخولِ فَفَتَحَ البابَ والدُّها
ورحَّبَ بنا، فما رأيتُه واللهِ إلا كما مُغسِلِ أمواتٍ يُرحِّبُ بأحدِ
الموتى، فدخلنا إلى منزلهم فأعطيتُ ريمَ طبقَ الحلوى الذي أصرَّ
أبي على أن نشتريه وأقدمه لها بنفسي، ففعلتُ ثمَّ جلسنا معهم
وبدأتِ المجاملاتُ تنهمرُ من والدي ووالدها، إلى أن فتحَ أبي
الموضوعَ الذي جننا لأجله، فبدأتُ تتصنَّعُ ريمُ الخجلَ الذي هو
منها براء، فأجابنا بالقبولِ والدُّها وأخبره أبي بأننا مستعجلون
في الزواجِ وإقامةِ العرسِ، على أن يكونَ كلُّ ما تطلبه العروسُ
مُجابًا على الفورِ، فظنَّتُ صامتةً أمِّي طوالَ تلكَ الجلسةِ التي كانَ
ظاهرها ما يكونُ لكلِّ شابٍ بأن تكونَ فرحةً وحلمًا قد تحقَّق، أمَّا
في باطنها فقد كانتَ جلسةً حكمٍ بالإعدامِ بالنسبةِ لي.

وقبلَ أن تنتهيَ جلستنا حدِّدوا موعدَ الزَّفافِ عندَ نهايةِ الأسبوعِ،
ما يعني أنه لم يبقَ سوى سِتَّةِ أيَّامٍ فقط، ثمَّ سألوا ريمَ أينَ تحبُّ
أن يُقامَ الزَّفافُ، فقالتُ: أتمنى أن نُقيمهُ في فندقِ الفصولِ
الأربعة، كلُّ كلمةٍ كانتَ تنطقها كانتُ تُدْمي بها قلبي، فمن كانتَ
تُلحُّ أن نُقيمَ زفافنا في هذا الفندقِ كانتَ إسراءُ، ولا أدري هل
كانتَ تهزأ أم تسخرُ مِنِّي وتذكِّرني بقبيحِ فعلي ريم!

هي تريد أن تسلب من إسرائ كل شيء، فقد سلبت حبيبها
وسلبت فرحتها وحلمها، حتى مكان الزفاف الذي كانت تتمناه
حبيبتي آلت إلا أن تحرمها من الفرح فيه، لا أدري هل هي
صديقتك أم هي ألد أعدائك لتفعل بيها كل هذا!، فأجاب أبي ريم
بالموافقة وقال لها: سيكون فستان زفافك الأبيض هدية مني من
أبي دار أزياء تختارينها يا حبيبتي.

ويلي، أما كانت إسرائ أحق بهذا كله؟

هي أحق، أنا الذي لا أستحقها ولا أستحق حبها.

خرجنا بعد ذلك من عندهم بعد أن هتؤوا بعضهم ثم ذهبنا للمنزل،
وكان سعيدا والدي بهذا الزواج أيما سعادة، ولم تبد أمي فرحة
تذكر، كانت تنظر إلي فقط نظرات احتقار ما كنت أستحق غيرها.
تم كل هذا وحبيبتي واثقة من حبي لها، ولم تعلم أنني نقضت حبها
دون أدنى اهتمام، تم كل شيء ولم يكن أحد يشعر بالنار التي
تشتعل في قلبي، متأكد كنت أن أمي تحس بناري، لكنها فضلت
أن تنظر إلي وتتركني أحترق بهذه النار كنوع من العقاب، فقد لا
تكون العقوبة ضربة بسيف ولا جلدة بسوط، قد لا تكون أيضا
بصراخ أو حتى عتاب، يعني عن كل ذلك شيء يدعى التجاهل،
وعاقبني بهذه الطريقة بالأمس قلبي، وهامي أمي تعاقبني بها
اليوم، أنا نادم ولا أراه سينفعي هذا الندم، أ بك الدموع ولا أظنها
تشفع لي هذه الدموع عند أحد من بني البشر.

ذهبتُ لأنامَ لِترافقتي صورةً حبيبتِي، كنتُ أختلقُ معها حديثًا
افتراضيًا حاولتُ به تضييدَ جِراحي، ولكنَّ إن ضمّدتُ جُروحي
هذه الضّمادات، فهل ستفني بالغرضِ لجرحِ إسرائِ الغائرِ؟، لا أظنُّ
ذلكَ، فَطعنتي لها في مقتل، فلنْ تنفعها بعدُ ضِمادةٌ ولنْ ينفعها
دواء، فشربتُ ما تبقى من شريطِ المنومِ، ولا أدري أكانتُ أربعَ
حبّات أم كانتُ أكثر، فقد كانت يداي ترتجفان وانا أشربها، وكانَ
بصري زائغًا، كائِي بخمسٍ وعشرين سنةٍ مضت تمرُّ الآنَ أمامَ
عيني، كانت ذكرياتٍ مؤلمةً كلّها وكانت على شكلِ مواقفٍ فرحت
فيها إسرائِ بأفعلٍ فعلتها، لكنّ وكما قيل: "ليسَ بعدَ الكُفرِ ذنُبٌ"،
فليسَ بعدَ تلكَ الخيانةِ ذنُبٌ، لقد كانت خيانتِي لها كُفْرًا بكلِّ معانِ
الحبِّ التي اتَّفقتَ عليها العالمُ من بدءِ الخليقة، كانت كُفْرًا أيضًا
بكلِّ معانِ الوفاءِ، فكمَ عهدًا قطعتُ لحبيبتِي وكمَ عهدًا قطعتُهُ من
أجلها، ألم يوصني بها أخوها قبلَ استشهاده؟، ألم تقل لي أمها
قبلَ رحلتنا للجزائرِ بأنّها ما كانت لتقبلَ بسفرها لو لم أكن معها،
ألم تُبدِ لي حاجتها إليّ حينَ قالت: "يا هشام أنا ضعيفةٌ بدونك"،
لم أكن أستحقُّ أنا هذه الثِّقة، فنمتُ بعدها من أثرِ الدواء، وصار
نومي كما شاشةٌ سينما سوداءَ مهجورة، فلم يعد هناكَ حلمٌ بجنّةٍ
ولاحتي كابوسٌ لسقوطٍ في نار، فقدَ فقدَ كلُّ شيءٍ في حياتي
طعمهُ ونكهته، ولم أعد أشعرُ بغيرِ الندَمِ، ندمٌ على كلِّ فعلٍ أفعله
حتّى لو كانت ابتسامَةً عابرةً تُقاطعُ حزني.

استيقظتُ ليسَ لِأَيِّ نِلْتُ ما يكفيني مِنَ الرَّاحَةِ، لَكِنَّ استيقاظي كانَ لِأَنَّ أَثَرَ المُنُومِ بدأ يَزُولُ مِن جِسمي، فنزلتُ مِن عُرفتي ثمَّ نظرتُ إلى هاتِفِي لِأَجْدَ أَكثَرَ مِن خَمسِينَ رِسالَةً كانتَ كُلُّها تَهانٍ وبِشائِرَ بَعِيدِ الفِطْرِ الَّذِي يَتَحَيَّنُ الجَمِيعُ إِعلانَ ثُبوتِهِ بَعْدَ الإِفطارِ، كُنْتُ أَفرحُ بِهذِهِ التَّهانيِ دائِماً وَأَجهدُ بِالرَدِّ عَلَیْها، لَكِنِّي لَمْ أَفرحُ هَذِهِ المَرَّةَ كَمَا هِيَ عاداتي، فَقَدْ كانتَ إِسراءُ هِيَ صاحِبَةُ الرِسالَةِ الأُولى وَالتي اِختَمَمْتُها بِقولِها: قَد يَأْتِي العَامُ القَادِمُ وَنَحنُ نَعيشُ تَحْتَ سَقفٍ واحِدٍ وَكُتِبَتْ بَعْدَها "حَبيبُكَ إِسراءُ"، وَما كانتَ تَعلمُ بِأَنَّ حَبيبِها ألقى بِها وَبِحَبِّها فِي مَهاوِ الرَّدَى، فَقَدْ أَصَبَحَ حَبِّي لَها خِيانَةً لِزَوجَةٍ لَسْتُ أَرغِبُها بَلْ وَلَسْتُ أَطيقُها، هِيَ ساعَاتٌ فَقَطْ سَيكونُ لِي فِيها الحَقُّ بِأَنَّ أَحَبَّكَ، سَتَبُذِّينَ أَنتِ يا إِسراءُ بَعْدَها هَذا الحَبِّ!.

عَلاً فِي الكونِ صَوتُ أَذانِ المَغربِ مُعلَناً نَهايةَ آخِرِ أَيَّامِ الصِّيامِ لَيكونَ العَيدُ فِي اليَومِ التَّالِي، وَكَمَا كُنَّا اتَّفَقنا مَعَ وَالِدِ رِيمَ بِأَنَّ تَكونَ فِي أوَّلِ أَيَّامِ العَيدِ خَطبَتي وَابنَتَهُ، فَلَم تَكنَ خَطبَةً صاحِبَةً، وَلَم نَدعُ إِلِیْها غَیرَ أَقربِ المَقرَّبِینَ، فَقَد كانتَ هَذِهِ رَغبَتي بِحَجةِ أَنِّي أدَّخِرَ الفَرحَةَ الكَبریَ لِتَكونَ فِي یومِ الزِّفافِ، وَلَم یبقِ إِلَّا أنْ نَلبسَ دَبلةَ الخَطبةِ، فَأَلبسُها دَبلتَها وَتُلَبِّسُني دَبلتَی، فَفَعَلتُ حَركةً دَنيئَةً رِیمَ حَینَ أَمسَکتُ کَفِّي وَسَحَبتِ الدَبلةَ الَّتِي أَلبسُها وَالتي تَعرِفُ هِيَ بِالأُخْصِ أَنَّها تَخْصُ إِسراءُ هَذِهِ الدَبلةَ، قَنزَعتَها مِن إصْبَعِي وَأَلقَتها أرضاً ثُمَّ دَاسَتَ عَلَیْها، لَم یَنتَبهَ لَهَذا المَشهدِ

غيري ولم يعلم أحد رمزيته، كأني بها تقول لي: هل ترى حبك و
حلم حياتك الذي تدعي، ها أنا أضعه الآن تحت قدمي!.

انتهت حفلة الخطبة تلك ثم أكملت وأبي وأمي سهرتنا في منزل
ريم، ولم يزد ما قلته طوال ثلاث أو أربع ساعات عن قول "إن
شاء الله خير"، فلم أكن أعني ما يقولونه، لم أهتم له ولم ألق له
بالأ ما يتحدثون به وما يخططون له، فأوصوني بسرعة طباعة
بطاقات الدعوة لحفل الزفاف، حتى يتمكنوا من توزيعها على
المدعوين، وكنت متخوفاً أنا من خطوة كهذه، فقد يصل الخبر
لإسراء من أحدهم!، كان مضحكاً خوفاً هذا، فانا أرفأ لغيرها
ولا أريد للخبر أن ينتشر!، أي جرح غائر سيكون من طعني
هذه، وأي ألم سيصيب قلبها حين تراني عريساً لريم.

أيام ستة كانت تفصلنا عن يوم المأتم أو سمه إن شئت
عرساً، فطبعت البطاقات التي طلبوا في يوم أسود حالك
السواد، فأعطيت جزءاً من البطاقات لأهلي والباقي
أعطيته لريم وأهلها، ولم أحتفظ لنفسي ولو بنسخة حتى،
فلست أرب في دعوة أحد، فمن سادعوهم قد يظنوا بأن
العروس إسراء!، ولا أدري ما سيكون وصفهم لي حين
يروا اسم ريم في بطاقة الدعوة!، هل سينعتوي بالحقير أم
بالنيم أم المخادع، لو كنت مكانهم في إطلاق الوصف لما
كفنتي كل هذه الأوصاف، وقبل موعد المأتم بيومين جاءت
لمنزلنا إسراء دون سابق موعد، فدخلت مكتبي ضاحكةً

لثريني بطاقة الدعوة وتقول لي: ما هذه المزحة

السخيفة؟، هل تظن أنني ساذجة كي أصدق شيئاً كهذا؟

كانت تتكلم حبيبتى وتضحك وعيناها مليئتان بالدموع، فردة فعلي حين رأيت البطاقة لم تكن بالتي كانت تتوقعها، واقتصررت على إخفاضة ذليلة لرأسي، فقالت بعدها بصوتٍ دبّ فيه خذلانٌ من سكنوا هذا الكون ومن سيسكنونه يوماً: ليست مزحةً إذاً؟، لماذا يا هشام؟

ماذا فعلت لك كي تفتلني بهذه الطريقة؟

هل تعاقبني لأني تعلقت بك وحدك دون البشر؟، ألم تعدي أنك لن تتخلى عني يوماً؟

أنا لا أصدق، لست أنت هشام الذي أحببته، لست حبّ عمري، أبهذه السرعة سوف تنزوجهما؟، وقد أفنيت عمري بانتظار يوم زواجنا!، كم كنت حمقاء عندما صدقتك بتقمص الروايات التي هي محض خيالٍ فقط، هل أنا ساذجة لهذا الحد؟، أم أنت بارع في التمثيل لهذه الدرجة!، ألسنت حبيبتك إسرائ؟، أتهون عليك دمعتي أن تسقط أمامهم!، لقد صعدت بي إلى سفح جبلٍ أسميته الحب، فالقيت نفسي ظانّة أنك ستتلقني ونمضي على حصانك الأبيض، هذا الحصان الأسطوري الذي تحلم كل فتاة بفارسها يخطفها على صهوته، ألقىت نفسي وفي صدري ثقةً بوسع الكون، لأستيقظ من غفلي في قعرٍ وادٍ سحيقٍ ملقاةً على وجهي، أخبرني بربك لماذا فعلت ذلك بي؟، كانت تقول الكلمات ثم تتبعها بسكات،

فتسكتُ مرةً كي لا أسمعَ صليلَ دموعِها، وتسكتُ في أخرى أملاً
أن أرفعَ عينيّ مُبتسماً لها وأقول: هلْ جُننتي أيتها الحمقاء!، ثمّ
تابعتُ قائلةً: بِمِ آذيتُكَ لتفعلَ بي ذلكَ بهذهِ القسوةِ، كم أنتَ قاسٍ يا
هشام، لماذا أرسلتُم لي هذهِ الدَّعوةَ؟، أتريدُني أنْ أحضُرَ زفافَكَ
الذي ستَجتمعُ فيهِ على قلبي طَعتان، طعنةُ حبيبي الذي أحببتُ،
وطعنةُ صديقتي التي راعيتُ، أينَ ذهبتِ وعودُك وعُهودك، أهذا
وعدك لساجدٍ قبلَ أنْ يموتَ؟، مُباركٌ لكُما هذا الزَّواجُ، وأعدك
أنِّي سأحاولُ تلبيةَ رغبتيكما في حضورِ الحفلِ، كم كانَ حُلْمي
بريئاً، وها أنتمُ تُقيمونَ زفافكم في المَكانِ الذي كنتُ انا اخترتُهُ
ليُقامَ فيهِ زواجي بك!، هل منْ مفاجآتٍ أخرى يا حبيبي، أرجوكُ
أخبرني أرجوكُ، فوقفتُ أنا ودموعي تَففُزُ من قلبي، ما كانت
تقفُزُ من عينيّ، فلمْ تتمالكني أقدامي فجلستُ على رُكبتَي مُطاطناً
أمامها رأسي وقلتُ: أقسمُ لكِ يا إسرائِ أني لمْ أحبَّ غيرك يوماً،
أنا لا أستطيعُ أنْ أخبركِ بسببِ ما حصل، لكن تأكّدي أني مُجبرٌ
على هذا كلِّه، ويشهدُ اللهُ أني تمنيتُ الموتَ قبلَ أنْ يحصلَ هذا
الذي حصل، لمْ أبْحُ بجُرمي الذي أوداني إلى ما صِرتُ إليه، فلمْ
أكنْ بحاجةٍ لأنْ أصغُرَ بعينها أكثرَ من ذلك، فقالتُ: مُباركٌ لكُما
مرةً أخرى وشكراً لكِ يا حبيبي، ثمّ خرجتُ منَ المنزلِ فلحقتُ بها
لتقطعَ الشارعَ المقابلَ لمنزلنا دونَ أنْ تنظرَ إن كانت سيارَةُ آتيةً
بذاك الشَّارعِ أم لا!، لمْ تُعدْ تكثرُ لشيءٍ حبيبتِي آنذاك!، حتَّى
عندما كانت تنزعُ حبيبتِي من قلبها خنجري المسموم قالتُ لي:

"يا حبيبي"، لم يُطعها لسانها أن تَسُبَّنِي ولم يرضَ قلبها أن يستسلمَ رِغْمَ ضعفه ووصفتني بحبيبي، وأنا لا أستحقُّ هذا الوصفَ أبداً، لكنْ لِمَاذَا أرسلتَ ريمَ لإسراء تلكَ الدَّعوة، إن لم تراعِ حبنا أنا وإسراء، كيف هانتَ عليها صداقتها التي تدَّعي، فلم ترقب ريمَ بمشاعرنا إلا ولم ترقبَ ذمَّة، ولن أستطيعَ لوَمَّها فيما فَعَلت، وصعبَ عليَّ مُعاتبَتُها، فاللَّومُ والعِتابُ تكونُ فقط لشخصٍ تحبُّه بشكلٍ من الأشكالِ سواءً كانَ صديقاً أو حبيباً، وريمُ التي سأترَوِّجُها بعدَ يومينَ ليستَ حبيبةً وبريئةً الصداقة من أمثالها.

فبدأً بعدها هاتفي يُنذِرُ بمكالماتٍ كثيرةٍ ورسائل، فالدَّعاوى التي أرسلتَ، جَعَلتُ كلَّ من يقرأها يتعجَّبُ ويتساءل، فزُملائي في العملِ فاجأهم الخبرُ وسرعتُه، وزُملاؤنا في الفرقةِ تعجَّبوا من أن العروسَ ريمَ وليستَ إسراء، وأقرباؤنا في عائلةِ الماضي تساءلوا لِمَ لم نأخذَ رأيهم في موضوعِ كَهذا.

يكونُ العريسُ مُتَشوِّقاً ليومِ عرسِهِ ولِلقاءِ زوجته، لكنِّي كنتُ عكسَ ذلك، فلا أنا مشتاقٌ لرؤيةِ ريمَ ولستُ متلهِّفاً لِلقائِها، فجاءَ يومُ العرسِ وكانَ أبي هوَ المُوَجِّهَ لي في كلِّ ما أفعل، فلو لم يدفعني للاهتمامِ بمظَهري، ربَّما كنتُ ذهبتُ بملابسِ النَّومِ! جاءت يومها أختي حنانَ ومعها زوجها وطفلها وكُنْتُ أظنُّهم قادمينَ لحضورِ الزِّفافِ، وإذا بهم جاؤوا مُودِّعينَ لنا كي يُسافروا للبرازيلِ في رحلتهمُ التي ستَنطَلِقُ بعدَ ساعاتٍ ثلاثة، فودَّعُوا

والديّ بالقبْلِ والأحضانِ ثمَّ جاءَ دوري فقبَّلني واحتضنني نبيل،
ثمَّ جاءت حنان فهَمَّمتُ باحتضانها فابتعدت وقالت: هَلَّا جَلستَ
معي في مكتبك قليلاً، فذهبتُ وجلستُ معها، فبادرتُها بالكلامِ
وقلتُ: كُنَّا نتمنى لو جَلستِم معنا فترةً أطول، فقاطعتني وقالتُ
بصوتٍ حازمٍ مُتهكِّمٍ: كُفَّ كُفَّ عن هذا النفاق، أنا كُنْتُ أكرهُ
السَّفَرِ وكنتُ أتركُ زوجي لأتِي أكرهُ فراقك، وها أنا اليومُ أستعجلُ
به لأتِي لم أعد أُطيعُ لقاءك.

- الله يُسامح يا حنان، ألا تسامحين أنتي؟
- الله يُسامح لأنَّهُ الله الغفورُ الرَّحِيمُ، لستُ أنا بعظمةِ الله يا
أُخْرَق.

- ألا تسامحيني من أجلِ هشامِ الصَّغيرِ؟
- أبعدِ ولديّ الطَّاهرَ عن وِجْهِكَ وَجاسَتِكَ، كنتُ سأنسى
إخبارك أننا قُمنَا بتعديلِ اسمِ طفلنا فبدلَ أن يكونَ هشامًا
أصبحَ هاشمًا وشتانَ بينَ الثَّرى والثُّريا.

خَرَجْتُ بعدها من مكْتبي وبقيتُ مُتسمِّراً أنا على كرسيي، أفكَّر
في نفسي ومن أخسرَ يوماً بعدَ يومٍ، وماذا أخسرَ أيضاً، فقدُ
خسرتُ احترامَ الجميعِ أيضاً وكانَ أهلي أولَ من فقدتُ احترامهم.

لبستُ ملابسِي، وذهبَ والدي ليُحضِرَ العروسَ من منزلها ثمَّ
ذهَبنا لقاعةِ العُرسِ، فجلسنا على الكراسِ المخصَّصةِ للعِرسانِ
وبدأَ المدعوونَ يحضرونَ، وبدأَ ال DJ بتشغيلِ الأغاني، كُنْتُ

أَجْلَسُ مُتَرَقِّبًا مَفَاجَاتِ هَذَا الْحَفْلِ اللَّعِينِ، وَكَانَ يَرْقُصُ مَنْ يَرْقُصُ
وَيَغْنِي مَنْ يَغْنِي، وَكُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَاضِعًا يَدِي عَلَى خَدِّي إِلَى أَنْ
صَافَحْتُ أَنْفَاسِي رَائِحَةَ الْيَاسْمِينِ الْمَعْهُودَةِ، فَالْتَفَتُّ نَحْوَ الْبَابِ
لَأَرَى مَالِكَةَ قَلْبِي تَدْخُلُ، وَكَانَتْ تَسْنُدُهَا رُوَيْدَةً عَنْ يَمِينِهَا، لَمْ تَكُنْ
عَلَى مَا يُرَامُ حَبِيبَتِي، فَجَلَسْتُ إِسْرَاءَ وَرُوَيْدَةَ فِي زَاوِيَةِ الْقَاعَةِ،
وَلَيْسَ جُلُوسُهُمَا سَبَبُهُ الْحِرْصُ عَلَى حُضُورِ حَفْلِنَا الْبَائِسِ، لَكِنَّ
الْحُزْنَ الَّذِي تُخْفِيهِ إِسْرَاءُ سَلَبَهَا الْقُدْرَةَ عَلَى الْوُقُوفِ، كَانَتَا
تَجْلِسَانِ وَإِسْرَاءُ تَبْكِي، كَانَتْ تَبْكِي حُلْمَهَا الضَّاعِ، وَيَلَّ قَلْبِي كَيْفَ
أَحْتَمَلُ دُمُوعَهَا هَذِهِ وَقَدْ كُنْتُ أَحْرَسُ عَيْنَيْهَا مِنْ دَنْسِ الدُّمُوعِ،
أَيُّ عِقَابٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَشْفِي غَلِيْلِي مِنْ هَوْلِ جَرِيْمَتِي فَاقْتَرَبْنَا بَعْدَ
لِحْظَاتٍ لَتَهْنِئَتِنَا فَتَوَجَّهْتُ إِسْرَاءَ بِالْكَلَامِ لَرِيْمٍ فَقَالَتْ: مُبَارِكٌ لَكَ يَا
رِيْمَ، لَمْ يَخْطُرْ لِي فِي يَوْمٍ أَنْ تَفْعَلِي أَنْتِ ذَلِكَ بِي، لِمَاذَا يَا رِيْمَ؟،
لِمَاذَا يَا أُخْتِي؟، لِمَاذَا يَا صَدِيقَتِي؟، فَأَجَابَتْهَا رِيْمٌ أَنْ شُكْرًا لَكَ
وَتَفْضُلِي بِالْجُلُوسِ، وَتَنَاوَلِي عَصِيرًا لَتَهْدَأَ أَعْصَابُكَ يَبْدُو أَنَّكَ
مُتَوَثِّرَةٌ، فَفُوجِئْتُ الْمَتَعَجَّرَفَةَ رِيْمَ بُرُوَيْدَةَ تَمْسِكُ نَحْرَهَا قَائِلَةً:
اصْمِتِي الْآنَ أَيَّتُهَا الْأَفْعَى وَإِلَّا قَتَلْتُكَ، فَأَعْرَضَتْ عَنَّا حَبِيبَتِي بِأَكْبَى
بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ سَمِعَهُ كُلُّ مَنْ فِي حَفْلِنَا، وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَبْكِي إِسْرَاءُ
وَتُحَاوَلُ التَّخْفِيفَ عَنْهَا رُوَيْدَةُ إِذْ دَخَلَ إِلَى الْقَاعَةِ مَادُونُ عَقْدِ
الْأَنْكِحَةِ ، فَجَلَسْتُ عَنْ يَمِينِهِ وَجَلَسَ عَنْ يَسَارِهِ وَالذُّرِيْمُ ، فَبَدَأَ
الْمَادُونُ عَقْدَ الْقِرَانِ وَمَا بَقِيَ حَتَّى يَتِمَّ ذَلِكَ الْعَقْدُ غَيْرَ كَلِمَةٍ
الْمُؤَافَقَةِ يَسْمَعُهَا الْمَادُونُ مِنْ رِيْمَ ،

- هل توافقين يا ابنتي على أن يكون هشام زيد الماضي زوجًا لك؟

فوقفت أمام الشيخ وكنت على يسارها وقالت: لا، لست موافقةً يا شيخنا، وخلعت طرحة العروس عن رأسها وألقته فوق العقد الذي كان يُعده الشيخ، فتوجهت لي بالحديث وقالت: سبق وقلت لك أنني لا أتشرف أن تكون لي زوجًا، صفعتي قبل خمسة عشر عامًا على خدي من أجل حبيبك، وها أنا اليوم جعلتك تصفع قلبها من أجلي، وسأزيدك من الشعر بيتًا، ففحص الحمل الذي رأيت لا يخصني والحمد لله!.

أردت أن أقف مواجهًا لها، لكن كلماتها تسببت لي بصدمة عجزت معها عن الحركة، وأصيب بشللٍ لساني فلم يكن قادرًا على النطق بكلمة، فحدث بنظري نحو إسرائ ورويدة لأجدهما أمامي تقفان والشّماتة تقطر من عيني رويدة وهي تقول لإسراء: لا تحزني يا حبيبتي فقد أخذ لك الربُّ حقك، كانت شامتةً رويدة وهي تمسك بذراع إسرائ التي كنت أحسها ستسقط مغشياً عليها، لكن رويدة أخذتها وقالت: تعالي كي أوصلك لبيتك يا حبيبتي فقد انتهت هذه المسخرة ثم خرجت من القاعة، ولم يبق إلا بعض المدعويين الذين كان بعضهم متعاطفًا، بالأخص من لم يكن يعرف حكايتنا بالتفصيل، والباقي كانوا مستمتعين بالمسرحية التي يُشاهدون، ومُصرون أن يكملوها حتى تُغلق الستارة، انتهى كل شيء ولم يبق أحدٌ في القاعة وبقيت وحدي لا يساندني أحدٌ أو

فذهبت مرتعشًا إلى ذاك القسم، وكنت خائفًا أن يصدّق الخبر، فإن يصدّق ستتوقف آله الزمن، ولا أظنّها سوف تشرق الشمس ولن يضيء القمر!، فسألت موظّف الاستقبال في القسم عن مريضة باسم إسراء هاتي، فأعادَ على مَسْمَعِي أنها وصلت المشفى مُتَوَقِّية، قد تَأَكَّد الخبر، ولم يعد أحدٌ مُهتَمًّا لموتِ حبيبتي، صار الذي يُهَمُّهم الآن أن تُوارى التراب فقط، وكما يقولون في حيتنا: " ليس إحساسٌ من يُجلد كمثل إحساسِ شخصٍ يعدُّ الجلديات فقط"، فهم يؤدّون عملهم الروتيني، أمّا أنا فلا أملك غير البكاء بكل ألوانه، فمنه بكاء الندم ومنه نوعٌ للحسرة وآخر سببه الألم ناهيك عن الذي يكون الحزن سببه، وقد قيل في الأثر "لو كان الفقر رجلاً لقتلته"، وأقول أنا: لو أن الحزن كان رجلاً لقتلته، وكذلك لو كان امرأة ما كنت أراني سوف أرحمها!، فذهبت إلى الطّبيب مُستفسرًا عن الذي حدث، فأخبرني أنّه كان المناوب عند وصولها للمشفى، وأخبرني أنّ دوريةً صُهيونيةً أطلقت النار عليها حين رأوها تمشي فوق "جبل الطويل" في وقت متأخر، فتوجّسوا خيفةً منها حين جلست على الأرض وصارت تضربها بيدها، فظنّوا أنّها تزرع لهم لغماً أو عبوةً متفجرة.

لماذا صعدت لذلك الجبل يا حبيبتي؟، هل صعدت لتجلسي قرب النصب الذي أقمته وإياك في المكان الذي استشهد فيه ساجد؟، أم صعدت لتخبريه بما فعلته بك؟، أم صعدت كي تكونَ روحك قريبةً من روحه؟، هل صعدت لتموتي يا حبيبتي؟، ألم تجدي عقوبةً

أَقْسَى مِنْ مَوْتِكَ تَعاقِبِينِي بِهَا، فَأَعْطَانِ الطَّبِيبُ شَهَادَةَ الْوفاةِ
لأَجْدَ مَكْتُوبًا فِيهَا أَنَّ سَبَبَهَا كَانَتْ سِتَ رِصَاصَاتِ اسْتَقْرَتْ فِي
قَلْبِهَا فَأَوْقَفْتَهُ عَلَى الْفُورِ، لَمْ يَدْرُوا بِأَنَّ قَلْبَ حَبِيبَتِي الَّذِي كَانَ
يَرْفُلُ كَطَيْرٍ ذَبِيحٍ يُعَالِجُ السَّكْرَاتِ مَا كَانَ بِحَاجَةِ لِرِصَاصَاتِهِمْ
السَّتَةَ كَيْ تُجَهَّزَ عَلَيْهِ، كَانَتْ تَكْفِيهِ شَطِيبَةً صَغِيرَةً فَقَطًا، فَمَشَيْتُ
بَعْدَهَا فِي طُرُقَةِ الْمَشْفَى وَلَسْتُ أَدْرِي أَأَحْزَنُ لِفَقْدِ حَبِيبَتِي أَمْ أَفْرَحُ
لأنَّهَا شَهِيدَةٌ!، فَأَخَذْتُ شَهَادَةَ الْوفاةِ مِنْهُمْ وَأَوْكَلُوا سَيَّارَةَ إِسْعَافِ
لِإِيصَالِنَا لِلْمَقْبَرَةِ، فَأَخَذْنَا جُثْمَانَهَا وَتَوَجَّهْنَا لِلْمَقْبَرَةِ، فَتَرَكْتُ الرُّكْنَ
الَّذِي أَحْمَلُهُ مِنَ النَّعْشِ لِشَابِّ بَجَانِبِي وَقَصَدْتُ حَارِسَ الْمَقْبَرَةِ،
وطلَبْتُ مِنْهُ الْإِذْنَ بِدَفْنِهَا هُنَاكَ، فَقَالَ لِي: الْإِحْتِلَالُ يَأْخُذُ مِنْ أَرْضِنَا
آلَافَ الدَّوْنِمَاتِ دُونَ إِذْنِ، أَفَبِخُلِّ عَلَى ابْنَتِنَا بِحَفْنَةِ تَرَابِ ثُورِي
جَسَدَهَا الطَّاهِرِ؟

- انظُرْ خَلْقَكَ لَقَدْ صَلُّوا عَلَيْهَا وَقَامُوا بِالْوَجِبِ.

فَذَهَبْتُ مُسْرِعًا إِلَيْهِمْ وَكَانُوا قَدْ أْتَمُّوا كُلَّ شَيْءٍ، كَيْفَ قَامُوا بِهَذَا
كَلِّهِ فِي عَشْرِ دَقَائِقَ فَقَطْ غَبَّتْهَا عَنْهُمْ!، يَبْدُو أَنَّهَا عَقُوبَةٌ لِي مِنْ
اللَّهِ بِأَنَّ لَا أَحْمِلُ نَعْشَ إِسْرَاءَ وَلَا أُصَلِّيَ عَلَيْهَا وَلَا أُوَدِّعُهَا فِي
قَبْرِهَا وَلَا أَمْسُ تَرَابَهُ حَتَّى، فَوَقَفْتُ عَلَى شَفِيرِ قَبْرِهَا وَكَتَبْتُ أَيْبَاتًا
بِدُمُوعِ عَيْنِي عَلَى شَاهِدَتِهِ قُلْتُ فِيهَا:

أَجَاءَ الْمَوْتُ يَا إِسْرَاءُ أَمْ جَاءَتْ

سِهَامُ الْحُزْنِ تَكْوِينِي وَتُبْكِينِي

أَجَارَ الْمَوْتُ يَا إِسْرَاءُ أَمْ جَارَتْ
عَلَيْكَ الدَّارُ يَا شِعْرِي وَتَلْحِينِي
سَأَهْدِيكَ سَلَامِي كُلَّمَا اشْتَأَقْتُ
لِكِي رُوحِي فَسَلِّهَا وَسَلِّينِي
سَأَهْدِيكَ كَلَامَ اللَّهِ مُشْتَأَقًا
لَعَلَّ اللَّهَ فِي الْأَوْزَانِ يُغْنِينِي
وَعَلَّ الْمَوْتَ إِنْ هَلَّتْ لَهُ بُشْرَى
كَوَجْهِ الْبَدْرِ فِي الْجَنَّاتِ تَأْتِينِي
فَبُشْرَاكِ أَيَا إِسْرَاءُ وَلْتَهْنِي
فَبَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْفِرْدَوْسِ تَلْقِينِي
وَبُشْرَاكِ فَيَوْمَ الْحَشْرِ أَلْقَاكِ
سَأَرْمِيكَ بِأَحْضَاتِي وَتَرْمِينِي
وَرَبِّ الْعَرْشِ يَا إِسْرَاءُ لَنْ أَخْشَى
سِوَى رَبِّي وَإِنْ ذَلَّتْ سَلَاطِينِي
وَإِنْ عَادُوا وَسَادُوا سَوْفَ لَنْ أَرْضَى
سِوَى أَرْضِي وَفِيهَا الْمَوْتُ يُخِينِي
فَلَا أَرْضِي سِوَى أَرْضِ بِهَا الْأَقْصَى
وَيَبِقُ اسْمِي أَنَا فِيهَا **فَلَسْطِينِي**

كُتِبَتْ أُبْيَاتِي ثُمَّ هَمَمْتُ بِنَفْضِ التُّرَابِ وَالْوَقُوفِ، إِلَّا أَنْ يَدَ أَحَدِهِمْ
وَكَرْتَنِي فَانْكَبَبْتُ عَلَى وَجْهِ، وَعِنْدَمَا رَفَعْتُ رَأْسِي لِأَرَى مَنْ

الذي فَعَلَ ذلِكَ بي فاذا بها والدةُ اسراءَ تَحْثُو الثُّرابَ فوقَ رَاسي
وتصرخُ بوجْهي قائلةً: فَمَ لا بارِك اللهُ فيكَ وإيَّاكَ أنْ أراكَ تَقْتَرِبُ
مِنْ قَبْرِ ابْنَتِي يا حَقيرَ حَتَّى لا أَقتَلَكَ، أَتَفْهَمُ؟.

جزيل الشُّكر

إلى الإنسان الذي كان سبباً في كلّ ابتسامةٍ

ارتسمت على شفاهي

وآمن بمقدرتي عندما راهنوا جميعاً على فشلي

إلى والدي الغالي

الدكتور/ سهيل حسان

ختامًا.....

شهادة

إلى كل من قرأ كتابي اليوم أو قد يقرأه غدا أو
بعد ألف عام،

أنا أشهدكم أنني أحب الله الواحد الأحد

سنلتقي يوماً وسأطلب منكم أن تشهدوا لي بها.

محمد سهيل حسان

